

جَامِعَةُ بَيْرُوتِ الْعَرَبِيَّةِ



تَارِيخُ الْبَحْرِ فِي الْإِسْلَامِ  
فِي مِصْرَ وَالشَّامِ

تَأَلِيفُ

الدكتور السيد عبد العزيز سالم  
أستاذ التاريخ الإسلامي  
بجامعة القاهرة وبيروت العربية

الدكتور أحمد مختار العبادي  
أستاذ التاريخ الإسلامي  
بجامعة القاهرة وبيروت العربية



جامعة بيزوت العربية

تاريخ البحر بين الامم  
في مصر والشام

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم  
أستاذ التاريخ الاسلامي  
بجامعة القاهرة

الدكتور أحمد مختار الجبالي  
أستاذ التاريخ الاسلامي  
بجامعة الاسكندرية

طبع في دارالاحمد (البحري الشوان) بيروت

## مقدمة

أثبتت البحوث العلمية الحديثة الدور الهام الذي تلعبه القوى البحرية في المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية، ولهذا خصصها الباحثون بنصيب وافر من عنايتهم، فصنفوا فيها المؤلفات المطولة، واعتبروها من الموضوعات الرئيسية في البحوث التاريخية .

وتشغل القوى البحرية الإسلامية مركزاً طليعياً في تاريخ البحار والمحيطات المعروفة في ذلك الوقت، ولعل ذلك كان من الأسباب التي حملت الباحثين على تناول هذا الموضوع بالدراسة والبحث من مختلف نواحيه السياسية والاقتصادية<sup>(١)</sup>. وينبغي أن نقر هنا بأهمية هذه الأبحاث بالنسبة للتاريخ الإسلامي بوجه خاص وللتاريخ العالمي بوجه عام . إلا أنه يلاحظ أن

(١) نذكر منها على سبيل المثال :

W. Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge, (2 vols., Leipzig, 1885) — J. B. Bury, The naval policy of the Roman empire, in relation to the western provinces from the 7th to the 9th century (Centenario della nascita di Michele Amari, vol. II, Palermo, 1910) — Ali Fahmy: Muslim sea power From the seventh to the tenth century A.d. (1950)

وراجع أيضاً : اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دولة البحار - ارشيدالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط - هونريايخ ، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معارية ، معهد مولاي الحسن ، تطوان - حسين مؤنس ، السلون في حوض البحر المتوسط ( المجلة التاريخية المصرية ١٩٥١ ) - اسماعيل مظهر ، السفن والملاحة بمصر ( مجلة المقتطف ١٩٣٤ ) - أحمد دراج ، الممالك والفرنج - أحمد بن ماجد السعدي ، كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد - عبد الفتاح عبادة ، سفن الاسطول الإسلامي - ياسين الجوي ، تاريخ الاسطول العربي - ابراهيم أحمد العدوي ، الأساطيل العربية في البحر المتوسط - سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية .

معظم هذه البحوث قد اقتصرت في معالجة موضوع البحرية الإسلامية على فترات محدودة من التاريخ الإسلامي ، أو اكتفت بدراسة مجال معين من مجالات النشاط البحري الإسلامي الذي لم تكن له حدود ، ولهذا تفتقد هذه البحوث - رغم قيمتها وأصالتها - إلى النظرة التاريخية الشاملة التي تحدد لنا الصورة المتكاملة لتاريخ البحرية الإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربه في العصر الوسيط . ولسنا نشك في صعوبة تنفيذ هذا البحث الشامل لعاملين : الأول ، اتساع رقعة العالم الإسلامي وامتداده شرقاً وغرباً ، وامتداد النشاط البحري الإسلامي بالتالي إلى بحار ومحيطات لا حدود لها ، والثاني ، استمرار التاريخ الإسلامي واتصاله منذ قيام الإسلام كدين ودولة حتى ختام العصر الوسيط . ويستلزم الأمر لتحقيق مثل هذا المشروع الضخم نوعاً من التعاون المشترك والجهود المتضافرة من الباحثين ، وما زلنا نؤمن بأهمية البحوث الجماعية ونقدر الجهود العلمية المشتركة ، والتعاون العلمي الصادق المنسق في إنتاج مثل هذه الدراسات الشاملة . ولقد أدركنا هذه الحقيقة منذ البداية ، وكان من ثمرته ظهور كتابنا الأول عن تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس منذ الفتح العربي حتى سقوط مملكة غرناطة . وشجعنا النجاح الذي أسفرت عنه التجربة على المضي قدماً في تنفيذ المشروع كله ، واليوم نصدر الكتاب الثاني عن البحرية الإسلامية في الشام ومصر ، ويبقى علينا بعد ذلك لاستكمال دراسة تاريخ البحرية الإسلامية أن نصدر بحثاً ثالثاً عن تاريخ البحرية الإسلامية في بحري اليمن وعمان والمحيط الهندي .

ويقترن تاريخ البحرية الإسلامية في الشام ومصر بحركة الفتوحات الإسلامية التي بدأت في خلافة أبي بكر واستمرت طوال عصر الخلافة الراشدة ثم في عصر الدولة الأموية ، فقد كان لازماً على العرب بعد أن تمّ لهم فتح الشام ومصر ، وأصبحت لديهم سواحل متصلة تطل على البحر المتوسط أن ينتهجوا سياسة بحرية رضوا أم كرهوا ، لأن استيلاء المسلمين على الشام ومصر أدى إلى تمزيق وحدة الامبراطورية البيزنطية ، وحكم بفصل

بينظنة عن ولاياتها التابعة لها في مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي، وأصبح البحر وحده الوسيلة الوحيدة للربط بين أجزاء هذه الامبراطورية<sup>(١)</sup>، وكان ذلك نذيراً بقيام صراع بحري مرير بين القوى الإسلامية (التي كانت تعتمد اعتماداً تاماً على المراكب البرية) والقوى البيزنطية (المتفوقة في الحروب البحرية) عاجلاً كان ذلك أم أجلاً لحسم مشكلة السيطرة على حوض البحر المتوسط. وعمد العرب الفاتحون بالضرورة إلى انتهاز سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي الماثل على ثغور المسلمين، وتوسلوا في ذلك بآدئ ذي بدء بوسائل دفاعية برية<sup>(٢)</sup>، فاتجهوا إلى مرمة الحصون الساحلية في الشام ومصر، وإقامة الأربطة والمنابر والمسالخ على طول الساحل، وشحنها بالقاتلة، واتخاذ المواقيد للإنذار باقتراب سفن الروم من السواحل<sup>(٣)</sup>، بل إن معاوية - وهو بعد وال على الشام - نقل أهالي المناطق الداخلية إلى هذه السواحل، ومنحهم فيها الإقطاعات الواسعة مستهدفاً من وراء ذلك تشجيعهم على ركوب البحر<sup>(٤)</sup>. وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام ميثونة بالقلع والأبراج التي كانت أشبه شيء بسور يمتد بجزء الساحل<sup>(٥)</sup> اعتمد عليه العرب في الدفاع البحري، وحظيت سواحل الاسكندرية ورشيد والبرلس وتيس ودمايط في مصر وسواحل عكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقه وأنطاكية في الشام بقلع ومحارس شحنت بالحاميات المراقبة.

ثم مضت مرحلة الدفاع البحري بوسائل برية عندما فشلت بينظنة في استرداد الساحل الشامي سنة ٨٢٣ هـ، والمصري في سنة ٨٢٥ هـ أمام قوة

- 
- (١) غنار المبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ١٩٦٨، ص ٢.
  - (٢) عبد العزيز سالم وغنار المبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، ١٩٦٩ ص ١٦.
  - (٣) عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٣٣ - تاريخ الدولة العربية، بيروت ١٩٧١ ص ٥٣٦.
  - (٤) غنار المبادي، المرجع السابق، ص ٣ - عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية ص ٥٣٦.
  - (٥) Cheira (M.A.), la Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 87.

الدفاع العربي الإسلامي ، واستقرت دعائم السيادة العربية الإسلامية في الشام ومصر ، وأن العرب في خلافة عثمان أن يحاروا البيزنطيين في اصطناع سياسة بحرية دفاعية وهجومية في آن واحد ، وتحتم عليهم أن ينشئوا الأساطيل ، واضطرتهم الظروف إلى الاستعانة في ذلك بأهل البلاد المفتوحة كأقباط مصر<sup>(١)</sup> وملاحى الشام الذين كانت لهم تجارب بحرية واسعة النطاق في تاريخهم القديم ، وأجداد وبطولات سجلها التاريخ البحري للفينيقيين والمصريين منذ أقدم العصور حتى عصر التبعية للرومان والبيزنطيين . كذلك استعان معاوية بالعناصر العربية اليمنية في تسير السفن الإسلامية وقيادة العمليات البحرية في الشام وذلك لتفوقهم على منافسيهم من القبائل القيسية في هذا المجال . والواقع أن عرب اليمن منذ عصر ما قبل الإسلام حتى عصر الفتوح الإسلامية ، وإن كانوا قد قطعوا كل اتصال لهم بالبحر ، وأهلوا شؤونهم ، وأوقفوا كل نشاط لهم عبر مياههم ، وافقدوا الدربة على ركوبه وخوض أهواله ، لانصرافهم إلى التجارة البرية إبان الغزوات الحبشية والفارسية لليمن ، لم يكونوا قد فقدوا تماماً تقاليدهم البحرية التي اكتسبوها من خلال تاريخهم الطويل وتجاربهم الماضية في ممارسة الملاحة ، والطواف بسفنهم التجارية في البحر الحبشي أو الإريثري ، وترددهم على موانئ البحر العربي والمحيط الهندي<sup>(٢)</sup> ، فقد رسخت هذه التقاليد في كيانهم ، وظلت

(١) تخصص الأقباط في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها . وقد ثبت أن السفن التي تستخدم المسامير في تثبيت ألواحها أفضل من السفن التي تشد بالبحال ( راجع : فلمم هونيرباخ ، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ، تطوان ١٩٥٤ ، ص ١٨ - ٢٠ ) . وقد أدرك حسان بن النعمان الغساني هذه الحقيقة عندما واجهته مشكلة إنشاء دارصناعة قرنس ، فطلب من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أن يبعث إليه بعدد من الأمراء القطبية بمصر ليعتمد عليهم في قيام البحرية الإسلامية في بحر إفريقيا ، فوجه إليه ألف امرأة قطبية ( راجع التفاصيل في : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٢٨ - ٣٤ ) .

(٢) لا ينبغي أن ننسى أثر موقع بلاد اليمن وعمان والبحرين على سواحل البحر الحبشي وبحر العرب وبحر عمان في تطلع سكان بلاد العرب الجنوبية نحو البحر ، واشتغالهم بالملاحة فيه ، وكان ذلك من العوامل الرئيسية في تفوقهم البحري .



كلمنة في أعماقهم ، في عصور الاحتلال الحبشي والفارسي ، إلى أن تهايت لها ظروف موأية للظهور منذ عصر الفتوحات ففشطت بعد خول<sup>(١)</sup> ، وتجلت مواهب اليمنية في قيادة السفن وظهرت براعتهم في الغزو البحري في بحار الشام ومصر والمغرب والأندلس ، فظهرت شخصية جنادة بن أبي أمية الأزدي اليمني ، الذي اعتمد عليه معاوية في غزو قبرص ورودرس وإقريطش . كذلك يرجع إلى اليمنية الفضل في إنشاء أول قوة بحرية إسلامية في الأندلس في وقت لم يكن للدولة الأموية أسطول بحري رسمي : فزياد ابن عمرو الضحمي الذي سار إلى بلج بن بشر القشيري وأصحابه وقد حصرهم البربر في سبته سنة ١٢٤هـ سفيلتين مشحونتين بالميرة كان يميناً لحياً ، وأبرفيمة وصاحبه تمام بن علقمة اللذان كان لهما بصر في ركوب البحر وتوليا نقل عبد الرحمن الداخل من أرض المغرب إلى ثغر المنكب بالأندلس في سنة ١٣٨هـ يمينان ، وطائفة البحريين الذين كانوا يربطون على سواحل الأندلس ، ويفزون في البحر التيرايني يمينون من بني سراج القضاعين ، ومنهم بنو أسود الغسانيون<sup>(٢)</sup> .

ثم جاءت اللحظة التي كان لا بد للعرب من تمكين دفاعهم البحري بإنشاء مزيد من السفن في داري صناعة الاسكندرية وعكا ، وتطلع العرب إلى آسيا الصغرى كمورد جديد للأخشاب اللازمة لصناعة السفن بخلاف جبل لبنان وأحراج مصر العليا ، وفطنت بيزنطة إلى ما يهدف إليه العرب ، فأرادت أن تفوت عليهم فرصة الانتفاع من هذه الموارد البيزنطية ، فكان الاشتباك البحري الحاسم في ذات الصواري سنة ٣٤هـ الذي سجل

---

(١) كانت القادة البحريون الذي أمهم عمر بن الخطاب أو لامهم لتفريهم بالمسلمين في بحر فارس وبحر عمان وبحر الحبشة يمينين : فاللواء بن الحضرمي الذي حمل أهل البحرين في البحر إلى فارس بغير إندت عمر كان يميناً حضرمياً ، وعرفجة بن هرثة الأزدي الذي أغزي قومه في البحر كان يميناً أزدياً ، وعلقمة بن مجزر المدلجي صاحب الحملة البحرية إلى الحبشة في سنة ٢٠هـ كان يميني الأصل لحياً .

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة اليربة الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، ص ٢١ ، ٢٧ .

نهاية السيطرة البحرية البيزنطية وبداية عصر القوة في تاريخ البحرية الإسلامية . ولم يلبث العرب بعد هذا الانتصار الحاسم أن تطلّعوا إلى غزو جزر البحر المتوسط الشرقي والغربي ، وأدرك الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني نوايا المسلمين التي تستهدف السيطرة على حوض البحر المتوسط كله ، وقطع الإتصال بين بيزنطة وبين أملاكها في إيطاليا وصقلية والمغرب ، فعمد إلى نقل عاصمته إلى سرقوسة بصقلية تركيزاً للدفاع عن إيطاليا أمام الدفع السريع للفتح الإسلامي للمغرب<sup>(١)</sup>.

وبعد فهذا البحث الذي تقدمه اليوم تمة لبحثنا السابق عن البحرية في المغرب والأندلس ينقسم إلى موضوعين رئيسيين : الأول - يتناول تاريخ البحرية الإسلامية في الشام ومصر حتى نهاية العصر الفاطمي<sup>(٢)</sup> لعبد العزيز سالم ، والثاني يعالج تاريخ البحرية الإسلامية في الشام ومصر في العصرين الأيوبي والملوكي لختار العبادي .

وشرفنا أن تقدم هذا البحث في سلسلة منشورات جامعة بيروت العربية والله ولي التوفيق .

### المؤلفان

بيروت في ٢٤ تشرين ثاني ١٩٧١

---

(١) أوشيدالد لويس ، ص ٩٤ .

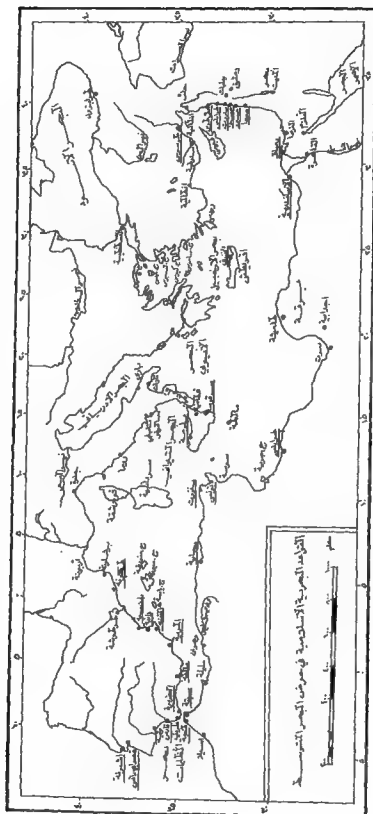
(٢) اتممت بوجه خاص بحرية الاسلامية في العصر الفاطمي باعتبار أنه العصر الذي برزت فيه أهمية البحرية المصرية والشلمية وأثبتت وجودها ، فخصصت لها باباً ثانياً قائلاً بذاته ، واعتبرت البحر الأول بفصله بواسطة تمهيدية للبحرية الفاطمية التي لم يسبق للباحثين أن قاموا بدراسة بالتفصيل .



سفينة اسلامية (نقلا عن مخطوطة محفوظة في لينينغراد)  
 Arab Painting (By : Skira) من كتاب

الأستاذ الدكتور  
 الربيع غنيم







البحرية الإسلامية في مصر والشام  
من الفتح العربي حتى العصر الأيوبي

للدكتور السيد عبد العزيز سالم





## الباب الأول

# البحرية الإسلامية في مصر والشام منذ نشأتها حتى العصر الفاطمي

الفصل الأول: البحرية العربية الإسلامية في دُور الإنشاء

الفصل الثاني: القوى البحرية في مصر والشام  
في ظل المتبائين والعلويين



## الفصل الأول

### البحرية العربية الإسلامية في دور الإنشاء

(١)

#### نشأة البحرية الإسلامية

يعتبر الانتصار الحامى الذى أحرزه المسلمون على الجيوش البيزنطية فى معركة اليرموك نقطة تحول هامة فى حركة الفتوح الإسلامية أدت إلى انهيار قوى الروم وانفصال الشام عن جسم الامبراطورية البيزنطية . ويذكر المؤرخون أن هرقل عندما بلغه نبأ الكارثة التى حلت بجيشه فى وقعة اليرموك رحل إلى القسطنطينية ، فلما تجاوز الدرب الذى يصل أرض الشام بأرض بيزنطة ، نظر إلى الأراضى السورية بأسى وقال يودعها بنظره : « عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو »<sup>(١)</sup>.

وأخذت مدن الشام الكبرى فى الشمال والجنوب تتساقط سريعاً الواحدة بعد الأخرى فى أيدي المسلمين ، أما السواحل فلم يكده هؤلاء يقتبون من فتح دمشق حتى وجه يزيد بن أبى سفيان همه إلى فتح مدن الساحل الفينيقي ، ولم يأت عام ١٧ هـ حتى كان قد اقتتح صيدا وبيروت وجبيل وعرقا فتحاً يسيراً ، وفى نفس الوقت كان عبادة بن الصامت يفتتح عنوة مدن الساحل الشامي وهي اللاذقية وجبلة وأنطوطوس<sup>(٢)</sup>.

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١٦٢ .

(٢) البلاذري ، المصدر السابق ص ١٥٧ - ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، طبعة صادر ، بيروت ١٩٦٥ ج ٢ ص ٤٩٢ .

وأدى فتح بلاد الشام إلى فتح مصر، إذ كانت تربطها منذ أقدم العصور مصالح سياسية وحربية وتجارية واحدة، وكثيراً ما ارتبط الشام ومصر معاً، بفضل موقعها الجغرافي والمصالح المشتركة، في وحدة تاريخية وثيقة، وكان مصيرهما واحداً خلال فترات طويلة من التاريخ القديم والوسطى<sup>(١)</sup>.

وسجلت الفتوح الشامية والمصرية تحولاً فجائياً في الاستراتيجية الدفاعية للعرب في هذه المرحلة من تاريخهم الإسلامي، فقد أحسوا بعد أن افتتحوا مدناً ساحلية تمتد من أنطاكية شمالاً حتى ساحل برقة غرباً بأهمية الدفاع البحري عنها، في وقت كانوا يدركون تمام الإدراك تحلفهم في الثقافة البحرية ليس بالنسبة لأعدائهم البيزنطيين فحسب، بل بالنسبة لسكان هذه البلاد المغلوبة الذين كانوا يحكم تطلعمهم إلى البحر قد تمرسوا في خوض مياهه، ولا شك أن سبب إحساس العرب بالتخلف في المجال البحري يرجع إلى تعرض القسم الجنوبي من بلادهم - وأعني به اليمن وحضرموت وعمان - زمناً طويلاً لسيطرة الأحياش الذين استأثروا بالطريق التجاري عبر البحر الأحمر، ثم لسيطرة الفرس الذين قضوا على تجارة العرب في بحري عمان وفارس (الخليج العربي حالياً) واحتكروا لأنفسهم تجارة الهند<sup>(٢)</sup>، هذا بالإضافة إلى طبيعة بلادهم الصحراوية حيث ينذر وجود الأشجار التي تصلح أخشابها لصناعة السفن، وحيث تخلو من معدن الحديد اللازم لصناعة المرامي والمسامير والكلاليب، باستثناء اليمن<sup>(٣)</sup>، ومن الزيت والقطران،

(١) السيد عبد العزيز سالم، الصلات التاريخية بين الشام ومصر في العصر الإسلامي، مجلة العلوم، بيروت العدد الخامس، مايو ١٩٦٤ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، بيروت ١٩٧٠ ص ٤٨٦.

(٢) Ali Moh. Fahmy, Muslim sea power in the eastern Mediterranean, Cairo (٢) 1966, p. 48.

(٣) يوجد الحديد بحدود في الأراضي الممتدة ما بين صعدة والحجاز، وفي نجران أيضاً جبل كان يستخرج منه معدن الحديد. كذلك يتوفر الحديد في نغم وعمدان (راجع المصداقي، صفة جزيرة العرب، نشرة الأستاذ محمد بن عبد الله بن بلهيد التجدي، القاهرة، ١٩٥٣ ص ٢٠٢).

هذا بالإضافة إلى صعوبة الملاحة في البحر الأحمر لكثرة ما يعترض السفن فيه من صخور وشعاب مرجانية<sup>(١)</sup>. ولهذا السبب، ولأنه يدرك عظم القوى البحرية البيزنطية وسطوتها، عمد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى اتباع سياسة بحرية دفاعية لمواجهة خطر استرداد البيزنطيين لسواحل الشام ومصر، متوسلاً في ذلك بوسائل برية، كترميم القلاع والناور والمراقب والمساح المتددة بجذاء الساحل، وشحنها بالمقاتلة والمراقبة<sup>(٢)</sup>. وظل العرب يتبعون هذه السياسة إلى أن تهاهم تضييت أقدامهم وتمكين سيادتهم على الشام ومصر، فقتلوا إلى مجارة البيزنطيين في سياستهم البحرية الهجومية وبدأوا يؤسسون القوة البحرية الإسلامية، حفاظاً على سيادتهم على الشام ومصر.

ويرجع الفضل الأعظم في إنشاء الأسطول العربي الإسلامي إلى معاوية ابن أبي سفيان، عامل الشام في خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، الذي فطن إلى أهمية الأساطيل في الدفاع عن السواحل أثناء قيام أخيه يزيد بغزو مدن الساحل: فقد تعرض للكثير من المتاعب في فتح بعض تلك المدن كقيسارية وطرابلس وعسقلان. أما قيسارية فقد عجز عمرو ابن العاص عن فتحها، إذ كانت تتلقى الإمدادات من البحر، ويكاد يجمع المؤرخون على أن معاوية هو الذي تولى فتحها قسراً في شوال سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م)<sup>(٣)</sup>، وقيل سنة ٢٠ هـ<sup>(٤)</sup>، بعد أن كان قد يئس من ذلك. وأما طرابلس فقد استعصت على المسلمين في ولاية يزيد بن أبي سفيان لناعيتها ووثاقة تحصيناتها، وكان فتحها يستلزم حصاراً برياً وبحرياً قد يطول أمده كما حدث في حصار قيسارية الذي دام ما يقرب من سبع سنوات (من جمادى الأولى سنة ١٣ إلى شوال سنة ٢٠ هـ) فاضطر يزيد إلى إرجاء

(١) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ج ٢، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٣٥.

(٢) البلاذري، ج ١، ص ١٥٢ - Cheira: la lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 85.

(٣) البلاذري، ج ١، ص ١٦٧، ١٦٩.

(٤) نفسه، ج ١، ص ١٦٩.

فتح طرابلس حتى تتوفر لديه الإمكانيات<sup>(١)</sup>. أما عسقلان فقد فتحها صلحاً بعد كيد، وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة<sup>(٢)</sup>. فلما توفي يزيد ابن أبي سفيان في طاعوت حمّوس، وآلت ولاية الشام إلى أخيه معاوية الذي كان يشاركه في فتوحه لمدن الساحل، رأى معاوية الحالة السيئة التي وصلت إليها تحصينات المدن الساحلية، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له حال هذه السواحل، ويقترح عليه إنشاء أسطول بحري للغزو في البحر، فرد عليه عمر يأمره «بجمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها، ولم يأذن له في غزو البحر»<sup>(٣)</sup>. وامثل معاوية لما أمره به عمر، فحصّن الثغور الإسلامية وشحنها بالمقاتلة الذين يربطون بها طوال فصل الصيف، ويتولون حراستها في المناظر والأبراج والمناور، وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القطائع والأخاخذ<sup>(٤)</sup>. وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام سلسلة متصلة من التحصينات التي ترابط فيها حاميات مرابطة، تنقسم كل منها إلى عرافات أي مجموعات، وكل عرافة تتألف من مائة رجل. وكانت هذه التحصينات مزودة في أعلاها بمواقيد يشعلها الحراس والقائمون بالدفاع عن الساحل عند اقتراب سفن الأعداء منه ليلاً. كذلك اهتم عمر بن الخطاب بسواحل مصر ولا سيما بنجر الإسكندرية، «فكان يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية»<sup>(٥)</sup>. وقسم عمرو بن العاص أجناده في مصر إلى قسمين متساويين: قسم أبقاه معه في الفسطاط، وقسم وزعه

(١) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس للشام في التاريخ، الإسكندرية ١٩٦٧ ص ٣٢.

(٢) البلاذري، ج ١ ص ١٦٩.

(٣) نفس المصدر، ج ١ ص ١٥٢.

(٤) نفسه، ج ١ ص ١٥٢.

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر، القاهرة

١٩٦١ ص ٢٥٨ - السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ١، القاهرة

١٣٢١ ص ٧٩ - المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار، طبعة بيروت ١٩٥٩ ج ١

ص ٢٩٣.

إلى نصفين ، أحدهما لرباط الإسكندرية وحدها ، والنصف الثاني لساكن السواحل المصرية ، و لكل عمرو بحراسة كوم الدكة قبلي الإسكندرية إلى قبيلة لحم ، ومن العجيب أن يعهد عمرو في هذه الآونة إلى قبائل اليمنية بالذات من لحم وجذام وكندة والأزد والحضارمة وخزاعة والمزاغنة بسكنى الإسكندرية بقصد حراستها وحراسة ميمنتها<sup>(١)</sup> . وقد قيل في فضل الرباط في الإسكندرية أقوال كثيرة ، وكتبت في ذلك رسائل عديدة<sup>(٢)</sup> ، وقرن اسم الإسكندرية لذلك بالثواب والجهد ، ولذلك عمرت بن وفد إليها من الماربة ، وازداد عدد الحامية الماربة من ثلاثة آلاف في أول الأمر إلى ١٧ ألفاً أيام خلافة معاوية إلى ٢٧ ألفاً<sup>(٣)</sup> ، ونزلها عدد من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين<sup>(٤)</sup> .

ولما استخلف عثمان بن عفان في المحرم سنة ٢٤ هـ كتب إليه معاوية يستأذنه في غزوة قبرص ، ويعلمه قريبها وسهولة الأمر فيها ، فرد عليه ينهيه عن ذلك كما نهاه عمر بن الخطاب من قبل<sup>(٥)</sup> ، « ويأمره بتحسين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ، ففعل<sup>(٦)</sup> » . وفي بداية خلافة عثمان تغلب البيزنطيون على بعض سواحل الشام ، فقصد لهم معاوية حتى افتتحها ، ثم رمى وشحنها بالمقاتلة ، ومنحهم القطائع<sup>(٧)</sup> . وفي نفس الوقت سار قنسطانز الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية حملة بحرية لمهاجمة

(١) النويري السكندري ، الإلام بما جرت به الأحكام المقتضية في وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من مخطوطة المند ، محفوظة بكلية الآداب جامعة الاسكندرية برقم ٧٣٨ م ورقة ٧٧ ب .

وراجع سبب اعتياده على اليمنية في المقدمة ص ٦ ، ٧ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٩٤ وما يليها .

(٣) عبد الهادي شعيرة ، الاسكندرية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، مقال في كتاب غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ ص ٨٦ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٥) البلاذري ، ج ١ ص ١٨١ .

(٦) نفسه ، ص ١٥٢ .

(٧) نفسه ، ص ١٥٠ .

الإسكندرية بقيادة مانويل نجحت في الاستيلاء على الإسكندرية ، ولكنها أخفقت بعد ذلك عندما تمكن عمرو بن العاص ، الذي انتدب للدفاع عن مصر استجابة لطلب أهلها « لأن له معرفة بالحرب وهيبة في أنفس العدو »<sup>(١)</sup> ، من إيقاع الهزيمة بالبيزنطيين عند نيقوس ، واستطاع بذلك أن يسترد الإسكندرية ، ويسحق القوة البيزنطية ، ويحرق عدداً كبيراً من السفن البيزنطية<sup>(٢)</sup>.

وعندئذ عزم معاوية على السير في تنفيذ خطته في إعداد أسطول بحري حقّ يتبها له أن يفتح مدينة طرابلس المنعمة من جهة ، ويفزو الجزر المواجهة لساحل الشام كأرواد وقبرص ورودس ، ويتخذها مراكز أمامية لتوجيه الغزوات البحرية إلى بلاد البيزنطيين من جهة ثانية . فاستحضر الأخشاب من غابات الأرز بلبنان ، وأرسلها في السفن إلى دار الصناعة بالإسكندرية التي لم يكن في مصر سواها حتى ذلك الحين ، استنتاجاً لما أورده البلاذري إذ يقول : « وكانت الصناعة بمصر فقط »<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن دار الصناعة بمكا كانت محطة منذ الفتح ، ولهذا السبب نشطت دار الصناعة بالإسكندرية في إنشاء سفن الاسطول الشامي المصري ، واستعان معاوية بمحاكمة من الملاحين العرب من بين الأزد الفساسنة لإدارة العمليات البحرية . وبعد أن تم إعداد عدد من السفن ، أخذ معاوية يفكر جدياً في فتح طرابلس التي كان يعتبرها كالشوكة القائمة في جانبه ، ويدكر البلاذري أنه وجه لهذا الغرض القائد سفيان بن مجيب الأزدي إلى طرابلس وهي ثلاث مدن مجتمعة ، فبنى في مرج على أميال منها حصناً سمي حصن سفيان ، وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره ، وحاصره<sup>(٤)</sup> . ونستنتج من ذلك أن سفناً إسلامية حاصرت طرابلس من البحر من جهة المينة حتى

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ص ٦٨ - ٧٠ .

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠ .

(٤) نفسه ، ص ١٥٠ .



تمتع وصول السفن البيزنطية إليها . والظاهر أن هذه السفن كانت قليلة أو أنها كانت ملازمة للساحل بدليل أن أهل طرابلس لما اشتد عليهم الحصار تمكنوا من الإتصال بملك الروم ومطالبته بإرسال عدد من المراكب تحملهم ، فجاءتهم هذه المراكب فركبوها لبلا وفروا . « فلما أصبح سفيان - وكان يبيت كل ليلة في حصنه ويحصن المسلمين فيه ، ثم يغدو على العدو - وجد الحصن الذي كانوا فيه خالياً فدخله »<sup>(١)</sup> . ولا يمكننا أن نفسر وصول السفن البيزنطية إلى ميناء طرابلس في غفلة من المسلمين إلا بقلة عدد السفن العربية القائمة بالحصار ، ومهارة البحريين البيزنطيين في التسلل إلى الميناء وحمل من شاءوا من أهل طرابلس إلى الأراضي البيزنطية . وأغلب الظن أن فتح طرابلس على يد سفيان بن مجيب الأزدي تم في عام ٢٦ هـ ، أي بعد الفتح الثاني للاسكندرية بأمد وجيز . وشجع فتح طرابلس معاوية على الخروج لغزو قبرص ، فكتب إلى الخليفة الراشد عثمان في عام ٢٧ هـ يهّو عليه ركوب البحر إلى قبرص ، فأذن له بغزو الروم بجرأ في قبرص على ألا يحمل الناس على الغزو كرهاً ، وأن يصحب معه امرأته فاخته بنت قرظة . واشترك مع معاوية في غزوة قبرص جموع من الصحابة من بينهم أبو الدرداء ، وأبوذر الغفاري ، وفضالة بن عبيد الأنصاري ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت الذي حمل معه زوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية<sup>(٢)</sup> . وأعدت السفن لنقل القوة العربية على ساحل عكا ، وهناك أقام معاوية بعض الوقت رمم خلاله تحصينات عكا وصور<sup>(٣)</sup> ، ثم أبحرت الحملة إلى قبرص في ربيع سنة ٢٨ هـ ، وكانت هذه الحملة أول غزو للمسلمين في البحر ، « ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها »<sup>(٤)</sup> . وما كادت السفن العربية ترسو إلى ساحلها حتى أدعن

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١٥١ .

(٢) نفسه ، ص ١٨١ .

(٣) نفسه ، ص ١٤٠ .

(٤) نفسه ، ص ١٨١ .

أهل قبرص بالطاعة للمسلمين ، وبعث أركانها يطلب الصلح ، فصالحه معاوية على جزية سنوية يؤديها له أهلها ، واشترط عليهم أن يلتزموا موقفاً حياًدياً في الصراع العربي البيزنطي ، وأن يبلنوا المسلمين بسير عدوم من البيزنطيين<sup>(١)</sup> . فلما كانت سنة ٣٢ هـ أعان أهل قبرص البيزنطيين على الغزاة في البحر بسفن قدموها لهم فغزاهم معاوية في سنة ٣٣ هـ ، وقيل في ٣٥ ، في خمائة سفينة ، وافتتح قبرص في هذه المرة عنوة ، ثم أكرم على صلحهم ، وبعث إلى قبرص بجيش عربي عدته ١٢ ألفاً من أهل الديوان لتعريبها ، ونقل إليها جماعة من بعلبك<sup>(٢)</sup> .

وما كاد معاوية يظفر بالخلافة في سنة ٤١ هـ بإجماع المسلمين<sup>(٣)</sup> حتى عمل على تدعيم الدفاع عن السواحل . والظاهر أن طرابلس انتقضت عليه في أول خلافته ، وتمكن بعض الروم من أهلها من ذبح عاملها وإحراق قطع من الأسطول العربي الراسية في مينائها<sup>(٤)</sup> ، ولكن معاوية تمكن من القضاء على هذه الحركة ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي حملته على نقل جماعة من الفرس والأساورة إلى سواحل الأردن والشام في سنة ٤٢ هـ<sup>(٥)</sup> ، ومن بينها طرابلس<sup>(٦)</sup> . ويشير اليعقوبي إلى أن أهل جليل وصيدا ويبروت قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية<sup>(٧)</sup> ، وسنجده يأمر بنقل قوم من زط البصرة والسياحية في سنة ٤٩ أو ٥٠ هـ إلى السواحل<sup>(٨)</sup> ، وذلك على أثر غزوة بحرية قام بها البيزنطيون على سواحل الشام في سنة ٤٩ هـ<sup>(٩)</sup> .

(١) البلاذري ، ص ١٨١ .

(٢) نفسه ، ص ١٨٢ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٦٠٧ وما يليها .

(٤) جرجي بني ، تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨١ ، ص ٣٧٨ .

(٥) البلاذري ، ج ١ ص ١٣٩ .

(٦) ذكر اليعقوبي أن أهل مدينة طرابلس قوم من الفرس كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم إليها ( اليعقوبي ، كتاب البلدان ، لندن ١٨٩١ ص ٣٣٧ )

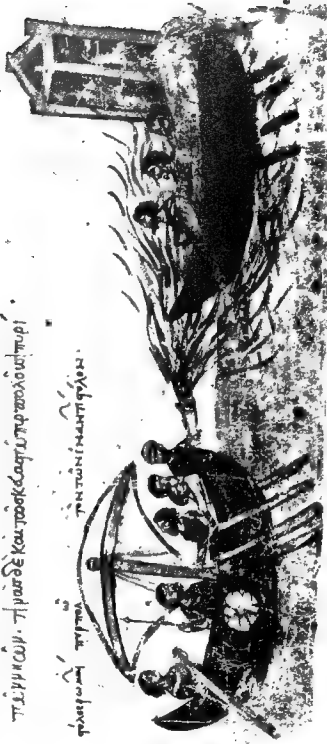
(٧) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٨) البلاذري ، ص ١٩٢ .

(٩) نفسه ، ص ١٤٠ .

ΠΕΛΥΓΕΩΝ. Ἡ γὰρ δὲ καὶ τοὺς ἀγροὺς ποιοῦσιν ἰσχυροὺς.

τὸν τῶν ἰσχυρῶν ἄλγος.



سفينة يونانية تستخدم النار اليونانية (نقلا عن مخطوطة من القرن الرابع عشر الميلادي)  
Ships and Seamanship in the Ancient World (By : Lionel Casson)  
من كتاب



ومنذ ذلك الحين اهتم معاوية بإصلاح دار صناعة عكا<sup>(١)</sup> ، وإعدادها للعمل من جديد ، فأمر يجمع الصناع والتجارين فجمعوا ، ورتبهم على السواحل . ولم تزل السفن تصنع في الشام بeka حتى آلت الخلافة إلى المروانية فنقلوها إلى صور في عهد هشام بن عبد الملك ، وظلت بصور حتى أيام الواقدي المتوفي ٢٠٦ هـ<sup>(٢)</sup> .

## ( ٢ )

### عوامل قيام البحرية الإسلامية

بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه ، هناك ثلاثة عوامل ساعدت على قيام البحرية الإسلامية ، أولها سعى المسلمين إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، والثاني توافر المواد الخام ودار الصناعة والصناع والملاحين في مصر والشام ، والثالث ارتباط مصر والشام وتضامنها في العمليات الحربية ضد البيزنطيين .

#### ١ - سعى المسلمين إلى الاستيلاء على القسطنطينية :

من الواضح - كما سبق أن أشرنا في المقدمة - أن العرب كانوا يهدفون إلى القضاء على الإمبراطورية البيزنطية على نحو ما حدث بالنسبة للدولة الساسانية ، فلم يكن العرب بعد الفتوح الشامية والمصرية مطمئنين إلى جانب الروم ، ولذلك كان عليهم أن يفتتحو القسطنطينية قلب بيزنطة والعالم القديم ، وقلمة الروم النسيمة ، والرأس المدير للتنظيم البحري للبيزنطيين في حوض البحر المتوسط الشرقي . ونستدل مما كتبه عثمان بن عفان إلى غزاة المسلمين في المغرب أن القسطنطينية تفتح من جهة الأندلس<sup>(٣)</sup> . وقد

(١) البلاذري ، ص ١٤٠ - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عكا .

(٢) نفسه ، ص ١٤٠ .

(٣) كتب الخليفة الراشد عثمان يقول : « أما بعد فإن القسطنطينية إذا تفتح من قبل الأندلس » ( ابن الأثير ، ج ٣ ص ٩٣ - محمد حيداه ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، بيروت ١٩٦٩ ص ٣٩٥ - مختار المبادئ ، دراسات في تاريخ الأندلس ، ص ٥ )

وضح هذا الاتجاه بعد أن افتتح موسى بن نصير الأندلس ، وخطر له أن يقتحم الأرض الكبيرة (بلاد افرنجية) ويخترق أوروبا ، ويفتح القسطنطينية من الجهة الغربية أي جهة البر<sup>(١)</sup> ، ونستدل على ذلك أيضاً من المحاولات المتكررة التي قام بها ولاة الأندلس في الفترة من ١٠٠ هـ إلى ١١٤ هـ على وجه الخصوص للاستيلاء على الأقاليم الجنوبية من فرنسا : وهي سبتانية وأقطنانية وبروفانس وبرغندي<sup>(٢)</sup> . والظاهر أن فشل معاوية في فتح القسطنطينية بعد حصار دام سبع سنوات ( ٥٤ - ٦٠ هـ ) وما أعقبه من فشل محاولة سليمان بن عبد الملك في عام ٩٨ هـ ، كان من العوامل التي دفعت المسلمين في الأندلس ، منذ عام ١٠٠ هـ أي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، إلى البدء بغزو ما وراء البربات ، ولكن الهزيمة النكراء التي مني بها المسلمون في موقعة بلاط الشهداء ( سنة ١١٤ هـ ) وضعت حداً لمحاولاتهم<sup>(٣)</sup> .

كان هذا الهدف حافزاً للمسلمين منذ البداية على إنشاء أسطول حربي يتوسلون به بدئاً ذي بدء للسيطرة على جزر البحر المتوسط الشرقي ، واتخاذها نقط ارتكاز أمامية وقواعد بحرية ومرامي لأساطيلهم تجاه السواحل البيزنطية ، حتى يتهاها لهم الانقضاض من هذه المراكز على القسطنطينية . وقد رأينا كيف نجح معاوية في غزو قبرص في سنة ٢٨ هـ ، ثم غزاها للمرة الثانية في سنة ٣٣ هـ ، فلما فطن قنسطانز الثاني إلى تحركات السفن الإسلامية في عام ٣٤ هـ وإلى نوايا العرب التوسعية في آسيا الصغرى عبر مناطق الثغور الشامية الممتدة إلى شمال أنطاكية كدرب بغراس والمصيصة ، اشتبك معهم بكل ما لديه من قوى بحرية في الموقعة المعروفة بذات الصواري ، وفيها انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ثبت لهم السيادة

(١) المغربي ، نفع الطيب ، ج ١ ص ٢٥٩ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٠٥ .

(٢) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر سنة ١٣٥٢ هـ ، ص ٦٤ - ١٠٥ - حين مؤنس ، فيبر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٢٤٢ - ٢٧٨ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٣٤ - ١٥٢ .

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٤٦ .

البحرية في البحر المتوسط ، وأدى إلى تقويض أسطورة التفوق البحري للبيزنطيين . ورأى قنسطانز أمام تحول ميزان القوى البحرية إلى صالح العرب ، اتخاذ صقلية قاعدة له سنة ٤٢ هـ صيانة لأملاكه في افريقية وصقلية وإيطاليا من غزو اسلامي محقق<sup>(١)</sup> ، ولكنه لم يلبث أن اغتيل على يد أحد قواده في سرقوسة سنة ٤٨ هـ ( ٨٦٦ م ) . ثم شغل معاوية بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥ هـ ومعارضة الخليفة الراشد الرابع علي ابن أبي طالب من أجل الظفر بالخلافة ، عن مواجهة البيزنطيين ، فاعتنق هؤلاء الفرصة وشنوا على سواحل الشام هجوماً عاتياً في سنة ٤٩ هـ ( ٦٦٩ م ) سبب خسائر فادحة للمسلمين ، وقد حل ذلك معاوية على تنشيط دار صناعة عكا . ومنذ ذلك الحين أخذ المسلمون يشكلون خطراً متزايداً على البيزنطيين : فقد استعمل معاوية على البحر القائد العربي عبدالله بن قيس الذي غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة ، واستهل معاوية جهاده ضد القسطنطينية بأن أغزى سفيان بن عوف العامري إلى الطوانة بأرض الروم ، فأصيب جيشه بالحمى والجدرى ، ثم أغزى بعده فضالة بن عبيد الأنصاري في سنة ٤٩ هـ برأ إلى القسطنطينية ، وسيّر ابنه يزيد في قوة إسلامية لتعزيز هذه الحملة فسميت غزوة يزيد بن معاوية بالرافدة<sup>(٢)</sup> .

وبدأ العرب ينافسون البيزنطيين في البحر ، ونجح جنادة بن أبي أمية الأزدي في فتح جزيرة رودس عنوة في سنة ٥٢ هـ ، وأنزلها قوماً من المسلمين<sup>(٣)</sup> . وفي سنة ٥٤ هـ افتتح جنادة بن أبي أمية الأزدي جزيرة

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٤٩ .

Charles Diehl, Histoire du moyen âge, t. III: le monde oriental, Paris 1936 (٢) p. 239.

غفار المبادي ، دراسات في تاريخ العرب ، ص ٥ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٢٠ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة صادر ، بيروت ج ٢ ص ٢٢٩ - السمردي ، مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤ - الطبري ج ٦ ص ١٣٠ .

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٨ .

أرواد ( كزيكوس ) في مياه القسطنطينية ، وأسكنها معاوية المسلمين ، واتخذها قاعدة لتوجيه حملاته البحرية على القسطنطينية أثناء حرب الأعوام السبعة ، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر المحاصرة القسطنطينية <sup>(١)</sup> . وفي سنة ٥٥ هـ غزا جنادة أقریطش <sup>(٢)</sup> ، وتهيأ له بعد ذلك مهاجمة البيزنطيين في القسطنطينية عاصمتهم <sup>(٣)</sup> .

## ٢ - توافر المواد الخام والأيدي العاملة الماهرة :

عندما عزم معاوية بن أبي سفيان وهو بعد والي على الشام على إنشاء أسطول عربي إسلامي ، كان يعلم تماماً أن في إمكانه تحقيق هذا الهدف ، فالأخشاب التي يمكن أن تصنع منها ألواح السفن والصواري والمجاديف تتوافر في مناطق متعددة من الأراضي العربية في مصر والشام : فأشجار الصنوبر القوي والأرز والبلوط والعرعر تزخر بها جبال لبنان وسورية ، كما أن أخشاب السنت المصري الصالحة لعمل الصواري وضووع جوانب السفن ، وخشب الجيز والأثل والبلخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاذيف والقرايا اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور <sup>(٤)</sup> . وكانت أشجار السنت تكثر في البهنساوية وسقط ريشين والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية <sup>(٥)</sup> . كذلك كان في إمكان معاوية استغلال معدن الحديد المتوفر في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمرامي والخطاطيف والفؤوس ، كما يتوفر بمصر القطران الوارد من ليبيا <sup>(٦)</sup> وهو مادة لازمة لقلطة السفن ، ونبات يقال له الدقس كانت تصنع منه حبال السفن <sup>(٧)</sup> . وبالإضافة إلى

(١) إبراهيم المندي ، الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ ص ١٦٥ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٣) إبراهيم المندي ، قرات البحرية العربية ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٥٦ وما يليها .

(٤) الفريد لوكس ، المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة الدكتور زكي اسکندر القاهرة ، ١٩٤٥ ص ٧٠٧ .

(٥) المقرئ ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٠ .

(٦) الإدريسي ، تزمة المختاق ، نشره موزي ودي غوية ، لندن ١٨٩٣ ص ١٣٦ .

(٧) ابن الفقيه الحمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، لندن ١٨٨٥ ص ٦٦ .



هذه المواد الضرورية لصناعة السفن كانت تتوفر في الشام ومصر الأيدي العاملة الخيرة . ونستدل من الوثائق البردية التي ترجع إلى عهد قرة ابن شريك وإلى مصر عن وظائف كثير من صناع السفن في مصر كالتجارين والمقلفطين وقصاري الأقمشة ممن كانوا يشتغلون في دار الصناعة بالإسكندرية<sup>(١)</sup>. وقد لعب القبط دوراً رئيسياً في صناعة الأسطول الإسلامي السوري والمصري والمغربي كما سبق أن أشرت إليه في مقدمة الكتاب ، وشاركوا في المعارك البحرية التي خاضها العرب ضد البيزنطيين . وقد ازدادت أهمية البحرية الإسلامية منذ أن أسس مسلمة بن خالد الأنصاري وإلى مصر من قبل معاوية دار صناعة جزيرة الروضة في سنة ٥٤ هـ على أثر قيام البيزنطيين بمهاجمة بلدة البرلس في سنة ٥٣ هـ ، وفي هذه الغزوة قتل وردان مولى عمرو بن العاص ، وعائذ بن ثعلبة البلوي ، وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمي في جمع كثير من الناس<sup>(٢)</sup> . أما أهل الشام وبالذات سكان السواحل اللبنانية من صور وصيدا جنوباً إلى جبيل وطرابلس شمالاً فقد برعوا في صناعة السفن وتمرسوا في ركوب البحر ، ونبهوا في قيادة الأساطيل منذ أقدم العصور بحكم تطلّهم إلى البحر واحتكاكهم التجاري بعالم البحر المتوسط القديم ، ونستدل من ظهور أشكال السفن الصيدونية منقوشة على عملات صيدا في العصر الفارسي مثلاً على أن صيدا لعبت دوراً هاماً في التاريخ البحري القديم بحيث اتخذت السفن رمزاً ينقش على عملاتها ، فقد اشتركت صيدا في الحرب الفارسية اليونانية في عهد كل من احشورش وارتخششتا الأول<sup>(٣)</sup> . ولا ينبغي أن ننسى أن معاوية اعتمد أيضاً على عناصر عربية مبنية تنتمي إلى قضاة كانت قد استقرت في مشارف الشام قبل نزوح الأزدي الغساسنة وأعني بهم بني سليح بن حلوان القضاعين<sup>(٤)</sup> ،

(١) فتحي عبان ، ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٢) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق وفن جيت ، بيروت ١٩٠٨ ص ٣٨ .

(٣) عبد المزيز سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي ، بيروت ١٩٧٠ ،

ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٨ .

(٤) السعوي ، التنبيه والافراف ، طبعة بيروت ص ١٨٦ .

ثم غلبهم الأزد الغساسنة وحاولوا محلمهم فيما يقرب من القرن الثاني الميلادي (١١) ، وقد سبق أن أشرنا في مقدمة الكتاب إلى احتفاظ هؤلاء اليمنية بتقاليدهم البحرية التي ورثوها عن أجدادهم السبئيين والمحييريين . ويكفي أن نذكر أسماء ثلاث شخصيات أزدية غسانية لعبت دوراً هاماً في قيام البحرية الإسلامية في العصر الأموي : هم جنادة بن أبي أمية الأزدي فاتح جزيرتي رودس وإقريطش ، وسفيان بن مجيب الأزدي فاتح طرابلس الشام التي كانت قد استعصت على المسلمين زمناً طويلاً ، وحسان بن النعمان الغساني مؤسس البحرية في تونس ، وقد أشرنا فيما سبق إلى نزول كثير من القبائل اليمنية في سواحل مصر لاسيا الاسكندرية للرباط والحراسة .

### ٣ - ارتباط مصر والشام وتضامنها في العمليات الحربية ضد البيزنطيين :

حتم الموقع الجغرافي لمصر وبلاد الشام والمصالح السياسية والاقتصادية المشتركة قيام روابط وثيقة بين القطرين الشقيقين منذ أقدم العصور التاريخية ، تدل عليها بعض المظاهر الحضارية في الاقتصاد ، وفي الفكر والدين والفن (١٢) ، وقد تأكدت هذه الصلات التاريخية وتوثقت الروابط الاقتصادية والسياسية عبر التاريخ القديم والتاريخ الوسيط ، بحيث ارتبطت البلدان بمصير واحد في معظم الأحوال : فتعرضا للسيطرة الأجنبية الأشرورية والفارسية واليونانية والرومانية في العصر القديم وخضعا للدولة البيزنطية ، ثم دخلا في فلك الدولة العربية الإسلامية ، وارتبطا بوحدة وثيقة زمن الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، وأصيبا بكارثة الغزو الصليبي ، والغزو المغولي والغزو العثماني .

وأدرك العرب حقيقة التلاحم والتواصل بين البلدين الشقيقين منذ الفتح العربي الإسلامي للشام ، فاستلزم فتح الشام فتح مصر . وفي عصر الخلافة

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ١٩٧١ ص ٢٢٦ .

(٢) رشيد الناضوري ، أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ .

الراشدة خاض الأسطول المصري مع الأسطول الشامي المارك البحرية ضد البيزنطيين، وفيها اشترك مقاتلة من القبط مع إخوانهم المسلمين، ووطن معاوية منذ بداية الصراع بينه وبين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب إلى أهمية ضم مصر إلى سلطانه، فانتدب عمرو بن العاص للاستيلاء عليها وضمها إلى ملكه بالشام قبل اجتماع الحكين في دومة الجندل حرصاً منه على ضمان التفوق البحري. ومنذ ذلك الحين أصبح تاريخ مصر هو تاريخ الشام ومصر مصر مصيره، وتساند البلدان في الحن وتكاتفا في الأزمات، فكانت مصر خلال مراحل الكفاح التاريخي للعرب في العصر الوسيط المعقل الأمان للاسلام ومركز الثقل في المنطقة كلها، وعليها وقع عبء النضال في معظم فترات التاريخ الوسيط ضد قوى العدوان لاسيما الصليبي والمغولي الذي انحصر هدفه على سحق قوى مصر وقهرها<sup>(١)</sup>، وكان ذلك من أسباب انتقال مسرح الصراع الإسلامي الصليبي إلى مصر. وكانت للشام أيضاً الفضل الأكبر في إنقاذ مصر والدفاع عنها عندما انتهز الصليبيون فرصة ضعفها وحاولوا الاستيلاء عليها زمن الخليفة الفاطمي العاضد، وشهدت مصر صراعاً عنيفاً بين نور الدين محمود بن زنكي الداعي إلى تأليف جبهة إسلامية متحدة وبين الصليبيين في سبيل ضم مصر<sup>(٢)</sup>.

وكان لتضامن مصر والشام في مرحلة التحدي البيزنطي لقوى الإسلام بعد حركة الفتوحات العربية الإسلامية، ووقوف البلدين معاً إبان عمليات الغزو البحري التي كان يوجهها البيزنطيون إلى سواحل الشام ومصر، أكبر الأثر في تحقيق أمل معاوية في إنشاء بحرية إسلامية، ولم ترض مصر عليه بخبرات ملاحيها وصنّاعها الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها<sup>(٣)</sup>، وكان من أثر هذا التعاون الوثيق قيام

(١) جوزيف نسم، الوحدة وحركات القطة إبان العدوان الصليبي، الاسكندرية، ١٩٦٧ ص ٥١

(٢) جمال الدين الشال، وحدة مصر وسورية في العصر الإسلامي، محاضرات جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨ ص ٩.

(٣) فلهم هونيديج، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية، تطوان ١٩٥٤ ص ١٨ - مختار المبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤.

بحرية عربية إسلامية ، شامية مصرية مشتركة ، حولت خطط العرب من استراتيجية دفاعية إلى هجومية ، في مرحلة مبكرة للغاية من تاريخهم الإسلامي ، وغرت صفحات هذا التاريخ بالأبجاد والمفاخر والبطولات .

### ( ٣ )

#### الوقائع البحرية الهامة بين العرب والبيزنطيين حتى نهاية العصر الأموي

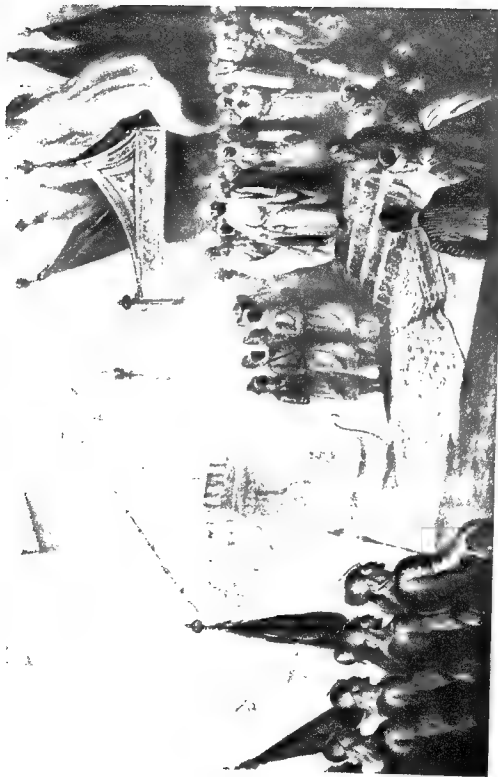
خاض العرب ثلاثة وقائع بحرية هامة ضد البيزنطيين : الأولى حسمت السيادة البحرية في حوض البحر المتوسط ، وقلبت التفوق البيزنطي لصالح المسلمين ، وأعني بها موقعة ذات الصواري . أما الموقعتان الأخريان المتعلقتان بحصار المسلمين للقسطنطينية ، مرة في خلافة معاوية ومرة أخرى في خلافة سليمان بن عبد الملك ، فقد صاحبها الفشل وتسببتا في تدمير العدد الأعظم من قطع الأسطول الإسلامي .

#### موقعة ذات الصواري :

تشير المصادر العربية إلى أن معاوية خرج مع أهل الشام ومصر في أسطول من مائتي مركب<sup>(١)</sup> ، تولى قيادته البحرية عبدالله بن سعد ، مستهدفاً مهاجمة الدولة البيزنطية في أراضيها ، وبلغت هذه الأنباء قنسطانز ، فاتخذ أهبطه لمعركة حامية ، وأعد أسطولاً هائلاً من ٥٠٠ سفينة وقيل ٦٠٠ وقيل ٧٠٠ « لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام » للانتقام لما أصابهم على أيدي المسلمين في إفريقية<sup>(٢)</sup> . وإذا بحثنا هذا الدافع وجدنا أن العرب

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٦ .

(٢) الطبري ، ج ٥ ص ٦٩ ( أحداث سنة ٣١ هـ ) وفي رواية كان الاسطول البيزنطي مؤلفاً من ألف سفينة ( ابن عبد الحكم ، ص ٢٥٦ ) .



مماوية يفتح قبرص - للرام مصطفى فروح



في الفترة ما بين سنة ٢٨ هـ التي تسجل حملة عبدالله بن سعد على إفريقية وغزو معاوية لقبرص، حتى سنة ٣٤ هـ التي وقعت فيها معركة ذات الصواري ، لم يقوموا بنشاط فعال في إفريقية <sup>(١)</sup> ، كما أن التفسير الذي أورده الدكتور ابراهيم أحمد العدوي للاشتباك البحري في ذات الصواري ويتلخص في أن أخباراً ترامت إلى قنسطانز باستعدادات بحرية هائلة وأخرى برية يقوم بها معاوية لضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة ، يبدو لنا غير مقنع ، لأنه لا يستند لا على أسانيد وثائقية ولا حتى على استدلالات منطقية ، فالبحرية الإسلامية كانت ما تزال بعد في دور التكوين والإنشاء ، ولا يعقل أن يقوم العرب في هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم البحري بغزو بيزنطة المدينة المنيعه التي يرجع إلى حصانتها وروعة موقعها الفضل في استمرار الدولة البيزنطية حتى نهاية العصر الوسيط <sup>(٢)</sup> . ولما كانت الموقعة قد دارت بالقرب من ساحل ليكيا ، فالأرجح أن هناك سبباً آخر دعا العرب إلى الاقتراب من هذا الساحل بآسيا الصغرى ، وأعتقد أنهم كانوا يسعون إلى الحصول على مصدر جديد للأخشاب الجيدة اللازمة لصناعة السفن ، مثل خشب البالوط الصلب اللازم لصناعة الصواري والقرايا والأقواس ، وخشب التنوب الكيليكى الذي ينمو في آسيا الصغرى ، والعمرعر الشبيه بشجر الأرز <sup>(٣)</sup> ، ونستدل على هذا الرأي بأن كلمة ذات الصواري لم تطلق نسبة إلى كثرة صواري السفن ، كما يزعم فريق من المؤرخين العرب <sup>(٤)</sup> ، ولكن نسبة إلى موضع بهذا الاسم استنتاجاً من قول الطبري : « فركب في مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري ، فلقوا

(١) راجع : عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامي ، وهو الجزء الثاني من كتاب المغرب الكبير ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٧٤ .

(٢) استمتعت القسطنطينية مرات عديدة على الغزاة والفاحين عبر التاريخ ، وأهم هؤلاء الغزاة الجرمان والبلغار والعرب والروس والمغول .

(٣) لوكس ، المواد والصناعات ، ص ٦٩٤ - ٧٠٣ .

(٤) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٣ .

جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستائة»<sup>(١)</sup> ، وقوله أيضاً : « وأقام عبدالله بذات الصواري أياماً بعد هزيمة القوم »<sup>(٢)</sup> ، ولا يمكن أن يسمى موضع بهذا الاسم إلا لكونه مصدراً لأخشاب تصنع منها الصواري . والظاهر أن قنسطانز كان قد ترامت إليه أنباء هذه الحملة بدليل أنه كان متأهباً لاستقبال سفن الأسطول الإسلامي بسفن لم ير العرب مثل عددها قط . ولو أن العرب كانوا ينوون حقاً غزو القسطنطينية لما غامروا بالخروج في سفن قليلة نسبياً ولما هالهم عدد السفن البيزنطية . ومعرفة قنسطانز مسبقاً بقدوم السفن العربية إلى الساحل البيزنطي يدل على أحد أمرين : إما أن مجيء هذه السفن العربية إلى الساحل المذكور لم يكن للمرة الأولى ، وأنه سبق لهم أن قدموا إليه ، فوصلت أنباء ترددهم على الساحل إلى قنسطانز عن طريق سكان المنطقة ، فتوعد لمجيئهم ، وهذا التفسير يؤكد وجهة نظري في تبرير وصول السفن العربية إلى تلك النواحي وقلة عددها قياساً إلى سفن الروم ثم اصطدامها بالأسطول البيزنطي كله ، أو أن يكون قنسطانز قد علم بتحركات المسلمين وأطلع على نواياهم عن طريق عيونه وجواسيسه الذين بثهم على سواحل الشام ، بدليل ما كان يحدث في هذه السواحل من حركات انتفاض كما حدث في طرابلس والاسكندرية ، الأمر الذي دعا معاوية في نهاية الأمر إلى الإقدام على تبديل سكان الساحل بعناصر مكانية جديدة وافدة ، من الفرس والزلط .

وأياً ما كان السبب في خروج المسلمين إلى ساحل آسيا الصغرى ، فقد هال المسلمين منظر البحر وقد امتلأ سفناً بيزنطية . ويورد الطبري رواية على لسان مالك بن أوس بن الحدثان أحد رجال المسلمين قال : « كنت معهم ، فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلاً قط »<sup>(٣)</sup> . واشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم في معركة عنيفة ، فربط المسلمون

(١) الطبري ، ج ٥ ص ٧٠ ( حوادث ٣١ ) .

(٢) نفسه - ابن الأثير ، ج ٣ ص ١١٨ .

(٣) الطبري ، ج ٥ ص ٧٠ .



سفنهم بعضها إلى بعض وحولوا المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية ، واشتد القتال وقتل من الجانبين أعداد هائلة ، واختلطت دماء القتلى بيماء البحر فصبغته بلونها الأحمر القاني ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركماً<sup>(١١)</sup> . ولكن المعركة انتهت بانتصار حاسم للمسلمين<sup>(١٢)</sup> . وبهذا الانتصار العربي ثبتت للعرب السيطرة على حوض البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين<sup>(١٣)</sup> ، ويمتلك الأستاذ فتحي عثمان على انتصار العرب في ذات الصوري بأنها « تعتبر حداثاً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط ، ذلك أن قنسطانز كان يرمي إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها ، ولو أنه وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين »<sup>(١٤)</sup> .

#### حصار المسلمين الأول للقسطنطينية ( ٥٤ - ٦٠ / ٦٧٣ - ٦٧٩ م )

مهد معاوية بن أبي سفيان للحروب التي خاضتها قواته البحرية والبحرية حول القسطنطينية نفسها فيما بين عامي ٥٤ ، ٦٠ هـ بمجمات استطلاعية برية وبحرية متتابعة بقصد دراسة الطرق المؤدية إلى الحاضرة البيزنطية ، نذكر من بينها شاتية بسر بن أبي أرطاة بأرض الروم في سنة ٤٣ هـ التي بلغ فيها القسطنطينية ، وفقاً لما رواه الواقدي ، وإن كان فئة من المؤرخين طعنوا في صحة هذا التاريخ<sup>(١٥)</sup> ، وحركة بسر البحرية في سنة ٤٤ هـ ،

(١) الطبري ، ج ٥ ص ٧٠ .

(٢) راجع تفاصيل المعركة في :

ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٨ - الطبري ، ج ٣ ص ٦٩ ، ٧١ - الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ١٣ - حسين مؤنس ، أثر ظهور الاسلام في الأراض السياسية والاقتصادية في البحر المتوسط ، المجلة التاريخية ، مايو ١٩٥١ ص ٩٠ - ٩٤ - ابراهيم أحمد العدوي ، قوات البحرية العربية ، ص ٤٤ - ٥٢ .

(٣) ابراهيم أحمد العدوي ، الدولة الاسلامية وايمراطورية الروم ، ص ٦٤ - Aly Fahmy, op. cit. p. 89.

(٤) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٨ .

(٥) الطبري ، ج ٦ ص ١٠٣ .

وشاتية مالك بن عبيد الله بأرض الروم في سنة ٤٦ هـ ، وشاتية مالك بن هبيرة بأرض الروم في سنة ٤٧ هـ ، وصائفة عبدالله بن قيس الفزاري بجزراً ، وغزوة مالك بن هبيرة السكوني بجزراً ، وغزوة عقبة بن عامر الجيني بأهل مصر في البحر سنة ٤٨ هـ . وفي سنة ٤٩ هـ ( ٦٦٨ م ) أرسل معاوية حملة برية لغزو القسطنطينية بقيادة سفيان بن عوف ثم أردف به ابنه يزيد بعدما أصاب المسلمين في غزاتهم جوع ومرض شديد ، وصحب يزيد بن معاوية معه ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري<sup>(١)</sup> ، فأوغلت الحملة في بلاد الروم حتى بلغ المسلمون القسطنطينية ، واشتبكوا مع البيزنطيين في قتال عنيف ، وتقاتل المسلمون في القتال ، واستشهد من أبناء الصحابة عبد العزيز بن زرارمة الكلبي ، فبلغ خبر استشهاد معاوية فقال فيه « والله هلك فتى العرب »<sup>(٢)</sup> . وفي هذه الواقعة توفي أبو أيوب الأنصاري وهو يحاصر القسطنطينية ، فدفن بالقرب من سورها . وعاد يزيد بعد ذلك مع جيشه إلى الشام في نفس العام .

وظل المسلمون يهاجمون الأراضي البيزنطية صيفاً وشتاءً في البر والبحر حتى استولى الأسطول على أزمير واحتل ليكنيا ، كما استولى على جزيرة رودس وكوس وخيوس . وفي سنة ٥٤ هـ بدأ الحصار الفعلي للقسطنطينية ، واستدعي الأمر تعزيز القوة البحرية ، فانضم إلى الأسطول الإسلامي الم رابط في مياه القسطنطينية أسطول إسلامي بقيادة جنادة بن أبي أمية ، استولى على جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية<sup>(٣)</sup> ، فاتخذها المسلمون قاعدة بحرية أمامية لإمداد الجيش المحاصر للعاصمة البيزنطية بالميرة والسلاح والرجال ، ولقطع الطريق على سفن الروم . وأحكم المسلمون الحصار البري والبحري طوال العام ، اشتبكت أثناءه سفن بيزنطة مع السفن الإسلامية كما استمرت المراكب البرية تدور بين الجيشين العربي والبيزنطي . ثم اضطر المسلمون إلى فك

(١) الطبري ، ج ٦ ص ١٣٠ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥٩ .

(٣) الطبري ، ج ٦ ص ١٦٤ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٩٧ .

الحصار عن القسطنطينية عندما حل الشتاء ، وأقام المسلمون في أرواد انتظاراً لحلول الربيع لكي يستأنفوا عملياتهم الحربية . فلما حل الربيع تابع المسلمون حصار القسطنطينية ، ولكنها استعصت عليهم ، وتكرر ذلك عدة سنوات حتى سنة ٦٠ هـ ، أبدى أشرافها المسلمون كثيراً من ضروب البسالة والإقدام على الرغم من توسل البيزنطيين في الدفاع بوسائل كيميائية لا طاقة للعرب بمكافحتها ودفع خطرهما ، فقد استخدم الدفاع البيزنطي النار البحرية التي عرفت فيما بعد بالنار اليونانية <sup>(١)</sup> كوسيلة دفاعية ، تسببت في حرق عدد كبير من قطع الأسطول الإسلامي وفي بث النعر والهلع في نفوس المحاصرين للمدينة ، وأدرك معاوية في آخر أيامه استحالة الاستمرار في محاصرة القسطنطينية بسبب استخدام المدافعين عنها هذا السلاح الفاتك ، خاصة وقد استنزف الحصار قواهم وتحطم العديد من سفنهم ، فقد مع قسطنطين الرابع امبراطور الدولة البيزنطية معاهدة صلح في سنة ٦٢٩ مدتها ثلاثون عاماً <sup>(٢)</sup> .

(١) محمد عبدالله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٩٣٤ ص ١٠٢ .

وكانت النار اليونانية تتركب من نطف مريح الالتهاب ومن الكبريت والنار بنسب غير معروفة ، بحيث كان هذا التركيب الكيميائي يزداد اشتعالاً عند ملامسته الماء ولا يخبث إلا باستخدام الرمل والحل . وغترع هذا السلاح الرهيب الذي قتلك بسفن المسلمين وأدى إلى فشل حصارهم للقسطنطينية هو مهندس سوري الأصل اسمه كالينيكوس كان في خدمة العرب في الشام ثم فر إلى القسطنطينية ( Diehl, le monde oriental, p. 241 )

(٢) راجع التفاصيل في المراجع الآتية : Canard, les expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende, J. A. 1926, pp. 36 — 80.

2 — Diehl, le monde oriental, p. 241.

3 — Finlay, History of the Byzantin Empire, Oxford, 1877.

4 — Ostrogorsky, History of the Byzantin state, Oxford, 1961.

5 — Vasiliev, Byzance et les Arabes, t. I, Bruxelles 1935.

6 — Sперos Vryonis, Byzantium and Europe, p. 64.

الباز العربي ، الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٤٨ — ١٥٢

محمد عبدالله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ص ٣٢ — ٣٦

المعوي ، قوات البحرية العربية ، ص ٥٧ — ٦٦ .

## حصار المسلمين الثاني للقسطنطينية (٩٨ - ٩٩٩ / ٧١٧ - ٧١٨)

لم يُثبِط الفشل الذي صاحب محاولة معاوية في فتح القسطنطينية مهم خلفاء بني أمية من بعده في معاودة الكرة ، ولم يقض على آمالهم في محاولة فتحها من جديد . والواقع أن الفكرة ظلت تراود الخلفاء المروانيين بعد مروان بن الحكم ولكن وضعها موضع التنفيذ كان يحتاج لدراسة واقية وإعدادات مسبقة ، واستعدادات كاملة . وبدأ التأهب للحصار الثاني منذ بداية عهد الوليد بن عبد الملك ، الذي تابع سياسة تقوية الأسطول الإسلامي ، وعمل على تنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية وخلق مناح طيب للعمليات الحربية ضد الامبراطورية البيزنطية ، واتخذ الوليد من منطقة الشغور بآسيا الصغرى مجالا لتدريبات قواته . وفي سنة ٩٤ هـ ، بدأ يعد حملة بحرية برية بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك ، وما إن ترامت أخبار هذه الاستعدادات إلى السلطات البيزنطية حتى بدأت تهتم بتدعيم وسائل الدفاع عن أسوار القسطنطينية ، كما عُنيت بتقوية الدفاع البحري تمهيدا لحصار قد يطول أمده كما حدث في الحصار الأول . ولكن وفاة الخليفة الوليد أدت إلى إرجاء إنفاذ الحملة إلى مقصدها ، فلما اعتلى سليمان عرش الخلافة ، أخذ يجهز الجيوش للسير إلى القسطنطينية ، مدفوعاً بنبوءة تواترت على ألسن الفقهاء ، ومهد لذلك بغزوة بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري على بلاد الروم في سنة ٩٧ هـ<sup>(١)</sup> . وفي العام التالي حشد سليمان قوات كثيفة برية وبحرية زودها بمقادير هائلة من المؤن والأقوات والسلاح لحرب طويلة الأمد ، بقيادة أخيه مسلمة ، وأمره بأن يتوجه إلى القسطنطينية وأن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره .

وأقام سليمان في دابق ، وأعطى الله عهداً « أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى الروم القسطنطينية »<sup>(٢)</sup> . ويذكر الطبري أن مسلمة

(١) الطبري ، ج ٨ ص ١١٣ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦ .

(٢) الطبري ، ج ٨ ص ١١٨ .

لا توغل في آسيا الصغرى هابه الروم ، فاتصل به قائد أرمني اسمه ليو كان يتطلع إلى الظفر بالعرش الامبراطوري ويسدبر أمره لانتزاعه من نيودوسيوس الثالث ( الذي ولاه الجند في سنة ٧١٦ م بعد أن عزلوا أنستاسيوس الثاني ) ، فاتفق ليو مع مسلمة على خطة تتيح للمسلمين فتح القسطنطينية ، وما كاد يصل إلى القسطنطينية حتى غرر بهم وخدعهم بعد أن تحايل على تجريدكم من كل أقواتهم<sup>(١)</sup> . وتشير المصادر البيزنطية إلى أن ليو الأرمني الذي اعتلى العرش باسم ليو الثالث الإيسوري دخل القسطنطينية حيث توج امبراطوراً في مارس سنة ٧١٧ م ( ٩٨ هـ ) . أما مسلمة فقد تابع سيره حتى وصل إلى مشارف القسطنطينية في أواخر سنة ٩٨ بقيادة جيش عدته ثمانون ألف مقاتل سوى ما اجتمع للعرب تحت أسوار العاصمة في البر والبحر . وحاصر مسلمة القسطنطينية براً وبحراً ، ونصب عليها المجانيق ، ولكن أسوار المدينة المنيعه وقوة الدفاع البيزنطي وفعالية النار اليونانية ردت المسلمين عن اقتحام العاصمة البيزنطية موجة بعد موجة من الهجوم . ومع ذلك فقد واصل مسلمة بعناد محاصرة المدينة وشدد الضغط عليها ، وحفر حول معسكره حفراً عميقاً ، وانتسف المزارع القريبة ، ومنع الأقوات من التسرب إلى داخلها<sup>(٢)</sup> . أما الأسطول فقد رابطت قطعه حول المدينة ، وتشير الروايات البيزنطية إلى أن قطع الأسطول الإسلامي بلغت ١٨٠٠ سفينة كبيرة كان يتولى قيادتها قائد يقال له سليمان<sup>(٣)</sup> ، لعله سليمان بن معاذ الأنطاكي أحد قادة الحملة . وتمكن هذا الأسطول الضخم من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود ، ولكن عاصفة عاتية حطمت عدداً من السفن وسببت خللاً في مسيرته ، فانتبهز البيزنطيون هذه الفرصة وسلطوا نيرانهم اليونانية على السفن الإسلامية فأحرقوا عدداً كبيراً منها . واستمر المسلمون بالرغم من ذلك يحكون الحصار

(١) نفس المصدر ، ص ١١٨ .

(٢) مواقف حاسمة ، ص ٣٩ .

(٣) Diehl, le monde Oriental, p. 251, 252.

على المدينة طوال السنة إلى أن توفي سليمان بن عبد الملك في ١٠ من صفر سنة ٩٩ هـ ، وقد حل الشتاء ببرده وثلجه ، فهلك عدد كبير من عسكر المسلمين من البرد ، ونفقت معظم الخيول والدواب ، وعمدت الأقوات ، كما توفي سليمان قائد الأسطول فسببت وفاته اضطراباً في صفوف البحريين ، وحل الضيق والتحط بمعسكر المسلمين حتى أكل الجند الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب<sup>(١)</sup> . وظل الأمر كذلك إلى أن كتب الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقول منها بمن معه من المسلمين ، ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً ، وحث الناس على معونتهم<sup>(٢)</sup> .

ويعتبر فشل المسلمين في الإستيلاء على القسطنطينية للمرة الثانية حدثاً من أهم أحداث تاريخ المصور الوسطى ، وكتب للإمبراطورية البيزنطية البقاء بخروجها ظافرة من محنة الحصار ، وظلت تحتفظ بهيبتها أمام دول الغرب الأوروبي فترة طويلة .

---

(١) الطبري ، ج ٨ ص ١١٨ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٠ .







## الفصل الثاني

### القوى البحرية في مصر والشام في ظل العباسيين والطلوئيين

(١)

#### أثر استيلاء المسلمين على قرينطش في استعادتهم للسيادة البحرية في شرق البحر المتوسط

في بداية العصر العباسي توقف النشاط البحري للمسلمين في مصر والشام فترة دامت ما يقرب من خمسين سنة ، بسبب انصراف الدولة العباسية - التي انتهجت منذ قيامها سياسة مشرقية وتطلعت بوجهها نحو خراسان - عن شؤون البحر ، ونفض يدها من محاربة البيزنطيين في البحر المتوسط<sup>(١)</sup> ، بسبب تفرغها لمشاكلها الإقليمية والخارجية . وقد ساعد على تجمد النشاط البحري الإسلامي في شرق البحر المتوسط انصراف الدولة البيزنطية هي الأخرى عن المصادمات البحرية مع المسلمين بسبب الفتن الداخلية والمشاكل الخارجية التي عصفت بها كالنزاع اللايقوني الذي تجدد منذ أن اعتلى ليو الخامس الأرمني العرش البيزنطي ، وثورة توماس الصقلي التي احتدمت ناراها في أعقاب مصرع ليو الخامس في سنة ٨٢٥ ( ديسمبر ٨٢٠ م ) ، والصراع مع البلغار منذ عهد قسطنطين السادس وأمه إيرين ، كما ساعد

(١) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والإنصال الحضاري ، ج ١

ص ٣٨٢ ، ج ٢ ص ٣٤٧ .

على ذلك أيضاً انفصال المغرب الإسلامي والأندلس عن المشرق سياسياً ، وتطلعه إلى القيام بدور بحري هام ، واعتماده في ذلك على مقوماته الذاتية مع استغلاله للظروف السيئة التي كانت تحتازها الامبراطورية البيزنطية .

ومع ذلك فقد أبدى خلفاء بني العباس ابتداء من الرشيد اهتماماً خاصاً بالشؤون البحرية ، فالبلاذري يشير إلى ذلك بقوله : « وقد رأينا من اجتهد أمير المؤمنين هارون في الغزو ، ونفاذ بصيرته في الجهاد أمراً عظيماً : أقام من الصناعة ما لم يقم قبله ، وقسم الأموال في الثغور والسواحل وأشجى الروم وقمعهم ، وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة »<sup>(١)</sup>. والرشيد ، كما يشير الطبري ، ولقي حيد بن معيوف سواحل بحر الشام ومصر في سنة ١٩٠ هـ ، فغزا جزيرة قبرص عندما نكت أهلها العهد مع المسلمين ، « وهدم وحرق وسبي من أهلها ستة عشر ألفاً ، فأقدمهم الرافقة ، فتولى بيعهم أبو البخاري ، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار »<sup>(٢)</sup> ، كما غزا جزيرة اقريطش<sup>(٣)</sup> . وعلى هذا النحو بدأ العباسيون يسمون منذ خلافة الرشيد إلى استعادة السيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط الشرقي<sup>(٤)</sup> ، لإيجاد نوع من التوازن مع المفاربة والأندلسيين الذي آلت إليهم السيطرة على نصفه الغربي . ولكن الأوضاع في البحر المتوسط الشرقي أخذت تتغير بالتدريج لصالح المسلمين ، ليس بفضل الجهود التي بذلها الرشيد والمتوكل على الله فحسب بل بفضل جهاد غزاة

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٩٩ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٩٦ - السيوطي ، تاريخ الخلفاء ،

بيروت ١٩٦٩ ص ٢٦٨ .

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤) وما يثبت هذا السمي والاهتمام ، أن الرشيد رام أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القازم بما يلي بلاد القرمات نحو بلاد تليس ، فنصحه يحيى بن خالد البرمكي بالانصراف عن تنفيذ ذلك فخوفه من دخول مراصب الروم في البحر الأحمر وتهديد الحجاز ، فعدل الرشيد عن المضي في تنفيذه ( للسعودي ، مروج الذهب ، مجلد ٢ ص ٢٦٤ - السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٦٦ ) .

البحر الأندلسيين<sup>(١)</sup>، ونشاط البحرية الأغلبية<sup>(٢)</sup>، وذلك عندما تمكنت طائفة من الغزاة البحريين الأندلسيين من النزول في إقریطش والاستيلاء عليها في سنة ٢١٢ هـ في الوقت الذي كان القاضي أسد بن الفرات قائد الأمير زيادة الله بن الأغلب ينزل مع قواته في مازر من موانئ صقلية ويشرع في فتح هذه الجزيرة الكبرى<sup>(٣)</sup>.

ومنذ أن تمركز الأندلسيون في إقریطش استأنفت البحرية الإسلامية نشاطها في مصر والشام، فلم تلبث إقریطش أن دخلت في طاعة الخليفة العباسي لتستظل بحمايته بسبب ما منهم من بلاده ودنو جزيرتهم من سواحل مصر<sup>(٤)</sup>، فأصبحت إقریطش في التقسيم الإداري للدولة العباسية إقليماً تابعاً لمصر<sup>(٥)</sup>، حتى سقوطها في أيدي البيزنطيين في سنة ٣٥٠ هـ، وكانت مراكز أهل إقریطش «تدير أهل مصر بخيرات جزيرتهم وأطمعتهم»، وكانت هداياهم تصل إلى عمال مصر<sup>(٦)</sup>، ويشير النويري السكندري إلى أنه كانت يعمل من إقریطش «العسل النحل والجن الكثير لمصر والشام ويسمى بلغة الفرنج كنديا»<sup>(٧)</sup>، نسبة إلى مدينة كندية أو الحندق قاعدة

- 
- (١) راجع في ذلك ما كتبه في: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، بيروت ١٩٦٩ ص ٢٠-٥٣، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ١٢٨-١٤٥، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ٤٧-٨٢، ١٢٢-١٢٦.
- (٢) راجع أيضاً في ذلك: المغرب الكبير، ج ٢ ص ٣٨٥-٣٩٢، تاريخ البحرية ص ٩٥-١١١، ١٢١-١٢٢.
- (٣) مارتينو مارو مورينو، المسلمون في صقلية، بيروت ١٩٥٧ ص ٨- عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ١٠٤.
- (٤) انظر نص رسالة الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى الإمبراطور نيويل في: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١١٥-١١٨، وقرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ١ بيروت ١٩٧١ ص ٦٦.
- (٥) إبراهيم أحمد المدري، إقریطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي، المجلة التاريخية المصرية - أكتوبر ١٩٥٠، المجلد الثالث، العدد الثاني، ص ٥٩.
- (٦) القاضي النعمان، قضية إقریطش في عهد المعز لدين الله، تحقيق فرحات الدشراوي، حويات الجامعة التونسية، العدد الثاني ١٩٦٥، ص ٣٣.
- (٧) النويري، الإلام بما قضت به الأحكام ص ١٢٣ أ. ويسميه ابن الأثير «قند» (ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٦٩).

إقريطش . وكانت مصر تتولى تزويدهم بالسلاح والمعدات ، كما كانت دار صناعة دمياط تزودهم بما يلزمهم من السفن التي تلتجها من أخشاب إقريطش . وبفضل هذا الأسطول تمكن أهل هذه الجزيرة من مهاجمة جزر بحر الأرخبيل ، وفرضوا سيادتهم في حوض البحر المتوسط الأوسط ، وبالتدريج أصبحت إقريطش منذ النصف الثاني من القرن الثالث أهم قاعدة بحرية للمسلمين في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط ، وبفضل جهاد أهل إقريطش في البحر وتضامهم مع أهل مصر والشام وازدياد نشاطهم في غزو سواحل الروم وجزر بحر إيجه استعادت البحرية الإسلامية في مصر والشام نشاطها وحيويتها .

وإقريطش تتمتع بموقع استراتيجي ممتاز في وسط حوض البحر المتوسط ، فهي تؤلف جسراً يربط بين شبه جزيرة البالونين وشبه جزيرة الأناضول ، ولهذا فهي تتحكم بحكم هذا الموقع في الممرات المائية إلى بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى ومقدونيا ، ثم هي تجاور عدداً لا يحصى من جزر بحر إيجه مثل جزيرة رودس وسكربتو وميلوس وساموس وخيوس ولتوس وتاسوس وميتلين التي تشكل جميعاً خطاً دفاعياً أمامياً لسواحل الامبراطورية البيزنطية المطلّة على بحر إيجه وبحر مرمرة ، ولهذا السبب يتيسر لفتح هذه الجزيرة تهديد الإمبراطورية البيزنطية تهديداً مباشراً . وجزيرة إقريطش بالإضافة إلى ذلك كله غنية بالأشجار التي يمكن أن يستغلها المسلمون في إنشاء الأساطيل ، وغنية بأراضيها الخصبة الممتدة على السهول الساحلية في شمال الجزيرة . ولقد فطن معاوية بن أبي سفيان إلى أهمية هذه الجزيرة ففزاها في أيامه جناده بن أبي أمية ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من دائرة النفوذ الإسلامي بعد سنوات قليلة من حركة جناده ، على أثر الفشل الذي انتهى إليه حصار المسلمين الأول للقسطنطينية في سنة ٦٠ هـ . ثم غزاها حميد بن معيوف الهمداني الذي ولّاه الرشيد سواحل بحر الشام ( في سنة ١٩٠ ) في خلافة الرشيد ، ففتح جانباً منها<sup>(١)</sup> ، ولكن النفوذ

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

الإسلامي لم يلبث أن انحسر عن الجزيرة مباشرة على أثر رحيل الفزاة . وظلت جزيرة إقريطش تابعة للبيزنطيين الذين حرصوا على الاحتفاظ بها في قبضتهم بسبب ما تتمتع به من استراتيجية تكفل لمن تكون في حوزته السيطرة الفعلية على مداخل بحر إيجه ، والتحكم في الجزر الصغيرة الممتدة ما بين سواحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق ، إلى أن تمكنت قوة من الفامرين الأندلسيين - وهم طائفة من الفزاة البحرين كانت قد ألجأتهم الظروف بعد إحدى غزواتهم إلى إرساء سفنهم على ساحل منطقة الرمل بالاسكندرية في سنة ١٩٨ هـ لابتياح ما يصلحهم من المعاش وشحن سفنهم بالمؤن والأقوات التي تكفيهم لموسم غزوهم التالي ، على نحو ما كانوا يفعلون من قبل في كثير من غزواتهم البحرية -<sup>(١)</sup> من استغلال الأوضاع السياسية السيئة في البلاد المصرية ، واضطراب العرب المقيمين بالاسكندرية ونواحيها من لحْم وبني مدلج ، فدخلوا طرفاً في النزاع ، وأيدوا عمر ابن هلال الحديجي على خصومه ، وأعادوه إلى ولاية الاسكندرية ، وتهيأ لهم بذلك المجال للنزول بأرض الاسكندرية والإقامة في برها على الأقل أثناء فصل الشتاء الذي يتوقف فيه النشاط البحري ، بدلاً من البقاء على ظهور السفن ، ثم انقلبوا على ابن هلال واشتبكوا مع اللخمين في قتال عنيف ، فهزموهم ، ودخلوا الإسكندرية عنوة في ذي الحجة سنة ٢٠٠ هـ ، واستبدوا بشؤونها .

وعزم المأمون العباسي على وضع حد للاضطرابات الداخلية في مصر ، فسير جيشاً من الحراسانيين إليها في سنة ٢١٠ هـ تولى قيادته عبداً ابن طاهر ، وبعث ابن طاهر في طلب بعض السفن العباسية المرابطة في الثغر (طرسوس) إلى تنيس ، وتمكن بفضل قواته من السيطرة على الموقف ، وحاصر الأندلسيين بالإسكندرية ، فصالحوه على أن يخرجوا منها إلى حيث

(١) البقوي ، تاريخ البقوي ( طبعة النجف ) ج ٣ ص ١٧٤ - الكتني ، ص ١٥٨ - تاريخ الاسكندرية ص ١٣٧ - تاريخ البحرية الاسلامية في الغرب ، ص ٧٤ .

أرادوا من جزائر الروم . فاختاروا إقريطش<sup>(١)</sup> ، التي سبق لهم أن أغاروا عليها وعلى غيرها من الجزر اليونانية في عام ٢١١ هـ ، يقودهم أميرهم أبو حفص عمر بن شبيب في أربعين سفينة إلى جزيرة إقريطش ، حيث نزلوا في خليج سودا . ويذكر البلاذري أنهم افتتحوا من إقريطش حصناً واحداً ، ثم توسعوا بعد ذلك ، ففتحوا إقريطش حصناً حصناً<sup>(٢)</sup> ، حتى أمّوا فتحها فيما يقرب من سنة ٢٣٠ هـ<sup>(٣)</sup> ، مستغلين في ذلك حالة الضعف التي أصيب بها البيزنطيون في أعقاب فتنة توماس .

وكان طبيعياً أن يلتزم مسلو إقريطش الأمان في ظل سلطة إسلامية تظلمهم بحمايتها ، فدخلوا في فلك الدولة العباسية ، ثم أخذوا يمارسون نشاطهم البحري ضد البيزنطيين ، فهاجوا جزر بحر إيجه ، وهددوا سواحل آسيا الصغرى واليونان ، وأدرك الامبراطور ميشيل العموري مدى الخسارة التي أصابت بيزنطة بضياح جزيرة إقريطش التي أصبحت على حد قول ياقوت « من أعظم بلاد المسلمين نكابة على الروم »<sup>(٤)</sup> ، فبذل محاولات يائسة لاستردادها ، ولكنها جميعاً باءت بالفشل ، وأدى الفشل المتلاحق الذي منيت به حملاته البحرية على الجزيرة إلى تخليته نهائياً عن فكرة استردادها . وما إن كف البيزنطيون عن محاولاتهم لغزو الجزيرة في عهد تيوفيل حتى تفرغ أهلها لجهادهم البحري ، وأحرزوا انتصاراً على الأسطول البيزنطي بالقرب من جزيرة قاسوس في سنة ٢١٤ هـ ( ٨٢٩ م ) . ثم عمدوا إلى مهاجمة سواحل الأناضول وخرّبوا جزر السيكلاد . وحاول تيوفيل أن يستثير عليهم الأمير الأندلسي عبد الرحمن الأوسط حتى يحلّهم عن إقريطش ،

(١) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ج ١ ص ٤٥ .  
(٢) Vasiliev, Byzance et les Arabes, t.I, la Dynastie d'Amorium, Bruxelles 1935, p. 54.

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤) أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٢٣٦ .

ولكن الأمير الأندلسي اعتذر بأن مسلمي إقريطش وإن كانوا أندلسيين إلا أنهم ليسوا سوى سفلة أهل الأندلس وفسقتهم ، وأنهم ليسوا وقتئذ خاضعين لسلطانه حتى يبلي عليهم أو امره فهم « ليسوا في بلده ولا يرتبته حتى يفسر عليهم ويكفيه مؤنتهم »<sup>(١)</sup> . وواصل مسلمو إقريطش شن غاراتهم المدمرة على الجزر البيزنطية في عهد تيوفيل ( ٨٢٩ - ٨٤٢ م ) وميشيل الثالث ( ٨٤٢ - ٨٦٧ م ) ، وهاجوا جزيرة ميتيلين وآثوس في سنة ٢٤٨ هـ ( ٨٦٢ م ) كما أغاروا على جزيرة نيون<sup>(٢)</sup> في سنة ٢٥٢ ( ٨٦٦ م ) واتحدوا فيها قاعدة شبه دائمة لهم<sup>(٣)</sup> ، وظلوا يشكلون خطراً جدياً على الدولة البيزنطية التي عجزت تماماً عن القيام بدفعهم ووضع حد لغاراتهم .

ثم اتحدت جهود غزاة إقريطش مع جهود غزاة طرسوس ، وعلى رأسهم ليو الطرابلسي لتوجيه أقوى الضربات إلى البيزنطيين ، وبفضل هذا التعاون الوثيق نجح الإقريطشيون وغزاة طرسوس في تدمير سالونيك الواقعة على ساحل تساليا ، وتمكنوا من أسر ٢٢ ألفاً من أهلها<sup>(٤)</sup> ، يبعوا في أسواق النخاسة بطرابلس وكانديا .

وكان من الطبيعي أن يعمل أباطرة الأسرة المقدونية وأولهم بسيل الأول الذي ظفر بالعرش الامبراطوري في ( ٨٦٧ م ) على حاية الجزر اليونانية من التعرض لغزوات المسلمين عن طريق مزيد من العناية بالبحرية البيزنطية وإنشاء أسطول قوي ، وتدعيم القواعد البحرية في الامبراطورية البيزنطية ، غير أن أسطول إقريطش ظل على الرغم من السياسة البحرية للبيزنطيين ويتعاونه الوثيق مع أساطيل الشام ومصر والثغر يشكل خطراً حقيقياً على الدولة البيزنطية ، إلى أن تمكن الامبراطور البيزنطي رومانوس

(١) ليغي پروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١١٧ .

(٢) فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٢٢٦ - العلوي ، إقريطش ، ص ٦٥ .

(٣) أرشيبالد لوبس ، القوى البحرية ، ص ٢٢٣ .

(٤) نفسه ، ص ٢٢٤ - عبدالله عنان ، مواقف حاسمة ، ص ٩٨ .

ليكابينوس من الانتصار على أسطول ليو الطرابلسي في سنة ٥٣١٢ هـ ( ٩٢٤ م ) بالقرب من جزيرة لنوس ، وتحرير منطقة بحر إيجة من غزوات المسلمين . ومنذ ذلك الحين التزمت الإمبراطورية البيزنطية سياسة بحرية خالصة إذ أن بقاء الدولة البيزنطية أصبح رهينا بتفوقهم البحري على المسلمين . وعندما اعتلى الامبراطور رومانوس الثاني العرش البيزنطي في سنة ٩٥٩ م ركز جهوده على استرجاع إقريطش وجعل ذلك شغله الشاغل وأهم أهدافه ، ونجح بفضل براعة قائده نقفور فوقاس في انتزاعها من أيدي المسلمين بالحرب والجوع <sup>(١)</sup> سنة ٩٦١ م ( ٥٣٥٠ هـ ) . وأتبع ذلك باستيلائه على جزيرة قبرص في سنة ٩٦٥ م . ويعتبر استرجاع البيزنطيين لجزيرة إقريطش وقبرص من أهم الأحداث السياسية في القرن العاشر الميلادي ، إذ أبعد عن السواحل البيزنطية خطر الغزوات البحرية الإسلامية ، وأعاد للبيزنطيين تفوقهم البحري في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط لفترة قصيرة .

## ( ٢ )

### أهم القواعد البحرية في مصر والشام <sup>(٢)</sup> والنفور الشامية في العصر العباسي

#### ١ - الاسكندرية

ذاعت شهرة الاسكندرية بمينائها الشرقية والغربية في العصر البطلمي كقاعدة بحرية هامة في حوض البحر المتوسط الشرقي ، والمركز الرئيسي

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٢٣٦ .

(٢) اكتفينا في هذه الدراسة بأمانة من هذه القواعد الهامة : ففي مصر مثلتها الاسكندرية ودمياط ، وفي الشام مثلتها عكا وصور وصيدا . وأرجو ألا يفهم من ذلك أنه لم تكن في مصر والشام قواعد أخرى بحرية ، فقد كانت سواحل مصر والشام تزدحم بكثير من هذه القواعد والنفور والرباطات مثل : ثغر رشيد و ثغر البرلس و ثغر الفرما و ثغر القازم في مصر ، و ثغر غزة ، و ثغور عسقلان ، و قيسارية ، و حيفا ، و بيروت ، و طرابلس و عرقة اللافتية وانطربوس في الشام .







للتجارة البحرية ، ولهذا السبب حرص البطالمة على إنشاء دار كبرى لصناعة السفن التجارية والحربية ، استخدموا لصناعتها الأخشاب المحلية وأخشاب أخرى مستوردة كأخشاب الأرز الواردة من الساحل اللبناني ، والسرو من جزيرة ميليتوس ، والصنوبر من شمال البلقان ، والقطران من غابات مقدونيا وهضاب آسيا الصغرى . وقد تجدد بناء دار الصناعة البحرية في الاسكندرية<sup>(١)</sup> في عهد الامبراطور البيزنطي أنستاسيوس الذي نجح في تكوين قوة بحرية حقيقية اعتمد عليها جستنيان وخلفاؤه في إحراز انتصاراتهم البحرية على الشعوب الجرمانية . وظلت دار صناعة الاسكندرية تنشط القطائع البحرية بعد أن دخلت مصر في فلك الإسلام ، بفضل خبرات الصناع الأقباط ومهارتهم . وقد اشترك الأسطول المصري الذي أسسه عبدالله بن سعد مع الأسطول الشامي في غزوة قبرص<sup>(٢)</sup> ، كما اشترك الأسطولان معاً في معركة ذات الصواري . وكان أمراء البحر يخرجون من ثغر الاسكندرية للغزو ، كما حدث عندما خرج عقبة بن عامر الجهني في سنة ٤٧ هـ في البحر إلى رودس بعد أن تحاه معاوية عن إمارة مصر وولاه إمارة البحر<sup>(٣)</sup> . وقد تولى الأسطول المصري السكندري أيضاً عبء غزو جزر البحر المتوسط الغربي إلى أن تمكنت دار صناعة تونس من إنتاج ما يكفيها من السفن ، وعليه ( أي الأسطول السكندري ) اعتمد الفاتحون العرب المغرب في عملياتهم الحربية<sup>(٤)</sup> .

ومنذ أن دخلت الاسكندرية في طاعة العباسيين حرص ولاة بني العباس في مصر على مواصلة الإهتمام بقاعدة الاسكندرية البحرية التي أصبحت قاعدة رئيسية للعمليات العسكرية في المغرب المتمرد على العباسيين . ففي سنة ١٣٦ هـ سير أبو العباس السفاح الجيوش العباسية إلى المغرب بقيادة

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٢٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٩٦ - فتحى عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٨ .

(٣) الكندي ، ص ٣٨ .

(٤) راجع التفاصيل في كتابي تاريخ الاسكندرية ص ١١٠ - ١١٣ .

عامر بن إسماعيل ، كما أمر بإرسال المثنى بن زياد الحثعمي إلى الإسكندرية ليجيز المراكب منها للإقلاع نحو طرابلس الغرب<sup>(١)</sup> .

واحتفظت الإسكندرية في العصر الطولوني بأهميتها كأكبر قاعدة بحرية في مصر ، وذلك منذ أن أدمجت في ولاية أحمد بن طولون في سنة ٢٥٦ هـ<sup>(٢)</sup> . ومن مظاهر عنايته بشئ الإسكندرية أنه زاره عدة مرات ، ولم يتوان أثناء هذه الزيارات عن الاهتمام بالمدينة والعناية بدار صناعتها حتى تزيد في إنتاج السفن لشدة حاجته إلى أسطول قوي يحمي سواحل بلاده وذلك منذ أن اتضحت نوايا الموفق العدوانية ضده ، ويحافظ بفضل على طرق الإتصال البحري بين الشام ومصر<sup>(٣)</sup> . كما عمل أحمد بن طولون على تعمير الاسكندرية وربطها بالنيل تدعيماً لتجارها البحرية في الخارج والنهرية في الداخل ، فأمر في سنة ٢٥٩ هـ بإعادة حفر خليج الاسكندرية<sup>(٤)</sup> . أما خارويه فقد ورث عن أبيه هذا الاهتمام بقاعدة الاسكندرية ، فكان يخرج لزيارتها ويتفقد قطع الأسطول فيها<sup>(٥)</sup> .

## ٢ - دمياط

تعتبر دمياط من القواعد البحرية الهامة في مصر في العصر الإسلامي لوقوعها على البحر المتوسط من جهة وعند مصب الفرع الشرقي للنيل الذي سمي باسمها من جهة ثانية . وكان من مزايا هذا الموقع المزدوج أن أصبحت تجمع بين التجارة الداخلية عبر النيل والتجارة الخارجية مع الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط . وكانت ترسو بها السفن القادمة من المغرب بخذاء الساحل الشبالي لأفريقيا<sup>(٦)</sup> ، كما كانت ترتبط ارتباطاً بحرياً بشغور

(١) نفس المرجع ص ١٢١ .

(٢) للبلى ، سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق الأستاذ محمد كرد علي ، دمشق ١٣٥٨ ص ٤٧ .

(٣) حسن محمود وسيدة كاشف ، مصر في عصر الطولونيين والاعشيدين ، ص ٢٧ .

(٤) القرظي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠ .

(٥) تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ص ١٦٦ .

(٦) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دى سلان ، الجزائر ١٩١١ ص ٨٦ .

الشام وعلى الأخص صيدا<sup>(١)</sup>. ولم تبرز دمياط كقاعدة هامة منافسة للإسكندرية إلا منذ أن تمكن غزاة البحر الأندلسيون من فتح إقريطش ، فقد أصبحت إقريطش ، ترتبط مباشرة بدمياط ، وكانت دمياط تزودها بكل ما تحتاج إليه من أسلحة وعتاد وسفن وقلاع من إنشاء دار صناعة دمياط أو جزيرة الروضة . وفطن البيزنطيون إلى حقيقة ما تمثله دمياط بالنسبة لجزيرة إقريطش ، فوجهوا همهم إلى تأديب دمياط بغارة عنيفة قد تجعل أهلها يفكرون طويلاً قبل أن يزودوا إقريطش بالسلح والعتاد ؛ ففي سنة ٢٣٨ هـ أقبل البيزنطيون في يوم عرفة على دمياط في ثلاثمائة سفينة يقودها ثلاثة من رؤساء البحر البيزنطيين هم : عرفا ( لعله أوريغوس أمير البحر البيزنطي ، وابن قطونة<sup>(٢)</sup> ، ويسميه البعقوبي قطوناريس<sup>(٣)</sup> ، وامردنافه ( ولعله لقب بمعنى أمير البحرية « أمير دي ناڤي Amir de nave » ) فهاجم ابن قطونة دمياط بمائة من الشنديات ودخلوا المدينة في غيبة حاميتها من الجند والجرحية والزراقيين ، إذ كان قد استقدمهم عنبسة بن اسحاق والي مصر إلى الفسطاط ليتجمل بهم في حفل إعداد ولديهِ في يوم العيد<sup>(٤)</sup> . فنزل البيزنطيون في المدينة ، وكانوا نحواً من خمسة آلاف رجل ، فشحنوا سفنهم من المتاع والأموال والقند والكتان ما كان عبيء ليحمل إلى العراق ، كما احتملوا أسلحة كانت معسدة لتحمل إلى أبي حفص صاحب إقريطش وعُدَّتْها نحو ألف قناة وآلتها<sup>(٥)</sup> . وأثار نزول البيزنطيين في دمياط موجة من الذعر ، ففر عدد كبير من الأهالي بأنفسهم في المخاضات الممتدة ما بين المدينة والشط ، ففرق معظمهم ، وقتل البيزنطيون عدداً كبيراً من الرجال في داخل دمياط وسبوا من النساء نحواً من ٦٠٠ امرأة منهن ١٢٥ امرأة مسلمة والباقيات من نساء القبط . ثم أضرم البيزنطيون النار

(١) دراسة في تاريخ صيدا في العصر الإسلامي ، ص ١٦٢ .

(٢) الطبري ، ج ١١ ، ص ٤٨ .

(٣) البعقوبي ، تاريخ البعقوبي ، طبعة صادر ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ .

(٤) جمال الدين الشيال ، المجلد في تاريخ دمياط ، الإسكندرية ، ١٩٤٩ ، ص ١٠ .

(٥) الطبري ، ج ١١ ، ص ٤٨ .

في خزانة القلوع وهي شرع السفن فأحرقوها ، وأحرقوا جامع دمياط  
وعدة كنائس<sup>(١)</sup> ، وألفاً وخمسة بيت<sup>(٢)</sup> . وكان عنبسة قد سجن مقدماً  
من أهل دمياط في بعض الأبراج ، فلما هاجم البيزنطيون دمياط ولم يمنعهم  
مانع مضى إليه بعض أعوانه ، وكسروا قيده وأخرجوه ، وانضم إليه  
طائفة من أهل المدينة فحاربوا البيزنطيين وهزموهم وأخرجوهم من دمياط<sup>(٣)</sup> .  
ولما علم عنبسة بخبر هذه الغزوة أقبل يجند مصر ، ولكنه وصل إلى دمياط  
بعد خروج البيزنطيين منها إلى أشتوم تنيس ، فتقاعس عن مطاردتهم ،  
وفي ذلك يسخر منه الشاعر يحيى بن الفضل موجهاً الأبيات للمتوكل :

أترضى بأن توطأ حريمك عنوة  
وأن يُستباح المسلمون ويُحربوا  
حارث أتى دمياط والروم ووثب<sup>١</sup>  
بتنيس منه رأى عين وأقرب<sup>٢</sup>  
يُخيمون بالأشتوم ينفون مثل ما  
أصابوه من دمياط والحرب ووثب<sup>٣</sup>  
فلا تلسنا أئاماً بدار مضبغة  
بمصر وأن الدين قد كاد ينهب<sup>(٤)</sup>

وعلى أثر ذلك أمر المتوكل على الله العباسي ببناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ هـ ،  
وحصن تنيس على البحر ، وحصن الفرما<sup>(٥)</sup> ، وأنشئ من حينئذ الأسطول  
بمصر ، وجعلت الأرزاقي لغزاة البحر<sup>(٦)</sup> . ولم يكد يمضي على هذه الغزوة

(١) الطبري ، ص ٤٨ .

(٢) البسقي ، تاريخ اليعقوبي ( دار صادر ) ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٣) الطبري ، ج ١١ ص ٤٨ - ابن الأثير ، ج ٧ ص ٦٩ - ابن تفردي ، النجوم ج ٢

ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٤) الكتبي ، ص ٣٠١ - القرظي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٧٧ .

(٥) القرظي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٧٨ ، ٣١١ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٣٧٨ .

تسع سنوات حتى أعاد البيزنطيون الكرة على دمياط في سنة ٢٤٧ هـ ، فطرقوها في نحو مائتي مركب ، وأقاموا يمشون في السواحل<sup>(١)</sup> . وعندئذ أمر المتوكل العباسي بترتيب المراكب في جميع السواحل ، وأن تحسن جميعاً بالمقاتلة<sup>(٢)</sup> .

### ٣ - عكا

عكا مدينة حصينة تقع على الساحل الجنوبي لبلاد الشام من فلسطين ، وكانت من خلافة معاوية حتى عهد هشام بن عبد الملك دار صناعة الشام ، والقاعدة الرئيسية في الساحل الجنوبي إلى أن نقل هشام دار الصناعة منها إلى صور ، ولكن المتوكل على الله أمر في سنة ٢٤٧ هـ بترتيب المراكب بها وبغيرها من السواحل<sup>(٣)</sup> . وقد ازدادت أهمية عكا في العصر الطولوني ، فأولاهها الأمير أحمد بن طولون جانباً كبيراً من عنايته . ويذكر المقدسي أنها مدينة حصينة ، وأنها لم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيولون ( يقصد أحمد بن طولون ) ، وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها ، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء ، فجمع صناع الكورة ، وعرض عليهم ذلك ، فقبل لا يمتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان . ثم ذكر جدنا أبو بكر البناء ( أي جد المقدسي ) وقيل إن كان عند أحد علم ، هذا فعنده . فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس ، حتى أنهضه . فلما صار إليه وذكر له ذلك ، قال هذا أمر هين : عليّ بفلق الجبيز الغليظة ، فصقتها على وجه الماء بقدر الحصن البري ، وخبّط بعضها ببعض ، وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلها بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشد البناء ،

(١) المقرئ ، الخطط ، ص ٣٧٨ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٤٠ - ابن شداد ، الأعلام الحطيرة ، ج ١ تحقيق الدكتور سامي

الدهان ، دمشق ١٩٦٢ ص ١٧٢ .

وجعلت الفيلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا أنها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك : كلها بلغ البناء إلى الحائط القديم ، داخله فيه وخيطه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، فالراكب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صور . قال فدفع إليه ألف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب واسمه عليه مكتوب . وقد كان العدو قبل ذلك يغير على المراكب »<sup>(١)</sup> .

وقد شاهد ناصر خسرو السورين الداخلين في مياه البحر ، وعابن السلسلة في القرن الخامس الهجري ، فقال : « وحائطاها داخلان في البحر وعلى امتدادهما مدخل مفتوح ، وقد شدت السلاسل بين الحائطين ، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها ، ثم تشد حتى لا يستطيع العدو قصدها بسوء »<sup>(٢)</sup> .

#### ٤ - صيدا وصور

حظيت المدينتان في تاريخها القديم بشهرة بحرية عالمية ، وعرف ملاحوهما بمهارتهم في قيادة السفن ، وفي فنون القتال البحري . وقد ظلت صيدا تحتفظ بهذه الشهرة حتى العصر الإسلامي ، فاستعان معاوية بملاحين من أهلها في تسيير سفنه لسابق خبرتهم ودربتهم في ممارسة الملاحية فيه ، على الرغم من أنها لم تكن دار صناعة في العصر الأموي . وقد عني بها خلفاء بني أمية وعلى الأخص الخليفة الأموي مروان بن محمد الذي نستدل من نقش كتابي أثري أنه أمر بإصلاح ميناء صيدا وترميمه في سنة ١٣٢ هـ ، فتم ذلك على يدي زياد بن أبي الورد . ويشير هذا النص إلى أن ميناء صيدا المذكور أصبح موضع اهتمام الخلفاء باعتباره قاعدة بحرية هامة للسفن التجارية والحربية<sup>(٣)</sup> .

(١) للقدمي ، أحسن التقاسيم ، ليدن ١٩٠٦ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، بيروت ١٩٧٠ ص ٥٠ .

(٣) عبد العزيز سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا ، ص ٦٤ .



وحظيت صيدا بعناية الخليفة المتوكل العباسي ، وكانت في حجة مدن الساحل التي أمر الخليفة المذكور بترتيب المراكب بها ، وأسندت الدولة العباسية مهمة الدفاع عن ساحل صيدا إلى أفراد من البيت الأرسلافي أو التوخي أمراء الغرب : ففي سنة ٢٥٧ هـ ( ٨٧١ م ) تولى الأمير النعمان ابن عامر الأرسلافي الذي يرفع بعض النسابة نسبة إلى النعمان بن المنذر ابن ماء السماء اللخمي<sup>(١)</sup> ، إمارة الغرب وتشتمل على بيروت وصيدا وجبلها ، وذلك بأمر أماجور التركي عامل دمشق وأعمالها من قبل الخليفة العباسي المعتمد على الله<sup>(٢)</sup> . وظل الأمير النعمان يتولاها إلى أن توفي أماجور في سنة ٢٦٤ هـ ( ٨٧٩ م ) فألت إلى أحمد بن طولون ، فأقر الأمير النعمان على صيدا وبيروت ، لما اشتهر به من الشجاعة .

وأما صور فمدينة حصينة للغاية مشرفة على البحر داخلة فيه على شكل كف في زند ، ويحيط بها البحر من ثلاثة جوانب<sup>(٣)</sup> . ويؤكد المقدسي حصانتها ، ويشير إلى سلسلتها الشهيرة التي على نخطها أقام ابن طولون سلسلة عكا<sup>(٤)</sup> ، وكانت بصور دار لصناعة السفن ذكرها اليعقوبي فقال : « وبها دار الصناعة » ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وهي حصينة جليلة<sup>(٥)</sup> .

## ٥ - طرسوس

كانت تمتد ما بين الإسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم أخلاها أهلها وانتقلوا إلى داخل الدولة البيزنطية خوفاً من غزوات المسلمين في العصر الأموي ، فتشعشت هذه الحصون بمرور الزمن ، فكان المسلمون إذا

(١) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، طبعة دار المشرق ، بيروت ١٩٦٨ ص ٤١ .

(٢) الشديقي ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، بيروت ١٩٥٤ ج ٢ ص ٢٨٣ .

(٣) ياقوت ، معجم ٣ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

(٤) المقدسي ، ص ١٦٤ .

(٥) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

غزوا البلاد البيزنطية ألفوها خالية خربة ، وكانت طرسوس حصناً من هذه الحصون الخربة التي كان المسلمون يعمرون بها عند غزوهم لبلاد الروم . وتقع طرسوس على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى في خليج اسكندرونة ، ويشقها نهر صغير يقال له البردان<sup>(١)</sup> . وأول من أوصى بإعادة بنائها وتحصينها لتكون قاعدة لجيوش المسلمين القائد الحسن بن قحطبة الطائي ، إذ أحس بأهميتها أثناء مروره بها في سنة ١٦٢ هـ في عهد الخليفة المهدي العباسي ، ولكن تعميرها وإعادة تحصينها لم يتأ إلا في سنة ١٧١ هـ على يدي الرشيد . ولما أحكم بناؤها<sup>(٢)</sup> ، نزلها طائفة من أهل خراسان عدتهم ثلاثة آلاف للدفاع عنها ، ثم نزلها ألف من أهل المصبصة ، وألف من أهل أنطاكية فأقطعت لهم الإقطاعات والخطوط ، وأصبحت طرسوس منذ ذلك الحين مركزاً هاماً للرباط ، وأعظم القواعد البحرية في الثغور الشامية في العصر العباسي .

ثم خضعت طرسوس لأحمد بن طولون منذ سنة ٢٦٤ هـ عندما دخلها وعزم على القيام بها وملازمة الغزاة<sup>(٣)</sup> ، فولى عليها سيبا الطويل ولكنها خرجت عليه بعد ست سنوات ، فلما قدم ابن طولون إليها سنة ٢٦٩ هـ لاستئصال يازمان الخادم المتتري بها استعصت عليه ، وأرسل يازمان<sup>(٤)</sup> الماء على عسكر ابن طولون من نهر البردان فغرق معسكره<sup>(٥)</sup> ، واضطر ابن طولون إلى الرحيل عنها<sup>(٦)</sup> . وقد تعرضت طرسوس في العام التالي سنة ٢٧٠ هـ لغزو البيزنطيين ، ففي هذه السنة هاجم البيزنطيون قلعة

(١) الكندي ، ص ٢٢٩ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة صادر ، ج ٢ ص ٤١٠ - الطبري ، ج ١٠ ص ٥٠ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٣١٧ .

(٤) يسميه ابن الأثير يازمار .

(٥) الكندي ص ٢٢٩ - المسعودي ، مروج الذهب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، القاهرة

١٩٥٨ ج ٤ ص ٢١٣ .

(٦) ابن الأثير ج ٧ ص ٣٩٦ ، ٤٠٩ .

التي تبعد نحو ستة أميال من طرسوس في جيش يتألف من مائة ألف  
فتصدى لهم يازمان ليلاً فقتل منهم فيما يقال سبعين ألفاً ، وقتل مقدمهم ،  
وغنم غنائم كثيرة<sup>(١)</sup> . وفي سنة ٢٧٤ هـ أوغل يازمان في بلاد الروم  
فأوقع بكثير من أهلها وغنم وسبي وأمر أعداداً كبيرة منهم<sup>(٢)</sup> . ويذكر  
المسعودي أن يازمان الخادم أمير طرسوس كان لديه رجال من البحرين  
لم ير مثله ولا أشد منهم ، وكان العدو يهابه وتفزع منه النصرانية في  
حصونها<sup>(٣)</sup> .

وكان خارويه حريصاً على كسب ود يازمان مستهدفاً أن يدخل في  
طاعته ، وقد أثرت هذه السياسة على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان ،  
ففي سنة ٢٧٧ هـ أنفذ خارويه إلى يازمان ثلاثين ألف دينار وخمسة  
ثوب وخمسة مطرف وسلاحاً كثيراً وكان لهذه الهدية أعظم الأثر في  
نفس يازمان ، فدعا لخارويه في طرسوس ، ودخل في طاعته<sup>(٤)</sup> .

ولما توفي يازمان في إحدى غزواته في سنة ٢٧٨ هـ خلفه ابن عجيف  
الذي كتب إلى خارويه يخبره بوفاة يازمان ، فأقره خارويه على ولاية  
طرسوس وأمدّه بالخيول والسلاح والذخائر وغير ذلك . واشترك غزاة من  
مصر أرسلهم خارويه مع العجيفي أمير طرسوس في غزو بلاد الروم ،  
نذكر منهم أحمد بن أبا ، ويدر الحمامي ، وطفج بن جف .

ولكن تبعية ثغر طرسوس للطلوليين لم تتجاوز سنة ٢٨٤ هـ ، ففي  
هذه السنة أخرج أهل طرسوس عامل ابن طولون ، ودعوا للخليفة العباسي  
المعتضد ، ومنذ ذلك الحين أصبحت طرسوس ثغراً تابعاً للخلفاء العباسيين ،  
وتوجه منه الدولة العباسية السفن والأساطيل لغزو البلاد البيزنطية ،

(١) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ .

(٢) نفسه ، ص ٤٢٧ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ص ٢١٣ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٤٣٩ .

ففي سنة ٢٨٥ هـ غزا راغب مولى الموفق في البحر ففتح مراكب كثيرة ، وقتل ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها وأحرق المراكب<sup>(١)</sup> . ويبدو أن الخلافة العباسية جعلت ثغر طرسوس قاعدة لأسطولها في البحر المتوسط تولاها - بعد راغب الذي نكبه الخليفة المعتضد في سنة ٢٨٦ هـ - دميانة البحرى غلام يازمان ، ودميانة هذا هو الذي أشار على المعتضد العباسي في سنة ٢٨٧ هـ بحرق جميع المراكب البحرية التي كان يستخدمها المسلمون للغزو شيء في نفسه على أهل طرسوس ، فأحرقت المراكب وجميع آلاتها ، وكان من بينها خمسون مركباً قديمة من نوع نادر لا يوجد نظيره في ذلك العصر . فلما أحرقت مراكب طرسوس أضر ذلك بقوة المسلمين<sup>(٢)</sup> . وقد لعب دميانة هذا دوراً هاماً في القضاء على الدولة الطولونية ، فعندما أرسل المكتفي العباسي محمد بن سليمان الكاتب لمحاربة الطولونيين وإدالة دولتهم ، زحف ابن سليمان إلى حمص ، ومن هناك كتب إلى دميانة وهو بالثغر يطلب منه السير في مراكبه إلى سواحل مصر ، ودخول النيل وقطع المواد عن مصر . فقدم دميانة بأسطول عدته ١٨ مركباً حربية مشحونة بالرجال والصلاح<sup>(٣)</sup> ، فاشتبك في تنيس مع مراكب الطولونيين بقيادة وصيف القطرميز وخصيب البربري وحماد بن مانعشى الفرغاني<sup>(٤)</sup> ، فانهزم هؤلاء ، وسقطت دمياط وتنيس في أيدي العباسيين ، وهرب وصيف القطرميز قائد البحرية الطولونية<sup>(٥)</sup> .

ثم قدم دميانة من الثغر مرة ثانية في مراكبه إلى الفسطاط سنة ٢٩٣ هـ وذلك عندما ثار ابن الخليفة من دعاة الطولونيين على عيسى النوشري الوالي العباسي ، وتمكن دميانة من دخول الفسطاط<sup>(٦)</sup> . وباستعادة العباسيين

(١) ابن الأثير ، ص ٤٩١ .

(٢) المسعودي ، ج ٤ ص ٢١٣ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٣٦ .

(٤) الكتبي ، ص ٢٤٥ .

(٥) نفسه ، ص ٢٤٥ - النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١١٠ .

(٦) نفسه ، ص ٢٦٢ .

لمصر في سنة ٢٩٢ هـ ( ٩٠٥ م ) ارتفع شأن القوة البحرية في طرسوس وسواحل الشام<sup>(١)</sup> .

وقد لعبت طرسوس دوراً هاماً في العصر العباسي الثاني للدفاع عن سواحل مصر من غارات الفاطميين عليها منذ سنة ٣٠١ هـ ( ٣١٩ م ) . فعندما أقبلت من المهديّة ثمانون مركباً من مراكب الأسطول الفاطمي بقيادة سليمان الحادم ويعقوب الكتامي في سنة ٣٠٧ هـ ( ٩١٩ م ) لتدعيم الحملة البرية ، وأرست في مياه الاسكندرية<sup>(٢)</sup> ، أرسل الخليفة المعتذر بالله الأسطول العباسي المرابط في طرسوس ، فقدمت منه ٢٥ سفينة مجهزة بالنفط والعدد بقيادة ثعل الحادم فأرست برشيد<sup>(٣)</sup> ، ثم اشتبكت مع السفن الفاطمية في مياه رشيد في معركة بحرية عنيفة وقعت في ٢٠ من شوال سنة ٣٠٧ هـ ، ظفرت فيها مراكب المعتذر ، وأحرقت كثيراً من سفن المغاربة . ويشير الكندي إلى أن ريحاً عاتية عصفت بمراكب الفاطميين فتحطمت وأمر يعقوب وسليمان ، وقتل الأهالي البحرّيين المغاربة وعدتهم سبعمائة ، وأبقى ثعل على رؤساء المراكب وعدتهم ١١٧<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

وقبل أن نترك الحديث عن القواعد الشامية لا بد أن نذكر اسم شخصيتين بحريتين بارزتين لعبتا دوراً هاماً في تاريخ البحرية الإسلامية ، وسجلا من البطولات صفحات خالدة في التاريخ ، أما الشخصية الأولى فشخصية ليو الطرابلسي الذي يذكره المسعودي باسم « لاوي المكني بأبي الحرب غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق » ، ويشير إلى

(١) فتحي عيّن ، ج ٢ ص ٣٥٢ .

(٢) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، صيدا ١٩٥٩ ج ٣ ص ٨٧ - القزويني ، اتعاظ الخلفاء ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ج ١ ص ٧١ .

(٣) الكندي ، ص ٢٧٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٧ .

أنه كان يلي تدبير المراكب والحرب في النواتية وأرباب المراكب في البحر الرومي<sup>(١)</sup>، ويسميه الطبري وابن الأثير باسم غلام زرافة<sup>(٢)</sup>، بينما يسميه الكندي رشيق الوردامي المعروف بفلام زرافة<sup>(٣)</sup>. وتشير المصادر البيزنطية إلى أنه ولد من أبوين نصرانيين في أاثاليا من أعمال پامفليا ( في جنوب شرقي آسيا الصغرى ) واشترك منذ صغره في العمليات الحربية الإسلامية ، واعتنق الإسلام ثم استقر في طرابلس ، وتلقى دروسه الحربية في عرض البحر ، واشترك في كثير من غزوات المسلمين لسواحل بحر الأرخيبيل ، ثم انتقل في النهاية إلى طرسوس التي اتخذها قاعدة لسفنه<sup>(٤)</sup>، وأهم غزوات لاري غلام زرافة الغزوة التي وجهها من طرسوس في سنة ٢٩١ هـ ( ٩٠٤ م ) إلى ثغر سالونيك - التي تسميها المصادر العربية انطاليا - أم ثغور الروم بعد القسطنطينية . وفي هذه الغزوة تمكن لاري من افتتاحها بالسيف عنوة ، فقتل خمسة آلاف ، وأسر مثلهم ، واستنقذ من أسرى المسلمين أربعة آلاف أسير ، وظفر بستين مركباً بيزنطية شحنها بما غنمه رجاله من الفضة والذهب والمتاع والرقيق<sup>(٥)</sup>.

أما الشخصية الثانية فهي شخصية عبدالله بن وزير صاحب مدينة جبلة ( فيما يقرب من سنة ٣٣٢ هـ ) الذي لم يكن هناك في زمنه من كان « أبصر منه في البحر الرومي ، ولا أسن منه ، وليس فيمن يركبه من أصحاب المراكب من الحربية والمهالة إلا وهو منقاد إلى قوله ويقر له بالبصر والخذق مع ما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيها »<sup>(٦)</sup>.

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) الطبري ج ١١ ص ٣٩١ - ابن الأثير ج ٧ ص ٥٣٣ .

(٣) الكندي ، ص ٢٤٥ .

(٤) محمد عبدالله عنان ، مواقف حاسمة ، ص ٧٨ .

(٥) الطبري ، ج ١١ ص ٣٩١ - ابن الأثير ، ج ٧ ص ٥٣٣ . وراجع تفاصيل الرواية البيزنطية كما رواها المؤرخ البيزنطي كلفينافس الذي أمره ليون الطرابلسي ثم اقتدى فيما بعده ،

في كتاب مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، ص ٧٨ - ٨٢ .

(٦) المسعودي ، ج ١ ص ١٢٩ .

( ٣ )

## البحرية في مصر والشام في العصور الطولونية والإخشيدي

حرص أحمد بن طولون على إنشاء قوة بحرية يعتمد عليها في حماية سواحل مصر من جيش الموفق بالله أبي أحمد طلحة أخيه الخليفة المعتمد على الله العباسي ، الذي سيره إلى مصر بقيادة موسى بن بغا مستهدفاً صرف ابن طولون عن ولايتها ، بالإضافة إلى أنه كان يهدف إلى استخدام هذا الأسطول الحربي لدفع خطر الفارات البحرية التي يوجهها البيزنطيون على سواحل مصر والشام . فعندما بلغ ابن طولون نبأ مسير موسى بن بغا إلى الرقة وعزمه على قصد مصر للإطاحة بإمارته ، لم يمسد بداً من تدعيم الدفاع عن مصر عن طريق إجرامين : الأول بناء حصن يحرس جزيرة الروضة يتخذة معقلاً لآله وحرمة ، أتم بناءه في سنة ٣٦٣ ، والثاني إنشاء أسطول ترابط وحداته على سواحل مصر الشمالية وفي نهر النيل قريباً من القسطنطينية ، لحماية حاضرتهم القطنية . فاتخذ «مائة مركب حربية سوى ما يضاف إليها من العلابيات والحماهم والعشارية والسناييك وقوارب الخدمة ، وعدد إلى سد وجه البحر الكبير ، وأن يمنع ما يجيء إليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح إلى النيل ، بأن توقف هذه المراكب الحربية في وجه البحر الكبير خوفاً مما سيحيي من مراكب طرسوس كما فعل محمد ابن سليمان من بعده بأولاده» (١) .

ومن دلائل اهتمام ابن طولون بالأسطول أنه استقدم ملزم الصناعة

(١) المزي ، الخط ، ج ٣ ص ٨٩ . وراجع أيضاً ، البولي ، سيرة أحمد بن طولون ، ص ٣٤٩ - ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور لوكي محمد حسن وآخرين ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ص ١٣٢ - للسيوطي ، حسن المحاضرة ج ٣ ص ٢٢٢ - عبد النعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٢١٩ .

بالروضة أبا كلثوم شجاع بن أسلم الحاسب ، وقال له : « كل ما تعمل لي من العدة فإنه يكتفي بالقليل مع تقدم هيتي في صدور الناس إلا المراكب ، فإن البحر لا يتقني ولا يخاف سورتي ، وليس يعمل فيه إلا وثاقصة الصنعة وتقدم الإحتياط ، فقدموا الحزم في المراكب ، واستزيدوا من الإنفاق عليها تسلموا بتوفيق الله من معرفة البحر »<sup>(١)</sup> .

وورث خوارويه عن أبيه هذا الاهتمام بالأساطيل ، فإن ابن منكلى يذكر أن « عدة المراكب المرصدة للجهاد في أيام أحمد بن طولون مائة شيني ، فلما مات وتلك ابنه خوارويه زاد في عددها وعدتها »<sup>(٢)</sup> . غير أن خلفاء خوارويه لم يولوا البحرية ذلك القدر من الاهتمام ، فكانت القوة البحرية في عهدهم لا تتجاوز عدداً محدوداً من السفن ، ولم يقدر لهذه القوة البحرية أن تلعب دوراً في تاريخ الأسرة الطولونية<sup>(٣)</sup> ، بدليل أن الخلافة العباسية لم تستعن للقضاء على الدولة الطولونية إلا بقوة صغيرة من الأسطول العباسي الذي كان رأسياً بشرف طرسوس ، قوامها ١٨ مركباً حريباً مشحونة بالرجال والسلاح ، يقودها أمير البحر دميانة البحري<sup>(٤)</sup> ، بالإضافة إلى الجيش البري الذي كان ابن سليمان الكاتب يتولى قيادته ، وبدليل أن السفن التي غنمها العباسيون بعد الطولونيين لم تقو على مواجهة الأسطول

(١) ابن سمي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٩٥ .

(٢) محمد بن منكلى ، كتاب الأحكام الملوكة والضوابط النموسية في فن القتال في البحر ، لوحة

٤١ ، الباب ٢٩ ، نسخة مصورة من المخطوطة محفوظة بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

رقم ٩٠ م .

(٣) يدل على ذلك ما قاله محمد بن داود لأحمد بن طولون وفيه تحامل :

له مراكب فوق النيل وراكدة	لما سوى التار النظار والحشب
فرى عليها لباس الذل مذ ينبت	بالشط بمنوعة من عزة الطلب
لما بناها لفزو الروم محتسباً	لكن بناها غداة الروع والمطلب

( الفرزدق ، المخطوط ، ج ٣ ص ٩٠ - السيوطي ، ج ٢ ص ٢٢٣ ) .

(٤) الكندي ، ص ٢٤٥ - التتجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٠٩ ، ١٣٦ .



الفاطمي الذي قدم إلى ميساه الإسكندرية في ٣٠٧ هـ مما اضطر الخليفة  
الفتنر إلى إرسال ٢٥ سفينة مزودة بالنفط والعدد من ثغر طرسوس<sup>(١)</sup>.

ولما تقلد الإخشيد إمارة مصر دخل البلاد ، وأقبل معه أسطول  
عباسي يقوده صاعد بن كعلم إلى تنيس ودمياط ، فتصدى له المغاربة وعلى  
ابن بدر في المراكب لمواجهة سفن ابن طنج في النيل ومنعه من الوصول  
إلى القسطنطينية ، وانتبهت المعركة بانتصار السفن العباسية  
في شعبان سنة ٣٢٣ هـ ، وتمكن صاعد من الوصول إلى جزيرة الروضة  
واستولى على ما فيها من السفن في رمضان سنة ٣٢٣ هـ<sup>(٢)</sup> . ثم سارت  
مراكب صاعد إلى خليج الفيوم لمطاردة الفرقة المغربية بقيادة الثائر حبشي  
ابن أحمد . غير أن صاعد عجز عن الدوران بسفنه في خليج الفيوم  
لضيقه ، فوقع في قبضة المغاربة فقتلوه ، وظفروا بمراكبه<sup>(٣)</sup> ، ثم عادوا  
بهذه السفن إلى القسطنطينية ، فأرسوا بجزيرة الروضة حيث تقوم دار صناعة  
الروضة ، فهاجموها وأحرقوا ما كان بها من السفن ، وكان ذلك سبباً في  
قيام الإخشيد بنقل دار صناعة الروضة سنة ٣٢٥ هـ من موقعها في الروضة  
إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان بساحل القسطنطينية .

أما عن نشاط البحرية الإخشيدية خارج مصر فلأسف لم تزودنا المصادر  
التاريخية بتفاصيل تستحق الذكر ، وكل ما نعرفه في هذا الصدد نص  
أورده يحيى بن سعيد الأنطاكي يتعلق باحتفال كافور بإزالة عدد من السفن  
التي تم صنعها في البحر ، فذكر أنه ركب إلى دار الصناعة ليحتفل بطرح  
مركب حربي كبير في البحر ، وحدث أن تجمع حشد كبير من المتفرجين  
على سحافة مركب كان راسياً هناك ، فلم يتحمل جانباه ثقل الناس فمال  
بهم وانقلب بمن عليه فغرقوا ، وتسبب جنوح المركب في غرق عدد من

(١) الكندي ، ص ٢٧٦ .

(٢) الكندي ، ص ٢٨٦ - ابن سعيد ، ص ١٥٨ .

(٣) ابن سعيد ، ص ١٦٠ .

السفن كانت ملاصقة له ، فقتل في ذلك اليوم عدد كبير يصل إلى خمسمائة رجل<sup>(١)</sup> . ونستنتج من الموقف المتخاذل الذي وقفه أبو الحسن علي بن الإخشيد في سنة ٣٥٠ هـ من أهل إقريطش عندما استنصروه على البيزنطيين ، وتقاعسه عن مساعدتهم بأسطوله ، وتضليله لأهالي مصر بإرسال بعض مراكبه في البحر تظاهراً بخروجها لمعاودة أهل إقريطش<sup>(٢)</sup> ، يدل على أن البحرية الإخشيدية في مصر في عصر علي بن الإخشيد لم تكن في حالة تسمح لها بالدخول في أي حرب بحرية ولو على نطاق ضيق ضد البيزنطيين خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الامبراطور رومانوس الثاني حشد كل طاقاته البحرية وسخرها دفعة واحدة لاسترداد إقريطش ، فأعد لهذا الغرض قوة بحرية لم يشهد البحر المتوسط لها مثيلاً من قبل ، تتألف من ألفي سفينة حربية وألف وثلثمائة وستين سفينة للوؤن والإمدادات<sup>(٣)</sup> .

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي ، ص ٤ كتاب سعيد بن بطريق ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ١١٦ .

(٢) القاضي النعمان ، قضية إقريطش في عهد المعز لدين الله ، ص ٣٣ .

(٣) Diehl, op. cit. p. 462 — أرشيبالد لويس ، ص ٢٩٦ .

## الباب الثاني

# البحريّة في مصر والشام في العصر الفاطمي

الفصل الأول : البحريّة الفاطميّة في المغرب

الفصل الثاني : البحريّة الفاطميّة في مصر والشام في عصر القوة

الفصل الثالث : البحريّة الفاطميّة في مصر والشام في عصر الضعف

الفصل الرابع : التنظيمات البحريّة في العصر الفاطمي

الفصل الخامس : البحريّة التجاريّة في العصر الفاطمي



## الفصل الأول البحرية الفاطمية في المغرب

( ١ )

تفوق الفاطميين البحري  
في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط

لم يكن الفاطميون الذين أسسوا دولتهم في المغرب الأدنى والأوسط منذ عام ٢٩٦ هـ ( ٩٠٨ م ) أقل اهتماماً بشؤون البحر من الأغالبة ، بل إننا لا نتجاوز الصواب إذا ذكرنا أنهم فاقوهم في العناية بالبحرية وفي الجهاد البحري ، واعتمدوا على الأساطيل في تمكين نفوذهم السيامي في بلاد المغرب ، وفي منافسة القوى البحرية الأموية في الأندلس على السيادة البحرية في البحر المتوسط الغربي ، وفي مغازاة السواحل الإيطالية المطلة على البحرين الأدرباتي والتبراني ، بحيث يمكننا القول — دون أن يكون في ذلك شيء من المبالغة — بأن الفاطميين كانوا أعظم دول الإسلام اهتماماً بشؤون البحر بعد الأمويين ، وأن مجريتهم بلغت درجة هائلة من القوة والانتظام قبل أن يلتقوا إلى مصر<sup>(١)</sup> . ففما يتعلق بمنافسة القوى البحرية الفاطمية للبحرية الأموية نلاحظ أن أول مظاهر هذه المنافسة تتمكس في المعونات المادية التي كان يبذلها مؤسس الدولة الفاطمية لعمر بن حفصون ، إمام الثوار في الأندلس ، وأشدّهم

---

(١) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ص ١٠٦ .

سلطاناً ، في فترة تمزقها السيامي أي فيما بين عامي ٢٣٨ هـ و ٣٠٥ هـ (٨٥٢-٩١٧ م) ، فقد كان من الطبيعي أن يؤيد الخليفة الفاطمي هذا الثائر الذي كان يسعى للإطاحة بدولة بني أمية عن طريق تحالفه مع أعداء الأمويين في الأندلس كالحفائين العباسية والفاطمية ، أما الخلافة العباسية فقد كانت قد بلغت أقصى درجات الضعف والإعياء ، زد على ذلك أن سلطانها السيامي لم يكن يتجاوز في طليعة القرن الرابع الهجري حدود مصر ، ولذلك كان لزاماً على ابن حفصون أن يتصل بالمهدي الفاطمي ، ويرغبه في ضم الأندلس إلى أملاكه ، وهو أمر كان المهدي يتطلع إليه ويسعى جاهداً إلى تحقيقه . ويبدو أن المهدي وعد ابن حفصون بنصرته فقد سير إليه بالفعل مراكب في البحر رست في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) بالساحل الجنوبي من الأندلس كانت تديره من العدو . وكان لا بد للأمير الأموي أن يبادر بقطع الاتصال البحري بين الثائر ابن حفصون وبين عملائه في المغرب ، فيستخذ ما يراه من الإجراءات لقطع هذا الاتصال ، ويذكر ابن عذاري أن الأمير عبد الرحمن بن محمد شرع في هذه السنة بمهاجمة السفن الفاطمية في الجزيرة الخضراء وحرقها<sup>(١)</sup> ، ويجمع مؤرخو العرب على أن عبد الرحمن بن محمد بدأ يهتم منذ ذلك الحين اهتماماً جدياً بتدعيم قوته البحرية ليدفع بها الخطر الفاطمي عن بلاده ، وأنه شرع في تسديد ضرباته إلى ممتلكات الفاطميين في المغرب قبل أن يسبقه هؤلاء إلى مهاجمة بلاده ، ولم يلبث النزاع البحري بين الفاطميين في المغرب والأمويين في الأندلس أن تطور إلى صدام بحري مسلح . ففي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) أمر الخليفة عبد الرحمن بن محمد بإنشاء مركب كبير في دار الصناعة بالبرية ، لم تشهد الأندلس لها مثيلاً من قبل في الكبر والفضخامة ، وسير فيه أمتعة إلى

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٤٧ - ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٤ ص ٣٣  
وفي مقابل ذلك أيد الخليفة الأموي عبد الرحمن بن محمد الثائر الخارجي على خلفاء الفاطميين  
أبا يزيد غلظ بن كيداد اليفرني، واستقبل ابنه أيوب من قرطبة استقبالا حافلا في سنة ٣٣٥ هـ  
(٩٤٦ م) (ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٢١) .

بلاد المشرق ، فلقى هذا المركب في البحر مركباً فاطمياً يحمل رسولا من الحسين بن علي أمير صقلية إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، فقطع عليه ملاحو المركب الأندلسي طريقه ، واستولوا على ما فيه ، كما استولوا على الكتب التي أرسلها الحسين بن علي إلى الخليفة المعز ، فلما بلغ المعز ذلك ، عزم على الانتقام ، فعمر أسطولاً بقيادة أمير صقلية ووجهه إلى ساحل الأندلس الجنوبي الشرقي ، فهاجم هذا الأسطول الفاطمي مدينة المرية في نفس السنة ، واقتحم المغاربة مرمى المرية ، وأحرقوا جميع ما كان راسياً فيه من السفن الأندلسية ، واستولوا على المركب الكبير ، وكان قد عاد من الاسكندرية مشحوناً بأمثلة للخليفة عبدالرحمن الناصر وجوار ومغنيات ، ثم هاجوا المدينة ، وقتلوا ونهبوا ، ثم عادوا سالمين إلى المهدي<sup>(١)</sup> . وكان رد الفعل الأندلسي على هذه الغارة البحرية أن هاجم الأسطول الأندلسي بقيادة أمير البحر غالب بن عبدالرحمن الناصري سواحل إفريقية الفاطمية في سنة ٣٤٥ هـ في ستين سفينة ، وكان مرمى الخرز وساحل مدينة سوسة هدفاً لهذه الغارة<sup>(٢)</sup> ، كما أرسل الخليفة الأندلسي قائده في البحر أحمد بن يعلى في سنة ٣٤٧ هـ لغزو سواحل إفريقية<sup>(٣)</sup> .

كذلك استخدم الفاطميون أساطيلهم لتمكين نفوذهم السياسي في أرض المغرب ، وإخماد الحركات المناهضة لسلطانهم في هذه البلاد : ففي سنة ٣٣٠ هـ ( ٩١٢ م ) أرسل عبيد الله المهدي أسطولاً من ١٥ مركباً حربية إلى طرابلس الغرب لمساعدة جيشه الذي سيّره إلى أهل طرابلس بقيادة ابنه أبي القاسم لإخماد ثورتهم عليه ، ولكن أهل طرابلس أخرجوا إليه مراكبهم ، وأحرقوا

(١) القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التبري ، المجالس والمسابرات ، مخطوطة محفوظة بكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ ورقة ٢٢٥ - ابن الأنبار ، الكامل في التاريخ ، ج ٦ ص ٣٤٩ - أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ، ج ٣ ص ١٢٧ .

(٢) ابن حناري ، البيان المغرب ، طبعة بيروت ، ج ٢ ص ٣١٨ - Lévi-Provençal , Histoire de l'Espagne musulmane, t. II, Leiden, 1950, p. 108 — Torres Balbás, Atarazanas hispano musulmanas, al-Andalus, vol. XI, 1946, p. 180.

(٣) ابن حناري ، ج ٢ ص ٣٣٢ .

أسطول المهدي وقتلوا من فيه <sup>(١)</sup> ، ومع ذلك فقد تمكن أبو القاسم من إخضاع الثوار وإعادة طرابلس إلى الطاعة . كذلك ساهمت الأساطيل الفاطمية في إخماد حركة أبي يزيد مخلد بن كيداد البغرني الثائر على الفاطميين وهي حركة خطيرة استغرقت نحو ١٤ سنة ( من ٣٢٢ إلى ٣٣٦ هـ ) وشغلت عصر الخليفة القائم بالله الفاطمي كله وعامين من عصر ابنه أبي العباس إسماعيل المنصور ؛ فعندما اشتد حصار أبي يزيد على سوسة في سنة ٣٣٤ هـ ، بعث إسماعيل المنصور الأساطيل من المهدية إلى سوسة مشحونة بالمدد من الغاتلة والميرة مع رشيق الكاتب وقائد البحر يعقوب بن اسحق ، فلما وصلت المؤن والأقوات إلى أهل سوسة ، اشتدت مقاومتهم لأبي يزيد وتمكنوا من إيقاع الهزيمة به <sup>(٢)</sup> .

أما فيما يتعلق بالجهاد البحري ضد الروم والفرنجية ، فمن المعروف أن الدولة الفاطمية تابعت نفس السياسة التي كان يقوم بها الأغالبة في هذا المجال ، فكانت أساطيلهم تغزو سواحل إيطاليا الجنوبية الواقعة على البحرين الأدرياتي والتيراني من قواعدها في صقلية وسردانية ، ففي سنة ٣١٠ هـ غزا مسعود الفتي إقليم قلورية في عشرين شينياً ، فاستولى على مدينة أغاقي Santa Agata de Calabria <sup>(٣)</sup> ، كما غزا أبو أحمد جعفر جنوبي إيطاليا بعد ذلك بثلاث سنوات من صقلية ، فافتتح مواضع كثيرة من بينها مدينة واري Oria ، وغنم غنائم كثيرة <sup>(٤)</sup> ، كما قام صابر الفتي الصقلي بغزو السواحل الإيطالية في سنة ٣١٥ هـ في ٤٤ شينياً ، فأصاب في هذه الغزوة كثيراً من الغنائم <sup>(٥)</sup> . ثم تابعت غزوات الأساطيل الفاطمية بقيادة صابر

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٨ - عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٦٢٩ .

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٦٧ - ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ص ٢٣٤ .

(٥) ابن عذاري ، ص ٢٧٠ .



الفتي وسالم بن راشد الكتاني على أذرنت وطارنت<sup>(١)</sup> Tarentum ، وساليرنو ونابل في سنة ٣١٧ هـ ، وبقيادة يعقوب بن اسحق على جنوة وسردانية وقرشقة Corsica<sup>(٢)</sup> . وقد بلغ النشاط البحري الفاطمي ذروته في سنة ٣٣٣ هـ ( ٩٤٥ م ) بفتح جنوة<sup>(٣)</sup> ، وغزو البر الكبير أي الساحل الجنوبي من فرنسا . ولم يتوقف الجهاد البحري الفاطمي إلا فترة ١٤ عاماً شغلوا خلالها بإخماد حركة أبي يزيد نخلد بن كيداد ، وما إن فرغوا من استئزال هذا الثائر حتى عاودوا الغزو البحري على سواحل إيطاليا الجنوبية في ظل ولاية صقلية الجدد من أسرة بني الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي ، وعجز البيزنطيون عن مواجهة الأساطيل الفاطمية ، وانهمزوا في موقعتين بحريتين حاسمتين : الأولى في أذرنت بإقليم قلورية في سنة ٣٤٠ هـ<sup>(٤)</sup> ، والثانية وهي المعروفة بوقعة الهجاز بالقرب من رمطة في سنة ٣٥١ هـ<sup>(٥)</sup> .

## ( ٢ )

### عوامل تفوق القوى البحرية الفاطمية في غرب البحر المتوسط

ساعد الفاطميين على تفوقهم البحري في غرب البحر المتوسط عوامل نذكر منها ما يلي :

#### ١ - تأصل فكرة الجهاد عند الفاطميين

يعتبر الجهاد عند الفاطميين عنصراً هاماً من عناصر سياستهم الحربية

- (١) ابن الأثير ، ( النص الوارد في المكتبة الصقلية ) ص ٥٤ - التنوير ، نهاية الأرب ، مخطوطة مصورة ، ج ٢٢ ، ص ٢٣٢ - أرشيبالد لويس ، ص ٢٣٤ .
- (٢) ابن الأثير ، ( المكتبة الصقلية ) ، ص ٥٤ - ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٩ - التنوير ، نهاية الأرب ، ص ٢٣٢ .
- (٣) ابن خلدون ( المكتبة الصقلية ) ص ٤٦٢ .
- (٤) ابن الأثير ( المكتبة الصقلية ) ص ٢٦٠ - أرشيبالد لويس ، ص ٢٣٥ .
- (٥) نفس المصدر ، ص ٢٦٦ - أبو الفداء ، ص ١٢٢ - التنوير ، ص ٢٣٥ .

وركيذة من ركائز العقيدة الإسلامية الشيعية<sup>(١)</sup>، ويرجع السبب في تمسك الفاطميين بالجهاد واتخاذهم له ركناً أساسياً من أركان سياستهم الحربية ضعف خلفاء بني العباس وتقاعسهم عن الدفاع عن الثغور الإسلامية الأمر الذي عرض هذه الثغور لاحتلال البيزنطيين، ويعمل أبو المحاسن فتح الفاطميين لمصر بأن الروم «كانوا قد استولوا على الشام والثغور وطرسوس وأنطاكية وأذنة وعين زربة والمصيصة وغيرها»<sup>(٢)</sup>. والواقع أن تجرؤ البيزنطيين على مهاجمة بلاد الشام منذ أيام الإمبراطور نفقور فوقاس ونجاحه في التغلب على أهم مدن الثغور في سنة ٣٥١ هـ، وتمكنه من افتتاح كثير من مدن الشام في سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م)، فتقلب على حلب ومعرّة النعمان ومعرّة مصرين وكفرطاب وشيزر وحماة وحمص، ووصلت قواته إلى عرقه فافتتحوها، وحاصروا طرابلس ثم أحرقوا ربضها، وانصرفوا بعد ذلك إلى جيلة فافتتحوها، ومضوا منها إلى اللاذقية<sup>(٣)</sup>، كان هذا التجرؤ من جانب البيزنطيين مع تراخي خلفاء بني العباس في الدفاع عن هذه البلاد من الأسباب التي حملت الفاطميين على فتح مصر والشام، وقد عبّر المعز لدين الله عن ذلك عندما وصل إلى الاسكندرية، واستقبله فيها قاضي مصر أبو طاهر الذهلي، وأعيان الثغر، فأعلمهم «بأن قصده قصد المبارك من إقامة الجهاد والحق وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة»<sup>(٤)</sup>، وأنه لم يقدم إلى مصر لزيادة في ملك أو استكثار لرجال، وإنما قدم «رغبة في الجهاد

(١) القاضي النعمان، دعائم الاسلام، تحقيق آصف علي فيظي، ج ١، القاهرة ١٩٥١ ص ٣٩٩ - عبد المنعم ماجد، ظهور دولة الفاطميين وسقوطها في مصر، الاسكندرية، ١٩٦٨ ص ١٢١، ٢٧٥.

(٢) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ٧٢.

(٣) ابن العديم الحلبي، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق الدكتور سامي الدهان، ج ١ دمشق ١٩٥١ ص ١٥٨ - السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٤٦، ٤٥.

(٤) ابن تغري بردي، ج ٤ ص ٧٢.

ونصرة للمسلمين»<sup>(١)</sup>. وعندما أخذ البيزنطيون يركزون هجماتهم على جزيرة إقريطش سنة ٣٥٠ هـ في عهد الإمبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩-٩٦٣م) الذي نجح في تكوين أسطول ضخم وجهه لفتح هذه الجزيرة ، واضطر عبد العزيز بن شعيب<sup>(٢)</sup> صاحب إقريطش ، إلى استصراخ ملوك الإسلام أمثال أبو الحسن علي الإخشيد والخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، لم يتردد المعز الفاطمي في بذل جميع إمكانياته لاستنقاذ جزيرة إقريطش ، وكتب إلى أبي الحسن علي الإخشيد رسالة يحثه فيها على الجهاد وإمداد أهل إقريطش بالمراتب لقربهم منه واتصالهم به ، وعهد في هذه الرسالة إلى إزالة غاؤه من أسطوله الفاطمي على سفنه ، وأعطاه المواثيق والعهود<sup>(٣)</sup> ، ولكن يبدو أن محاولة المعز استنقاذ إقريطش أخفقت بسبب تقاعس الإخشيديين عن إنفاذ سفنهم إلى مرسى طنبية من أرض برقة<sup>(٤)</sup> ، بالإضافة إلى عدول المعز عن إقحام أساطيله في معركة غير متكافئة قد تعود عليه بالهزيمة وتدمير الأسطول الذي أعده لغزو مصر ، فقد كان عليه أن يواجه أسطولاً بيزنطياً هائلاً يتألف من ٢٠٠٠ سفينة حربية ، و١٣٦٠ سفينة للمؤن والإمدادات<sup>(٥)</sup> ، واكتفى المعز بأن وجه إلى الإمبراطور البيزنطي رسالة تتضمن معاني التهديد بالحرب إذا هاجم إقريطش<sup>(٦)</sup>.

(١) الفريزي ، تماظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٣٣ .

(٢) الضبي ، بنية المتمس في تاريخ رجال الأندلس ، تحقيق كودره ، مدريد ١٨٨٥ ، ص ٣٩٤ - الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، تحقيق الأستاذ محمد بن نايت الطنجي ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٨٣ .

(٣) القاضي التمان ، قضية إقريطش في عهد المعز لدين الله ، نص من المجالس والمساربات نشره الأستاذ فرحات الدشراوي ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ، تونس ، ١٩٦٥ ، ص ٣٤ .

(٤) القاضي التمان ، المصدر السابق ، ص ٣٤ - حسن إبراهيم حسن رطله شرف ، المعز لدين الله الفاطمي ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٣٠٤ ( الملحق الأول ) .

(٥) أرشيبالد لويس ، ص ٢٩٦ - 462 ، Ch. Diehl, Histoire du Moyen âge, t. III, p. 462 .

(٦) حسن إبراهيم حسن ، رطله شرف ، المعز لدين الله الفاطمي ، الملحق السادس ، ص ٣٢١ .

## ٢ - سياسة التوسع الاقليمي

كان لتطلع الدولة الفاطمية الفتية إلى التوسع شرقاً للقضاء على الخلافة العبّاسية المتداعية ، وفي الشمال الغربي للإطاحة بملك بني أمية ، أعظم الأثر في اهتمامهم بتدعيم القوى البحرية ، ومن المعروف أن الحملة البرية التي سبّرها عبيد الله المهدي إلى مصر في المحرم سنة ٣٠٢ هـ<sup>(١)</sup> بقيادة حباسة ابن يوسف كانت تصحبها حملة بحرية ، إذ اشترك في العمليات الحربية أسطول فاطمي عدته مائتا مركب<sup>(٢)</sup> ، يغلب على الظن أنها من بقايا الأسطول الأغليبي الذي ورثه الفاطميون ، لأن دار صناعة المهديّة لم تبدأ في إنتاج السفن إلا بعد سنة ٣٠٤ هـ . كذلك اشترك في الحملة الثانية التي وجهها المهدي في سنة ٣٠٧ هـ بقيادة أبي القاسم محمد بن المهدي ، أسطول فاطمي من ثمانين سفينة يقودها قائدان من أعظم قادة البحر الفاطميين هما سليمان الخادم ويعقوب الكتامي ، أرسله المهدي نجدة لابنه القاسم ، وأرست هذه السفن في مياه رشيد<sup>(٣)</sup> . ومع أن هذه الحملة البحرية لم يكتب لها النجاح بعد أن تعرض هذا الأسطول الفاطمي في ٢٠ من شوال سنة ٣٠٧ هـ لهزيمة نكراء من الأسطول العبّاسي بقيادة ثعل الخادم ( وعدته ٢٥ سفينة ) أدت إلى تدمير معظم السفن الفاطمية ، ووقوع قائدي الأسطول ورؤساء السفن في أسر العبّاسيين<sup>(٤)</sup> ، فإن هذه الهزيمة كانت حافزاً للمهدي على توجيه مزيد من العناية بالأسطول .

(١) عريب بن سعد ، صة تاريخ الطبري ، طبعة ليدن ١٨٩٧ ص ١٧٣ - الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٦٩ .

(٢) ابن الأبار ، الحملة السبراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ص ٢٨٦ - ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي المسمى تنمة المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٢٨٥ ، ج ١ ص ٢٥٤ .

(٣) أبو الفداء ، المختصر ج ٣ ص ٨٧ - المغربي ، انماط الحنفا ، ص ٧١ - ابن الوردي ، ص ٢٥٥ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ . وقد توفي سليمان الخادم في سجنه بمصر بينما حمل يعقوب بن اسحق الكتامي إلى بغداد ، ومن هناك تمكن من الفرار إلى إفريقية حيث قاد من جديد أساطيل الفاطميين . ( الكندي ، ص ٢٧٦ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٥ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٦١ - المغربي ، انماط الحنفا ، ص ٧١ - التويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٢ ) .

أما فيما يتعلق بالتوسع في الأندلس ، فعلى الرغم من أن جهود المهدي لاجتذاب عدد كبير من الأنصار والمشايخين في هذه البلاد ، تمهيداً لبسط سلطانه مذهبياً وعسكرياً عليها ، قد باءت بالفشل أمام رد الفعل الأموي ، ومبادرة الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر بتوجيه أساطيله إلى أرض العدو لمساندة أنصاره الزناتيين ضد الفاطميين ، فإن الأسطول الفاطمي بقيادة الحسين بن علي أمير صقلية تمكن من مهاجمة مدينة المرية في سنة ٣٤٤ هـ ، وأحرق جميع السفن الأندلسية التي كانت راسية في ميناء هذه المدينة على النحو الذي فصلناه فيما سبق .

### ٣ - قيام دور الصناعة في المهديّة وموسى الحرّز بإنشاء الاساطيل

يسجل بناء مدينة المهديّة في سنة ٣٠٥ هـ <sup>(١)</sup> شروع الفاطميين في انتهاز سياستهم البحرية ، فما لا شك فيه أن المهديّة كانت تتمتع بموقع استراتيجي هام بين سفاقس والمنستير في جزيرة متصلة بالبر « كصورة كف اتصل بزند » <sup>(٢)</sup> ، وبوجود مرمى منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً ، يقوم على طرفيه برجان بينهما سلسلة من حديد تحمي من طروق مراكب الروم <sup>(٣)</sup> ، في مثل السلسلة التي كانت مقامة بميناء تونس <sup>(٤)</sup> ، كما كانت

(١) ذكر البكري أن المهدي شرع في بنائها في سنة ٣٠٠ هـ ، واستكمل سورها في سنة ٣٠٥ هـ وانتقل إليها في شوال سنة ٣٠٨ هـ ( البكري ، ص ٣٠ ) ، كذلك ذكر ابن عذاري أن المهدي ابتداءً ببنيان المهديّة في سنة ٣٠٠ هـ وأكمل سورها ونصب به الأبواب الحديدية في ربيع الأول سنة ٣٠٤ هـ ( ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣٤ ) .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة بيروت ، مجلد ٥٥ ص ٢٣٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧٩ - القرطبي ، تماثل الخفاء ، ج ١ ص ٧٠ .

(٣) البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دي سلان ، الجزائر ١٩١١ ص ٣٠ ، ٣٩ - كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، لكتاب راكمي مجهول ، تحقيق الدكتور سعد زغول عبد الحميد ، الإسكندرية ١٩٥٨ ص ١١٧ ، ١١٨ - للتجاني ، الرحلة ، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ص ٣٢٢ - ميخائيل عواد ، المآصر في بلاد الروم والإسلام ، بغداد ١٩٤٨ ص ٥٩ .

(٤) البكري ، ص ٣٩ .

تتمتع أيضاً بوجود دار للصناعة منقورة في الجبل كانت تسع مائة شيني<sup>(١)</sup> .  
وكان لإنشاء المهديّة أعظم الأثر في تدعيم أسطول الفاطميين في إفريقية ،  
فقد كانت دار صناعة المهديّة أكثر إنتاجاً للسفن من دار الصناعة بتونس<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أن الأئمة الفاطميين منذ أيام المهدي كانوا يسعون إلى إنشاء  
أسطول ضخم مزود بالرجال والآلات والسلاح لتنفيذ سياستهم التوسعية ،  
سواء في الأندلس أم في مصر ، وقد رأينا هذا الأسطول يشارك الجيوش  
الفاطمية في غزو الاسكندرية ، كما شاهدها يغير على المرية قاعدة الأسطول  
الأندلسي في عصر الخلافة ، وإقليم قلورية بجنوبي إيطاليا ، وأصبح للمهديّة  
متولي للبحر هو حسين بن يعقوب الكتامي<sup>(٣)</sup> ، ومتولي لخزائن البحر<sup>(٤)</sup> ،  
لتوفير مواد صناعة السفن كالأخشاب اللازمة لصناعة الصواري والقرايا<sup>(٥)</sup> .  
ويبدو أن مرسى المهديّة أصبح يفص بالسفن في عصر المعز لدرجة أن هذا  
الخليفة لم يتردد في إنشاء دار جديدة للصناعة ، وقاعدة للأساطيل في  
مدينة سوسة<sup>(٦)</sup> . ويذكر البكري أن مدينة مرسى الخرز الواقعة إلى  
الشرق من بونة أنشئت بها دار صناعة لصناعة المراكب الحربية التي يغزي  
منها إلى بلاد الروم<sup>(٧)</sup> .

(١) المقرئزي ، اتماظ الحنفا ، ص ٧٠ .

(٢) أنشأ هذه الصناعة حسان بن النعمان الفسافي عامل إفريقية بتشجيع من الخليفة الأموي  
عبد الملك بن مروان الذي حرص على مراسم الجهاد ( ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق الدكتور  
علي عبد الواحد وافي ، ج ٢ ص ٦٢٨ ) ، وأسهم في تأسيس هذه الصناعة أنبي قبطي  
أرسلهم إليه الأمير عبد المعز بن مروان من مصر بأهلهم وأولادهم وذلك لشهرة أقباط مصر  
وقتشذاك في صناعة السفن ( التجاني ، ص ٦ - ابن أبي دينار القيرواني ، ص ١١ ) .  
(٣) أبو علي منصور المزري الجوزدي ، سيرة الأستاذ سؤذر ، تحقيق الدكتور محمد كامل حسين  
والدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة ١٩٥٤ ص ٨٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٢ ، ١١٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١١٩ .

(٦) القاضي النعمان ، المجالس والمسايرات ، ( مخطوطة ) ج ٢ ورقة ٥٩٠ - ٥٩٢ ، البعقري ،  
كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ص ٣٤٨ - البكري ، ص ٣٤ .

(٧) البكري ، ص ٥٥ .

ولم تكن الدولة الفاطمية تقتصر إلى المواد الخام الضرورية لصناعة الأساطيل ، فقد كانت هذه المواد تتوفر بكثرة في بلاد المغرب وفي صقلية ، كالخشب الذي تصنع منه ألواح السفن والصواري والقرايا والسكان والمهاذيف والصلام ، ومثل معدن الحديد اللازم لصناعة المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف أو الكلاليب والمرادات والسلاسل ، ومثل الألياف اللازمة لعمل حبال المراسي ، والقطران والزفت اللذين يحتاج إليهما لقلطة السفن حتى تقاوم أخشابها مياه البحر ، والنفط الذي يصنع من القطران والكبريت ويستخدّم كسلاح من أسلحة الأسطول .

أما الخشب فكان يستقطع من مدينة جفاوذ بصقلية التي تشتهر بتوافر أنضر أجناس العود اللازم لصناعة السفن<sup>(١)</sup> ، كما كان يجلب من جبال شنت ماركو بجزيرة صقلية نفسها<sup>(٢)</sup> . وكان يستعان في استقطاع العود بصقلية بأهل طبرمين ورمطة<sup>(٣)</sup> . كذلك كان الخشب يجلب في المغرب من أودية بجاية وجبالها<sup>(٤)</sup> ، ومن جزيرة قوصة<sup>(٥)</sup> . أما الحديد فكان يستخرج في جزيرة صقلية من مسيني<sup>(٦)</sup> وبلرم ، ويصرف ما يستثار منه لصناعة السفن<sup>(٧)</sup> ، بينما كان يستخرج في إفريقية من بونة<sup>(٨)</sup> وبجاجة<sup>(٩)</sup> وبلاد

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، جلد ٢ ، مادة جفاوذ ، ص ١٤٧ .

(٢) الحميري ، منتخبات من كتاب الروض المطار في خبر الأقطار ، خاصة بالجزر والبقاع الإيطالية ، تحقيق الدكتور اومبرتو ريتزيتانو ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، جلد ١٨ ،

ج ١ مايو ١٩٥٦ ، ص ١٥٦ .

(٣) سيرة الأستاذ جؤفر ، ص ١١٧ .

(٤) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٥) الحميري ، ص ١٧٢ .

(٦) الإدريسي ( المكتبة الصقلية ) ص ٣٤ .

(٧) ابن حوقل ، صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص ١١٧ .

(٨) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص ٢٢٦ - ابن حوقل ، ص ٧٧ - الإدريسي ، ص ١١٦ .

(٩) اليمقري ، ص ٣٤٩ .

كتامة<sup>(١)</sup> والأريس<sup>(٢)</sup> وبجاية<sup>(٣)</sup>. وكان الزيت والقطران البالغ الجودة يجلب من أقاليم بجاية<sup>(٤)</sup> ومن جزيرة قوصرة<sup>(٥)</sup> في المغرب، ومن لياج<sup>(٦)</sup> Aci بصقلية، بينما كانت حبال السفن تصنع من نبات يقال له البربير يشبه البردي، كان ينبت بكثرة في بلرم، فكانت يفتل حبالاً للمراسي السفن<sup>(٧)</sup>.

#### ٤ - تعدد المراسي والقواعد البحرية في المغرب

كان لامتداد السواحل التونسية والجزائرية واتصالها شرقاً بسواحل برقة وطرابلس وغرباً بسواحل المغرب الأقصى، بالإضافة إلى كثرة الخلجان التي تتعمق في الداخل، أثر كبير في تعدد المراسي التي تصلح لاتخاذها قواعد بحرية هامة، فتونس تقع في وسط خليج خارج عن البحر على نحر بحيرة محتفزة يقال له مرسى رادس<sup>(٨)</sup>، وسوسة تقع على الساحل إلى الجنوب الشرقي من تونس<sup>(٩)</sup>، ومنها فتح الأغالبة جزيرة صقلية<sup>(١٠)</sup>، ومرسى المهدية يقع شرقي سوسة على طرف داخل في البحر الذي يحيط بها، ومرسى سفاقس يقع شرقي المهدية، وكان من المراسي المشهورة بركود مياهاها<sup>(١١)</sup>، وقابس كان مرفئاً للسفن الصغيرة والمتوسطة التي كانت تدخل في وادها<sup>(١٢)</sup>.

(١) ابن حوقل، ص ٨٤ - البكري، ص ٣٣.

(٢) الإدريسي، ص ١١٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٩١.

(٤) نفس المصدر.

(٥) المكتبة الصقلية، ص ١٣٤.

(٦) الجبيري، ص ١٤١، ١٧٤.

(٧) ابن حوقل، ص ١١٧.

(٨) البكري، ص ٣٧.

(٩) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١١٦.

(١٠) البكري، ص ٢٢٠ - ابن عذاري، ج ١ ص ١٣٢ - الجبيري، ص ١٥٧.

(١١) الإدريسي، ص ١٠٧.

(١٢) الإدريسي، ص ١٠٧ - أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١١٢.



وكان لمدينة بونة مرمى حسن تخرج منه الشواني غازية إلى بلاد الروم وسردانية وقرشقه وما والاها<sup>(١)</sup>. أما طرابلس فرساها كان مأموناً من الرياح ، وكان ساحلها كثير الأربطة ، وكان أهلها بحريين مهرة شغلوا مناصب هامة في البحرية الفاطمية مثل ابن وسم الإطرابلسي ، أحد أرباب البحر والمراكب في زمن المعز لدين الله الفاطمي<sup>(٢)</sup>. وقد أصبحت طرابلس في أواخر عصر المعز بإفريقية قاعدة لأسطول صقلية<sup>(٣)</sup>. وكان لجبيل مرسيان : الجنوبي منها كان يصعب على السفن أن ترسو فيه لتعرضه للرياح ، والشالي كانت حسن الإرساء لسكون حركة الماء فيه<sup>(٤)</sup>. ومن مراسي المغرب الأوسط المشهورة : مرمى بحاية الذي كان يحميه جون<sup>(٥)</sup> ، ومرسى الدجاج ، وكان من المراسي الضيقة التي تقصدها سفن الأندلس بوجه خاص<sup>(٦)</sup> ، ومرسى وهران المعروف بمرسى أرزاو ، ومرسى هنين فرضة تلسان<sup>(٧)</sup>.

أما صقلية ، فقد تعددت فيها المراسي الصالحة للسفن ، مثل مسيني وطبرمين وقطانية ومرقوسة والبوالص ونوطس ورغوص ولبنيادة وجرجنت والساقة وطرابلس والحمة وبرطنيق<sup>(٨)</sup>. ومن مراسي قرشقة البوالص والزيتونة<sup>(٩)</sup>. أما جزيرة جربة فرغم صغرها كانت تضم عدداً كبيراً من

(١) البكري ، ص ٨٣ .

(٢) سيرة الأستاذ جؤذر ، ص ٨٧ - سعد زغلول ، فترة حاسمة في تاريخ المغرب ، ص ١٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٧ ، ١١٨ - سعد زغلول ، فترة حاسمة في تاريخ المغرب ، ص ١٧ ، ١٦ .

(٤) الإدريسي ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٥) العمري ، وصف إفريقيا والمغرب والأندلس ، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ،

تونس ١٩٠٦ ص ٩ .

(٦) البكري ، ص ٦٥ - الإدريسي ، ص ٨٩ .

(٧) تقويم البلدان ، ص ٧ .

(٨) الإدريسي ، ص ٢٧ - ٣٥ .

(٩) المهيدي ، ص ١٧٧ .

المراسي مثل البرج الكبير المعروف بالحصار ، ومرسى أجيم ومرسى الساقية ومرسى الرملة ومرسى التفاح<sup>(١)</sup> .

وعلى هذا النحو تعددت القواعد البحرية للسفن التجارية والحربية الفاطمية ، وكان لذلك أعظم الأثر في التفوق البحري الذي أحرزه الفاطميون على جيرانهم الساكنين بسيف هذا البحر وسواحه الشمالية من أمم الروم والافرنجة<sup>(٢)</sup> .

#### ٥ - سيطرة الفاطميين على الجزر الواقعة قبالة السواحل التونسية

يمتد بين سفيي البحر المتوسط الشمالي والجنوبي من نصفه الغربي عدد كبير من الجزر كانت تؤلف للفاطميين ستارة أمامية ، أو خطاً دفاعياً أمامياً ، يقسم هجمات خصومهم على السواحل المغربية ، وفي نفس الوقت يعينهم على شن الغارات البحرية على أراضي هؤلاء الخصوم : فجزيرة صقلية بحكم موقعها بين الساحل التونسي من الجهة الجنوبية الغربية والساحل الجنوبي من شبه جزيرة قاورية ، كانت لها أهميتها العظمى في حسم التفوق البحري ، ويعتبر فتحها على أيدي الأغالبة في سنة ٢١٢ هـ ، حدثاً من الأحداث البارزة في تاريخ البحرية الإسلامية ، إذ عرف الأغالبة ثم الفاطميون من بعدهم فالزبريون ، عن طريقها كيف يهددون إيطاليا ، ويسودون البحر التيراني كله<sup>(٣)</sup> .

ولقد تمكن الفاطميون من السيطرة على معظم الجزر المتوسط الغربي ، وأكبرها صقلية ثم مردانية وقرشقة ومالطة . وكان يحمي السواحل

---

(١) محمد أبو راس الجربي ، مؤلف الأحبة في أخبار جربة ، تحقيق الأستاذ محمد الرزوقي ، تونس ١٩٦٠ ص ٧٥ - ٨٣ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٧ .

(٣) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

الفاطمية عدد من الجزر الصغيرة منها جزيرة قوصرة ومليطمة<sup>(١)</sup> الواقعة تجاه ساحل إفريقية ، وجزيرة قورية بإزاء المنستير ، وجزيرة قوقنة الواقعة قبالة قصر زياد وسفاقس<sup>(٢)</sup> ، وجزيرة جوية الواقعة تجاه ساحل بجاية ، وجزيرة قملارية ، وجزائر الكراث الواقعة على مقربة من مرسى بنزرت ، وجزيرتا الجامور في قبالة مرسى بونة ، وجزيرتا الزرقاء تجاه رأس قبودية ، وجزيرة الأحامي بإزاء المهدية<sup>(٣)</sup> ، وجزيرة جربة بين قابس وسيرت ، وجزيرة زيزو التي تقسح إلى شرقها<sup>(٤)</sup> ، وجزيرة رازوا الواقعة في قبالة قابس<sup>(٥)</sup> .

## ٦- درة أهل إفريقية على ركوب البحر

حببت الطبيعة بلاد المغرب وإفريقية بوجه خاص بالهوامات الضرورية للقيام بدور بحري هام ، فإن شكل الساحل التونسي وامتداده في شريط طويل متصل بساحل برقة وطرابلس من الشرق ، وبساحل المغربين الأوسط والأقصى حتى المحيط الأطلسي من الغرب ، حتم على إفريقية القيام بهذا الدور وتقرير مصيرها في ثقة تامة<sup>(٦)</sup> ، وقد أدرك الفينيقيون أهمية موقع البلاد التونسية بحكم اشتغالهم بالملاحة والتجارة ، كما بنى الوندال سياستهم البحرية على هذا الأساس<sup>(٧)</sup> . كذلك فطن العرب إلى هذه الحقيقة في إمارة حسان بن النعمان الفسافي ، فأسسوا مدينة تونس وزودوها بدار صناعة للإنشاء وإنتاج الآلات . وقد لاحظ ابن خلدون أثر هذا الامتداد

(١) الروض المطار ، ص ١٧٢ .

(٢) البكري ، ص ٢٠ - الإدريسي ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣) الروض المطار ، ص ١٨٠ .

(٤) الإدريسي ، ص ١٢٨ .

(٥) البكري ، ص ١٧ .

(٦) Pellegrin, Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948, p. 19 — R. Brunschwig, La

Berberie orientale sous les Hafsides, Paris, 1940, t. II, p. 94.

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٣ - البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٤٨ .

الساحلي لإفريقية والمغرب في تمرس المغاربة بالأمور البحرية ، فقال :  
« والساكنون بسيف هذا البحر وسواحه من عدوتيه يعاونون من أحواله  
ما لا تعانیه أمة من أمم البحار ، فقد كانت الروم والإفرنجية والقوط  
بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي ، وكانت أكثر حروبيهم ومتاجرمهم  
في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ، ولما أسف ما  
أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية ، مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى  
المغرب ، أجازوا في الأساطيل وملكوها ، وتقلبوا على البربر بها ، وانتزعوا  
من أيديهم أمرها ، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسيطة  
وجولوا ومرناق وشرشال وطنجة . وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب  
صاحب رومة ، ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالساكر والعدد ،  
فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حفافيه ، معروفة في القديم  
والحديث » (١) .

وقد أثر امتداد الساحل الإفريقي في طبيعة السكان ، فكانوا يتميزون  
بنشاطهم البحري العظيم ، وهو نشاط يكون جزءاً لا يتجزأ من حياتهم  
الإجتماعية والإقتصادية ، ولم يظهر هذا النشاط في صورته الحقيقية إلا بان  
تبعية بلاد المغرب للخلافة الأموية بالشرق ، ولكنه اتضح بعد أن تطلع  
المغاربة إلى الانفصال عن المشرق الإسلامي (٢) ، فارسوا نشاطهم البحري  
الذي بلغ ذروته في القرنين الثالث والرابع باحتلالهم صقلية وجنوبي إيطاليا  
ومالطة وسردانية وقورشقة .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٧ .

(٢) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٨٩ ، ٣٤٧ .

## الفصل الثاني

### البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر القوة

( من المعز لدين الله إلى المستنصر بالله )

( ١ )

#### السيادة الفاطمية على حوض البحر المتوسط كله

يسجل استيلاء الفاطمين على مصر والشام فيما بين عامي ٣٥٨ هـ و ٣٦٥ هـ بداية عهد جديد في تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، أصبحت فيه سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر المتوسط الشرقية من أنطاكية إلى غزة ، والجنوبية من غزة شرقاً إلى مصب وادي ملوية بالمغرب الأوسط غرباً ، ملكاً للفاطمين . وكان من الطبيعي أن يهتم الفاطميون بالدفاع البري والبحري عن هذه السواحل الشامية المصرية المغربية المتراصة الأطراف من خطر الغزو البيزنطي من جهة ، وخطر القرامطة على مصر من جهة ثانية ، أو عن سواحل البحر الأحمر خوفاً على مراكب الكارم من القراصنة <sup>(١)</sup> ، ولذلك وجه المعز لدين الله الفاطمي عنايته لتدعيم الأسطول الفاطمي وتنظيمه على نحو يتسق والأوضاع السياسية الجديدة ، على الرغم من أنه كان قد نقل أسطوله من قواعده المغربية إلى الإسكندرية ودمياط وتنيس وعسقلان وطرابلس وصيدا وصور ، ولم يترك في المغرب إلا عدداً قليلاً

---

(١) ولذلك السبب وضعوا أسطولاً في عذاب يتلقى به الكارم فيما بين عذاب وسواكن وما حولها ، وكانت عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ، تناقصت فيما بعد إلى ثلاث ، وكان والي قوص يتولى أمر هذا الأسطول ( الفلشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٢٠ )

من السفن لمعاونة فوابه الزيريين في حاية سواحل المغربين الأدنى والأوسط من الخطر الأموي في الأندلس<sup>(١)</sup> ، وفي نفس الوقت لمتابعة السياسة التي رسمها الأئمة الفاطميون لمواصلة الجهاد البحري في صقلية وجنوبي إيطاليا .

وقد حرتب على انتقال الفاطميين إلى مصر ، أن أصبحت الدولة الفاطمية تنقسم إلى قسمين : قسم مشرقى يضم الشام ومصر ، وقسم مغربى ويشتمل بدوره على ثلاثة ولايات منفصلة : ولاية طرابلس وسرت ثم ولاية الزيريين الصنهاجيين بالمغربين الأدنى والأوسط ، وأخيراً ولاية صقلية التي انحصرت في أسرة بني أبي الحسين الكلبيين<sup>(٢)</sup> .

أما الشام ومصر ، فقد أصبحتا ترتبطان لأول مرة في تاريخهما الإسلامي في وحدة سياسية شاملة على الرغم مما تعرض له الفاطميون من دسائس أعدائهم في العراق وفي بلاد الشام نفسها<sup>(٣)</sup> ، ثم إن الشام كانت في اعتبار الأئمة الفاطميين أرض جهاد ، لاتصال حدودها الشمالية بأراضي البيزنطيين ، بالإضافة إلى كثرة ثغورها البحرية المعرضة للغارات البحرية البيزنطية<sup>(٤)</sup> .

(١) أوشبالد لريس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ٣١٢ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٢ ص ١٣٧ .

(٣) السيد عبد العزيز سام ، الصلات التاريخية بين الشام ومصر في العصر الإسلامي ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ، مايو ١٩٦٤ ص ١ - ١٥ ، عبد النعم ماجد ، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، ص ١٢٣ .

(٤) من المعروف أن الامبراطور البيزنطي حنا زيمسكس المعروف في المصادر العربية بإبن الشمشقيق ، عزم منذ أن تولى العرش على القيام بحملة صليبية واسعة النطاق ضد المسلمين في الشام (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٤ - عمر كمال توفيق ، مقدمات المدون الصليبي : الامبراطور ريجنا زيمسكس وسياسته الشرقية ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٩٠ - ٩٦) ، سالكا في ذلك نفس السبيل الذي سلكه سلفه الامبراطور ثقفور فوقاس ، فاستغل فرصة ما كان يعانيه الفاطميون من متاعب في الشام من جانب الحسن بن أحمد القرمطي ، وأبي منصور الفتكين التركي ، وتحركت قواته لغزو بلاد الشام في سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، فافتتح حصص وبعلبك ، ودخلت دمشق في طاعته . ثم زحف جنوباً نحو الساحل ، فوصل إلى بلدة صيدا ، حيث هادنه واليها ابن الشيخ علي مال (ابن القلاسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤) . ثم استولى على قيسارية ، وافتتح بيروت هنوة ، ثم افتتح مدينة جبيل الواقعة في شمالها ، فيما بين طرابلس وبيروت . ولكن قواته المهفة لم تستطع أن تقتحم أسوار طرابلس التي كانت في حماية الأسطول =

وأما البلاد اللوية الممتدة ما بين مصر وإفريقية ، فقد انقسمت في العصر الفاطمي إلى قسمين :

١ - قسم شرقي يمتد ما بين حدود مصر الغربية إلى برقة ، ويشتمل على إقليمي لوبية ومراقية ، وكان هذا القسم ، كشأنه في العصور الإسلامية السابقة على العصر الفاطمي ، عملاً من أعمال مصر ، وجزءاً إقليمياً متمماً لها . وظل هذا القسم الشرقي خاضعاً للفاطمين في مصر حتى سنة ٣٩٦ هـ عندما انتزعه منها - خلال عام واحد - ثائر أندلسي يقال له الوليد ابن هشام الأموي ، ويعرف بأبي ركوّة ، ولم يلبث هذا الإقليم أن عاد بعد مقتل أبي ركوّة إلى تبعيته المباشرة لمصر .

٢ - وقسم غربي يمتد ما بين برقة وقابس ، ويضم مدينتي سرت ، وطرابلس ، وأقليم أجدابية الواقع جنوبي سرت ، وقد أصبح هذا القسم ولاية جديدة مستقلة عن إفريقية أسندت إلى عبداؤه بن يخلف الكتامي ، منذ أن عزم المزلدين الله على الانتقال من إفريقية إلى مصر . ثم انضافت

= الفاطمي ، فاضطر الامبراطور إلى رفع الحصار عن طرابلس ، ورحل بقواته إلى أنطاكية ( محمد جمال الدين سرور ، دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣١ - سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٦٦ - السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الإسكندرية ١٩٦٧ ص ٥٥ وما يليها ) كذلك قام الامبراطور بسيل الثاني بغزو بلاد الشام في سنة ٣٨٥ هـ ( ٩٩٥ م ) ، فزول بلجبل ، وزحف منها إلى شيزر التي استسلمت له بسهولة ( ابن الفلاني ، ص ٤٣ - أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ١٢١ ) . ثم حاصر حصن وافتتحها عنوة ، وافتتح ريفية ، ومن هناك زحف تجاه طرابلس ، فحاصرها أكثر من أربعين يوماً ، ولكنه أخفق في افتتاحها أمام مقاومة أهلها ، ووصول المدد إليها من مصر عن طريق البحر ، واضطر أخيراً إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى بلاده . ثم قام في سنة ٣٨٩ هـ بحملة ثانية لقيت نفس مصير الحملة السابقة ، واضطر هذه المرة أيضاً إلى الرحيل عن طرابلس في ٥ من المحرم سنة ٣٩٠ هـ إلى أنطاكية ( يحيى بن سعيد القطاعي ، ص ٢٠ - كتاب سعيد بن بطريق ، بيروت ١٩٠٩ ص ١٨٤ - أبو الفداء ، المختصر ، ج ٤ ص ٢٠ - أسد رستم ، الروم والعرب ، بيروت ١٩٥٦ ، ج ٢ ص ٥٦ - سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٦٩ ) .

هذه الولاية في سنة ٣٦٧ هـ إلى ولاية إفريقية ، التي كان المعز قد أسندها في سنة ٣٦٢ هـ إلى يوسف بلكين بن زيري الصنهاجي<sup>(١)</sup> . وظلت هذه الولاية الطرابلسية تابعة لأعقاب بلكين إلى أن خرجت مدينة طرابلس الغرب على باديس بن المنصور ، واتخذها فلفل بن سعيد ، حفيد خزرون الزناتي ، منذ سنة ٣٩٥ هـ مركزاً لإمارة زناتية في قلب ليبيا . ثم عادت طرابلس ولاية تابعة لباديس بعد وفاة فلفل مدة ثلاث سنوات عادت بعدها إلى الانفصال عن إفريقية والدخول في طاعة بني خزرون الزناتيين . وقد اهتم بنو خزرون - وعلى الأخص خليفة بن وروا بن فلفل - في طرابلس بإنشاء أسطول قوي لإمارته ، الأمر الذي نبه الزيريين في إفريقية إلى ضرورة العودة بدورهم إلى الاهتمام بالبحرية والتطلع إلى الجهاد البحري الذي عرفوا به<sup>(٢)</sup> .

أما المغربان الأدنى ( ويعرف بإفريقية ، ونعني به الاقليم التونسي ) والأوسط ( ويضم تقريباً الأراضي التي تشغلها حالياً الجمهورية الجزائرية ) ، فقد احتفظا باستقلالهما كولاية قائمة بذاتها مع الإبقاء على صلات الولاء للائمة الفاطميين في القاهرة ، والمحصرات هذه الولاية في بيت بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي وذلك منذ أن غادر المعز لدين الله الفاطمي أرض المغرب إلى مصر ، بعد أن فصل عنها ولاية صقلية التي أسندها إلى بني أبي الحسين الكلبيين ، وولاية طرابلس وصرت التي أسندها إلى عبدالله بن يخلف الكتامي . ثم انفصل المغرب الأوسط عن إمارة بني زيري وفقاً للصالح الذي تم بين حماد بن بلكين وبين المعز بن باديس في سنة ٤٠٨ هـ ( ١٠١٧ م ) ، وبمقتضاه انقسمت الدولة الزيرية إلى دولتين : الأولى دولة بني المنصور ابن بلكين ، والثانية دولة بني حماد بن بلكين<sup>(٣)</sup> . وكانت حماد ، مؤسس

(١) ابن عداري ، ج ١ ص ٣٢٩ - سعد زغلول ، فترة حامية ، ص ٢٢ - عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٤٣ .

(٢) سعد زغلول ، ص ٣٥ وما يليها .

(٣) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم المغربي ، تحقيق الدكتور أحمد غنتر المبادي ، ص ٧٦ - السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٥١ .



الدولة الحماذية ، قد صرح منذ بداية استقلاله بالمغرب الأوسط في سنة ٤٠٥ هـ  
بنبذ الطاعة للفاطميين والدعوة للعباسيين<sup>(١)</sup> ، أما بنو زيري فلم يعلنوا  
انفصالهم السياسي والروحي عن الخلافة الفاطمية بمصر إلا في سنة ٤٤٠ هـ  
( ١٠٤٨ م ) في إمارة المعز بن باديس<sup>(٢)</sup> ، وهذا أهل برقة حذو المعز  
ابن باديس ، فدعوا للخليفة القائم بأمر الله العباسي في سنة ٤٤٣ هـ<sup>(٣)</sup>.

والواقع أن كلا من الولايات المغربية الثلاث : طرابلس وإفريقية وصقلية ،  
أحست منذ اليوم الذي انتقل فيه مركز الحكم الفاطمي إلى القاهرة ،  
بمجابتها الماسة إلى السفن ، وكان أبو الفتوح بلكين أول من تنبه من أمراء  
بني زيري إلى حاجة بلاده إلى أسطول قوي بعد أن سحب الفاطميون أسطولهم  
الكبير معهم إلى القسم الشرقي من البحر المتوسط<sup>(٤)</sup> ، لمواجهة الغزو  
القرمطي . ففي ذي الحجة من سنة ٣٦٥ هـ ( ٩٧٥ م ) عهد إلى واليه  
عبدالله بن محمد الكاتب بإنشاء أسطول بالمهدية وتزويده بالرجال والعتاد ،  
فشرع عبدالله في حشد البحريين من كل البلاد مستخدماً في ذلك العنف ،  
والزج بمن امتنع عن ذلك في سجون القيروان<sup>(٥)</sup> . وفي عهد الأمير باديس  
زاد اهتمام الزيريين بدعم القوة البحرية ، فقد زار سواحل إفريقية في عامي  
٣٨٦ ، ٣٨٧ هـ ، كالمهدية وسوسة وسردانية ، وعندما وصل إلى المهدية  
لعبت المراكب بين يديه ، ورعى التقاطون بالنفط<sup>(٦)</sup> .

ومنذ أن بدأ المعز بن باديس يفكر جدياً في إعلان انفصال بلاده  
السيامي والروحي عن الدولة الفاطمية ، تضاعف اهتمام الدولة الزيرية

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٥١ .

(٢) المغرب الكبير ، ص ٦٥٣ - ٦٦٥ .

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٤١٦ .

(٤) ذكر المعري أن الأسطول الفاطمي قدم في رمضان سنة ٣٦١ هـ ( ٩٧١ م ) من المغرب  
وسار إلى الشام ، فأمر وغنم ( انماط الحنفا ص ١٣١ ) .

(٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٢٧ .

(٦) ابن أبي ديناير القيرواني ، للمؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ص ٧٤ .

بشؤون البحر ، لإخضاع ثورات بني خزرون في طرابلس التي أصبحت في ظل خليفة بن وروا قوة بحرية يخشى بأسها<sup>(١)</sup> ، ومواجهة الحملات البيزنطية التي سيرها بسيل الثاني إلى صقلية وقلورية لوضع حد لغارات الزيريين .

أما طرابلس فقد أصبحت في الفترة التي خضعت فيها لحكم خليفة ابن وروا قاعدة بحرية هامة تضم عدداً كبيراً من السفن ، وكان لهذا التحول البحري لإمارة طرابلس أثره العميق في حمل حكام المغرب الأدنى على اصطناع سياسة بحرية ، واسترجاع المهدي لأهميتها كمدار صناعة وقاعدة رئيسية للأساطيل الزيرية . وأما صقلية الإسلامية ، فقد ظلت أرض جهاد ، ولذلك كثرت فيها القواعد البحرية التي يوجه بنو أبي الحسين منها غاراتهم المدمرة على سواحل قلورية وعلى السواحل المطلة على البحرين الأدرياتي والتيراني .

## ( ٢ )

### مظاهر عناية الفاطميين في مصر بالأساطيل

اهتم الفاطميون في المغرب اهتماماً خاصاً بالبحرية ، وقد بلغ هذا الاهتمام ذروته في خلافة المعز لدين الله ، وأصبح للفاطميين أسطول قوي فرض سيطرته في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ويصف الشاعر ابن هاني<sup>(١)</sup> الأندلسي هذا الأسطول بقوله من قصيدة يمدح فيها المعز :

لك البر والبحر العظيم عبابه  
فسيان أعمار تخاض ويبد  
أما والجواري المنشآت التي سرت  
لقد ظاهرتها عدة وعديد

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٣١٢ - سعد زغول عبد الحميد ، ص ٣٤ .

قباب كما ترجي القباب على المها  
 ولكن من ضمت عليه أسود  
 والله ما لا يرون كتائب  
 مسومة تحددوها وجنود  
 وما راع ملك الروم إلا اطلاعها  
 فتشتر أعلام لها وينود  
 عليها غمام مكفهر صبيره  
 له بارقات جمة ورعود  
 مواخر في طامي العباب كأنه  
 لمزمك بأس أو لكفك جود  
 أنافت بها أعلامها ومما لها  
 بناء على غير العراء مشيد  
 إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج  
 كما شب من نار الجحيم وقود  
 فأنفاسهن الحاميات صواعق  
 وأفواههن الزافرات حديد<sup>(١)</sup>

ثم ازداد اهتمام الخليفة الفاطمي المعز بالأساطيل منذ أن استقر في  
 القاهرة ، حاضرتة الجديدة ، إما لمواجهة خطر القرامطة على الشام ومصر  
 أو لحماية سواحل دولته من أنطاكية إلى الإسكندرية من غارات البيزنطيين<sup>(٢)</sup> ،  
 أو لأنه كان ينوي الدخول في مغامرات جديدة مع البيزنطيين في النصف  
 الشرقي من حوض البحر المتوسط ، بعد أن ضمن التفوق الفاطمي في  
 النصف الغربي من هذا الحوض . وفي ذلك يقول القلقشندي « أما اهتمامهم  
 بالأساطيل وحفظ الثغور ، واعتناؤهم بأمر الجهاد فكان ذلك من أهم

(١) ابن هانئ ، كتاب تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ الأندلسي المتري ، تحقيق الدكتور  
 زاهد علي ، مصر ١٣٥٢ ، ص ٢٣١ - ٢٣٥ .

(٢) حسين مؤنس ، للمسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ١٠٤ .

أمرهم ، وأجسل ما وقع الاعتناء به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام حين كانت بأيديهم قبل أن يقلبهم عليها الفرنج<sup>(١)</sup> . ويعتبر القريني عن عناية المعز وبنيه بالأساطيل في مصر بقوله : « وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله ، وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه ، وكان لهم اهتمام بأمر الجهاد واعتناء بالأسطول ، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان ، وكانت جريدة قواد الأسطول في آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة ، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد واحدم قائد ، وتصل جامكية كل واحد منهم إلى عشرين ديناراً ، ثم إلى خمسة عشر ديناراً ، ثم إلى عشرة دنانير ، ثم إلى ثمانية ، ثم إلى دنانير وهي أقلها ، ولهم إقطاعات تعرف بأبواب الفزة بما فيها من النظرون ، فيصل دينارهم بالمناسبة إلى نصف دينار<sup>(٢)</sup> .

وقد بلغ عدد مراكب الأسطول الفاطمي في خلافة المعز ما يزيد على ستائة قطعة بحرية ما بين شواني ومسطحات وحالات ومراكب نيلية ، وانتهى الأسطول المصري في أواخر عصر الدولة الفاطمية إلى ثمانين شونة ( أي شينياً ) وعشر مسطحات ، وعشر حالات<sup>(٣)</sup> ، وقيل ٧٥ شينياً وعشر مسطحات وعشر حالات<sup>(٤)</sup> .

#### ( أ ) إنشاء ديوان الجهاد أو العياز

اهتم الفاطميون اهتماماً خاصاً بالأسطول بحكم اضطرابهم إلى غزو الأراضي

(١) الفلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ٣ ص ٥١٩ .

(٢) القريني ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٨ ، ج ٣ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٣٧٨ .

(٤) الفلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥١٩ .

البيزنطية ومقاتلة سفن الروم في البحر ، بالإضافة إلى رغبتهم في تيسير الإلتصال البحري بين سواحل مصر والشام من جهة والمغرب وصقلية من جهة ثانية ، فخصصوا للأسطول ديواناً عرف بديوان الجهاد أو ديوان العماير ، كان مقره دار صناعة الإنشاء بمصر<sup>(١)</sup> ، ويختص هذا الديوان بإنشاء مراكب الأسطول وحل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها والتفقه على رؤساء المراكب ورجالها . وذكر القرطبي نقلاً عن ابن الطوير أن « الخدمة في ديوان الجهاد أو العماير للأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية ، وكانت تزيد على خمسين عشارياً ، يليها عشرون ديماساً ، منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها<sup>(٢)</sup> ، ولكل منها رئيس ونواقي<sup>(٣)</sup> ، لا يبرحون ، ينفق فيهم من مال هذا الديوان ، وبقية العشاريات<sup>(٤)</sup> ، الدواميس برسم ولادة الأعمال المميزة ، فهي تجري لهم ، وينفق في رؤسائها ورجالها أينما كانوا من مال هذا الديوان ، وتقيم مع أحدهم مدة مقامه ، فإذا صرف عاد فيه ، وخرج التولي الجديد في العشاري المرسى بالصناعة ، ولا يخرج إلا بتوقيع إطلاقه والإنفاق فيه ، وللشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه . وفي هذا الديوان برسم خدمة ما يجري في الأساطيل ثائبان من قبل مقدم الأسطول ، وفيه من الحواصل لمهارة المراكب شيء كثير ، وإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه استدعى له من بيت المال ما يسد خلله<sup>(٥)</sup> .

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٩٢ - اتعاط الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة) ، ص ١٦ ب  
(٢) راجع تفاصيل الاحتفال بكسر الخليج أو فتحه في القسم الرابع من الفصل الرابع . ومن المعروف أن الخليفة كان له عدد من العشاريات يتراوح ما بين عشرين وأربعين ، وكانت هذه العشاريات ترسو في حوض خاص بساحل القدس (أصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٥٥) وكانت هذه العشاريات مخصصة للاحتفالات أو لنزه الخليفة البحرية (القرطبي ، ج ٢ ص ٣٦٥) .

(٣) نواتي جمع نوتي وهو البعارة ، واللفظة لاتينية الأصل مشتقة من كلمة Nauticus .  
(٤) جمع عشاري وهو مركب نيلي يرسم نقل الغلال والأحطاب ، وقد عرف في العصر المملوكي باسم الحراقة ، وقد عرفت العشاريات الخليفة بالدواميس .

(٥) القرطبي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٣٧ .

وقد تجدد هذا الديوان في وزارة رضوان بن ولحي سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) ومن المعروف أن هذا الوزير وجه اهتماماً خاصاً لتقوية الثغور وتحصينها وهو الذي حصّن عسقلان وزودها بالعدد والآلات .

#### (ب) إنشاء دار صناعة القس

ذكر المقرئ ، نقلاً عن ابن أبي طي ، أن المعز لدين الله هو الذي أنشأ دار الصناعة التي بالقس وأنه أنشأ بها « ستائة مركب لم ير مثلاً في البحر على ميناء » (٢) ؛ وذكر المقرئ أيضاً في « اتماط الحنفا » أن المعز ركب في شوال سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) إلى القس وأشرف على أسطوله ، وقرأ عليه وعوّذه ، وخلفه جوهر والقاضي النعمان ووجوه أهل البلد ، ثم عاد إلى قصره (٣) .

وكان مصر في العصر الفاطمي بالإضافة إلى دار صناعة القس أربع دور للصناعة (٤) : منها دار للصناعة في الإسكندرية (٥) التي كانت مقامة منذ الفتح العربي لهذه المدينة ، وقد أنتجت هذه الدار عدداً كبيراً من السفن لحساب معاوية بن أبي سفيان ؛ والثانية دار الصناعة بدمياط التي كانت تصنع فيها وفي صناعتي مصر والإسكندرية ، الشواني الحربية والشنديات والمسطحات في العصر الفاطمي (٦) ، والثالثة دار صناعة الجزيرة أو جزيرة مصر المعروفة بالروضة ، وهي أول دار للصناعة أسست بفسطاط مصر ،

(١) اتماط الحنفا ، ص ١٣٨ .

(٢) ينسب المسيحي هذه الصناعة إلى المعز بإله بن المعز .

(٣) اتماط الحنفا ، تحقيق الدكتور الشلال ، ص ١٣٩ .

(٤) ذكر ناصر خسرو أنه كان يصنع في الصالحية سفن كثيرة جملة كل منها مائتا خروار (سفرنامه ، ص ٤١) .

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ( الطبعة الثانية ) ، ص ١٠٩ ، ٤٩٤ .

(٦) ابن مماتي ، كتاب قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ - المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧ - ج ٣ ص ١٠٨ .

إذ أقيمت في سنة ٥٤ هـ<sup>(١)</sup>، وفيها أمر الخليفة العباسي المتوكل على الله في سنة ٢٣٩ هـ بإنشاء الشواني برسم الأسطول، وذلك بعد أن تغلب البيزنطيون على دمياط في إمارة عنبسة ابن اسحق<sup>(٢)</sup>. ويذكر المقرئ أن اهتمام هذا الخليفة بشؤون الأسطول ازداد منذ تلك الغزوة زيادة كبيرة، « وصار من أهم ما يعمل بمصر، وأنشئت الشواني برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة، وانتخب له القواد العارفون بحمارة العدو، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشم ولا جاهل بأمر الحرب، وهذا وللتناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله وإقامة دينه، لا جرم أنه كان لخدمة الأسطول حرمة ومكانة<sup>(٣)</sup>. وفي نفس هذه الصناعة اعتنى الأمير أحمد بن طولون بإنشاء مائة من المراكب الحربية بالإضافة إلى العلابيات والعشاريات والهامم والسنابيك وقوارب الخدمة<sup>(٤)</sup>، وأطافها بالجزيرة المذكورة، وسد بها وجه البحر الكبير (أي البحر المتوسط)؛ وظلت هذه الصناعة قائمة في موضعها هذا، إلى أن أبطلها الأمير أبو بكر محمد بن طنج الإخشيد، وأنشأ بدلاً منها داراً للصناعة بساحل فسطاط مصر، عرفت بدار صناعة مصر، وذلك في شعبان سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م)، واتخذ في موضع صناعة الجزيرة بستاناً عرف بالبستان المختار<sup>(٥)</sup>.

ومع ذلك فقد ظلت دار صناعة الجزيرة هي ودار صناعة مصر تنتجان مراكب الأسطول حتى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله عندما أمر الوزير

(١) المقرئ، الخطط، ج ٣ ص ٨٦، ١١٤ - السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢ ص ٢٢٢ (طبعة مصر ١٣٢١ هـ).

(٢) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٧٧، ج ٣ ص ١٠٥.

(٣) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٠٥.

(٤) نفس المصدر، ج ٣ ص ٨٩ - السيوطي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٢٢.

(٥) نفس المصدر، ج ٣ ص ٩٠، ١١٤ - السيوطي، ج ٢ ص ٢٢٢.

المأمون بن البطاحي في سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) بأن تتولى دار صناعة الجزيرة إنشاء الحريات والشلنديات<sup>(١)</sup>.

أما الصناعة الرابعة فهي صناعة مصر التي أقامها الأمير محمد بن طنجح الإخشيد في الموضع الذي كان يعرف بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان ، امرأة الأمير أحمد بن طولون ، في سنة ٣٢٥ هـ . ويرجع السبب في إنشائها إلى أن الأمير محمد بن طنجح لما تولى إمارة مصر للمرة الثانية من قبل الخليفة الراضي في سنة ٣٢٣ هـ بدلاً من أحمد بن كيغلق ، وردت الأنباء بقدمه في جيش عباسي إلى مصر ، وقدم عدد من مراكبه بقيادة صاعد بن كلم إلى تنيس ودمياط ، فعزم ابن كيغلق على التسليم ، ولكن محمد بن علي الماذراني ، صاحب الخراج ، اعترض على ذلك ، وسير فرقة المغاربة بقيادة أبي مالك حبشي بن أحمد السلمي لمنع جيش ابن طنجح من الوصول إلى القسطنطين ، كما بعث علي بن بدر في المراكب لمواجهة سفن ابن طنجح في النيل ، وعندما اشتبكت السفن ، ونشب القتال ، دارت الدائرة على علي بن بدر في ١٧ شعبان سنة ٣٢٣ هـ<sup>(٢)</sup> ، وأقبل صاعد في مراكبه إلى القسطنطين ، بينما تقدم ابن طنجح في البر لمقاتلة ابن كيغلق<sup>(٣)</sup> . غير أن هذا الأخير آثر أن يستسلم إلى ابن طنجح حقناً لدماء المسلمين ، في حين أنف المغاربة من الدخول في طاعته . ثم تحرك حبشي وفرقته المغربية لمحاربة ابن طنجح ، وزحفوا إلى القيوم ، فسار صاعد في مراكبه إلى خليج القيوم ، وأراد أن يدور فلم تدر سفنه لضيق الخليج ، فوقع في قبضة حبشي الذي قتله وقتل عدداً كبيراً من اتباع ابن طنجح ، وظفر بمراكبه<sup>(٤)</sup> . ثم سار حبشي من القيوم إلى الاسكندرية في حشود جيشه ، بينما سار علي بن بدر ويحكم في مراكب صاعد مارين بالقسطنطين ، فأرسلها بجزيرة الصناعة ( جزيرة

(١) الخطط ، ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) الكتني ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٨٦ .

(٣) ابن سعيد ، المغرب في حل المغرب ، ج ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٦٠ - القريري ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٥ .



(الروضة) ، وركب الإخشيد في جيشه على ساحل النيل المواجه للجزيرة ، وقد عجز عن التعرض لهما ، فأحرق علي بن بدر ويحكم ما كان بالصناعة من السفن ، وحاول الإخشيد أن يتصدى لهما ، ولكنها انحسرت إلى الإسكندرية ، ثم واصل السير منها غرباً إلى بركة<sup>(١)</sup> . وأدرك محمد بن طنج يومئذ الخطأ الذي يترتب على اتخاذ دار الصناعة بداخل الجزيرة ، وعبر عن إنكاره لذلك بقوله : « صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشيء » ، وصمم منذ ذلك الحين على تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة إلى دار خديجة بنت الفتح<sup>(٢)</sup> . وقدر لدار صناعة مصر أن تتسع وتشغل أرضاً فسيحة في العصر الفاطمي ، فقد قام الوزير المأمون البطائحي بالتوسعة فيها ، وأضاف إليها الدار المعروفة بدار الزبيب ، وأنشأ بها منظره لجلوس الخليفة يوم تقديمه الأسطول ورميه ، وزودت هذه الصناعة بدهليز ممتد ، صفت على جانبيه مساطب مفروشة بالحصر العبدالية بسطاً وتأزيراً ، واتخذت أيضاً ديواناً للجهاد ، وكان يحرم على أحد من الناس الدخول من باب هذه الصناعة راجياً ، باستثناء الخليفة والوزير في يوم فتح الخليج ، عند الاحتفال بوفاء النيل ، فكانا يركبان من هناك إلى المقياس<sup>(٣)</sup> .

\*\*\*

وقد جدد العزيز بالله الفاطمي دار صناعة القس بالبناء ، ويبدو أنه أضاف إليها إضافة جديدة في زمنه . وقامت هذه الدار بإنتاج أسطول ضخم كان يعمده الخليفة العزيز بالله في سنة ٣٨٦ هـ ليرسله إلى طرابلس الشام ، بقصد عرقلة البيزنطيين ومنعهم من التوغل في بلاد الشام .

(١) الكندي ، ص ٢٨٧ - ابن سعيد ، ص ١٦١ - أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) ابن سعيد ، ص ١٦٠ - المقرئ ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٥ - السيوطي ، ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٣) المقرئ ، ج ٣ ص ١١٥ .

وما إن انتهى العمل من صناعة هذه السفن حتى أعدت للإقلاع ، وأُشجنت بالمقاتلة في شهر ربيع الأول من تلك السنة ، وفي ٢٠ من هذا الشهر نودي في القاهرة ألا يتأخر أحد عن المسير في الأسطول<sup>(١)</sup> . غير أن هذا الأسطول الكبير الذي كان على أهبة الاستعداد للرحيل إلى هدفه لم يلبث بعد أيام قليلة من إعداده وشحنه أن تعرض لحريق مروع ، فقد شبت النار في دار صناعة المقدس في ٢٤ ربيع الآخر ، فاحتقرت خمس عشاريات ، وامتدت ألسنة النيران منها إلى بقية سفن الأسطول ، فأتت النار على جميع ما في الأسطول من العدد والسلاح ، ولم تنج من هذا الحريق إلا ست سفن فارغة<sup>(٢)</sup> . وأثار هذا الحريق موجة من الغضب في نفوس البحريين ، فوجهوا تهمة إحراق الأسطول إلى جماعة من الروم كانوا يقيمون بدار مائك المجاورة لدار صناعة المقدس ، ووثب البحريون ، في سورة غضبهم ، بأسلحتهم وآلاتهم على الروم ، وانضم إليهم جماعة من العامة ، فنبهوا أمتعة الروم<sup>(٣)</sup> ، وقتلوا منهم مائة وسبعة من الرجال ، طرحو جثثهم في الطرقات ، وقبضوا على الباقين ، وحبسوهم بدار صناعة المقدس<sup>(٤)</sup> . وقد اعترف هؤلاء الروم في محضر من الوزير عيسى بن نسطورس ويانس الصقلي متولي الشرطة ، بأنهم أحرقوا الأسطول ، ثم أمر عيسى ابن نسطورس الصناع في دار الصناعة بإعداد عشرين مركباً في الحال وطرح لهم الأخشاب اللازمة ، وبات في الصناعة ، ولم يسع الصناع إزاء إلحاحه للفراغ من هذه السفن إلا أن يحدوا في العمل ويبذلوا كل طاقتهم لإعدادها . ويبدو أن صناعة هذا العدد من السفن كان يتطلب جمع كل ما كان موجوداً

(١) المقرئزي ، اتماظ الحنفا ، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) بلغ قيمة ما نهبه العامة تسعون ألف دينار .

(٤) لم يكن حريق الأسطول الفاطمي في سنة ٣٨٦ هـ أول حادث من نوعه ، فإن أبا المحاسن يذكر أن العزيز بالله كان قد أعد في سنة ٣٧٧ هـ عدة شواني لغزو الروم ، فاحتقرت مراكبه ، واتهم بحرقها إلهاً ( النجوم الزائرة ، ج ٤ ص ١٥١ ) .

من الخشب في حواصل البضاعة<sup>(١)</sup> ، فإذا ما استنفدت طلب الصناع الكميات المعروضة للبيع في الأسواق لدى الحشابين ، فأصدر عيسى بن نسطورس أمره باستحضار الأخشاب الموجودة عند التجار<sup>(٢)</sup> ، « فلم يدع عند أحد خشباً علم به إلا أخذه منه » ، و« جدت في إنشاء الأسطول المذكور » ، فلم يمتض على حادثة الحريق المذكورة شهر ونصف حتى تم صناعة مركبين جديدين في غاية الكبر ، طرحها الصناع بين يدي الوزير في ٧ من جمادى الآخرة . وفي غرة شعبان طرحوا بين يديه أربع مراكب كبار من المنشأة نفسها<sup>(٣)</sup> ، غير أن هذا الأسطول الجديد لم يلبث أن تعرض لعاصفة عاتية حطمته بالقرب من ميناء طرابلس الشام ، وأمر الروم بعض رجاله<sup>(٤)</sup> .

### (ج) توفير الأخشاب اللازمة لصناعة السفن

كانت الدولة الفاطمية تهتم بتوفير الأخشاب الضرورية لصناعة السفن من الحراج ، وهي أشجار السنط الكثيرة التي كانت تنمو في أعمال البهنساوية وسقط ريشين والأشمونين والاسيوطية والإخميمية والقوصية ، كما كانت تتخذ لها حراساً يحمونها ، وكانت الدولة تستغل أخشاب هذه الأشجار في صناعة الأساطيل ، وتحفظها في حواصل خاصة بآلات السفن ، ولذلك السبب ارتفعت أثمان أعواد السنط حتى إن العود الواحد منها كان يصل ثمنه إلى مائة دينار . وفرضت الدولة على سكان النواحي المذكورة

(١) كانت حواصل البضاعة في القاهرة تشتمل على ما لا يمكن حصره من الأخشاب والحديد وآلات الأساطيل من القنب والكتان والمنجنفات ( القلقندي ) ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٥ .

(٢) وذكر بعض المؤرخين أنه اضطر إلى قلع بعض صواري كانت تسفد دار الضرب بمصر والبيارستان الذي كان قائماً في سوق الحمام ( راجع آدم ماز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٢ ، ص ٣١٦ ) .

(٣) المقرئزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي ، صلة كتاب سعيد بن بطريق ، ص ١٧٨ .

ضريبة يقال لها رسم الخراج نظير ما كان يسمح لهم به من قطع أطراف أشجار السنط التي لا تصلح لعمل مراكب الأسطول ، والتي كان ينتفع بها فقط في الوقود<sup>(١)</sup> . وكان قطع أخشاب السنط وجرها إلى السواحل لصناعة السفن يتم في شهر برمودة ( مايو ) من كل سنة<sup>(٢)</sup> . ولم تكن الأخشاب المحلية تكفي وحدها لصناعة السفن اللازمة للأسطول الفاطمي ، ولذلك اعتمدت مصر الفاطمية على ما كان يرد إليها من أخشاب الصنوبر الصقلية أو المغربية ، بالإضافة إلى ما كانت تحمله منه سفن البنادقة إلى الاسكندرية ، ولقد احتج الإمبراطور البيزنطي على دوج البندقية لإمداده المصريين بالأخشاب ، فأمر الدوج بوقف بيع الأخشاب التي تصلح لصناعة السفن ، والاكتفاء ببيع أشجار اللبخ والسندان ، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم<sup>(٣)</sup> .

ويعدد ابن ماتي أصناف الأخشاب فيذكر منها : القنطاريات والمجاديف والنشاب وألواح الصنوبر وألواح بوارينه وألواح ثلاثية ، وأساقيل وألواح قاطبة ، وألواح مشاقبة ، وأفلاق صنوبر ، وأنصاب شوح وحور ، وجزم صنوبر ، وحسينات ، وسهام سمير ، وسكانات ، وشوح جنوبي ، وشوح صخري وصواري ، وعيدان سندان ، وعيدان صنوبر مدورة ، وقوادن ، وقرايا وكوابيس سندان ، ولأطاط ومربعات قرو ، ومربعات صنوبر ، ومناطق ومداري ومناريات ومطارق<sup>(٤)</sup> .

(١) القرطبي ، الخطط ، ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) ابن ماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٢٥٠ . وكان بأنصنا عود يقال له البنج ينشر منه ألواح للسفن يباع اللوح منها بخمسين دينار ( القرطبي ج ١ ص ٣٦٠ ) .

(٣) ابن ماتي ، ص ٣٤٦ - آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة الدكتور محمد عبد الحادي أبو ريبة ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٢ ص ٣١٥ - محمد ياسين الحوي ، تاريخ الأسطول العربي ، دمشق ، ١٩٤٥ ، ص ٢٦ - راشد البرادي ، حقائق مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٢٤ .

(٤) ابن ماتي ، ص ٣٦٥ .

## نشاط الانتصُول الفاطمي

## ( أ ) الأسطول الفاطمي في خدمة جيوش الفاطميين في الشام ضد القرامطة

بدأ الصراع بين الفاطميين وقرامطة البحرين منذ أن استولى الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق في المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، وامتنع الفاطميون عن دفع الإتاوة التي كان يدفعها الإخشيدون للقرامطة ، فعزم الحسن بن أحمد القرمطي على محاربة الفاطميين ، وساعده البويهيون<sup>(١)</sup> ، والمحمدانيون بالأموال والسلاح حتى انتهى له الوقوف أمام التوسع الفاطمي في الشام ، ونجح القرمطي في إعداد جيش ضخم لمحاربة الفاطميين في الشام ومصر ، اشتركت فيه قوة إخشيدية وكافورية ، وفريق من العرب العقيليين ، وزحف القرمطي بهذا الجيش إلى دمشق ، واشتبك جيشه مع القوات الفاطمية في موضع قريب من دمشق يقال له الدكة ، وانتهت الموقعة بهزيمة الفاطميين ومصرع قائدهم جعفر ، واستولى القرامطة على دمشق<sup>(٢)</sup> ، وولوا عليها ظالم بن موهوب العقيلي . ومن دمشق واصل القرامطة زحفهم نحو الجنوب واستولوا على الرملة ، ثم حاصروا يافا حصاراً شديداً ، وضيقوا على من بها ، فسيّر جوهر من مصر أسطولاً مكوناً من ١٥ سفينة تحمل الإمدادات والميرة لقواته المحصورين بيافا ، ولكن القرامطة طوقوا هذه السفن ، واستولوا عليها ، ولم ينج من مراكب جوهر سوى مراكب غنمها الروم<sup>(٣)</sup> . ثم زحف القرامطة إلى مصر ، فاستولوا على الفرما ثم القلزم ، وتوغلوا بعد ذلك في الأراضي المصرية ، في أوائل عام ٣٦١ هـ ، واستولوا

(١) ابن الغلاني ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١ .

(٢) المغربي ، اتماط الحنفا ، ج ١ ص ١٢٧ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥٨ - محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٢٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مصر ١٣٥٣ هـ ، ج ٧ ص ٤٣ .

على عين شمس ، وأشرفت طلائعهم على القاهرة ، وعندئذ تأهب جوهر لدفعهم عن البلاد ، وحفر لذلك خندقاً عميقاً حولها ، ونصب لهذا الخندق باين من الحديد <sup>(١)</sup> ، ثم وزع السلاح على المغاربة والمصريين ، وتمكن المصريون والمغاربة من الوقوف في وجه القرامطة في معركة دارت في مستهل ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ على أبواب القاهرة <sup>(٢)</sup> ، فانهزم القرامطة ، ورحلوا إلى الأحساء .

وفي هذه الأثناء وصل الأسطول الفاطمي من بلاد المغرب في رمضان سنة ٣٦١ هـ ، وأقلع من مصر إلى سواحل الشام ليساهم في المعارك البرية التي كان يخوضها الجيش الفاطمي هناك بقيادة سعادة بن حيان <sup>(٣)</sup> ، وتمكن الفاطميون بفضل هذا الأسطول من استرداد يافا في أواخر سنة ٣٦١ هـ . ومنذ ذلك الحين لم تتوقف السفن الحربية الفاطمية عن الإقلاع من تينيس ودمياط والاسكندرية إلى صور وطرابلس لحفظ حصون الشام والدفاع عنها <sup>(٤)</sup> .

ومن المعروف أن إقلاع المراكب في البحر كان يبدأ في شهر برمات من كل سنة ، ويقابل هذا الشهر شهر إبريل ، وفي هذا الشهر تجري هذه المراكب في البحر المالح من الأعمال المصرية والمغربية والرومية ، وفيه الاهتمام بتركيز الأجناد بالثغور المحروسة ومراكب الأساطيل لحفظها <sup>(٥)</sup> . ويستمر نشاط السفن الحربية في البحر حتى حلول فصل الشتاء ، فتأوي السفن إلى قواعدها ، ويتوقف نشاطها طوال هذا الفصل . فعندما طال حصار القرمطي وأفكنين التركي لجوهر الصقلي وعسكره في شتاء سنة ٣٦٥ هـ

(١) القريزي ، انماط الحنفا ، ص ١٢٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣١ .

(٤) نفس المصدر ، ( النسخة المخطوطة ) ص ٧٧ ب .

(٥) ابن بطي ، كتاب قوانين الدراوين ، تحقيق الدكتور عزيز سوريال ، القاهرة ١٩٤٣ ص ٢٤٨ .

بشرف عسقلان ، واحتاج جوهر إلى الميرة والأقوات ، لم يتمكن الأسطول الفاطمي من حلها إليه في البحر من مصر وغيرها ، واضطر العسكر إلى أكل الميتة <sup>(١١)</sup> . ويذكر القرظي أن بدر الجمالي عندما استنجد به المستنصر بالله خرج من عكا في شهر كانون وهي فترة من السنة لا يمكن أن يركب فيها في البحر ، وحذره أصحابه من ركوب البحر في تلك الآونة وخوفوه من مغبة ذلك ، ولكنه غامر وأقلع بمائة سفينة <sup>(١٢)</sup> .

#### (ب) اشتراك الأسطول الفاطمي في إخماد الثورات في مصر والشام

اقتربت غزو القرامطة للشام الجنوبي ومصر بقيام الثورات في بعض نواحي مصر ضد الفاطميين كثورة أهل تنيس وثورة أهل الصعيد ، ففي الحرم سنة ٣٦١ هـ شق أهل تنيس عصا الطاعة على الفاطميين ، ووثبوا على واليهم وسودوا <sup>(١٣)</sup> ، فلما تمكن جوهر من إيقاع الهزيمة بالقرامطة سير أباً محمد الحسن بن عمار إلى تنيس لإخماد الثورة ، فنجح ابن عمار في استئصال المدينة <sup>(١٤)</sup> . أما الصعيد فقد خرج فيه عبد العزيز بن إبراهيم الكلبي ، وهو كما يبدو من اسمه عربي من بني كلاب الذين استقروا ببلاد الفيوم بعد الفتح <sup>(١٥)</sup> ، وكان هذا الثائر قد دعا لبني العباس ، وسود ، فبعث إليه جوهر الصقلي عسكرياً برئاً بقيادة أزرق ، كما سير في النيل أربعين مركباً يقودها بشارة النوبي . ونجحت الجيوش الفاطمية في إخماد

(١) ابن القلائسي ، ص ١٧ - ابن الأثير ، ج ٧ ص ٦٣ ، ٦٤ - القرظي ، اتماط الحنفا ص ٢٤١ .

(٢) القرظي ، اتماط الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة) ص ١٠٧ أ - المخطوط ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) أي رفعوا الأعلام السود شعار العباسيين .

(٤) اتماط الحنفا ، ص ١٣٠ .

(٥) القرظي ، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق إبراهيم رنزي ، القاهرة ١٩١٦ ص ٣٦ .

الثورة والقبض على عبد العزيز بن ابراهيم الكلبي ، وأدخل به في قفص مغلولاً ، وطيف به وبين معه <sup>(١)</sup> .

وأخطر الثورات التي واجهها الفاطميون واشترك أسطولهم في إخمادها ثورة الملاح المعروف بالعلاقة في مدينة صور سنة ٣٨٧ هـ ( ٩٩٧ م ) في خلافة الحاكم بأمر الله ، ففي هذه السنة شق أهل صور عصا الطاعة على الخليفة الحاكم ، وأمرؤا عليهم غلاماً من البحرية يقال له العلاقة ، ووثبوا على ممثلي الخليفة من المغاربة فقتلوه ، وعندئذ أرسل القائد جيش بن الصمصامة والي الشام جيشاً بقيادة أبي عبدالله الحسين بن ناصر الدولة وياقوت الحادام ، وانضم إلى هذا الجيش جماعة من عبيد الثريا لمنازلة صور وإخماد حركة العلاقة ، وفي نفس الوقت أرسل الخليفة إليها أسطولاً مكوناً من عشرين مركباً من الحرية المشحونة بالرجال ، وكتب ابن الصمصامة إلى علي ابن حيدرة والي طرابلس يأمره بالمسير إليه في أسطوله ، كما أرسل إلى ابن شيخ والي صيدا يأمره بالخروج في أسطوله إلى صور ، وطوق الجيش الفاطمي مدينة صور من البر بينما أهدقت الأساطيل الفاطمية على مينائها من البحر ، فاضطر العلاقة إلى مكتابة الإمبراطور بسيل الثاني يستنصره على الفاطميين ، فلم يتردد الإمبراطور في نصرته ما دام ذلك يعتبر جزءاً من صميم أهدافه لكسر شوكة الفاطميين في الشام والسير على الخط الذي رسمه تقفور فوقاس وحنا ترميسكس للسيطرة على الشام والأراضي المسيحية المقدسة . فأنفذ إلى العلاقة عدة مراكب في البحر مشحونة بالرجال المقاتلة ، واشتبكت هذه المراكب مع مراكب المسلمين في معركة عنيفة ، أسفرت عن هزيمة البيزنطيين ، وتمكن المسلمون من الظفر بمركب من مراكبهم قتلوا من فيه من البحرين ، وعددهم ١٥٠ رجلاً ، وانتهزت بقية المراكب ، فضعت روح المقاومة عند أهل صور ، وفقدوا الأمل في وصول إمدادات بيزنطية أخرى ، ولم تعد لهم طاقة أو جلد على مواصلة الصمود أمام الحصار

(١) اتماط الحنفا ، ص ١٣١ .



البري والبحري ، وانتهى الأمر بسقوط صور في أيدي الفاطميين ، وامتنع العلاقة وطائفة من أتباعه في بعض الأبراج ، ولكنهم لم يلبثوا أن استسلموا بالأمان ، فقبض عليهم ، وسبق مع أصحابه إلى القاهرة حيث 'شهر بهم' ، وسلخ العلاقة حياً ثم صلب ، وقتل أصحابه<sup>(١)</sup>.

### (ج) المعارك البحرية ضد البيزنطيين

كان لزاماً على الدولة الفاطمية بعد أن مدت نفوذها على بلاد الشام أن تتأهب لمواجهة الخطر البيزنطي الذي كان يهدد سواحل الشام ومصر ، فعندما قام الإمبراطور البيزنطي خناتريكس بفوز الشام في ٣٦٥ هـ ، واقتتح معظم بلاد الشام الشمالية ، زحف جنوباً بجذء الساحل إلى صيدا ، فهادنه واليها أبو الفتح بن الشيخ على مال بذله له<sup>(٢)</sup> ، فرحل إلى قيسارية واتجه بعد ذلك إلى بيروت وجبيل فافتتحها ، وأخيراً وصلت قواته إلى طرابلس ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها لمناعة أسوارها وحصانة الدفاع عنها ، واشتبكت حامية المدينة يعاونها الأسطول الفاطمي مع القوات البيزنطية في قتال عنيف انتهى بهزيمة نكراء أصيب بها البيزنطيون ، واضطر الإمبراطور في نهاية الأمر إلى رفع الحصار عنها بعد أن تأكد لديه استحالة النيل من دفاعها واقتحام أسوارها<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) وقعت في بحر الاسكندرية معركة بحرية بين الأسطول الفاطمي في مصر والأسطول البيزنطي انتهت بأمر سبعين من رجال البحر البيزنطيين. ثم وردت مراكب البيزنطيين إلى الاسكندرية ، فتصدى لها الأسطول الفاطمي في البحر ، وقوة عسكرية من البر ، أرغما السفن البيزنطية على الفرار بدون قتال ، فطاردتها قطع الأسطول المصري الفاطمي ،

(١) ابن القلانسي ص ٥٠ ، ٥١ - ابن الأثير ، ج ٧ حوادث سنة ٣٨٧ - القرظي ، انماط الحنفا ، ( مخطوطة ) ص ٥٣ أ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٥٦ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس ، ص ٥٦ .



وانضمت إليها ١٨ مركباً مشحونة بالسلاح والمقاتلة ، وعادت السفن المصرية في جمادي الأولى من سنة ٣٨٤ هـ إلى قواعدها ، ووصل غزاة البحر إلى القاهرة يحملون مائة أسير ، واحتفلت مصر يوم وصولهم احتفالاً رائعاً ، « فزينت القاهرة ومصر أعظم زينة ، وركب العزيز وابنه منصور ، وشقيا الشوارع ، ثم ركب في عشارى ومعه المشاريات سائرة إلى القس ، ثم ركب من القس إلى القصر ، فكان يوماً عظيماً لم ير بمصر مثله ، وقال فيه الشعراء » (١) .

ويبدو أن الأسطول الفاطمي في مصر أقلع مرة أخرى لغزو السواحل البيزنطية في سنة ٣٨٦ هـ ، فقد ذكر القرظي أن غزاة البحر عادوا في هذه السنة بمائتين وعشرين أسيراً طيف بهم في شوارع القاهرة (٢) . وفي سنة ٣٨٧ هـ أرسل الامبراطور بسيل الثاني عدداً من السفن البيزنطية في البحر إلى ثغر صور لمساعدة العلاقة الثائر على الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، فتصدى لها الأسطول المصري الذي سيّره الحاكم إلى صور بالإضافة إلى أسطولي صيدا وطرابلس ، واشتبكت السفن الفاطمية مع السفن البيزنطية في معركة بحرية عنيفة دارت فيها الدائرة على السفن البيزنطية على النحو الذي أشرنا إليه فيما سبق .

وعندما حاصرت القوات البيزنطية مدينة طرابلس الشام في سنة ٣٨٩ هـ برأ وبجرأ ، اصطدمت السفن البيزنطية المحاصرة للمدينة من البحر ببعض السفن المصرية في مياه تلك المدينة ، ونشب القتال في البر وفي البحر في مستهل المحرم سنة ٣٩٠ هـ ( ٩٩٩ م ) وانتهى بهزيمة البيزنطيين ، وعدول الإمبراطور بسيل عن متابعة حصاره لطرابلس (٣) .

ثم ساد بين الفاطميين والبيزنطيين ، منذ طليعة القرن الخامس الهجري ، سلام كان يقطعه بين الحين والحين نكث من الجانب البيزنطي ، وعودة

(١) القرظي ، انماط الحنفا ، ج ١ ص ٢٨٢ .

(٢) القرظي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

(٣) يحيى بن سعيد ، صلة تاريخ سعيد بن بطريق ، ص ١٨٤ .

## البحر المتوسط

البيزنطيين إلى مهاجمة جزر بحر الأرخبيل والسواحل الإسلامية ، وظل الأمر كذلك إلى أن تزل الصليبيون ببلاد الشام .

### (د) دور أساطيل طرابلس وصيدا في العصر الفاطمي

كان لطرابلس في العصر الفاطمي أسطول بحري يدافع عنها من البحر ، وقد تمكن هذا الأسطول بقيادة علي بن حيدرة من التغلب على أسطول بيزنطي كان في طريقه إلى صور لمساعدة ثوارها بزعماء العلاقة على الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٣٨٧ هـ ، وكان لهذا الأسطول الطرابلسي الفضل الأعظم في القضاء على ثورة العلاقة . ولما استقل بنو عمار بطرابلس اهتموا بتعزيز أسطول طرابلس ، وقد لعب هذا الأسطول دوراً هاماً في فترة الحصار الصليبي على طرابلس ، فقد اشتبك هذا الأسطول مع أسطول البيزنطيين كان يزود الصليبيين بالأقوات ، في قتال عنيف انتهى بانتصار الأسطول الطرابلسي واستيلائه على قطعة بحرية بيزنطية<sup>(١)</sup> . ويبدو أن هذا الأسطول الطرابلسي تعرض لحسارة فادحة عندما تدخل الجنوية في حصار طرابلس ، ففرقت معظم قطعه ، وأصبحت السفن الباقية عاجزة عن مقاومة الحصار الصليبي ، غير أن بعض هذه السفن تمكنت من اختراق الحصار البحري الصليبي واتجهت إلى مصر لالتمس معونتها والدخول في طاعتها ، فسير إليهم الأفضل شاهنشاه شرف الدولة بن أبي الطيب ليتولى أمرهم ، وزوده بالعدة والأقوات والسلاح . ونستدل من ذلك على أن الاتصال البحري بين مصر وطرابلس كان جارياً في هذا العصر .

أما صيدا فكان لها أسطولها الحربي الخاص ، وهو الأسطول الذي اشترك في الحصار البحري الذي فرضه الفاطميون على صور<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن هذا الأسطول تعرض لكارثة بعد سنة ٤٩٥ هـ<sup>(٣)</sup> إبان مرحلة الحصار

(١) طرابلس الشام ، ص ٣٩٣ .

(٢) ابن الفلاس ، ص ٥٩ .

(٣) في هذه السنة أرسلت كل من صيدا وصور اثني عشر غراباً وحمالة ضخمة تحمل الأجناد =

الصلبيبي لصيدا ، بحيث اعتمد أهل صيدا في الدفاع عنهم على الأساطيل الفاطمية القادمة من مصر ، وقد أنقذ الأسطول الفاطمي صيدا مرة في سنة ٥٠١ هـ<sup>(١)</sup> ، ولكنه لم يستطع أن ينقذها في المرة الثانية بسبب إحكام الصليبيين الحصار حولها ، وعجز عن إمدادها بما كانت تحتاج إليه<sup>(٢)</sup> .

---

= والآلات لقتل النار اليونانية إلى عكا لاستنقاذها من الحصار الصليبي ، وتكنت هذه السفن من تدمير سفن الصليبيين وآلاتهم ( راجع دراسة في تاريخ مدينة صيدا ص ٩٤ ) .

( ١ ) ابن القلانسي ص ١٦٢ .

( ٢ ) دراسة في تاريخ مدينة صيدا ، ص ١٠١ .

## الفصل الثالث

### البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر الضعف

(من المستنير بالله إلى نهاية الدولة الفاطمية)

( ١ )

تقلص النفوذ الفاطمي في بلاد الشام  
منذ عصر المنصور بالله

( أ ) خروج الفاطميين عن معظم قواعدهم البحرية في الشام

نجح الفاطميون في عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي في فرض سيطرتهم الشاملة على بلاد الشام وذلك بعد أن عقد مع الإمبراطور البيزنطي بسيل الثاني هدنة تستغرق عشر سنوات ، وقضى على حركة بني جراح الطائيين في فلسطين وعلى سلطان الحمدانيين في حلب . غير أن هذه السيطرة لم تلبث أن داخلها الوهن في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله ( ٤١١ - ٤٢٧ هـ ) ، فقد تمكن بنو مرداس الكلبيون من تأسيس إمارة لهم في حلب ، واضطر الخليفة الفاطمي إلى محاربتهم حيناً ومسالمتهم حيناً آخر ، الأمر الذي أتاح الفرصة لنشر الفوضى وإشاعة الاضطراب في هذا القسم الشمالي من بلاد الشام ، وساعد على هذا الاضطراب ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث في بلاد الشام ، وعكبتهم منذ سنة ٤٦٧ هـ ( ١٠٧٤ م ) من اقتطاع عدد كبير من مدن الشام ، ومع ذلك فقد ظل الفاطميون يحتفظون حتى تلك السنة بمعظم قواعدهم الساحلية هناك . وفي هذا الوقت الذي بدأ

سلطان الفاطميين على الشام يتزعزع ، تمكن القاضي أبو طالب الحسين بن عمار من إعلان استقلاله بطرابلس في سنة ٤٦٢ هـ ( ١٠٦٩ م )<sup>(١)</sup> ؛ وتعتبر هذه السنة سنة نكبة على الدولة الفاطمية ، إذ أعلنت دمشق وصور وأكثر مدن فلسطين استقلالها في هذا التاريخ<sup>(٢)</sup> ، فصور استقل بها القاضي ابن أبي عقيل ، وطرابلس استقل بها القاضي أبو طالب الحسين بن عمار ، في حين استولى ابن حمدان على الرملة والساحل ، ولم يبق لأمير الجيوش بدر الجمالي الذي قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمي على عكا وسواحل الشام سوى عكا وصيدا<sup>(٣)</sup> .

وقد عمل بدر الجمالي<sup>(٤)</sup> على استرجاع بعض السواحل الشامية ، فنزل في سنة ٤٦٢ هـ على ثغر صور ، وحاصر عين الدولة ابن أبي عقيل قاضي المدينة المتغلب عليها ، وشدد حصاره على المدينة ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار عنها عندما قدم الأمير قولو مقدم الأتراك في بلاد الشام بمسكر كثيف لنصرة قاضي صور ، وأغار بهذا المسكر على صيدا ، وحاصر

(١) ابن الفلاني ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٧ .

(٢) Wiet, Une inscription d'un prince de Tripoli de la dynastie des Banu Ammar, (٣) Mémorial H. Basset, Paris 1928, p. 280.

(٣) ابن الفلاني ، ص ٩٧ .

(٤) هو أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالي المستنصري ، وكان مملوكاً أومنياً لجمال الدولة بن عمار ولذلك السبب نسب إليه ، ثم أخذ يتدرج في الرتب العالية والمناصب الرفيعة إلى أن تولى بلاد الشام وتقلد إمارة دمشق من قبل المستنصر بالله مرتين : الأولى في ربيع الآخر سنة ٤٥٥ هـ والثانية في شومان سنة ٤٥٨ هـ . وفي هذه المرة ثار عليه أهل دمشق ، فرحل عنها إلى مصر ، فقلده المستنصر ولاية عكا ، ثم استدعاه الخليفة عندما فسدت الأحوال في مصر أثناء الشدة العظمى ، فلبى طلبه وركب البحر من عكا في فصل الشتاء بمائة مركب ، ووصل إلى تنيس ودمياط في سنة ٤٦٦ هـ ( ابن منجب الصيرفي ، الاشارة إلى من قال الوزارة ، القاهرة ١٩٢٤ ص ٥٧ - الفريرزي ، اتماظ الحنفا ، ص ١٠٧ أ - الحنط ، ج ٢ ص ٢٠٩ ) . وما لبث دخل القاهرة حتى استبد بالبلاد وتحكم في شؤونها وألغى إليه المستنصر كل مقاليد دولته ، فقبضها أحسن ضبط ، وصلحت بقدمه أحوال البلاد المصرية وعمرت بعد خرابها ، وتوفي أمير الجيوش في سنة ٤٨٧ هـ .

المدينة ، فسار بدر الجمالي لاستنقاذها ؛ وبعد أن تمكن من إبعاد الخطر عنها عاود الكرة على صور للمرة الثانية ، وأقام يحاصرها براً وبحراً مدة سنة ، ولكنها استعصت عليه فرحل عنها<sup>(١)</sup> .

ولم يلبث بدر أن لبى طلب الخليفة ، فقدم إلى مصر بعد أن فسدت أحوالها واجتاحها الفتن ، واستعصى عليه العلاج . وفي هذه الأثناء هاجم أئسز التركاني مصر بتحريض من ابن يلدكز الذي كان قد لجأ إليه بعد أن قتل بدر الجمالي أباه في سنة ٤٦٦ هـ . وكان أئسز قد استولى على دمشق في سنة ٤٦٨ هـ ( ١٠٧٥ م ) وقطع الخطبة العلوية ، وزحف بعد ذلك إلى مصر وتوغل في أراضيها ، واقتربت قواته من القاهرة . وكان بدر الجمالي قد هيا المراكب والسفن بعد هزيمة المصريين على يد أئسز في جمادي الآخرة سنة ٤٦٩ هـ ، للإقلاع إلى الإسكندرية حفظاً لها في حالة إذا ما تغلب جيش أئسز على الجيوش المصرية في الموقعة الفاصلة<sup>(٢)</sup> ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد انهزم أئسز على أيدي المصريين في رجب سنة ٤٦٩ هـ ، وتراجع مهزوماً عن مصر إلى دمشق<sup>(٣)</sup> .

وترتب على انتصار الفاطميين على السلاجقة عودة بعض مدن الشام إلى إعلان ولائها للفاطميين ، وعلى هذا النحو عزم بدر الجمالي على استرجاع دمشق ، فسير إليها عسكرياً بقيادة نصر الدولة ، وحاصرها ، فاضطر أئسز إلى طلب النجدة من تاج الدولة تنش بن ألب أرسلان ، فقدم تنش لنجدة ، وعندما اقتربت جيوشه من دمشق بادر الجيش الفاطمي برفع الحصار والرحيل إلى مصر .

وهكذا لم تأت سنة ٤٨٠ هـ ( ١٠٨٧ م ) حتى كانت الدولة الفاطمية قد فقدت سلطانها من معظم سواحل الشام ، وبزوال سلطان الفاطميين عن صيدا

(١) ابن الفلاني ، ص ٩٨ .

(٢) ابن الفلاني ، ص ١١٠ ، حاشية ٢ .

(٣) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ١٠٢ .

وعكا وطرابلس وعرقة وجبيل وبيروت ، انحصرت قواعد الفاطميين البحرية في الشام في عسقلان وحدها التي أصبحت المركز الرئيسي الذي تخرج منه الأساطيل لغزو سواحل الشام . ومع ذلك فإن الأفضل شاهنشاه الذي ولي الوزارة بعد وفاة أبيه بدر الجمالي ، حاول استعادة النفوذ الفاطمي على بلاد الشام مستغلا الصراع القائم بين دقاق ورضوان ولدي تاج الدولة تنش ، وتمكن في سنة ٤٨٩ هـ ( ١٠٩٥ م ) ، من إرسال الأساطيل المصرية إلى الساحل وإزالة قواته في صور ، ونجح في افتتاحها عنوة <sup>(١)</sup> ، كما نجح في شعبان سنة ٤٩١ هـ ( ١٠٩٧ م ) في الإستيلاء على بيت المقدس بالأمان بعد أن تقلب على إيلغازي وسقمان ابني أرتق <sup>(٢)</sup> ، وترك على ولايتها أمير يقال له افتخار الدولة <sup>(٣)</sup> . وفي نفس الوقت ظلت بيت المقدس خاضعة للفاطميين إلى أن دخلها الصليبيون عنوة في شعبان سنة ٤٩٢ هـ .

#### (ب) عسقلان آخر قاعدة بحرية للفاطميين في الشام

بينما كانت انباء الزحف الصليبي على سواحل الشام تصل تباعاً إلى السلطات الفاطمية في القاهرة ، وبينما كانت انتصارات الصليبيين تتوالى على المسلمين بحيث تمكنوا في أمد قصير من الاستيلاء على أنطاكية ومعرة النعمان وكفرطاب وحصن الأكراد ، وحاصرت قواتهم عرقة وطرابلس وصيدا وصور وعكا ، كان المسؤولون في الدولة الفاطمية ينظرون إلى هذه الانتصارات الصليبية على أنها لا تهمهم في شيء ، ولذلك لم يتحرك هؤلاء المسؤولون ولم يقوموا بعمل حاسم ضد الصليبيين ، ويتساءل أبو المحاسن عن سبب سكوت الأفضل على ذلك بقوله : « ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر عصر ، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجهم مع قدرته

(١) أبو المحاسن ، التجرم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٩ .

(٢) المغربي ، اتعاظ الخنفا ، ص ١١٣ أ . وهناك من المؤرخين من يقدم استرداد الفاطميين لبيت المقدس سنتين ، فيحددون سنة ٤٨٩ هـ لذلك ( راجع أبو الفداء ، ج ٤ ص ٦٤ ) .

(٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٨٩ - أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٥٠ .



على المال والرجال»<sup>(١)</sup>. ويبدو أن الدولة الفاطمية كانت تنظر منذ البداية إلى الصليبيين على أنهم حلفاء لهم ضد السلاجقة، خصوم الفاطميين سياسياً ومذهبياً، ولذلك تلكأوا في مواجهتهم، فلما حاصر الصليبيون بيت المقدس، واقتحموا أسوارها في ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ بعد حصار دام أكثر من أربعين يوماً، وارتكبوا فيها المذابح الرهيبة<sup>(٢)</sup>، لم يسكت الأفضل أكثر مما سكت، وعزم على السير لاسترجاع بيت المقدس التي اعتبر سقوطها في أيدي الصليبيين اعتداءً صارخاً موجهاً إلى الدولة الفاطمية<sup>(٣)</sup>.

ففي أوائل رمضان سنة ٤٩٢ هـ خرج الأفضل في عشرين ألفاً من عسكر مصر إلى عسقلان بقصد استرداد بيت المقدس، ونزل بظاهر عسقلان في ١٤ رمضان منتظراً وصول الأسطول الفاطمي في البحر والنجدات البرية التي وعده بها عرب فلسطين<sup>(٤)</sup>، ولكنه بهذا الانتظار أخطأ خطأ فاحشاً، إذ ترك للصليبيين فرصة مبادرته بالهجوم وإزالة الهزيمة به، وانهمز العسكر المصري إلى داخل عسقلان، واضطر الأفضل إلى العودة إلى القاهرة عن طريق البحر<sup>(٥)</sup>.

وأصبحت عسقلان القاعدة الرئيسية للفاطميين لخروج الغزاة في الأساطيل إلى السواحل الشامية والثغور التي يحاصرها الصليبيون، لإمدادها بالسلاح والأقوات. وكان الأفضل يجهز المساكر في كل عام ويبعثها لحاربة الصليبيين برأً ومجراً<sup>(٦)</sup>، ويبدو أنه تمكن من استرجاع عكا في سنة ٤٩٤ هـ وأقام

(١) أبو الحسن، النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٤٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، حوادث ٤٩١ هـ، ص ١٨٩ - النجوم الزاهرة،

ج ٥ ص ١٤٩.

(٣) Rousset, Histoire des Croisades, Paris, 1957, p. 104.

(٤) ابن القلانسي، ص ١٣٧ - النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٥٠.

(٥) المقرئ، الخطط، ج ٢ ص ١٦٥ - النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٥٠ - سعيد عاشور،

الحركة الصليبية، ج ١ ص ٢٥٥.

(٦) ابن منجب الصيرفي، الإشارة إلى من نال الرزاة، ص ٦١.

عليها والياً من قبله هو بنا المعروف بزهر الدولة الجيوشي<sup>(١)</sup> ، بدليل أن هذا الوالي سقاوم الصليبيين مقاومة شديدة عندما يقومون في سنة ٤٩٧ هـ بحصارها برأً وبحراً ، ويضطر أخيراً إلى الخروج عنها بعد أن يعجز عن حامتها<sup>(٢)</sup> . كذلك تعتقد أن الأفضل استرجع مدينة صور ، وأقام عليها والياً يقال له عز الملك أوشكين الأفضل<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ٤٩٣ هـ سیر الأفضل جيشاً من مصر بقيادة سعد الدولة القواس ، فالتقى مع الفرنج في عسقلان ، واشتد القتال ، فقتل ، وصبر المصريون وثبتوا ، وحلوا على الصليبيين ، فهزموهم إلى قيسارية<sup>(٤)</sup> ، وقيل إلى يافا<sup>(٥)</sup> . وفي سنة ٤٩٦ هـ تمكن شرف المعالي بن الأفضل من استرداد مدينة الرملة<sup>(٦)</sup> .

ثم شغل الأفضل في بداية عصر الأمر بأحكام الله بتصرف شؤون الدولة عن الدفاع عن السواحل الشامية ، فأخذ الصليبيون يستولون عليها مدينة بعد مدينة ؛ ففي سنة ٤٩٤ هـ سقطت حيفا وأرسوف وقيسارية ، وفي ٤٩٥ هـ سقطت أنطربوس ، وفي سنة ٤٩٧ هـ استولى الصليبيون على عكا قهراً بعد أن حاصروها من البحر في أكثر من تسعين مركباً ومن البر يجيوش كثيفة . وفي سنة ٥٠٢ هـ استولوا على طرابلس وجبله ، وفي العام التالي سقطت بيروت وجبيل وبانياس ، وفي سنة ٥٠٤ هـ سقطت صيدا .

أما عسقلان فظلت تجاهد الصليبيين حتى سقطت بدورها في سنة ٥٤٨ هـ بعد حصار أحكمه الصليبيون عليها من البر والبحر دام سبعة أشهر .

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢١ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٨٢ .

(٤) أبو الحسن ، التجرم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٢ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ١٤٠ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢١٨ .

( ٢ )

## جُهُودُ الْأَسْطُولِ الْفَاطِمِيِّ فِي مَضَرٍ فِي اسْتِنْقَاذِ الثُّغُورِ الشَّامِيَّةِ مِنَ الْفَرَزْ وَالصَّلِيبِيِّ

( أ ) غَارَةُ الْأَسْطُولِ الْمِصْرِيِّ<sup>(١)</sup> عَلَى يَاقَا فِي سَنَةِ ٤٩٧ هـ

على الرغم من خروج السواحل الشامية من طاعة الفاطميين منذ الربع الأخير من القرن الخامس الهجري ، وقيام دويلات مستقلة في دمشق وطرابلس وصور وصيدا ، فإن الأفضل شاهنشاه لم يكن يتردد في بذل العون لها بالميرة والأقوات عندما كان ولائها يستنصرون به من حصار الصليبيين لها برأً ومجراً . ففي أول رمضان سنة ٤٩٦ هـ خرجت العساكر المصرية في البر إلى الشام ، وأقنع الأسطول المصري في البحر بقيادة شرف المعالي ابن الأفضل نفسه ، فوصل الأسطول إلى ياقا في آخر شهر شوال ، وأقام في مياها أياماً ، تيسر له خلالها أن يدها بالميرة والغلال ، فصلحت أحوال المدينة<sup>(٢)</sup> . ثم عاد ولد الأفضل إلى مصر بعد أن قدم على الأسطول رجلاً يقال له القاضي ابن قادوس ، وعلى العسكر قائداً يعرف بتاج المعجم . ويبدو أن الصليبيين هاجموا ياقا بعد رحيل الأسطول المصري عنها ، فكان على ابن قادوس أن يتوجه بأسطوله إليها ليقترحم الحصار الصليبي على المدينة

(١) يجمع المؤرخون على تسمية الأسطول الفاطمي في مصر بالأسطول المصري استناداً على أنث الفاطميين كانوا أصحاب مصر وعلى أن مصر مركزهم ومقر ملكهم ودعوتهم وعلى أنهم اندمجوا في الحياة المصرية ( راجع ابن القلائسي ، وأبو شامة ، وابن الأثير ، والمقرئ ) ولهذا السبب أطلق بعض المؤرخين أمثال المقرئ وأبو شامة على خلفائهم اسم الخلفاء المصريين كما سموا ببدلة المصريين والدولة المصرية ( راجع أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ص ٥٦١ ، ٥٦٢ ، مختار العبادي ، في التاريخ الباسي والفاطمي ، ص ٢٦٠ ) .

(٢) ابن القلائسي ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

من البحر بينما يتوجه تاج المعجم من البر<sup>(١)</sup>. فضى ابن قادوس بأسطوله إلى يافا، وأقام عليها عشرين يوماً، لم تصل خلالها العساكر المصرية لمساعدته من البر، الأمر الذي أدى إلى سقوط يافا في أيدي الصليبيين، فبلغ ذلك إلى الوزير الأفضل، فأمر بالقبض على تاج المعجم الذي اتهم بالتقصير والإهمال، وأرسل رجلاً يسمى جمال الملك جعله مقدماً على العساكر في عسقلان.

### (ب) الأسطول المصري يزود طرابلس بالأقوات والميرة

طمع ريموند دي سان جيل كونت دي تولوز، وأحد زعماء الحملة الصليبية، في إمارة طرابلس الغنية التي كان يتولى إمارتها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الشام الأمير فخر الملك أبو علي عمار بن الحسين بن قندس بن عمار الطائي (٤٩٢-٥٥٢ هـ)، فعزم على افتتاحها واتخاذها مركزاً لكونتية صليبية. ففي سنة ٤٩٥ هـ سار في جمع قليل من رجاله لا يتجاوز ثلثائة رجل لمحاصرتها<sup>(٢)</sup>، ولكنها امتنعت عليه بسبب توافد النجدة إليها من دمشق وحمص، فانسحب إلى أنطربوس، وأرجأ فتحها إلى فرصة موافية تتوفر لديه فيها القوة والسلاح، وظل ريموند مقيماً في أنطربوس في الفترة ما بين عامي ٤٩٥، ٤٩٧ هـ، ولكنه لم يكف خلالها عن شن الغارات عليها ومهاجمتها، غير أن طرابلس كانت من الحصانة والمنعة إلى حد أنها لم تكن تتأثر بهذه الغارات أو حتى لحصار بري طويل الأمد، ما دامت سفنها تزودها من البحر بما كانت تحتاج إليه من مؤن وأقوات، وكان فخر الملك يرسل أتباعه في المراكب للإغارة على سواحل الصليبيين<sup>(٣)</sup>، ففي سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) قام أسطول طرابلس بالاشتباك مع السفن البيزنطية التي سيرها الإمبراطور الكسيوس كومنين لنجدة ولیم جوردان،

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨ ص ٢١٩.

(٢) ابن الأثير، حوادث ٤٩٥ هـ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ ص ٣٥٦.

(٣) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢١٩.

وانتهت المعركة بهزيمة البيزنطيين ، وتكن أسطول طرابلس من الاستيلاء على قطعة بيزنطية <sup>(١)</sup> .

ولما اشتد حصار الصليبيين لطرابلس في سنة ٥٠٠ هـ ، وطال تركب الأمير فخر الملك لوصول الإمدادات من بغداد ، وتأزم الموقف في طرابلس ، عزم الأمير على السير بنفسه إلى بغداد ، فاستناب على طرابلس ابن عمه أبا المناقب بن عمار مع جملة من وجوه رجاله يرأسهم سعد الدولة فتیان ابن الأعز <sup>(٢)</sup> ، وقيل ابن الأعسر <sup>(٣)</sup> ، ورتب معه الأجناد برأ وبجراً <sup>(٤)</sup> ، ثم رحل إلى بغداد . ولكن ابن عمه أبا المناقب استغل فرصة غيابه عن طرابلس ، وأعلن خروجه عليه ، وقتل سعد الدولة ، فقبض عليه الأهالي ، ونادوا بشعار الأفضل بن بدر الجوالي بصر ، وأرسل أهل طرابلس إلى الأفضل بصر يلتمسون منه إنفاذ وال يصل إليهم في البحر ومعه الغلة والميرة في المراكب ليسلوا إليه المدينة ، فجهز إليهم الأفضل جيشاً في البحر ، وقدم عليهم تاج المعجم من أكبر ممالكه ، ثم بلغه أن تاج المعجم ينوي إعلان عصيانه عليه في طرابلس ، فأمر بالقبض عليه ، وأرسل إلى طرابلس الأمير شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي واليا من قبله ، ومعه الغلة والأقوات ، فأكاد شرف الدولة يصل إلى طرابلس حتى أمر بالقبض على بني فخر الملك بن عمار وحرمه وأتباعه ، ووجد قصره من الذخائر والأموال والآلات والتحف ، وسير الجميع إلى مصر عن طريق البحر <sup>(٥)</sup> .

ثم رأى أهل طرابلس ما نفرهم منه ، فصبوا على تحمله ، إذ لم يكن لهم رجاء أمام الحصار الصليبي سوى نجدات المصريين <sup>(٦)</sup> .

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٧ .

(٣) ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٩ .

(٤) ابن الغلاني ، ص ١٦٠ - ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٦١ - ابن الأثير ، ص ٢٥١ - نص ابن ميسر في كتاب *Recueil des Historiens des Croisades, t. III, p. 468* - القرطبي ، انماط الحنفاء ، ص ١١٥ .

(٦) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٨ .

### (ج) الأسطول المصري يدافع عن صيدا في سنة ٥٠١هـ

لم يتردد الفاطميون في نجدة نغر صيدا عندما هاجمه بلبون صاحب مملكة بيت المقدس في عساكره ، فحاصروه برأ وبجراً في سنة ٥٠١هـ (١١٠٧ م) ، ونصبوا الأبراج الخشبية على السور ، فأرسل الأفضل أسطولاً للدفاع عن صيدا وحمايتها ، وتمكنت سفن هذا الأسطول من التغلب على مراكب الجنوية وعسكر الصليبيين ، وظل الأسطول المصري يقوم بواجبه من الدفاع عن الثغر إلى أن اتصل بهم وصول العسكر الدمشقي<sup>(١)</sup> ، لحماية صيدا والذب عنها ، فرحل الأسطول المصري قافلاً إلى مصر .

### (د) الأسطول المصري يصل إلى طرابلس متأخراً بعد سقوطها في سنة ٥٠٢هـ

عندما اشتد الحصار البري حول طرابلس للحشود الصليبية المؤلفة من قوات تنكريد صاحب أنطاكية ، ولبون ملك بيت المقدس ، وبرترام بن ريموند الصنجيلي ، والحصار البحري الذي يمارسه الأسطولان البروقنسي والجنوي ، بحيث تمكن الصليبيون من قطع الإتصال عنها تماماً من البر والبحر ، استمات أهل المدينة في الدفاع عنها . غير أن تضامن الصليبيين فيما بينهم ، وتضيقهم الحتاق على أهل المدينة من البر والبحر ، واستخدامهم الأبراج في مهاجمة الأسوار تهديداً لاقتحامها ، كل ذلك دفع أهل طرابلس إلى الاستنجاد بمصر وطلب العون من الوزير الأفضل شاهنشاه ، فأرسلوا إليه رسلم يلتمسون منه أن يزودهم بالميرة والسلاح والرجال ، وأقاموا ينتظرون ورود السفن المصرية .

ومر وقت طويل منذ أن استصرخ أهل طرابلس الفاطميين في مصر دون أن تصل إليهم الإمدادات والأقوات ، حتى نفدت المون وعدمت الأقوات وتضاءل أمل القوم في الصمود ، وفترت مقاومتهم للأعداء .

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٢ - ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥١ - المغربي ، اتماظ الحنفا ، ص ١١٦ أ .

وأخيراً تمكن الصليبيون من دخول طرابلس بالسيف في ١١ من ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) . ولو أن الحكومة الفاطمية اتخذت وقتئذ إجراء سريعاً حاسماً لتموين طرابلس ومجديتها ، لكان من الممكن إطالة أمد المقاومة في داخل طرابلس ضد العدو المحاصر ، ولكن استهتار الأفضل بإنجاح طرابلس وتلكأه في إرسال المؤن كان من العوامل الرئيسية التي أدت إلى سقوط المدينة . ونستنتج من تحليل ابن الأثير لتأخر وصول الأسطول بأن المسؤولين في القاهرة « فرغوا منه ومن البحث عليه » واختلفوا فيه أكثر من سنة ، وسار ، فردته الريح ، فتعذر عليهم الوصول إلى طرابلس ليقضي الله أمراً كان مفعولاً<sup>(١)</sup> . ومعنى هذا أن الإجراءات الخاصة بجمع قطع الأسطول المصري الذي أعده الأفضل لإنجاح طرابلس من الموانئ المصرية استغرقت زمناً طويلاً ، وأن خلافاً عميقاً نشب بين قواد الأفضل فيمن يتولى قيادته ، ومن المعروف أن مثل هذا الخلاف حدث من قبل بين تاج العجم وابن قادوس في عسقلان ، وانتهى بالقبض على تاج العجم . ونستنتج من نص ابن الأثير أن الخلاف دام ما يقرب من سنة ، وأن ربحاً مضادة لسير الأسطول أعاقته عن الوصول إلى المدينة في الوقت المناسب ، فلم يصل إلى مياه طرابلس إلا بعد أن سقطت طرابلس وجبة في أيدي الصليبيين . ويشير ابن القلانسي إلى وصول هذا الأسطول عقب سقوط طرابلس بقوله : « ووصل عقيب ذلك الأسطول المصري ، ولم يكن خرج المصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة مع تقوية ما في المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله ، ووصل إلى صور في يوم الثامن من فتح طرابلس ، وقد فات الأمر فيها للقضاء التنازل بأهلها ، وأقام بالساحل مدة ، وفرت

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩ . ونطالع مثل هذا النص في : ابن القلانسي ، ص ١٦٢ - ابن الجوزي ، كتاب مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٧ - أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٤٣ - القرطبي ، اتعاظ الخلفاء ، ص ١١٦ . ولكن أبو الحسن يمال تأخر وصول الأسطول المصري بأنه كلما « سار نحو البلد رده الإفرتج إلى مصر » (أبو الحسن ، ج ٥ ص ١٧٩) .

الغلة في جهاتها ، وتمسك به أهل صور وصيدا وبيروت ، وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الإفرنج ، ولم يمكن الأسطول المهام فأقلع عائداً عند استقامة الريح إلى مصر<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان تباطؤ مصر في إرسال الأسطول وتأخره في الوصول إلى طرابلس قبل أن تسقط في أيدي الصليبيين سبباً في توجهه إلى ساحل صور بعد سقوط طرابلس بثمانية أيام ، وهو أمر إن دل على شيء فإنما يدل على استهانة المسؤولين في مصر الفاطمية للدفاع عن السواحل الشامية ، واستهتارهم بالموقف . وعلى الرغم من تمسك أهل صيدا وصور وبيروت ببقاء هذا الأسطول في مياه ثغورهم حماية لهم من غزو صليبي وشيك ، فإن قادة الأسطول المصري أسرعوا بالعودة إلى مصر .

ويندد أبو المحاسن بعدم اكتراث أهل مصر بالفرنج ، ويصور هذه اللامبالاة في الدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : ١ - تقاعسهم عن المسير مدة طويلة ٢ - ضعف العسكر الذي أرسلوه مع الأسطول ٣ - عدم خروج الأفضل بنفسه للدفاع عن طرابلس<sup>(٢)</sup> .

ويورد ابن الفرات رواية تتضمن سخرية لازعة للموقف المتخاذل الذي وقفه المسؤولون في مصر يومئذ إزاء إنجاز طرابلس فيقول : « وحكي أن السبب في أخذ طرابلس أنه لما ضايقها الفرنج كتب من بها إلى الديار المصرية يستنجدون خليفتها ، ويسألون الميرة ، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة ، فبينما هم في ذلك ، إذا بمركب قد أقبل ، فما شكوا أن فيه نجدة ، فطلع منه رسول وقال : قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة ، وأنها تصلح للخدمة ، وقد أمر بإرسالها إليه ، وأرسلوا إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للالهة ، فعند ذلك أيسوا من نصره ،

(١) ابن الفلانسى ، ص ١٦٤ - المقرئى ، اتماظ الحنفا ، ص ١١٦ أ .

(٢) أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٧٩ .



وضمعت قوام ، وخارت نفوسهم ، وذلوا ، وملكها الفرنج في التاريخ المذكور<sup>(١)</sup> . وعلى الرغم من وضوح عامل الاختلاق في هذه الرواية ، فإنها تعبر عن حقيقة لا شك فيها ، وهي استهتار المسؤولين في مصر الفاطمية بالدفاع البحري عن سواحل الشام مع قدرتهم على ذلك .

(٥) اشتراك الأسطول المصري في الدفاع عن بيروت وصيدا قبيل سقوطها في سنتي ٥٠٣هـ ، ٥٠٤هـ

كان سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين قبل أن يصل الأسطول المصري إليها لإمدادها بالموث والأقوات والسلاح والرجال درساً قاسياً تلقاه المصريون ، ولذلك لم تكذب الأخبار تصل إلى الأفضل بزحف الصليبيين بقيادة بلدين ملك بيت المقدس ، وبرترام بن صنجيل وجوسلين صاحب تل باشر ، نحو بيروت ، وإحكامهم الحصار عليها من البحر والبر ، واستعدادهم لدخولها بالأبراج المنصوبة ، واستئصال أهلها في الدفاع عنها والصمود أمام حصار شديد القسوة ، لم يتردد في إرسال قسم من أساطيله لإنجادها والإسهام في الدفاع عنها . فجهز تسعة عشر مركباً بحرية مزودة بالميرة والسلاح والرجال ، ووصلت هذه السفن سالمة إلى بيروت ، وتغلّبت على مراكب الصليبيين ، واستولت على بعضها ، ثم أفرغ البحريون شحنة تلك السفن من الأقوات والموث والعدد والسلاح ، ففوقت نفوس أهل بيروت ، واشتدت عزائمهم ، وبدأوا يشددون هجماتهم على قوات الصليبيين المحيطة بالمدينة ، وعندئذ استنجد بلدين بالجنوية الذين طالما سخرّوا سفنهم في خدمة الحركة الصليبية ، فقدم من سفنهم في هذه المرة أربعون مركباً مشحونة بالقتال ، ونصبوا عليها مائة منجنيق ، وأخذوا يطردون المدينة التمسعة بقذائف الحجارة المدمرة ، ولكن أهل المدينة تقافوا في الدفاع عنها ، وقاتل البحريون بمنف في يوم الجمعة ٢١ من شوال ، واستبسوا في الدفاع البحري عن بيروت ، واستشهد في المعركة مقدم الأسطول المصري

(١) ابن القرات ، ج ٨ ص ١٨٩ .

وعدد كبير من رجاله . ويشهد ابن القلانسي بضراوة المقاومة الإسلامية فيقول : « ولم ير الإفرنج فيما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا اليوم »<sup>(١)</sup> . ولكن المعركة تجدد مصيرها أمام ضخامة الحشود الصليبية ، فانهزم المسلمون ، ودخل الصليبيون المدينة قهراً .

وفي آخر سنة ٥٠٣ هـ أقلع أسطول مصري إلى صور ليقم في قاعدتها بقصد الدفاع عنها ، واتفق في ربيع الآخر سنة ٥٠٤ هـ ( ١١١٠ م ) أن قدم إلى ساحل الشام أكثر من ستين مركباً مشحونة بالرجال للفرز ضد المسلمين والحج إلى بيت المقدس ، فاستغل بلدوين هذه الفرصة لفتح صيدا ، ونزل عليها بقواته برأ ، وحاصرها الأسطول الصليبي بجرأ ، ورأى مقدم الأسطول المصري في مهاجمة هذا الأسطول الكبير مفامرة خطيرة قد تنتهي بكارثة للمسلمين ، فأثر البقاء في صور خوفاً من أن تتعرض وحدات أسطوله للتدمير ، فلما ينس أهالي صيدا من قدوم النجدة ، خافوا أن يصيبهم ما أصاب أهل بيروت من قبل ، فخطبوا الصليبيين في تسليم بلدهم بالأمان ، فدخلها الفرنج بعد حصار دام ٤٧ يوماً<sup>(٢)</sup> .

( و ) الأسطول المصري يساعد صور على الصمود أمام القوى الصليبية حتى سنة ٥١٨ هـ

بعد أن استولى الصليبيون على صيدا زحفوا إلى صور ، وحاصروها في سنة ٥٠٥ هـ ( ١١١١ م ) ، فتصدى لهم ظهير الدين طفتكين ، وقطع الجسر الذي كان يعبّر عليه بين صيدا وصور ، وأحرق عشرين مركباً كانت ترسو في مياه صيدا ، وأصدر إلى أهل صور الكتب يدعوم فيها إلى المصابرة على الإفرنج والجسد في قتالهم . وأمام مقاومة أهل صور المنيفة ، واستأثرتهم في الدفاع عن بلدهم ، اضطر الصليبيون إلى فك الحصار عنها<sup>(٣)</sup> .

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٨ - القرطبي ، اتعاظ الخفا ، ص ١١٦ أ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٧١ - ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٦٠ - اتعاظ الخفا ، ص ١١٦ أ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

وفي سنة ٥٠٦ هـ تجددت مخاوف أهل صور من عودة الفرنج إلى محاصرتهم ، فأجمعوا ، بالإتفاق مع عز الملك أنوشكين الأفضل ، وإلى صور من قبل الأفضل ، على تسليمها إلى ظهير الدين طفتكين أتابك دمشق بحكم ما بذله في العام السابق من جهود في سبيل الدفاع عن صور ، ولم يتردد ظهير الدين من جهة في قبول طلبهم ، فأمر سيف الدين مسعود ، وإلى على بانياس ، وتاج الملوك بوري ، نائبه في دمشق ، بأن يتسلما صور ، وأرسل ظهير الدين إليها فرقة من الأتراك لتدعيم الدفاع عنها ، كما أرسل إلى أهلها الأقوات والمؤن من دمشق ، وطيب نفوس أهلها . ولكن ظهير الدين بتبديله الإدارة الفاطمية بإدارة تركية ، لم يتردد صور من مصر ، بل أبقى على تبعيتها لها ، وترك الدعوة والسكة على ما كانتا عليه لصاحب مصر ، ولم يغير للفاطمين أي رسم من رسومهم ، وكتب ظهير الدين إلى الأفضل شاهنشاه مصر يبرر له تصرفه ، برغبته الخالصة في الإبقاء على صور بلدة إسلامية عن طريق تقويتها بالرجال ، وأبلغه قائلاً بأن بلدين « قد جمع وحشد للنزول على صور ، وأن أهلها استنجدوا بي عليه ، والتسموا مني دفعه عنهم ، فبادرت بإنهاض من أثق بشهامته لحمايتها والمراماة دونها إليه ، وحصلوا فيها » ، ثم أضاف بأنه على أتم استعداد لإجلاء قواته وإخراج نوابه عنها متى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها والذب عنها وحمايتها ، ثم أوصى الأفضل في نفس هذا الكتاب بقوله : « وأنا أرجو أن لا يهمل أمرها ، وإنفاذ الأسطول بالقلعة إليها ، والتقوية لها » (١) .

أقام رسول طفتكين إلى الأفضل شاهنشاه مصر حتى ذى الحجة من سنة ٥٠٦ هـ ، وفي فترة إقامته بالقاهرة تمكن من تصوير الوضع في صور على حقيقته للأفضل ، موضحاً له ما يتهدها من أخطار من جانب الصليبيين ، ودور طفتكين في الدفاع عنها ، وذكر له ما عرضه عليه طفتكين من التطوع للدفاع عن صور إلى أن يقوم هو أي الأفضل بإنفاذ أسطوله إليها . فأعاد

(١) ابن الغلانسي ، ص ١٨٢ - القرطبي ، اتماظ الحفا ص ١١٧ أ .

الأفضل الرسول بكتاب رد فيه على طفتكين رداً حسناً ، وعبر له عن شكره له على ما فعله ، واستصوب رأي طفتكين فيما اعتمده . ثم شرع في تجهيز الأسطول المصري وشحنه « بالفلّة والميرة ومال التفقة في الأجناد والعسكرية وما يباع على الرعية من الغلات »<sup>(١)</sup> .

وفي أول سنة ٥٠٧ هـ ( ١١١٣ م ) أقلع الأسطول من مصر بالغلات والرجال متجهاً إلى صور ، وتولى قيادة هذا الأسطول متولي طرابلس السابق قبيل استيلاء الصليبيين عليها وهو الأمير شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي ، ووصل الأسطول إلى صور سالماً في آخر صفر سنة ٥٠٧ هـ ، وبوصوله إلى صور وإنزاله الشحنات رخصت الأسعار في المدينة ، واستقام أمرها ، وحسن حالها ، وعلى هذا النحو أقصد تصرف طفتكين الحكيم ووصول الأسطول المصري إلى صور خطط الصليبيين ، وأبعد خطرهم عنها ، وأرسل مقدم الأسطول شرف الدولة بدر بن أبي الطيب هدية الأفضل إلى ظهير الدين طفتكين ، وتتألف من الخلع الفاخرة الجليلة برسمه ورسم ولده تاج الملوك بوري وخواصمها ، ويرسم سيف الدولة مسعود نائب ظهير الدين في ولاية صور . وأقسام الأسطول المصري في مياه صور فترة من الوقت إلى أن استقامت له الرياح ، ثم أقلع عنها في العشر الأخير من شهر ربيع الأول من السنة . ثم إن بلدوين ملك بيت المقدس بعث إلى الأمير مسعود وإلى صور يلتمس منه المهادنة والموادعة لحسم أسباب النزاع بين الجانبين ، فأجابه مسعود إلى ذلك ، وانحدت الهدنة بينهما ، واستقامت أحوال صور ، وأمنت الوافدين عليها من التجار والمسافرين من جميع الأقطار<sup>(٢)</sup> .

وظل الأمر كذلك في حياة الأفضل الذي لم يكن يرضن عليها بمساعداته باعتبارها آخر ثغور الشام التابعة للفاطميين ، ولو أن العمر طال بالأفضل لكان في إمكان صور أن تصمد فترة أطول ، غير أنه اغتيل في ليلة عيد

(١) ابن الغلاتي ص ١٨٨ - القرطبي ، اتماظ الحنفا ، ص ١١٧ ب .

(٢) ابن الغلاتي ، ص ١٨٨ .

الفطر من سنة ٥١٥ هـ ( ١١٢١ م ) ، فخلفه في الوزارة المأمون أبو عبد الله محمد بن أبي شجاع فاتك البطاحي الذي كان - رغم شجاعته - أقل دراية بشؤون السياسة من الأفضل ، بدليل أن مصر خسرت مدينة صور بسبب سوء تصرفه ، وتقصيل ذلك أنه ما كاد يتولى الوزارة ويستبد بأمر البلاد حتى عزم على إزالة نفوذ طغتكين من صور والإطاحة بولاية مسعود الذي كان يتولاها من قبل طغتكين ، ففي بداية سنة ٥١٦ هـ أرسل المأمون الأسطول المصري إلى ثغر صور وقد شحنه « بالرجال البحرية وطائفة من العساكر »<sup>(١)</sup> ، كما شحنه بكيات كبيرة من الغلال تقدر بخمسة عشر ألف إردب وأقوات كثيرة . فلما وصل الأسطول إلى صور ، خرج والها سيف الدولة مسعود لاستقبال مقدم الأسطول ، فطلب منه هذا النزول بسفينته ، فاستجاب مسعود لرغبته ، وما كاد ينزل بمركب مقدم الأسطول حتى أمر هذا باعتقاله ، وصدر الأمر على الفور إلى العساكر بالنزول في المدينة والسيطرة عليها ، ثم ألق الأسطول من ميناء صور حاملاً الأمير مسعود إلى مصر ، فلما وصل إلى القاهرة ، بولغ في إكرامه ، وأُنزل في دار ، وأُطلق له ما يحتاج إليه<sup>(٢)</sup> ، ثم أُعيد إلى دمشق بعد ذلك<sup>(٣)</sup> . ويعمل ابن القلانسي هذا التصرف من جانب السلطات المصرية بأن أهل صور شكوا مرات عديدة إلى الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله ووزيره الأفضل بما كان يعتمد مسعود مع الرعية من مخالفتهم والإضرار بهم ، ويعلق ابن القلانسي على عزل مسعود عن ولاية صور بقوله : « وكانت عاقبة خروجه منها وسوء التدبير فيها خروجها ( يقصد صور ) إلى الإفرنج وحصولها في ملكهم »<sup>(٤)</sup> .

ولما علم الصليبيون بالانقلاب الذي تم في صور، تحركت أطعماهم في

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٠٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٧ - اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٦ ب .

(٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣١٥ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ٢٠٧ - ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣١٥ .

الإستيلاء عليها من جديد ، وشرعوا في الإعداد لفتحها والتأهب للنزول عليها وإحكام الحصار حولها ، وأدرك والي صور الجديد عجزه عن دفعهم لقلة ما لديه من الجند والميرة ، فأرسل إلى الأمر بأحكام الله يطلعه على جلية الأمر ، فاقضى الرأي أن تَرُدَّ مصر ولاية صور إلى ظهير الدين طفتكين ليتولى حمايتها والذب عنها على ما جرى رسمه فيها مع احتفاظ مصر بحق الإشراف وفرض سلطانها عليها ، وأصدر الأمر منشور ولاية صور باسم طفتكين ؛ ولم يتردد طفتكين في قبول الأمر الواقع ، من تقبل مسؤولية الدفاع عنها ، ولكنه ندب لتوليها عنه جماعة لا غناء لهم ولا كفاية فيهم ، فسأت حالتها ، وانتهز الصليبيون هذه الفرصة ، ونزلوا بظاهرها في ربيع الأول سنة ٥١٨ هـ ، وأحكموا الحصار حولها حتى عذمت بها الميرة والأقوات ، فأرسل طفتكين إلى مصر يطلب إرسال المعونة إليها ، ولكن مصر لم تتحرك لمجدها ، ومضت الأيام دون أن تصل أساطيل مصر بالمعونة المرتقبة ، فضعفت نفوس أهلها ، وقرروا تسليمها للصليبيين ، وتم ذلك في ٢٣ من جمادي الأولى سنة ٥١٨ هـ ( ١١٢٤ م )<sup>(١)</sup> ، وبسقوط صور تلاشى نفوذ الفاطميين في مصر نهائياً على بلاد الشام .

### ( ٣ )

#### جهاد الأسطول المصري ضد الصليبيين حتى نهاية الدولة الفاطمية

##### ( أ ) في عصر الأمر بأحكام الله ( ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ )

بلغ الأسطول المصري في عصر الأمر بأحكام الله درجة كبيرة من القوة على الرغم من حالة الضعف السياسي التي وصلت إليها مصر . وقد تعددت

(١) ابن الفلاس ، ص ٢١١ - ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣١٦ .

ميادين النشاط البحري الحربي في خلافة الأمر : ففي سنة ٥١٧ هـ بلغ المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبا تراب حيدرة والي الاسكندرية والأعمال البحرية نبأ زول الروم والبنادقة في أكثر من عشرين مركباً على الاسكندرية ، فبادر إليها بسفن أسطول الاسكندرية ، فلما شاهدها الأعداء أقفلوا دون قتال ، وظفر المصريون بعدة قطع للأعداء<sup>(١)</sup> . وذكر المقرئ نغلا عن ابن المأمون ، أنه وصلت رسل ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق وآقسنقر صاحب حلب في المحرم سنة ٥١٧ هـ إلى الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي والوزير المأمون ، وأنها مثلاً أمام الخليفة بالقصر وقدماً إليه كتباً يعنها كل من طغتكين وآقسنقر يستنصران فيها الخليفة ويحثانه على نصره الإسلام وتجهيز العساكر والأساطيل إلى السواحل حتى لا تتواصل إمدادات الصليبيين ، ويبدو أن هذه الكتب أثرت في نفس الأمر تأثيراً عميقاً دفعه إلى المبادرة بالعمل ، فاشتعل حماسه ، واشتد عزمه على تلبية ندائهما وأمر بتجهيز الجيوش والأساطيل الثانية لانشغال الأساطيل الرئيسية في الغزو ، ثم اختار حسام الملك البرقي ليكون مقدماً على هذه الأساطيل ، وخلع عليه ، وأمر بأن ينزل الصناعتين بمصر والجزيرة وينفق في أربعين شينياً ، ويكمل نفقاتها وعددها ، ويحمل المسكر عليها ، كما أمر بأن يصحبه عشرون أميراً وعدد من الأطباء والمؤذنين والقراء والحجاب ، وأفرد لكل من هؤلاء عملاً يقوم به ، وأوصى بأن يجتمع المسكر والعربان العرض في عسقلان قبل أن يقلع منها الأسطول إلى السواحل ؛ ويذكر المقرئ أن الخليفة « جهز المال والخلع المذهبات ، والأطواق ، والسيوف ، والمناطق ، والخيول بالمرائب الحلى الثقال ، وغير ذلك من التجهيزات ، وخلع على الرسل وأطلق لهم التعمير ، وسلمت إليهم الكتب والتذاكر ، وتوجهوا صحة العسكر »<sup>(٢)</sup> . ثم ركب الخليفة الأمر إلى باب الفتوح ، وجلس بالمنظرة ، وهناك استدعى الأمير حسام الملك وخلع عليه بدلة

(١) اتعاظ الخنقا ، ص ١٢٦ ب - تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، ص ٢٠٣ .

(٢) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

جبلية مذهبة ، وطوقه بطوق من الذهب ، وقلده ومنطقه بمثل ذلك .  
وقام الوزير المأمون البطاحي بتسليم الأموال وخزائن الكسوة إلى الأمير  
حسام الملك ، ثم ركب الخليفة إلى جامع المقس ، وجلس بالمتظرة ، واستدعى  
مقدم الأسطول وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدة  
إلى البحر الملح .

والظاهر أن هذا الأسطول الثاني اشتبك مع أسطول للبنادقة في معركة  
بحرية دارت بالقرب من سواحل الشام وانتهت بهزيمة الأسطول المصري ،  
وتمكن البنادقة من الظفر بعدة قطع ، واضطرت بقية السفن المصرية إلى  
العودة إلى مصر<sup>(١)</sup> . ولكن الأسطول المصري الرئيسي لم يلبث أن عاد  
مظفراً في شعبان من سنة ٥١٧ هـ بمن فيه من البحريين سالين ، وقد غنموا  
شينيين من شواني الصليبيين وبطسة كبرى ، وأمسروا عدداً من الرجال  
والنساء ، واحتفل الخليفة بعودة الأسطول من الفوز بما جرت به العادة ،  
واصطفت العساكر بالعدد والأسلحة ، فخلع الخليفة على الأمراء وعلى  
زمام<sup>(٢)</sup> الأسطول والرؤساء<sup>(٣)</sup> .

#### (ب) في عهد الظاهر بأمر الله (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ)

وتلت ذلك فترة مضطربة شغل فيها المصريون عن الجهاد البحري  
بمصرع الأمر بأحكام الله في سنة ٥٢٤ هـ ( ١١٢٩ م ) على أيدي جماعة من  
النزارية ، وخلافة الحافظ لدين الله من بعده ، وما تبع ذلك من أحداث  
خطيرة أدت إلى انتشار الفوضى والاضطراب في داخل البلاد فترة طويلة  
لم تنته بوفاة الحافظ لدين الله في سنة ٥٤٤ هـ ( ١١٤٩ م ) بل استمرت في  
خلافة ابنه الظاهر بأمر الله حتى مصرعه في سنة ٥٤٩ هـ ( ١١٥٤ م ) على

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٠٩ - ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣١٤ .

(٢) المقصود بزمام الأسطول قائد الأسطول أو مقدمه ( صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٨٢ ) .

(٣) القريري ، اتمام الحنفاء ، ص ١٢٨ ب .



ييدي نصر بن عباس . واتسم عهد الظافر بظهور الخلل في أجهزة الدولة لحداثة سن الخليفة واشتغاله باللهو<sup>(١)</sup> ، ولاشتداد النزاع بين الوزيرين ابن مصال وابن سلاّر واستعانة كل منهما بفريق من المسكر على زميله . ولذلك أهمل المسؤولون وقتئذ في مصر الدفاع عن عسقلان التي لم تلبث أن سقطت في أيدي الصليبيين في سنة ٥٤٨ هـ بعد أن حوصرت عدة مرات ، وكان المصريون يمدونها بالرجال والذخائر ، ولذلك طال أمد مقاومتها . ويروي ابن القلانسي أن العادل ابن سلاّر « جلس للإنفاق في رجال الأسطول ليجهزه في البحر إلى ناحية عسقلان بالميرة لتقوية من بها على النازلين عليها من الإفرنج والمضايقين لها ، وهو في الجمع الكثير والجمل الغفير ، بالمال والرجال والغلال ، وإشراف أهلها على الخطر »<sup>(٢)</sup> . ويضيف ابن القلانسي أن أسطول مصر وصل إلى عسقلان قبل سقوطها في أيدي الصليبيين ، « فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال ، وظفروا بعدة وافرة من مرابك الفرنج في البحر ، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها ، والزحف بالبرج إليهم . واستمر ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها فهدموه ، وهجموا البلد ، وقتل من الفريقين الخلق الكثير ، وأجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان ، فأجيبوا إليه ، وخرج من أمكنه الخروج في البر والبحر إلى ناحية مصر وغيرها »<sup>(٣)</sup> .

وينبغي أن نشير بالرغم من ذلك إلى حقيقة لا بد من ذكرها وهي أن الأسطول المصري قام بواجبه في مدافعة الفرنج وحماية المدينة من البحر وتخفيف حدة الحصار البحري خير قيام ، وأن غزاة الأسطول المصري

(١) التاجم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٨٨ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣١٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ - أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ص ٢٢٤ - ابن الأثير ، ج ٩ حواشي ٥٤٨ - النعماني ، المعبر في خبر من غير ، ج ٤ ص ١٩ - ويحمل أبو المحاسن تاريخ سقوط عسقلان في سنة ٥٤٥ هـ ( التاجم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٩٩ ) .

بنلوا أقصى ما يستطيعون بذله في الدفاع عن عسقلان وإمدادها بالأقوات والميرة . كما ينبغي أيضاً أن نذكر مرة أخرى أن هذا الأسطول أبدى قبل سقوط عسقلان بستانين نشاطاً بحرياً لم تشهد السواحل الشامية له نظيراً من قبل : فعندما أغار الصليبيون في سنة ٥٤٥ هـ ( ١١٥٠ م ) على القرما ونهبوها وأحرقوها وأخربوا دورها<sup>(١)</sup> ، جهز الوزير العادل ابن سلار المراكب الحربية بالرجال والمعدد ، وسيّرها في ربيع الأول إلى ثغور الساحل الشامي . ويذكر ابن القلانسي أن الأسطول المصري وصل إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة العدد والمعدة ، كما ذكر أن عدة مراكبه بلغت سبعين مركباً حربية مشحونة بالرجال ، وعندما اقترب هذا الأسطول من يافا من ثغور الصليبيين أغار على الساحل ، فقتل رجاله وأسروا عدداً كبيراً من عسكر الصليبيين ، واستولوا على عدة قطع من مراكب الروم والفرننج ، وأحرقوا ما عجزوا عن الظفر به ، ثم قصد الأسطول المصري بعد هذه الغارة إلى ثمر عكا ، ففعل غزاته مثلاً فعلوه في يافا ، ووقع في أيديهم عدد من المراكب الحربية الفرنجية ، وقتلوا من حجاج الفرنجة وغيرهم خلقاً كثيراً<sup>(٢)</sup> ، ثم أنفذوا ما أمكنهم إنفاذه من الفنائم إلى مصر . ثم أغار الأسطول المصري على ثغور صيدا وبירות وطرابلس ، وأبلى غزاة البحر المصريون بلاءً حسناً ، وفعلوا في هذه الثغور مثلاً فعلوه في يافا وعكا . ثم عادت قطع الأسطول المصري غائمة مظفرة بعد أن بلغت النفقة عليها ثلثائة ألف دينار<sup>(٣)</sup> .

### (ج) في عصر الفائز بنصر الله (٥٤٩ - ٥٥٤ هـ)

عاود الأسطول المصري الفاطمي نشاطه البحري في غزو السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين منذ سنة ٥٥٠ هـ ، ففي هذه السنة أقلع الأسطول المصري إلى

(١) المقرئ ، اتماط الحنفا ، ص ١٤٤ ب .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣١٥ - الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٢ - اتماط الحنفا ، ص ١٤٤ ب .

(٣) اتماط الحنفا ، ص ١٤٤ ب .

سواحل الشام الجنوبية ، وأغار على ميناء صور ، وذلك رداً على غارة قام بها الصقليون على مدينة تيس في غفلة من أهلها في جمادى الأولى سنة ٥٤٩ هـ<sup>(١)</sup> ، وتفصيل غارة الأسطول كما رواها ابن القلانسي وأبو شامة أن مقدمي الأجناد من جيش الوزير الصالح طلائع بن رزّيك اختاروا مقدماً مشهوراً بالشهامة والصرامة والبسالة وحسن السياسة ، « ارتضى لتولية الأسطول المصري مقدماً من البحرية شديد البأس ، بصيراً بأشغال البحر ، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الإفرنج ، وألبسهم لباس الإفرنج ، وأنهبهم في عدة من المراكب الأسطولية ، وألقم في البحر لكشف الأماكن والمكانن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالها ، ثم قصد ميناء صور ، وقد ذكر له أن فيه شخورة رومية كبيرة ، فيها رجال كثيرة ومال كثير وافر ، فهجم عليها وملكها ، وقتل من فيها ، واستولى على ما حوته ، وأقام ثلاثة أيام ، ثم أحرقها ، وعاد عنها في البحر ، فظفر بمراكب سجاج الإفرنج ، فقتل وأسر وانتهب ، وعاد منكفئاً إلى مصر بالغنائم والأمرى »<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ٥٥٢ هـ ( ١١٥٧ م ) سیر الصالح طلائع المراكب الحربية المصرية إلى بيروت ، فأوقعت بمراكب الفرنج ، وأسرت منهم أعداداً كبيرة ، وغنمت غنائم لا حصر لها . ثم سیر الأسطول إلى عكا ، فتمكن البحريون المصريون - بعد قتال عنيف - من أسر نحو سبعمائة من الصليبيين ، وعاد الأسطول إلى قواعده في مصر في شهر رمضان<sup>(٣)</sup> . وفي نفس السنة تكسرت عدة مراكب صليبية تحمل حججاً على ساحل الإسكندرية ، فقبض عليهم نائب الثغر الاسكندري<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٣١ - الروستين ، ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٣٢ - الروستين ، ج ١ ص ٢٥٣ .

(٣) اتماط الحنفا ، ص ١٤٩ أ .

(٤) نفس المصدر .

ثم نشطت الأساطيل المصرية في سنة ٥٥٣ هـ نشاطاً كبيراً بفضل تشجيع الصالح طلائع ، أعظم وزراء الدولة الفاطمية ، الذي لم يتوان قط في مدة توليه الوزارة عن مغازاة الفرنج ، وتسيير الجيوش لقتالهم في البر والبحر ، وكان يرسل البعث الحربية على السواحل الجنوبية لبلاد الشام في كل سنة <sup>(١)</sup> ، وكثيراً ما تعددت غزوات الأسطول المصري في السنة الواحدة : ففي أوائل ربيع الأول سنة ٥٥٣ هـ أغارت طائفة كبيرة من العساكر المصرية على غزة وعسقلان وأعمالهما ، وكان يظاهرن الغزاة في البحر ، واشتبك المصريون مع الصليبيين في عدة معارك انتصر فيها المصريون ، وظفر مقدم الغزاة في البحر بعدة مراكب مشحونة بالفرنج ، وأسر منهم عدداً كبيراً ، وعاد ظافراً إلى مصر <sup>(٢)</sup> . وفي ٢٣ ربيع الآخر من نفس السنة سار الأسطول المصري الرئيسي إلى تنيس ، ثم أقبل منها في الثامن من شعبان لغزو سواحل الصليبيين . وفي ٢٦ من ربيع الآخر قدم أسطول الاسكندرية من إحدى غزواته على السواحل الصليبية ، وقد امتلأت أيدي الغزاة المصريين بالغنائم <sup>(٣)</sup> . وفي الخامس من شعبان سبر الصالح طلائع خمس شواني للإغارة على سواحل الشام المحتلة ، واستطاعت هذه الشواني الخمسة أن تظفر بعدة سفن صليبية ، وعادت في ٢٢ من رمضان وقد غنمت غنائم كثيرة ، وأسرت عدداً كبيراً من الصليبيين <sup>(٤)</sup> .

وفي السنة التالية أقبل الأسطول المصري في جمادى الأولى إلى سواحل الشام تبلياً لدعوة نور الدين محمود بن زنكي أتابك حلب ، ومساندة له <sup>(٥)</sup> في تخريب السواحل الشامية المحتلة .

(١) الخطط ، ج ٣ ص ٢٦٢ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٥١ - الروشتين ، ج ١ ص ٢٨٨ .

(٣) اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٩ أ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٩ أ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٤٩ ب .

ولم يزل الأسطول المصري على مثل هذه الحالة من النشاط البحري وغزو السواحل الشامية المحتلة حتى كانت أيام شاور بن مجير السعدي الذي تولى الوزارة بعد مقتل الصالح طلائع في رمضان سنة ٥٥٦ هـ ( ١١٦٠ م ) . وفي وزارته اضطربت الأحوال الداخلية مع مصر ، وتدخل النوريون حيناً والصليبيون حيناً آخر ، إلى أن كانت سنة ٥٦٤ هـ ( ١١٦٨ م ) عندما دخل عموري ملك بيت المقدس الأراضي المصرية ، ونزل بلبس واستولى عليها عنوة ، ثم زحف إلى القاهرة . فأمر شاور بإحراق القسطنطينية ، وإحراق مراكب الأسطول ، لتمويق تقدم الصليبيين إلى القاهرة ، فاحتقرت السفن التي كانت ترابط بصناعة مصر<sup>(١)</sup> ، وخسرت مصر بذلك معظم رصيدها البحري ، ولم يبق لها سوى الأساطيل الراسية بالثغور البحرية في الاسكندرية ودمياط وتينيس وعيذاب .

---

(١) الخطط ، ج ٣ ص ١١٠ .

## الفصل الرابع النظيمات البحرية في العصر الفاطمي

( ١ )

### موظفو ديوان العتار وملاط البحريةين

ذكرنا فيما سبق أن ديوان العتار كان مقره دار صناعة الإنشاء بمصر التي كانت تقع على الساحل القديم من مصر الفسطاط بالقرب من المنطرة الخلافية المعروفة بمنطرة الصناعة التي أنشأها الوزير المأمون البطاحي . وكان من اختصاصات ديوان العتار الإشراف على صناعة الأسطول والمراكب الحاملة للفلت السلطانية والأحطاب وغيرها ، ومنه كان ينفق على رؤساء المراكب ورجال الأسطول من التواقي<sup>(١)</sup> . وكانت المراكب السلطانية المذكورة تضم ما يزيد على خمسين عشارياً وعشرين ديماساً ، من بينها عشرة عشاريات كانت مخصصة لركوب الخليفة الفاطمي في مواسم الاحتفالات بوفاء النيل كتخليق عمود المقياس وفتح الخليج ، أما بقية العشاريات والدواميس فكانت برسم ولاة الأعمال المميزة ، في حين كان للشارفين بالأعمال عشاريات أخرى دون عشاريات الخليفة وولاة الأعمال . وكان الديوان المذكور يضم عدداً كبيراً من الحواصل لمارة المراكب<sup>(٢)</sup> ، في كل حاصل منها نفر من الصناع من مختلف المهن كالنجارين والحدادين والمقلفطين والمزوقين ، ويتولى

(١) المقرئ ، الخط ، ج ٢ ص ٣٧٧ - صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٩٢ .

(٢) نفس المصدر - عبد النعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ج ١ ص ٢٢٠ .

الدیوان الإنفاق علی إنشاء السفن ، فإذا لم یف ارتفاقه بما تحتاج إلیه هذه السفن استدعی له مزید من المال من بیت المال لسد النقص . ومن موظفی الدیوان :

١ - رئیس المشاریات والنوای : كان یتولی كل عشاري أو دیماس من عشاریات ودوامیس الدیوان رئیس ونوای ینفق فیهم من مال هذا الدیوان .

٢ - نائباً مقدم الأسطول : وكان یتولیان خدمة ما یحری فی الأساطیل .

أما فیما یتعلق براتب البحرین ، فقد ذكر المقریزي أن جريدة قواد الأسطول فی أواخر عصر الدولة الفاطمية كانت تزيد علی خمسة آلاف مدونة من البحرین ونعني بهم النوایة ، یتقدمهم عشرة أعیان یقال لهم قواد تصل جامكية أكبرهم إلی عشرين دیناراً ، بینما لا تقل لأقلهم شيئاً عن دینارین ، وكان یختار من بین هؤلاء القواد العشرة قائد یتیز منهم ویرتفع عنهم یسمى رئیس الأسطول . وكان هذا رئیس هو الذي یقلع بالفزاة ویصحبه مقدم الأسطول وفانوس تهتدي به المراكب الأخری ، وبه كان یقتدي سائر قواد الأسطول ، فیقلعون بإقلاعه ویرسون بإرسائه <sup>(١)</sup> . أما مقدم الأسطول فكان یشرط فی اختیاره أن یكون من بین أعیان أمراء الدولة وأن یكون أقوام جاشاً ، وكان یعرف بزمان الأسطول <sup>(٢)</sup> .

وإلی جانب هؤلاء القواد الکبار كان یتولی دعوة الفزاة لتسلم النفقة قبیل الخروج للغزو فی البحر عدد من العرفاء یقال لهم النقباء ، عددهم عشرون ، تقتصر مهمتهم علی استدعاء الفزاة من دورهم <sup>(٣)</sup> .

وكان الخلیفة عندما یتولی توزيع النفقة قبیل تحرك الأسطول للغزو ینحج مقدم الأسطول مائة دینار ، ورئیس الأسطول عشرين دیناراً .

(١) المقریزي ، الخطط ج ٢ ص ٢٧٨ ، ج ٣ ص ١٠٩ .

(٢) المقریزي ، اتماظ الحنفا ، ص ١٢٨ ب - صبح الأضی ، ج ٣ ص ٥١٩ .

(٣) المقریزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١٠٩ .

وكان نواتية الأسطول المعروفين بالبحريين أو الأسطولية<sup>(١)</sup> موضع احترام الناس وتبجيلهم ، فكان يقال لهم المجاهدون في سبيل الله ، والغزاة في أعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم<sup>(٢)</sup> . ومن المعروف أن العدد الأعظم من هؤلاء البحريين كانوا مغاربة ، وقد عرف المغاربة بمهارتهم في قيادة السفن والملاحه في البحر منذ عصر مبكر ، وذاعت شهرتهم في الجهاد البحري في العصر الأيوبي ، واشترك البحريون المغاربة في مهاجمة مراكب الصليبيين عند عيذاب<sup>(٣)</sup> ؛ فقد استعان الحاجب حسام الدين لؤلؤ بمجموعة من أنجاد المغاربة البحريين في مراكب عمرت من مصر والاسكندرية في مهاجمة مراكب الفرنج وحرقها وأسر من بها<sup>(٤)</sup> ، وأصبح للبحريين المغاربة في عصر المماليك البحرية مكانة خاصة ، وكان يلبغا الخاصكي يقدرهم قدرهم ، ويعتبرهم فرسان البحر<sup>(٥)</sup> ، وكان يكثر من قياد المغاربة على المراكب . وكان رئيس دار الصناعة بالاسكندرية ، ابراهيم التازي ، مغربياً ، عرف بطولته في الجهاد ضد الصليبيين ، وقد ذكر التويري معلقاً على بطولته بأن الفرنج « ليس يقهرهم سوى المغاربة ، ذلك لخاطبتهم لهم بحزيرة الأندلس ، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم في بر وبحر ، فلو كان منهم بالاسكندرية من المغاربة جمعاً كبيراً يحوامك مرتبة ، وغربان مجهزة بعددها وأزوادها ، كانوا يخربوا جزر كثيرة ، وصارت الفرنج معهم في جزيرة »<sup>(٦)</sup> . وكان البحريون في العصر الفاطمي وما تلاه من عصور يشتغلون في سفن الأسطول إما بالتجديف أو بنشر القلوع أو توجيه الدفة

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١١١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق ولم رايت ، ص ٥٩ . وذكر ابن سعيد أن الأساطيل كانت وفقاً على المغاربة لمقرتهم بمناخة الحرب والبحر ( المقري ، فتح الطيب ، ج ٣ ص ١١١ ) .

(٤) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول القسم الأول ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٧٩ .

(٥) التويري السكندري ، الإلام بما قضت به الأحكام ، نسخة مصورة من مخطوطة الهند ، ص ١١٦ ب .

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٧٧ ب .



أو مراقبة البحر ، فكان منهم المجذفون واثمرو القلوع على القرايا ،  
والتواظير ، وكان منهم طائفة مقاتلة إما بالأنفاط ويعرفون بقاذبي اللهب  
أو زرقاقي النار ، وبالمرادات والمجانيق ، وكان منهم رماة السهام والكلابون  
أو الكالون بالكلاليب ، والراجون بالرجام والسالبون بالأساليب<sup>(١)</sup> .

## ( ٢ )

### قُطْعُ الْأُسْطُولِ الْفَاطِمِيِّ الْحَرِيِّ وَالْمَدَيِّ

يقسم القريري السفن المصرية إلى نوعين

١ - الحربية ، وهي سفن الأسطول التي تصنع خصيصاً لغزو العدو ،  
وكانت تشحن بالسلح وآلات الحرب والمقاتلة ، فتمر من ثغر الاسكندرية  
وثغر دمياط وتنيس والفرما في مصر ومن ثغر طرابلس وثغر صيدا وثغر  
صور في الشام إلى جهاد أعداء الدولة من البيزنطيين والفرنج .

٢ - النيلية ، وهي إما سفن تجارية تنشأ لحمل الغلال والأحطاب وغيرها ،  
ونقل هذه البضائع في النيل ، صاعدة إلى أعلى الصعيد ، أو منحدرة إلى  
أسفل الأرض<sup>(٢)</sup> ، أو سفن تخصص للاحتفالات بتخليق عمود المقياس وكسر  
الخليج ولزخ الخلفاء الفاطميين ، كالعشاريات اللطاف ، التي يقال لها السماويات ،  
والعشاريات الخاص الكبار<sup>(٣)</sup> .

ويمكننا أن نضيف إلى هذين النوعين نوعاً ثالثاً مخصصاً للملاحة في  
البحر الأحمر والمحيط الهندي ، لنقل تجارة الكارم أو لنقل الحجاج ما  
بين عيذاب وجدة .

(١) للماد لإصفهاني ، ص ١٦٠ .

(٢) القريري ، الخطط ، ج ٣ ص ١٠٣ .

(٣) نفس المصدر ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٠ .

وكانت السفن المصرية في العصر الفاطمي سواء الحربية منها أو المدنية ، تصنع في دار صناعة الجزيرة ، فأذكر الوزير المأمون البطاحي ذلك ، وقصر صناعة المراكب التجارية النيلية الحاملة للغلات والأحطاب بصناعة مصر ، في حين واصلت دار صناعة الجزيرة والمقس والإسكندرية ودمياط إنشاء السفن الحربية كالشواني والشنديات والمسطحات<sup>(١)</sup> . ويذكر ناصر خسرو ، الرحالة الفارسي الذي زار مصر في العصر الفاطمي ، أنه كانت تصنع في مدينة الصالحية سفن تجارية لنقل البضائع إلى مدينة مصر حتى أبواب دكاكين البقالين<sup>(٢)</sup> .

وقد تعددت أنواع قطع الأسطول الحربي الفاطمي ، وأهم هذه القطع ما يلي :

١ - الشواني الحربية : ( جمع شني أو شنية أو شونة ) ، وكانت أم قطع الأسطول الفاطمي<sup>(٣)</sup> ، وكانت تعرف أيضاً بالأغربة أو الغربان ( جمع غراب ) لأنها كانت تطل بالقرار وكانت لها قلوب بيضاء فهي في ذلك تشبه الغربان ، ويعبر ابن الأبار عن ذلك التشابه بينها وبين الغربان في قوله :

يا حَبْدًا من بنات الماء ساجحة  
تطفو لما شب أهل النار تطفئه  
تُطِيرُهَا الرِّيحُ غُرَابًا بأَجْنَحَةِ الْإِ  
سْهَامِ الْبَيْضِ لِلْإِشْرَاكِ تَرْزُوهُ  
من كل أدم لا يلقي به جرب  
فأراكم بالقرار ينؤه  
يدعى غراباً وللفتخاء مرعته  
وهو ابن ماء وللشاهين جَوْحُوةٌ<sup>(٤)</sup>

(١) المترزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧ ، ج ٣ ص ١٠٨ .

(٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٤١ .

(٣) عبد النعم ماسد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ج ١ ص ٢٢٢ .

(٤) القري ، نفع الطيب ، ج ٥ ص ٢٠٠ .

والشيفي مركب كبير طويل ، يمتاز بأنه يحذف بمائة وأربعين مجدافاً<sup>(١)</sup> ،  
ويحمل المقاتلة والجدافين . وكان مزوداً بأبراج وقلاع تستخدم للدفاع  
والهجوم ، وقد وصف ابن حديد الصقلي الشواني الحربية وأبراجها التي  
يقذف النفاطون منها النفط الأبيض على العدو ، فقال مخاطباً الأمير الحسن  
ابن علي من أمراء بني زيري في المغرب الأدنى :

أُنشأتُ شوانيَ طائراً      وَبَنَيْتَ عَلَى مَاءٍ مُدْماً  
بِبُرُوجٍ قَتَالَ تَحْسَبُهَا      فِي ثَمِّ شَوامِهَا قِنَناً  
تَرْمِي بِبُرُوجٍ إِنْ ظَهَرَتْ      لَعْدُوهُ مُحْرِقَةً بَطْناً  
وَبِنْفَطٍ أَبْيَضَ تَحْسَبُهُ      مَاءً وَبِهِ تَذْكِي السَّكَنُ<sup>(٢)</sup> .

ووصف الشاعر الأسواني المصري أبو علي الحسن المذهب بن الزبير انتصار  
الأسطول المصري على الأسطول الصليبي في بحر طرابلس الشام ، في أيام  
الصالح طلائع بن رزيك ، فقال :

ولقد أتى الأسطولُ حين غزا بما  
لم يأت في حين من الأحيات  
أَحِبُّ إِلَيَّ بِهَا شَوَانِي أَصْبَحَتْ  
مَنْ فَتَكْهَا وَلَهَا الْعُدَاةُ شَوَانِي  
سُتْهِنَ بِالْغُرَبَانِ فِي أَلْوَانِهَا  
وَفَعَلْنَ فَعْلَ كَوَامِرِ الْعُقْبَانِ  
أَوْقَرَتْهَا عُدَّةَ الْقِتَالِ فَقَدْ غَدَتْ  
فِيهَا الْقَنَا عَوْضاً عَنِ الْأَشْطَانِ  
فَأَتَتْكَ مُوقَرَةً بِسَيْفٍ بَيْنَهُ  
أَمْرَاهِمُ مَفْلُولَةُ الْأَذْقَانِ<sup>(٣)</sup>

(١) ابن عاتق ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٢) دهران ابن حديد ، تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٠ ص ٥١٣ .

(٣) محمد كامل حسين ، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية ،  
القاهرة ، ١٩٥٩ ص ١٧٦ - محمد زغلول سلام ، الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ،  
الاسكندرية ١٩٥٩ ص ٣٧٥ .

٢ - الخوازيق : ( جمع حراقة ) : وهي مراكب حربية يعبر اسمها عن وظيفتها في إحراق سفن العدو بالنفط <sup>(١)</sup> ، تلي الشواني في الأهمية . وقد استكثر الفاطميون من هذه السفن ، إذ ورثوه عن الأغالبة <sup>(٢)</sup> ، واستخدموه في غزو قلورية وفي حروبهم البحرية ضد البيزنطيين ، وكان يحدث فيها بما يقرب من مائة مجدف <sup>(٣)</sup> ؛ وقد وصفها الشاعر الأندلسي أبو عبد الله ابن الحداد فقال :

ذات هدب من المجاذيف حاك  
هدباً بالكِ لدمعه إسماع  
حمم فوقها من البيض نار  
كل من أرسلت عليه رماد <sup>(٤)</sup>

٣ - الخوازيق أو الخربيات : ( جمع حربية ) : وهي نوع من الشواني ولكنها أصغر منها حجماً ، وتمتاز هذه المراكب عن الشواني بسرعتها وخفة حركتها ، وكان هذا النوع من المراكب يصنع في العصر الفاطمي بمصر في دار صناعة الروضة <sup>(٥)</sup> ، وكانت من أهم قطع الأسطول الأندلسي في عصر دولة بني أمية ، واستخدمت في المعارك بأرض المغرب والأندلس <sup>(٦)</sup> . وقد وصفها الشاعر ابن حديس بقوله :

يخوضون بجرأ كل حين إليهم  
ببحر يكون الموج فيه فوارساً  
وحربية ترمي بمحرق نفطها  
فيفشى سحوط الموت فيها المعاطسا

(١) العباد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القديسي ، تحقيق الأستاذ محمد صبيح ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٨٨ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٧ .

(٣) ابن عاتق ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٤) القرني ، نفع الطبيب ، ج ٥ ص ١٩٨ .

(٥) القرني ، الخطوط ، ج ٢ ص ٣٧٧ ، ج ٣ ص ١١٥ .

(٦) العنزي ، ص ٨١ - الإدريسي ، ص ١١٢ .

تراهن في حر اللبود وصفرها  
كثل بنات الزنج 'رُفَّتْ' عرائسا

إذا عثنت فيها التناير خلتها  
تقتح للبركان عنها منافسا<sup>(١)</sup>

وقال ابن حمديس أيضاً يصف حربية تقذف النفط على سفن الأعداء  
سنة ٨٥١٢ هـ :

رأوا حربية ترمي بنفط لإخماد النفوس له استعار  
كان المهمل في الأنبوب منه إلى شي الوجوه له ابتدار  
كان منافس البركان فيها لأهوال الجحيم بها اعتبار  
نحاس ينبري منه شواظ لأرواح الملوّج به يوار<sup>(٢)</sup>

٤ - الطرائد : ( جمع طريدة ) : وهي سفن كانت خصصة لحمل الحبل ،  
وتتسع الطريدة الواحدة لحمل أربعين فرساً<sup>(٣)</sup> . وكانت تقتح عادة من  
الخلف حتى يتيسر للخيّل أن تصعد إلى ظهرها أو تنزل منها إلى اليابسة .  
كذلك كانت تستخدم لحمل المقاتلة والمؤن والسلاح ، كما كانت تستخدم  
لانتقال الناس<sup>(٤)</sup> .

٥ - الشلنديات : ( جمع شلندي ثم خففت إلى صندل ) : وهي سفن  
كبيرة الحجم ، عظيمة الجرم ، شديدة الاتساع ، وكانت تستخدم لنقل  
المؤن والسلع ، وكان هذا النوع من السفن معروفاً عند البيزنطيين . ويتميز  
الشلندي بأنه مركب مسطح من أعلى ليتمكن الغزاة والمقاتلة من مقاتلة

(١) ديوان ابن حمديس ، ص ٢٧٦ - علي مصطفى المبرقي ، ابن حمديس الصقلي ، ساسة  
اقرأ ، عدد ٢٥٠ ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٨٥ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص ٢٣٩ - سعاد ماهر ، للبحرية في مصر الإسلامية ، القاهرة  
١٩٦٧ ، ص ٢٣٣ .

(٣) ابن عماني ، ص ٣٣٩ - الهادي الأصفهاني ، للفتح القسي ، ص ٣٤٠ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، خطوطه ، نسخة مصورة محفوظة بكتبة جامعة الاسكندرية  
برقم ٦٤ ص ٤٢٤ أ .

أعدائهم من ظهرها ، بينما 'يُحَدِّثُ الجَدافون تحتهم' (١) ، والشلنديات بهذا السطح تشبه المسطحات (١) ، وأعتقد أنها كانت تسمى في الأندلس بالأجفان الغزوية أو الغزوانية (٢) . ويقترن اسم الشلنديات مع الشواني والمسطحات في مصر الفاطمية (٣) ، وقد ذكر المقرئ أنها كانت تصنع في دار الصناعة بالروضة (٣) .

٦ - المسطحات : ( جمع مسطح ) : وهي مراكب ضخمة مسطحة كانت تحمل الأسلحة للأسطول ، وكانت تعرف في الأندلس بالمراكب الحاملة (٤) .

٧ - البطس : ( جمع بطسة ) : وهي مراكب كبيرة الحجم كانت تتكون من عدة طوابق ، وكانت تزود بعدد كبير من القلوع يصل أحيانا إلى أربعين قلعا (٥) ، وكانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة (٦) ، كما كانت تستخدم في نقل جموع كبيرة من المحاربين (٧) ، قد يصل عددهم إلى سبعمائة (٨) .

٨ - المركب المسمى بالفيطاني والمركب المسمى بالعجزي : هما مركبان عظيمَا الحجم ، صنعا بدار صناعة مصر ، كانا يحملان عددا كبيرا من الركاب وأموالاً طائلة (٩) .

وقد وصلت إلينا أسماء مراكب أخرى عرفت في المغرب ، في عصر

(١) ابن ماتي ، ص ٣٤٠ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٩٣ - الحلال الموشية ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ ، ص ٩٩ .

(٣) المقرئ ، الخطط ، ج ٣ ص ١٠٨ .

(٤) الادريسي ، زهرة المشتاق ، ص ١٧٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ص ٢٢٢ .

(٦) الفتح القسي ، ص ٣٤٠ .

(٧) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٧٣ - فتحي عجان ، ج ٢ ص ٣٧١ .

(٨) ابن شداد ، النواذر السلطانية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشَّيْبَال ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٩ حاشية ١ .

(٩) ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٢٣٣ .

الأغلبية ، وعرفها الفاطميون بحكم نشأة دولتهم في المغرب ، وبحكم انتقال تراث البحرية الأغلبية إليهم . ومن هذه المراكب النواشي<sup>(١١)</sup> ، والقناش<sup>(١٢)</sup> . كذلك وصلت إلينا أسماء مراكب كانت معروفة في مصر الأيوبية ، ومن المتقد أن لها تقاليد فاطمية : مثل الأعزازي<sup>(١٣)</sup> ، وهو مركب صغير لحمل الأزواد ، والمركوش<sup>(١٤)</sup> ، وهو مركب صغير لنقل مياه الشرب ، وكانت سمته لا تقل عن مائة إردب . وذكر ناصر خسرو أن أبعا في عصر المستنصر بالله كانت تصنع مراكب تسمى جودي<sup>(١٥)</sup> .

\* \* \*

أما المراكب التجارية فمنها الشواني ( جمع شونة ) ، وكانت تتخذ لحمل الفلال إذ تشتمل على أهراء ومخازن لحفظ الفلال وصهاريج لحفظ مياه الشرب<sup>(١٦)</sup> ، ومنها المراكب السفرية الخاصة بنقل الركاب والانتقال من بلد إلى آخر<sup>(١٧)</sup> .

أما السفن النيلية فأهمها العشاريات ( جمع عشاري ) التي كانت تعرف في العصر المملوكي بالحراقات ، وكانت تتخذ إما لنقل الفلال السلطانية والأحطاب ، أو لنزه الخلفاء وكبار القوم ، أو لركوب الخلفاء في أيام تخليق عمود القياس وفتح الخليج<sup>(١٨)</sup> ، وكان عدد عشاريات الخلفاء يزيد على الخمسين عشارياً . والعشاريات نوعان : اللطاف وهي المراكب الصغيرة ويقال لها

(١) الإدريسي ، ص ١١٢ .

(٢) المنذاري ، ص ٨١ .

(٣) ابن مماتي ، ص ٣٤٠ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) ناصر خسرو ، ص ١٨ .

(٦) عبد النعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٧) الإدريسي ، ص ١٩٣ - ابن مماتي ، ص ٢٤٧ .

(٨) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٧٧ .

أيضاً السلاويات<sup>(١)</sup> ، لأنها مكشوفة للسماء ، والخاص الكبار ، وكان عددها ست عشاريات هي : الذهبي ، والفضي ، والأحمر ، والأصفر ، واللازوردي ، والصقلي ، وكانت هذه العشاريات تكتسى بالستور النوبي الملونة وتعلق برؤوسها وأعناقها الألهة وقلائد الخرز<sup>(٢)</sup> . وكان لأم الخليفة المستنصر عشاري يعرف بالفضي يزدان رواقه بفضة تصل قيمتها إلى ١٣٠ ألف درهم<sup>(٣)</sup> ، وكان للخليفة ٣٦ عشارياً يرسم النزه البحرية . وكان العشاري الذي يركبه الخليفة يوم فتح الخليج يشتمل على بيت مثنى من عاج وأبنوس عرض كل جزء ثلاثة أذرع وطوله قامه رجل ، وبأعلاه قبة من خشب محكم الصناعة ، وهو بقبته ملبس بصفائح الفضة والذهب<sup>(٤)</sup> . وكانت للأفضل شاهنشاه عشاريات موكبية يركبها في انتقالاته عندما كان يمضي إلى الروضة بحري جزيرة الروضة<sup>(٥)</sup> . وكانت العشاريات الخلافة تعرف أيضاً بالدواميس .

ويذكر المقرئ أن كانت تصنع بدار صناعة الجزيرة في زمن ابن طولون العلبيات والحمام والعشارية والسنايك وقوارب الخدمة<sup>(٦)</sup> ، وكلها مراكب نيلية . ويضيف ابن سعيد إليها نوعاً يقال له الطيارة<sup>(٧)</sup> .

\* \* \*

أما النوع الثالث من السفن ، فهو الذي كان ينتقل في البحر الأحمر بسواحل بحر جدة ما بين أيلة وعيذاب أو ما بين عيذاب والبحر الحبيشي ، وهي سفن كانت تسمى الجلاب أو الجلبات ( جمع جلبه ) . ويذكر ابن جبير

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٦٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٧ .

(٥) اتماط الحنفا ، ص ١٢١ ب .

(٦) المقرئ ، ج ٣ ص ٨٩ .

(٧) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٨ .



أنه لم يكن « يستعمل فيها مسار البتة » ، إنما هي غيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراً يخطون بها المراكب ويخلونها بدرس من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ، ... ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعارضة في هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المساري . وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبار المذكور ، ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر الهل ،<sup>(١)</sup> . ويعمل المسعودي عدم استخدام المراكب المسارية في البحر الأحمر بأن ماء البحر الحلي لا يثبت فيه الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر وتضعف ، فاتخذت السفن المذكورة من ألواح الساج المثقبة والمخنطة بليف النارجيل بدلاً من المسارية ، ثم طليت بالشعوم والنورة<sup>(٢)</sup> . والظاهر أن السبب في اتخاذ هذا النوع من المراكب في البحر الأحمر يرجع إلى كثرة الشعاب المرجانية ، ولا يخفى أن الجلاب نوع من السفن شديد المرونة أمام مصادمات الشعاب المرجانية ، فضلاً عن استطاعتها الإرساء على الشاطئ فوق الزيت الكثيف وتحمل صدمات الأمواج على السواحل الرملية<sup>(٣)</sup> . هذا بالإضافة إلى ندرة الحديد وغلو ثمنه<sup>(٤)</sup> ، ورسوخ تقاليد وعادات البحريين في هذا البحر .

(١) ابن جبير ، ص ٧٠ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، ج ١ ص ١٥٣ .

(٣) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٦٥ - سعاد ماهر ، ص ١٩٦ .

(٤) جورج فاضل حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة الدكتور يعقوب بكر ،

ص ٢٥٧ .

## الأسلحة والآلات القتال البحري والأزواد

كان البحريون المقاتلة يتسلحون بأنواع مختلفة من الأسلحة نذكر منها ما يلي:

**اللتوت والدبابيس والمستوفيات :** وهي عمد من الحديد ، لها رؤوس مستطيلة الشكل مضرة ، مصنوعة أيضاً من الحديد<sup>(١)</sup> ، وقد تكون مقابض هذه اللتوت من الخشب المحكم التدوير ، ولكن خرزتها تكون في هذه الحالة من الحديد ، وتلبس في المقبض ، وقد تضرس تدويره الخرزة أو تستن<sup>(٢)</sup> . أما الدبابيس فلا تختلف عن اللتوت إلا في رؤوسها ، فهي مدورة مضرة<sup>(٣)</sup> . وأما المستوفيات فهي عمد من الحديد مربعة الشكل طويلة يبلغ طول العمود منها ذراعين ، وله مقبض مستدير<sup>(٤)</sup> ، وتستخدم هذه الأسلحة في تهشيم الخوذات المعدنية .

**السيوف والرماح والفؤوس :** السيوف أنواع ، منها الصاصم<sup>(٥)</sup> المصقولة ، ومنها السيوف المحدبة ؛ وكانت السيوف من أهم أسلحة البحريين . أما الرماح فأشكالها كثيرة ، منها الرماح القنا ، ومنها القنطاريات المدهونة المذهبة ، وهي الرماح القصيرة ، ومنها المزاريق والفريحيات والضواري

(١) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ٣١٧ - عبد النعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في المصور الوسطى ، ص ٦٥ .

(٢) مرضي بن علي الطرطوسي تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوار ، تحقيق كلود كاهن ، مجلة الدراسات الشرقية ، للبعث الفرنسي بدمشق ، ج ١٢ سنة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ ، بيروت ، ١٩٤٨ ص ١١٧ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٣١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣١٧ .

(٥) الصاصم جمع صصم وصصامة وهو السيف القاطع ، أو السيف الصارم الذي لا ينثني ( ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٢ طبعة بيروت ١٩٥٦ ، ص ٣٤٧ -

Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, t. I, p. 844).

والصبريرات<sup>(١)</sup> ، وهي الرماح الطويلة المخصصة للطنن . أما الفؤوس فسلاح له رأس نصف مستدير مبسط حاد النصل ، ومقبضه خشبي مستدير وأحياناً يتخذ من الحديد ، وتسمى الفأس أحياناً بلطة أو طبر<sup>(٢)</sup> .

الأقواس والنشاب : الأقواس آلات لقتل النشاب ذات النصول مثلثة الأركان ، وهي أنواع : منها قسي الزيار المصنوعة من خشب السنديان ، وهي أشد القسي رميةً وأعظمها جرماً وأنكأها سهماً ، وتنصب عادة على الأبراج وما شابهها ، ومنها القوس العقار والجرخ ، وهما دون الزيار في القوة ، ويجذب وترهما بلولب ، ومنها قسي الرجل وقوتو بدفع الرجلين لها ، وتصنع عادة من خشب التخش<sup>(٣)</sup> ، ومنها قسي لرمي قوارير النفط ، وتصنع من خشب الصنوبر<sup>(٤)</sup> .

الكلايب والباسليقات : الكلايب نوع من الخطاطيف الحديدية كان يستخدمها البحريون الرمي على مراكب العدو لجذبها وشدها ، والعبور إليها عن طريق ألواح خشبية أو سلاليم من الجبال لقناتلة ملاحيا<sup>(٥)</sup> . وقد استعمل أهل صور الكلايب عندما حاصروهم الأفرنج في سنة ٥٥٥هـ ، وتفصيل ذلك أنه لما اشتد حصار الفرنج لصور والصاقهم الكباش والأبراج على أسوارها ، صنع رجل من مقدمي البحرية عارف بالصنعة من أهل طرابلس ، كلايب من الحديد لإمساك الكباش الصليبية من جانب رؤوسها ، فكان يربط هذه الكلايب بجبال ويقذفها على الكباش ثم يجذبها ، فتسيل الأبراج وتنكسر<sup>(٦)</sup> . أما الباسليقات فسلال تنتهي عند رؤوسها برمانة من الحديد كانت تستخدم في القتال على سطح السفن<sup>(٧)</sup> .

(١) مرضي بن علي ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) عبد الرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ، القاهرة ١٩٥١ ص ٣٩ .

(٣) مرضي بن علي ، ص ١١٠ - القريري ، ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١١١ .

(٥) قنحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٦) ابن القلانسي ، ص ١٧٩ .

(٧) قنحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٤ .

ومن آلات القتال البحري مما تزود به السفن الحربية :

التوابيت : ( جمع تابوت ) : وهي صناديق مفتحة من أعلاها تنصب بأعلى الصواري ، يصعد إليها البحريون ومعهم قطع من الحجارة يضمونها في بخلة تعلق إلى جانب التابوت ، ويرمون بها الأعداء ، ثم يحتشون في التوابيت . وقد يحملون معهم قوارير من النفط ، أو جرار النورة يرمون بها في مراكب العدو ، فتعمي الرجال بغيرها <sup>(١)</sup> .

النفط البحري : وهو نطف خاص بإحراق المراكب ، ويجهز من قطران وكبريت ومواد أخرى مختلطة شديدة الالتهاب ، ولا تنطفئ النيران التي تنشأ من قذف هذا النفط بلامسة الماء <sup>(٢)</sup> ، ويطلق النفط من آلة من النحاس أو الحديد تعرف بالنفاطة . وكثيراً ما يقذف النفاطون النفط بالسهم والنشاب وأحياناً بالمنجنيق <sup>(٣)</sup> .

المجانيق والعرادات : هي آلات لقذف الأحجار الضخمة المضرة التي توضع على الكفة ثم تقذف إلى الأهداف بواسطة الشد على لولب . وقد تستخدم المجانيق والعرادات لقذف النفط أو جرار الزيت المغلي أو القلونية <sup>(٤)</sup> . والعرادة آلة تشبه المنجنيق ولكنها دونه في الحجم ، وتستخدم كذلك لرمي الحجارة والسهم وقدور النفط <sup>(٥)</sup> .

ويتسلح البحريون عند نشوب القتال في البحر بالدروع المسبلة والزرديات ذات المغافر الملثمة <sup>(٦)</sup> ، والكزاعندات المدفونة بالزرد المغشاة بالديباج ،

(١) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٢) مرضي بن علي ، ص ١٢٣ .

ريمبر البيت الآتي لابن حديد الصقلي عن هذا المعنى :

وما للماء بالإطفاء حكم عليه لدى الوقود ولا اقتدار

(ديوان ابن حديد ، ص ٢٣٩) .

(٣) مرضي بن علي ، ص ١٢٢ - فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٤) ابن الفلاني ، ص ١٨٠ .

(٥) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٦) الفريزي ، ج ٢ ص ٣٢٩ .

والجواشن المبطنة المذهبة<sup>(١)</sup>. ويتقي البحريون أنفسهم من سهام الأعداء وسيوفهم بالتراس الواقية ، وهي أنواع من حيث الشكل ، فمنها المدور والواسع التدوير والبيضي ، وكذلك تختلف التراس من حيث مادة الصنع فمنها المصنوع من الحديد أو الخشب المكسو بالجلود المقطاة بالدهن والأصباغ . وقد تكون التراس من جلود اللط . وتسمى التراس المدورة الطوارق ويصل ارتفاعها إلى ارتفاع قامة الرجل ، وهي مستديرة الشكل من أعلى ومدببة من أسفل ، وقد تكون هذه التراس مبنورة من أدنى وتسمى في هذه الحالة بالجنويات<sup>(٢)</sup> .

وفي أيام السلم يلبس النواتية الشقق الاسكندراني والكلوات والناديل السوسي والقوط الحرير<sup>(٣)</sup> .

ومن الشائع أن يشحن الأسطول قبل إقلاعه بكل ما يحتاج إليه البحريون والغزاة من الميرة والأزواد ، فمن الأهرام السلطانية كانت تخرج جرابات رجال الأسطول وما يعمل من القمح برسم الكمك لزيد الأسطول<sup>(٤)</sup> . كذلك كانت توسق المراكب بأنواع الفواكه والخضروات والبقول لغذاء البحريين ، كالرمان والسفرجل والبطيخ السندي والكثيري والتين والجوز والمحصى والباقلا والثوم والبصل والجبن والأسماك وما إلى ذلك<sup>(٥)</sup> . كذلك كانت تخصص حمل المياه اللازمة للشرب مراكب صغيرة يقال لها المركوش سبق أن تحدثنا عنها . وكثيراً ما كان يصحب البحريين أطباء وقراء ومؤذنون لخدمة الغزاة في البحر كما حدث عندما خرجت أساطيل مصر الثانية في سنة ٥١٧ هـ لنصرة طفتكين صاحب دمشق<sup>(٦)</sup> .

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) مرضي بن علي ، ص ١١٤ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٥) ابن جبير ، ص ٣١٤ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

## مظاهر الاحتفال بخروج الأسطول المصري للغزو

### (أ) الاحتفال بتوزيع النفقة على الغزاة

كان من أهم الاحتفالات الفاطمية الاحتفال بخروج الأساطيل للغزو إلى بلاد الساحل ، وكان هذا الاحتفال يتم على مرحلتين : الأولى توزيع النفقة على الغزاة ، والثانية المواعدة أو توديع الغزاة . ففي المرحلة الأولى كان يطلب إلى النقباء استدعاء الغزاة الذين يمشون بمصر والقاهرة أو يعيشون بخارجها ، للتجمع ، فإذا ما اجتمعوا أبلغ النقباء مقدم الأسطول ، فيبلغ ذلك بدوره إلى الوزير ، فيقوم الوزير بمطالبة الخليفة بأمر اجتماعهم ، وعندئذ يقرر يوماً للنفقة على الغزاة . ويجلس الخليفة في ذلك اليوم ، ويجلس الوزير في موضعه المخصص له ، ويأتي صاحباً ديوان الجيش : وهما المستوفي أي أمير الجيش ، وكاتب الجيش ، فيجلس الأول من داخل عتبة المجلس ، بينما يجلس كاتب الجيش بالقرب منه من وراء العتبة في قاعة الدار على حصر مفروشة ، ثم يحضر الوزانون بيت المال ، وتجهز أنطاخ لصب الدراهم عليها ، ثم يدخل الغزاة مائة مائة ، ويصطفون بين يدي الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة ، ويتولى مستوفي الجيش استدعاءهم من أوراق سجلت فيها أسماءهم واحداً واحداً ، فإذا نودي على الواحد منهم ، عبر من الجانب الذي كان واقفاً فيه إلى الجانب الآخر الخالي ، وعندما يستكمل المستوفي النداء على عشرة منهم ، يزن الوزانون لهم النفقة ، وهي خمسة دنانير لكل واحد ، قيمة كل دينار ٣٦ درهماً ، فيتسلمها النقيب ، وتكتب باسمه وتوقيعه ، فإذا ما تم توزيع النفقة على هذا النحو ، يركب الوزير من بين يدي الخليفة ، وينفض ذلك الجميع ، ثم تحمل إلى الوزير من القصر مائدة يقال لها « غداء الوزير » ، وتكرر النفقة بمثل هذا الاحتفال عدة أيام متوالية أو متفرقة <sup>(١)</sup> .

(١) القريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ - ج ٣ ص ١٠٩ .

## (ب) المواجهة

بعد أن تتكامل النفقة على الغزاة ، وتجهز المراكب ، وتتهيأ للإقلاع ، يركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة ، حيث يجلس الخليفة بمنظرة المقس الواقعة لصق جامع المقس على ساحل النيل من الجهة البحرية ، وهي منظرة أقيمت خصيصاً لنزول الخليفة عند تجهيز الأسطول لغزو الفرنج<sup>(١)</sup> ، برسم وداع الغزاة أو لقاءهم عند عودتهم مظفرين من الغزو<sup>(٢)</sup> . وعندما يجلس الخليفة في مجلسه يقبل القواد بالمراكب من صناعة مصر إلى ساحل المقس « للحركات في البحر بين يديه » وهي مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيها من المتجنقات ، فيرمي بها<sup>(٣)</sup> ، وتنحدر المراكب وتقلع ، وتقلع سائر ما تقعله عند لقاء العدو ، ثم يحضر المقدم والرئيس إلى بين يدي الخليفة ، فيودعها ، ويدعو للجاعة بالنصرة والسلامة ، ويعطي للمقدم مائة دينار ، وللرئيس عشرين ديناراً ، وينحدر الأسطول إلى دمياط ، ومن هناك يخرج إلى بحر الملح ، فيكون له ببلاد العدو صيت عظيم ومهابة قوية<sup>(٤)</sup> .

وجرت العادة في العصر الفاطمي أنه إذا غنم الأسطول مركباً من مراكب العدو بما فيه ، لا يتعرض الخليفة إلى شيء منه سوى الأمري والسلاح ، فإنها تؤول إليه ، وما عدا ذلك من المال والثياب وغيرها يُصبح غنيمة لغزاة الأسطول ، لا يشاركهم فيها أحد . ويذكر المقرئ أنه اتفق مرة أن تُقدم على الأسطول أمير يقال له سيف الملك الجمل ، فظفر في غزوته ببطسة عظيمة كانت تحمل ألفاً وخمسة مائة من الرجال والنساء ، قتل البحريون المصريون منهم نحواً من مائة وعشرين رجلاً أثناء

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٣ ص ١٠٩ .

(٣) كان الرؤساء يلعبون بالسفن في النيل تجاه الجامع ومسا وراء الخليج من جهته الغربية ، فيقومون بتناورات أشبه شيء بالقتال الذي يدور بينهم وبين أعدائهم .

(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٧٣ ، ج ٣ ص ١١٠ .

القتال ، فقدم هذا الأمير إلى القاهرة وبصحبه الأسرى ، ففرح الخليفة بقبضه ، واحتفل بذلك احتفالاً عظيماً ، ومن المعروف أن الخليفة كان يتوجه يوم عودة الغزاة ومعهم الغنائم والأسرى إلى منظره القس ، فيجلس هناك للقاء الأسطول ، ثم يعود إلى القصر بعد أن تنتهي مراسم اللقاء ، ويجلس في إحدى مناظر القصر لمشاهدة موكب الأسرى عند مرورهم بأدنى المنظر من جانب البر ، وكان الأسرى يركبون على ظهور الجمال كل اثنين على جمل ظهراً لظهر ، وجرت العادة أن ينزل الأسرى في المناخ المجاور للقصر ، فيضاف الرجال منهم إلى من فيه من الأسرى ، أما النساء فكانوا يمضون بهن إلى القصر بعد أن يمنح الوزير طائفة منهن ، وتوزع الباقيات على الجهات والأقارب فيستخدمونهن ويرويهن حتى يُتقن الصنائع . أما صفار الأسرى من الصبية فيدفعون بهم إلى الأستاذين ، فيرويهن ويعلمونهن الكتابة والرماية ويعرفون لذلك بالترابي<sup>(١)</sup> ، أو صبيان الحجر<sup>(٢)</sup> ، لأنهم كانوا يقيمون في رعاية الأستاذين في حجرة تقع داخل باب النصر في معزل عن القصر ، وعندما يكبر هؤلاء الصبيان يصبحون من صبيان خاص الخليفة .

وكان من يُشكّون في نواياه من الأسرى يوقعون به ، في حين كانوا يضربون عنق من لا يلتفمون به من شيوخ الأسرى في موضع يقال له « بئر المنامة » في خربة قريبة من مصر القسطنطينية ، ولم يؤثر قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت أسيراً من الفرنج بمال ولا بأسير مثله<sup>(٣)</sup> .

وعلى هذا النحو من رسوم الاحتفالات بخروج الأساطيل للغزو يذكر القريزي أنه عندما وردت كتب طغتكين صاحب دمشق وآقسنقر صاحب حلب إلى الخليفة الأمر بأحكام الله في سنة ٥١٧ هـ ، تحثه على غزو الفرنج

(١) القريزي ، ج ٢ ص ٣٧٣ ، ج ٣ ص ١١٠ .

(٢) القلقشندي ، ج ٣ ص ٤٧٧ .

(٣) القريزي ، ج ٢ ص ٣٧٣ ، ج ٣ ص ١١٠ .



بالعساكر المنصورة والأساطيل المظفرة ، ركب الخليفة الأمر إلى الدار  
 المأمونية وأتم النفقة على الفرسان ، ثم توجه « إلى الجامع بالقس وجلس  
 بالمنظرة في أعلاه واستدعى مقدم الأسطول الثاني<sup>(١)</sup> ، وخلع عليه<sup>(٢)</sup> » ،  
 ثم أمره بأن ينزل الصناعتين بصر والجزيرة ، ويُمسّد أربعين شينياً ،  
 ويستكمل الإنفاق على عددها ، ويتوجه بها صحبة المسكر ، « وأنفق في  
 عشرين من الأمراء للتوجه صحبته ، فكلت النفقة في الفارس والراجل ،  
 وفي الأمراء السائرين ، وفي الأطباء ، والمؤذنين ، والقراء ، ونسب من  
 الحجاب عدة ، وجعل لكل منهم خُدّمة ، فمنهم من يتولى خزانة الخيام ،  
 وسيّر معه من حاصل الخزائن برسم ضعفاء المسكر ومن لا يقدر على  
 خيمة خيم ، ومنهم حاجب على خزائن السلاح<sup>(٣)</sup> . ثم ركب الخليفة  
 الأمر بأحكام الله إلى باب الفتوح ، واستعرض وهو جالس بالمنظرة المدة  
 له خارج هذا الباب المسكر المتوجه إلى الشام ، واستقدم قائد الجيش  
 وخلع عليه بدلة جليلة منمّية ، وطوقه بطوق ذهب ، وقلّده ومنطقه  
 ببثل ذلك ، ثم ركب الخليفة إلى الجامع بالقس ، وجلس بالمنظرة ، واستدعى  
 مقدم الأسطول ، وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال  
 والعدد والآلات والأسلحة<sup>(٤)</sup> .

(١) ذكر القريري في موضع آخر من كتابه المواعظ أن السبب في إحضار مقدم الأساطيل الثانية  
 أن الأساطيل الرئيسية كانت قد توجهت للفزو ( القريري ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٦ ) .

(٢) القريري ، ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٣) القريري ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٧٣ ، ٣٧٦ .

## اشتراك العشاريات في رسم الإجمال بتخليق عمود المقياس وفتح الخليج

حرص الفاطميون منذ أن ثبتت أقدامهم في مصر على الاحتفال بوفاء النيل على نحو يتفق وأهميته بالنسبة لحياة البلاد الاقتصادية ، وقد ابتدعوا في ذلك رسوماً جديدة لم تكن متبعة في مصر من قبل ، فقبل أن يصل ارتفاع منسوب مياه النيل في زمن الفيضان إلى ستة عشر ذراعاً بإصبع أو إصبعين ، كان يؤمر قراء الحضرة والمتصدرون بمجامع القاهرة ومصر الفسطاط بأن يبيتوا في جامع المقياس في تلك الليلة التي يستوفي فيها النيل ستة عشر ذراعاً ، لحتم القرآن الكريم ، وهناك يمد لهم السباط بالأطعمة الفاخرة ، وتوقد لهم الشموع حتى الصباح . وكان يُعهد بمقياس الروضة<sup>(١)</sup> ،

(١) أقيم مقياس النيل الذي يعول عليه في معرفة ارتفاع منسوب مياه النيل زمن الفيضان ، في الطرف القبلي من جزيرة الروضة ، ويعرف هذا المقياس بالمقياس الهاشمي ، والمقياس الجديد ، لأن الخليفة المتوكل على الله هو الذي أمر بإنشائه في سنة ٢٤٧ هـ على يدي أحمد محمد الحاسب ، فتم إنشاؤه بالقرب من الموضع الذي كانت يشغله المقياس القديم الذي بناه أسامة بن زرع التتوخي بأمر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في سنة ٩٧ هـ . وكان النصاري يختصون بهمة قياس منسوب مياه النيل ، فعزهم المتوكل عن هذه المهمة ، ورتب فيها أبا الرداد عبد الله ابن عبد السلام بن أبي الرداد المؤدب ، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج يومئذ سبعة دنانير في كل شهر . ثم تولى الأمير أحمد بن طولون إصلاحه في سنة ٢٥٩ هـ ( الكندي ، ص ٢٠٣ - القلقشندي ، ج ٣ ص ٢٩٤ وما يليها - المغربي ، الخطط ، ج ٣ ص ٩٦ ) . والمقياس عمود من الرخام الأبيض مشتمل الشكل مدرج إلى ٢٢ ذراعاً قسم كل ذراع من الاتني عشر ذراع السفلي إلى ٢٨ إصباعاً في حين قسم كل من الأذرع الباقية إلى ٢٤ إصباعاً ( القلقشندي ، ج ٣ ص ٢٩٥ - المغربي ، ج ١ ص ١٠٥ ) ، ونصب هذا العمود في وسط بئر أو بركة مربعة طول كل جانب منها ٦ أمتار ، بطنت جدرانها من الداخل بالحجارة والرخام وزودت بتجويفات غير عميقة تتوجها عقود مدببة . وكان هذا العمود مثبتاً في عارضة من الخشب منقوشة بالذهب واللازورد ، كتبت عليها آية الكرسي . وكانت مياه =

إلى شخص يراقب ارتفاع الماء عنده في زمن الفيضان من أسرة ابن أبي الرداد وهي أسرة توارث أفرادها مهمة مراقبة المقياس ورعايته وتنظيفه منذ أن تولى هذا العمل عميدها الفقيه عبدالله بن عبد السلام بن أبي الرداد في سنة ٢٤٧ هـ. وجرت العادة قبل العصر الفاطمي أن يقاس النيل في بداية الفيضان وقت العصر من كل يوم ، ثم ينادي صاحب المقياس بزيادة عدد الأصابع من اللغ دون أن يصرح بذرع ، إلا أنه كان يكتب في كل يوم رقاعاً لأعيان الدولة يذكر فيها زيادة النيل في ذلك اليوم من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويذكر بعد ذلك ما كانت عليه الزيادة في ذلك الوقت من العام السابق ، ولا يطلع على ذلك عوام الناس ، فإذا وفي ١٦ ذراعاً يسبل صاحب المقياس الستر الأسود الخلفي على شباك المقياس ، فيتبأثر الناس على الفور بالوفاء <sup>(١)</sup> . وقد منع الخليفة المعز في سنة ٣٦٢ هـ النداء بزيادة النيل وأمر بالآلا يكتب بذلك إلا إليه وإلى القائد جوهر ، وأصبح للتكتم في الزيادة عادة التزامها الخلفاء الفاطميون في مصر ، وعندما يستوفي النيل الزيادة يباح النداء ويكسر الخليج <sup>(٢)</sup> .

وعندما يثبت الوفاء ، يُعلم الخليفة ، فيركب في احتفال مهيب ، ويلبس التاج ، ويشق القاهرة في موكبه الحافل إلى باب زويلة ، ويسلك الموكب الشارع المؤدي إلى الجامع الطولوني والجسر الأعظم إلى أن يصل

= النيل تصل إلى البئر من ثلاث فتحات في الجدار الشرقي قنطرة العمود ، وعلى هذا النحو يستطيع صاحب المقياس أو القائم بشأه أن يعرف ارتفاع منسوب النيل ( محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن المصري الاسلامي ، القاهرة ١٩٥٢ ص ١٩ - حسن عبد الوهاب ، الآثار الإسلامية بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٣ ، ٤ ) ويذكر القرطبي أن الآلا بإحكام الله بن المقياس الرضاة حطير دائر في سنة ٤١٥ هـ بالحجر والجص وأشرف على البناء أبو طالب محمد بن المعجمي ، متولي دار الصناعة ( تماظ الحنفا ص ٧٤ ب ) والمقصود بالحطير الدائر البناء الخارجي للمقياس .

(١) القرطبي ، ج ٣ ص ٩٦ - محمود رزق سليم ، النيل في عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٥٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٨ .

إلى مصر الفسطاط ، ويدخل من دار الصناعة ، ويمر بدلهيز ممتد ، قد اصطفت عليه مصاطب مفروشة بالحصر العبداني يؤزر بها ، ويخرج من بابها ويخترق موكبه مصر إلى أن يصل بعد ذلك إلى المنطرة المعروفة برواق الملك ، وكانت تقع قريباً من باب القنطرة ، فيدخلها من الباب المواجه له ، ويضي الوزير معه ماشياً إلى المكان المعد له ، ويركب الخليفة العشاري الخاص<sup>(١)</sup> ويصحبته عدد من الأستاذين المحتكين يصل من ثلاثة إلى أربعة ، بالإضافة إلى الوزير واثني من خاصته . وكان نواتية العشاري يلبسون الشقق الاسكندرانية والكلوبات بدناً يلبس رؤساء العشاري الشقق الدمياطي والمتاديل السومسي والفوط الحرير الأحمر . ثم يسير العشاري في النيل من باب المنطرة إلى باب المقياس العالي على الدرج ، فينزل الخليفة من العشاري ويدخل إلى فسقية المقياس ، ويقف الوزير والأستاذون المحتكون بين يديه ، فيصلي كل من الخليفة والوزير ركعتين ، ثم يؤتى بالزعفران والمسك ، فيديفه الخليفة بألة معه في يده بداخل إمام ، ويتناولوه صاحب بيت المال ، فيناولوه لصاحب المقياس ، فيلقي هذا نفسه في الفسقية بليابه ، ويتعلق في عمود المقياس برجليه ويده اليسرى ، ويخلقه بيده اليمنى أي يطبئه بالمسك والزعفران . وفي أثناء عملية التخليق يقوم قراء الحضرة بقراءة القرآن . ثم يخرج الخليفة على أثر ذلك فيركب العشاري ، ويقفل عائداً إلى دار الملك الواقعة بالقرب من باب القنطرة ، ومنها يركب في موكب حافل فيعود من هناك إلى القاهرة . ويكون في النيل في ذلك اليوم نحو ألف مركب قرقورة مشحونة بالناس للتفرج وإظهار الفرح<sup>(٢)</sup> . وفي اليوم التالي يأتي صاحب المقياس إلى الأيوان الكبير بالقصر ، فيخلع عليه الخليفة خلعة مذهبة بطيلسان مقوّر ، ويدفع إليه خمسة أكياس في كل منها خمسمائة درهم ، فيلبس الخلعة ، ويخرج من باب العيد أحد أبواب القصر ، ويسير في موكب تصدح أمامه الأوقاق ، وتضرب من ورائه الطبول ، فيشق بين

(١) الفلقشندي ، ج ٣ ص ٥١٣ - القرزي ، ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥١٣ - القرزي ، ج ٢ ص ٣٦٦ .

التصرين ، وكلما مر على باب من أبواب القصر يدخل منه الخليفة أو يخرج ،  
نزل وقبّله ، ثم يخرج من باب زويلة في الشارع الأعظم حتى يصل إلى  
مصر ، فيخترق المدينة ماراً بالجامع العتيق ، ويتجاوزهُ إلى شاطئ النيل ،  
ثم يجوز إلى القياس بخلعته ، وما معه من الأكياس ، فيأخذ من الأكياس  
قدراً لنفسه ، ويوزع باقي ذلك على الأقارب وغيرهم .

وفي اليوم الثالث والرابع من التخليق ، وبعد أن يأخذ النيل في  
الزيادة ، يخرج الخليفة في موكب حافل ، وقد لبس ثوباً من حرير مرقوم  
بالذهب يقال له بدنة<sup>(١)</sup> ، ويسير حوله الأستاذون المهنكون ، ويسلك  
الموكب نفس الطريق التي كان قد سلكها يوم تخليق عمود القياس إلى أن  
يصل إلى ساحل الخليج ، فيسير حتى يقارب الخليفة الخيمة المنصوبة له  
على حافة الخليج الغربي عند المنطرة المعروفة بمنطرة السكرة<sup>(٢)</sup> . وكانت  
هذه الخيمة من الديباج الرومي الموشى بالذهب ومكّلة بالجواهر<sup>(٣)</sup> ، فيتجل  
الخليفة على باب الخيمة ، ويجلس على الحشية الموضوعة له فوق سرير الملك ،  
ويحيط به الأستاذون المهنكون والأمراء المطوقون بعدهم ، ويجلس الوزير  
على كرسي مخصوص له ، ويقف أرباب الرتب صفين من سرير الملك إلى  
باب الخيمة ، ويبدأ الحفل بتلاوة آيات من القرآن الكريم تستغرق ساعة  
من الزمان ، ثم يدخل الشعراء وينشدون ، فإذا انقضى هذا المجلس ركب  
الخليفة إلى المنطرة بالسكرة ، وهي منطرة بناها العزيز بالله ، فيجلس  
الخليفة في الموضع المعد له ، ويجلس الوزير في موضع منها ، ثم يشير

(١) البدنة ثوب لا يدخل في لحته وسداه من الغزل سوى أوقيتين ، وينسج بقيه بالذهب ، تبلغ  
قيمته ألف دينار ، واختصت بمناحه مدينة تليس ( القريري ، ج ١ ص ٣١١ ) .

(٢) كان عمود الخيمة يلف بدباج أحمر أو أبيض أو أصفر من أعلاه إلى أسفله ، وينصب فيه  
سرير الملك مستنداً إليه وينشئ بقرقوبي ، ويوضع عليه حشية من الفرس للخليفة ( راجع  
التفاصيل في : ناصر خسرو ، سفرنامه ص ٥١ - ٥٥ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣  
ص ٥١٤ وما يليها ) .

(٣) ناصر خسرو ، ص ٥٢ .

الخليفة إشارة البدء في فتح السد<sup>(١)</sup> ، فيفتح بالمعاول ، وتضرب الطبول والأبواق من ضفتي الخليج . فإذا ما اعتدل الماء في الخليج ، دخلت فيه العشاريات اللطاف ، يليها العشاريات الكبار وعددها سبعة : منها الذهبي المخصص للخليفة ، وهو الذي يركبه في يوم تخليق عمود المقياس ، والفضي ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، واللازوردي ، والصقلي ، وهو عشاري أنشأه نجار من صقلية فنسب إليه ، وتسير هذه العشاريات ، وقد ازدانت بالسور الديبقي الملونة ، وعلقت في أعناقها الأهلة وقلائد العنبر والحرز الأزرق ، في الخليج حتى ترسو على بر المنطرة التي يجلس فيها الخليفة . وبعد صلاة العصر يركب الخليفة وقد غير ثيابه التي كان يلبسها في الصباح ، ويسير في موكبه في البر الغربي من الخليج مخترقاً البساتين ، حتى يصل إلى باب القنطرة ، فيعطف على يمينه ، ويمضي إلى القصر<sup>(٢)</sup> . واعتاد الخلفاء الفاطميون أن يبنوا الأموال الطائلة على النواتية الذين يحدفون بالخليفة في العشاري في يوم الاحتفال بفتح الخليج ، مثل ذلك الحاكم بأمر الله أنعم في رمضان سنة ٤١٥ هـ بإقطاعات وأموال على النواتية<sup>(٣)</sup> .

والمعز لدين الله أول من احتفل بوفاء النيل من خلفاء الدولة الفاطمية ، ففي السنة التي قدم فيها إلى مصر ركب لكسر خليج القنطرة ، فكسر بين يديه ، ثم سار على شاطئ النيل في موكب عظيم ، وخلفه وجوه أهل الدولة ، ومر على سطح الجرف ، وعطف على بركة الحبش ، ثم على الصحراء ، وطاق بالحنديق الذي حفره جوهر<sup>(٤)</sup> .

(١) هو سد من التراب كان يقام عند فم الخليج قبل الاحتفال بكسره في كل سنة .

(٢) الفلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥١٥ ، ٥١٦ - المقرئ ج ٢ ص ٣٧٠ -

أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٩٩ - ١٠٠ ، عبد الرحمن عبد التواب ، منشآت المائنة عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١١٤ .

(٣) المقرئ ، اتماظ الحنفا ، ص ٦٨ ب .

(٤) المقرئ ، اتماظ الحنفا ، ج ١ ص ١٣٩ - الخطط ، ج ٢ ص ٣٥٧ .

## الفصل الخامس البحرية التجارية في العصر الفاطمي

(١)

### طرق التجارة البحرية

#### (أ) الطريق البحري

خضعت الدولة الفاطمية في مصر التجارة البحرية مع أقطار البحرين المتوسط والأحمر والتجارة الهندية بجانب كبير من عنايتها ، وكان لذلك أعظم الأثر في التقدم الاقتصادي والازدهار الحضاري اللذين أحرزتهما مصر في هذا العصر ، وهو حقيقة تشهد بها ما كانت تحتويه خزائن الجوهر والطيب والطرائف والكسوات والفرش والأمتعة والسلاح والتوابل والأدم وغيرها من خزائن الدولة الفاطمية مما نوه به المقرئ في خطه<sup>(١)</sup> ، والرحالة الفارسي ناصر خسرو في رحلته<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أن طرق الإتصال البحري بين مصر والبلاد التي تتعامل معها كان يتم عن طريق خطوط ملاحية تربط مصر بالشام والقسطنطينية وجزيرتي قبرص وإقريطش من جهة ، أو تربطها ببلاد المغرب والأندلس وجزيرة صقلية من جهة ثانية ، أو بالحجاز واليمن عبر البحر الأحمر من جهة ثالثة . وكانت السفن التجارية تبحر من ثغور تنيس ودمياط والاسكندرية

(١) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٥٢ - ٢٧٦ .

(٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٣٧ - ٦٤ ، لكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧

إلى عسقلان وسواحل الشام ، أو تقطع من الاسكندرية وطرابلس الشام <sup>(١)</sup> ، إلى صقلية والمغرب والأندلس . ويبدو أن مدينة الاسكندرية كانت أكثر اتصالاً في البحر بموانئ المغرب والأندلس من غيرها من ثغور مصر الشمالية ، بحكم موقعها في الشمال الغربي من دلتا مصر ، وهو موقع يجعلها أقرب ثغور مصر إلى بلاد المغرب الإسلامي ، ويؤكد ذلك ما ذكره ناصر خسرو إذ يقول : « إن بحر الاسكندرية كان يمتد حتى القيروان » <sup>(٢)</sup> . وكانت السفن القادمة من المغرب تسير بمحذاء الساحل المغربي والليبي ، وترسو بثغور تونس وبرقة إلى أن تصل إلى الاسكندرية ، ثم تبحر منها إلى أنطاكية مارّة بسواحل مصر كدمياط وتّيس ، ثم بسواحل الشام كعسقلان وقيسارية ويافا وحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية <sup>(٣)</sup> . أما ثغرا دمياط وتّيس فقد كانا يرتبطان فيما يظهر ارتباطاً وثيقاً بثغور الشام ، بحكم قربهما منها .

وكانت السلع القادمة من المغرب والأندلس وصقلية وأوروبا عبر البحر المتوسط ، تصل إلى ميناء الاسكندرية ، ومنه تنقل إلى القسطنطينية عبر خليج الاسكندرية المتفرع من فرع رشيد ، ثم في النيل الذي سهل الإتصال بين موانئ مصر الشمالية وبين مدن الصعيد حتى أسوان . أما بالنسبة لتجارة التوابل ، فقد كانت تسلك طريقين : طريقاً برية ، وطريقاً بحرية . أما الطريق البرية فكانت تمتد ما بين البصرة وسواحل الشام عبر بغداد ودمشق ، وأما الطريق البحرية فكانت تمتد ما بين أيلة والاسكندرية عبر القسطنطينية . غير أن تجارة التوابل لم تلبث أن تحولت إلى الطريق البحرية عبر البحر الأحمر ( عيذاب - الاسكندرية ) منذ أن قلب فتح بيزنطة لكل من إقريطش وقبرص وقيليقية الأوضاع البحرية في شرق البحر

(١) ذكر ناصر خسرو أن أمير طرابلس في العصر الفاطمي كانت له سفن تسافر منها إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة ( سفرنامه ، ص ١٣ ) .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ .

(٣) البكري ، ص ٨٥ ، ٨٦ .



المتوسط في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وازداد ذلك الانقلاب بعد أن تمركز الصليبيون على سواحل الشام في نهاية القرن الخامس الهجري ، بحيث أصبح الإتصال بين الموانئ المصرية وعسقلان آخر منفذ شامي طبع للفاطميين ( حتى سنة ٥٤٨ هـ ) محفوقاً بالأخطار ، بسبب تعرضه للقرصنة الصليبية<sup>(١)</sup> . وأصبحت الإسكندرية منذ ذلك الحين أهم قاعدة في مصر لتجارة التوابل بالنسبة لدول أوروبا<sup>(٢)</sup> ، وكانت السلع الواردة عليها سواء من المغرب الإسلامي أو من الأندلس أو من المدن الإيطالية ، تصل إلى مينائها ، ثم تحمل على ظهور الإبل ، وتخرج من الباب القبلي المعروف بباب السدرة أو البهار ، ثم تنقل بالسفن في خليج الاسكندرية حتى تصل إلى الفسطاط ، بينما كانت أحمال التوابل من البهار والفلفل والقرقة وغيرها تصل عبر البحر الأحمر إلى عيذاب ، ثم تنقل في القوافل البرية إلى قوص أو أسوان ، ومن هناك تحمل في النبل على سفن الشحن النيلية لينتهي بها المطاف في خزانة التوابل بالقاهرة ، وكان يصدر منها إلى الاسكندرية الكميات المراد تصديرها إلى أوروبا عن طريق خليج الاسكندرية ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي حملت الخليفة الحاكم بأمر الله على تطهير ترعة الخليج من الرواسب الطينية في سنة ٤٠٤ هـ ( ١٠١٣ م ) ، فقد ذكر القرطبي أن الخليفة الحاكم أطلق في هذه السنة لحفر الخليج مبلغاً قدره خمسة آلاف دينار ، أنفقها كلها في حفر الخليج كله<sup>(٣)</sup> . ولم يلبث هذا الخليج أن طمرته الرواسب الطينية من جديد في عهد المستنصر بالله ، ولم يعد صالحاً إلا في زمن الفيضان . وقد ظل هذا الخليج وسيلة الإتصال النهري بين الاسكندرية والقاهرة في العصور الإسلامية التالية إلا في الأوقات التي ينظم فيها هذا الخليج بالرمال أو الرواسب الطينية ، ولذلك

(١) راشد البراري ، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص ٢٤٢ .

(٢) حسين مؤنس ، أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر الأبيض المتوسط ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ٥١ .

(٣) القرطبي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠ .

حرص سلاطين الممالك البحرية بوجه خاص على تطهيره وإعادة حفره<sup>(١)</sup>.  
ويذكر ابن بطي أن المراكب كانت تسير بخليج الاسكندرية وتحمل إليها  
الشب والفلال والكتان واللبهار والسكر وغير ذلك من الأصناف ، كما تحمل  
من الاسكندرية الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب وذلك في شهر  
مسرى الموافق لشهر آب ( أغسطس ) حيث ترتفع مياه النيل ، ويمتلئ  
خليج الاسكندرية بالماء<sup>(٢)</sup>. ويشير ابن سعيد المغربي إلى أنه عندما وصل  
إلى الاسكندرية قادماً من إفريقية ، ركب في الخليج إلى النيل ، ثم سار  
في النيل حتى وصل إلى منية السرج التي تقع في شمال القاهرة<sup>(٣)</sup> ، كذلك  
يشير في موضع آخر إلى ما كان يرد في زمانه على الفسطاط من متاجر  
البحر الاسكندراني والبحر الحجازي<sup>(٤)</sup>.

وكانت توابل الهند قبل العصر الفاطمي تصل إلى الاسكندرية عن  
طريق أيلة أو القازم - الفرما<sup>(٥)</sup> ، فقد كانت السفن التي تتولى نقل التوابل  
من جزر الهند الشرقية إلى مصر تضطر بسبب الشعب المرجانية إلى أن  
تسير نهراً ، ملتزمة السير بجذء الساحل حتى لا تتعرض للفرق ، ثم  
أصبحت عيذاب منذ العصر الفاطمي المركز الرئيسي لتجارة الهند واليمن  
والحبشة<sup>(٦)</sup>. ويذكر القرطبي أن « أحمال البهار والقرقة ونحو ذلك لتوجد  
ملقاة بها ( أي بصحراء عيذاب ) والققول صاعدة وهابطة لا يمترض لها

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٢٨٢ ، ٢٩٢ وما يليها .

(٢) ابن بطي ، قوانين الدواوين ، ص ٢٥٧ .

(٣) ابن سعيد ، المغرب في حل المغرب ، ج ١ ص ٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١١ .

(٥) يذكر السعدي أن المسافة ما بين الفرما إلى القازم مسيرة ليلة ، يحمل إليها من جميع المالك  
المحطة ببحر الروم ( البحر المتوسط ) وبحر الصين ( المحيط الهندي ) من أنواع الأمتعة  
والطرائف والتحف من الطيب والأفاوية والعقاقير والجواهر والرقيق وغير ذلك من صنوف  
الآكل والمشرب والملابس ، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها . ( السعدي ، التنبيه  
والانتراف ، مكتبة خياط ، بيروت ١٩٦٥ ص ٢٠ ) .

(٦) القرطبي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٥٦ .

أحد إلى أنت يأخذها صاحبها<sup>(١)</sup> ، فلم تزل مسلكتاً للحجاج في ذهابهم وإيابهم زيادة على مائتي سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وسبعمائة ، وذلك منذ كانت الشدة العظمى في أيام الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر ، وانقطاع الحج في البر إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الكعبة ، وعمل لها مفتاحاً ، ثم أخرج قافلة الحاج من البر في سنة ست وستين وسبعمائة ، فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء ، واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص ، حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة<sup>(٢)</sup> . غير أن الفلقشندي يخالف القريري في تاريخ إبطال طريق عيذاب - قوص ، فيذكر أن ذلك حدث في سنة ٧٨٠ هـ ( ١٣٧٨ م ) عندما عاد السفر في البحر الأحمر من الطور إلى اليمن ، وأبطل عيذاب<sup>(٣)</sup> .

وكانت التوابل تنقل على هذا النحو من عيذاب إلى قوص حيث تحمل في السفن النيلية إلى أن تصل إلى ساحل القسقاط ، فتنتقل إلى خزانة التوابل الفاطمية أو فندق الكارم<sup>(٤)</sup> .

ويبدو أن مراكب تجار الكارم كانت تتعرض فيما بين عيذاب وسواكن لسطو القراصنة واللصوص ، ولذلك اهتم الفاطميون بتخصيص أسطول يربط في عيذاب ، مهمته « أن يتلقى الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا يجزأون بحر القلزم هناك يعارضون المراكب فيحميمهم الأسطول منهم ، وكانت عدة هذا الأسطول خمسة

(١) ذكر ابن جبير نفس المعنى فقال : « ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بفارعة الطريق أحمال الفلفل والقرقة وسأها من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذه السبيل اما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعا إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس » ( ابن جبير ، الرحلة ، ص ٦٧ ، ٦٨ )

(٢) القريري ، ج ١ ص ٣٥٧ .

(٣) الفلقشندي ، ج ٣ ص ٤٦٥ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٦٤ .

مراكب ثم صارت إلى ثلاث . وكان والي قوص هو المتولي لأمر هذا الأسطول ، وربما تولاه أمير من الباب «<sup>(١)</sup> . ومن أمثلة حوادث القرصنة في بحر القلزم ما رواه المقرئ في اتعاظ الحنفا ، إذ يشير في أحداث سنة ٥١٢ هـ ( ١١١٨ م ) إلى أن التجار القادمين إلى القاهرة من عذاب شكوا إلى الوزير الأفضل شاهنشاه من خروج قاسم بن أبي هاشم صاحب مكة عليهم في مراكب ، فقطعت عليهم الطريق ، « وأخذ جميع ما كان معهم ، فنضب الأفضل وقال : صاحب مكة أخذ تجاراً من بلادي ؟ أنا أسير إليه ... بأسطول أوله عذاب وآخره جدة »<sup>(٢)</sup> . ثم كتب إلى أشرف مكة يعلمهم بما فعله أميرها ، وأقسم لهم مهدداً بمنع التجار والحجاج من قصد مكة حتى يقوم أمير مكة برد ما نهبه من أموال التجار المصريين . ثم كتب إلى والي قوص وأمره بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه إلى عذاب ويمنع أي تاجر مصري من ركوب الجلاب القادمة من مكة ، وأن يفحص الشواني والحراريق الموجودة بالساحل بعذاب ويصلح ما يحتاج منها إلى مرمة أو إصلاح ، ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية ، ثم أمر المستخدمين بصناعة مصر أن يقدموا خمسة حراريق لتسير إلى الحجاز . فلما تلقى أشرف مكة رسالة الأفضل وشهدوا مقاطعة التجار المصريين لأسواق الحجاز ، عظم عليهم الأمر ، وبادروا بإرسال رسول إلى الأفضل ، استقبله المسؤولون في القاهرة استقبالا فاترا ، ورأى الرسول الجسد والاهتمام بأمر الأساطيل ، وتجهيز العساكر إلى أمير مكة ، فالتزم بإحضار جميع أموال التجار ، وسأل التوقف عن ذلك حتى يعود بالبضائع والأموال ، فأجيب إلى ذلك . ثم عاد الرسول إلى القاهرة وبصحبته جميع ما أخذه أمير مكة من التجار من البضائع والأموال<sup>(٣)</sup> .

(١) القلقشندي ، ج ٣ ص ٥٢٠ .

(٢) المقرئ ، اتعاظ الحنفا ( نسخة مصورة من المخطوطة ) ص ١١٨ أ .

(٣) اتعاظ الحنفا ، ص ١١٨ أ .

وكانت الرحلات التجارية في البحر المتوسط إلى صقلية والمغرب والأندلس تتم في مواسم معينة ، فكانت السفن التجارية تبهر سواء من طرابلس الشام أو دمياط أو الاسكندرية إلى هذه البلاد في قوافل ، تبحر في العادة سفينة حربية أو أكثر لمواجهة القرصنة الذين يعترضون هذه السفن في البحر ، ومنهم من الاعتداء عليها . وكانت الرحلات إما سنوية أو نصف سنوية <sup>(١)</sup> ، بمعنى أن السفن لا ترحل إلى هذه الأقطار إلا مرة في كل سنة أو في كل ستة أشهر ، ويبدو أن نظام هذه الرحلات كان له اتصال كبير بمواسم هبوب الرياح أو بمواعيد الأنواء ، فقد ذكر ابن جبير أن «الرياح الشرقية لا تهب فيها ( أي في جهات الساحل الجنوبي الشرقي من البحر المتوسط ) إلا في فصلي الربيع والخريف ، والسفر لا يكون إلا فيها ، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هذين الفصلين ، والسفر في الفصل الربيعي من نصف أبريل ، وفيه تتحرك الرياح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايو وأكثر وأقل بحسب ما يقضي الله تعالى به . والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر ، وفيه تتحرك الرياح الشرقية ومدتها أقصر من المدة الربيعية ، وإنما هي عندهم خلصة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل ، وما سوى ذلك من الزمان ، فالرياح فيه تختلف ، والرياح الغربية أكثرها دواماً ، فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الرياح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق» <sup>(٢)</sup> .

#### (ب) الطريق النهري

يعتبر النيل الشريان الحيوي للتجارة الداخلية والخارجية في مصر ، إذ يربط بين مختلف مدنها وقراها ، ففيه تسير المراكب الصغيرة والكبيرة حاملة المنتجات الزراعية من أقصى الصعيد إلى أسفل الأرض مارة بالقسوط

(١) راشد البراوي ، ص ٢٦٦ .

(٢) ابن جبير ، ص ٣١١ .

وساحل القس ، ومن القسطاط تصل الحاصلات المراد تصديرها إلى الاسكندرية عن طريق خليج الاسكندرية المتفرع من فرع رشيد قبالة فوة<sup>(١)</sup> ، أو إلى تنيس عسّن طريق خليج يخرج من فرع دمياط ويصب في بحيرة المنزلة<sup>(٢)</sup> . وفي النيل كانت تسير المراكب الحاملة للغلات السلطانية والأحطاب وغيرها<sup>(٣)</sup> ، والمشاريات التي عرفت في العصر المملوكي بالحراقات . وقد وصف كاتب مصري في القرن الثامن الهجري ( في سنة ٧٦٢ هـ ) الملاحة في النيل في رسالة كتبها إلى أخيه بمصر قال فيها : « ولا تنس الجواري المنشآت في البحر كالأعلام ، التي تسبق عند طياب الرياح مفوقات السهام ، وإعجابها بفرانها البحرية وحراقاتها الحربية ، وشوانها ، وهول مبانيها ، وجلال شكلها وجمال مغانيها . تبدو موشاة بالنضار الأحمر ، منقشة باللون الأفخر ، فهي كالأردم المنمر ، أو كمتلون الثمر ، أو الطاوس الذكر ، أو الناورس لبني الأصفر ، معمرة ببأس الحديد والأحجار ، محمولة على سيح الماء التيار ، مشحونة بالرجال ، منصورة عند القتال ، مصنوعة بالجن والنبال تبرز مذكرة بالآية النوحية ، وتضمن إحراز الهمة العلية الفتحية ، حصون أمنع من أعز قلاع ، تطير إذا فتح لها جناح القلاع ، فلتسبق وفد الريح عند الإسراع ، وتفوق سرعة السحاب عند الاتساع ، فهن مع العقبان في النيق حوّم ، وهن مع البنيان في البحر حوّم ، لو أقسم من رآها ، ولو قال مشاهد معناها ، إن الله نفخ فيها الروح فأحيها ، لبرّ في عينه التي أقسم وتلاها ، وكمن مركب لحسنه معجب ، وكمن سفين قوي أمين ، وخضاري جليل ، وعشاري طويل ، ومساري طويل جميل ، وتستراوي

(١) ابن مماتي ، ص ٢٢١ - القلقشندي ، ج ٣ ص ٣٠١ - المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٢٦ .

(٢) راشد البراري ، ص ٢٨٢ .

(٣) مثل ذلك الشب الذي كان يستخرج من صحراء صعيد مصر والواحات ، فيحمل إلى ساحل قوص وإخم والبهنسا إلى الاسكندرية ، وكلّ الشب من بين السلع التي تحتكرها الدولة الفاطمية ولا يتصرف في شيء منها سوى الديوان . ( ابن مماتي ، ص ٣٢٨ ) كذلك كانت النطرون المستخرج من الفاقومية والطراثة من بين منتجات مصر التي تحتكرها الدولة ( نفس المصدر ، ص ٣٣٤ ) .

عكاوي ، وككة<sup>(١)</sup> ، ودرمونة ، ومعدية مكينة ، وساور دقيق ، وشختور  
رشيق ، وقرقور رقيق ، وزورق ذي زواريق ، وطريدة بجيل الطراد  
معمورة ، وهما يحمل الجياد والأجناد مشهورة .... »<sup>(٢)</sup> .

وكان النيل بالإضافة إلى اتخاذه طريقاً ملاحياً في داخل البلاد ، يتخذ  
الناس في العصر الفاطمي وما تلاه اللزّه والفرجة ، فكان الناس يركبون  
المساريات والقوارب لمتعة النظر إلى الماء والخضرة ، من ذلك ما أنشده  
الأمير تميم ابن الخليفة المزمّل لدين الله الفاطمي :

يوم لنا بالنيل غتصر      ولكل يوم لذائذ قصر  
والسفن تجري كالخيول بنا      صعداً ، وجيش الماء منحدر<sup>(٣)</sup>  
وفيه أنشد الكاتب الكبير ابن فضل الله العمري :

والنيل في تياره المت      صب مهتر الصفاح  
وبه السفائن كالجب      ال تحول أمثال القداح  
فوكبت من صهواتها      دماء ساكنة الجراح  
سرافة تجري على اء      م الله في الماء القراح<sup>(٤)</sup>

ويبدو أن أهل الخلاعة والفساد ، وذوي البطالة كانوا يركبون السفن في  
خليج مصر ، ويصحبون معهم النساء الماجنات وبأيديهن المزاهر يضربن بها ،  
وكان كثير منهم يتظاهرون بالمنكرات كاحتساء الخمر ، ولذلك أمر الحاكم  
بأمر الله في سنة ٤٠١ هـ بمنع الناس من الركوب في القوارب في الخليج إلى  
القاهرة ، وشدد في المنع ، وأمر بسد أبواب القاهرة التي يتطرق منها  
إلى الخليج<sup>(٥)</sup> .

(١) ورد اللفظ في هذا النص ( لكّة ) ، وهو تحريف لكلمة ( ككة ) ؛ نوع من راكبات الصعيد  
كبير . راجع في صفة الاسم : ( القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٣٥ ) .

(٢) القرطبي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٣) القرطبي ، ج ١ ، ص ١١٢ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٥) القرطبي ، ج ٣ ، ص ٣١ .

## مركز التجارة الداخلية في مصر والشام

كان من الطبيعي أن تعتمد المدن الصناعية المصرية والشامية التي يعوزها الانتاج الزراعي على التجارة ، باعتبارها الحرفة الرئيسية لسكانها ، وكانت تجارة مصر والشام الداخلية تتركز في عدد من المدن أهمها القسطنطينية التي ذكر المقدسي أنها « مصر مصر ، وثاسخ بغداد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجل من مدينة السلام ، خزائن المغرب ، ومطرح المشرق ، وعامر الموسم ، ليس في الأمصار أهل منه ، كثير الأجلة والمشايخ ، عجيب المتاجر والخصائص ، حسن الأسواق والمعايش ، إلى حماماته المنتهي ، ولقيا سيرة لباقة وبهاء ، ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامعه ، ولا أحسن تجملاً من أهله ، ولا أكثر مراكز من ساحله ... »<sup>(١)</sup> . وبلي القسطنطينية في الأهمية كقاعدة تجارية في مصر مدينة الاسكندرية وتنبس ودمياط وعيذاب والقازم في مصر ، وطرابلس وصيدا وصور وبعض المدن الداخلية في الشام .

### القسطنطينية

كانت القسطنطينية مستودعاً للتجارة الداخلية ومركزاً رئيسياً للتجارة البحرية الخارجية ، ولوقوعها على النيل في موضع متوسط بين الوجهين البحري والقبلي ، ولاتصالها بشغور مصر الشمالية ومدن الصعيد الجنوبية عن طريق النيل ، ولاتصالها عمرانياً بالقاهرة مقر الخلفاء الفاطميين ، ولقيام الصناعة في القسطنطينية وتعدد مرافقها<sup>(٢)</sup> . ويعبر المقريري عن أهمية القسطنطينية من الناحية الاقتصادية ، وأثر ذلك في رخص أسعارها عن أسعار القاهرة ، فيقول : « والقسطنطينية أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة لقرب

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٩٧ .

(٢) راشد البرادي ، ص ١٩٣ .



النيل من الفسطاط ، فالمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ، ويبيع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة <sup>(١)</sup> . ويفسر ذلك الأعداد الهائلة من السفن التجارية التي كانت ترسو بساحل الفسطاط حاملة المتاجر إليها من مختلف موانئ مصر من شمال النيل ومن جنوبه <sup>(٢)</sup> . وقد ذهل المقدسي عندما لاحظ هذه الظاهرة ، فعبر عن دهشته من كثرة المراكب بقوله : « وكنت يوماً أمشي على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة » فقال لي رجل منهم : من أين أنت ؟ قلت : من بيت المقدس . قال : بلد كبير ، أعليك يا سيدي أعزك الله أن على هذا الساحل وما قد أفلح منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك تحلّت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان هنا مدينة <sup>(٣)</sup> . وفي موضع آخر يقول : « يحيى أبداً إليه ( أي إلى الفسطاط ) ثمرات الشام والمغرب ، وتسير الرفاق إليه من العراق والشرق ، ويقطع إليه مراكب الجزيرة والروم » <sup>(٤)</sup> . أما ابن سعيد ، فعلى الرغم من تعبيره عن سخطه بسبب قذارة ساحل الفسطاط ، وضيق ساحته ، وتكدر تربته ، يعترف بأنه « كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلت أنني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقاً » <sup>(٥)</sup> . ويقول في موضع آخر : « وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فإنه فوق ما يوصف ، وبها يجمع ذلك لا القاهرة ، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد » <sup>(٦)</sup> .

وعندما ترسو المراكب الواصلة إليها بأصناف الفلات سواء بساحلها

(١) المقرئزي ، ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) ابن سعيد ، المغرب في حل المغرب ، ج ١ ص ١ .

(٣) المقدسي ، ص ١٩٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٩ .

(٥) ابن سعيد ، ص ٧ .

(٦) نفس المصدر ، ص ١١ .

أو بساحل المقس ، يقوم المحالون بمحمل ذلك إلى الأهرام السلطانية التي تقوم في عدة أماكن بالقاهرة ، وكانت تحتوي على ٣٠٠ ألف أردب من الغلات أو أكثر من ذلك ، ولها الحماة من الأمراء والمشارفون من العدول<sup>(١)</sup> . ويذكر القريري أن ساحل المقس كان به ميدان الغلة ، إذ كان موضعاً للفلال في العصر الفاطمي ، وكانت المراكب تقف من جامع المقس إلى منية السرج طولاً ، ويصبح عند باب القنطرة في أيام النيل من مراكب الغلة وغيرها ما يسار الساحل كله<sup>(٢)</sup> .

ولم يتضعع مركز الفسطاط التجاري كثيراً بعد الشدة العظمى مع ما عانته بسبب الصراع بين طوائف الجند في زمن الخليفة المستنصر بالله ، وتعدد المكوم التي فرضتها الدولة الفاطمية على كل عمليات البيع والشراء إلى حد يشكو منها المقدسي ، ويعبر عن ذلك بقوله : « وأما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل »<sup>(٣)</sup> .

#### الاسكندرية

تألفت الاسكندرية في العصر الفاطمي واستعادت ازدهارها القديم ، وأصبحت بحق الثغر التجاري الأول الذي تفد إليه السفن التجارية محملة بسلع الشرق والغرب ، وكانت محطاً رئيسياً للسفن التجارية القادمة من المغرب والأندلس إلى الشام ومصر . ومنها توسق السفن الحاملة منتجات مصر كالشعب والنطرون والمنسوجات الدبيقية والتنيسية والاسكندرانية بالإضافة إلى التوابل التي تصل إليها من الفسطاط . وكان يجلب من الاسكندرية القواكه بالسفن إلى الفسطاط<sup>(٤)</sup> ، كما كان يجلب منها النسيج السكندري المشهور والتحف الزجاجية التي اشتهرت بصناعتها في العصر الفاطمي<sup>(٥)</sup> .

(١) القريري ، ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٢) القريري ، ج ٣ ص ١٨ .

(٣) المقدسي ، ص ٢١٣ - ابن جبير ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) ناصر خسرو ، ص ٤٠ .

(٥) زكي محمد حسن ، فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٥٨٦ .

## تنيس

كانت تنيس مركزاً تجارياً هاماً ، لكونها أهم مناطق صناعة النسيج في مصر ، فقد عرفت بصناعة « رفيع الثياب من الدبقي والشروب والمصبغات من الحلل التنيسية التي ليس في جميع الأرض ما يبدانها في الحسن والقيمة ، وربما بلغ الثوب من ثيابها إذا كان مذهباً ألف دينار ونحو ذلك ، وما لم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوه »<sup>(١)</sup>. وذكر المقرئ أنها مدينة كبيرة أهلها مياسير وأكثرهم حاك ، وبها يحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا ، وكان يصنع فيها للخليفة الفاطمي ثوب يقال له البدنة « لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار ، وليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو سادج بغير ذهب مائة دينار عيناً »<sup>(٢)</sup> ، وكان التجار يركبون السفن من تنيس إلى القرما<sup>(٣)</sup> .

## قوص

تعتبر قوص أهم مركز تجاري نهري في مصر لوقوعها عند نهاية طريق القوافل الممتد ما بين عيذاب والنيل ، ولكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة ، لأنها كما يقول ابن جبير « مخطر للجميع ، ومحط للرحال ، ومجتمع الرفاق ، وملقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب »<sup>(٤)</sup> .

## دمياط

كانت دمياط مركزاً رئيسياً في مصر لصناعة النسيج وقد ساعد على رواج هذه الصناعة وفرة الكتان بمنطقتها ومنطقة شرق الدلتا ، وأصبحت

(١) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، لندن ١٨٦٤ ، ص ١٥٦ .

(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٣١١ .

(٣) نفسه .

(٤) ابن جبير ، ص ٦٥ .

المدن الصغيرة المحيطة بها مثل شطا وديبقي وتونة وبورة ودميرة تختص بإنتاج نوع من المنسوجات ينسب إليها ، واكتسبت هذه المنسوجات شهرة عالمية<sup>(١)</sup> ، ففي شطا كانت تصنع الثياب الشطوية وفيها كانت تنسج القباطي التي تتخذ كسوة للكعبة<sup>(٢)</sup> ، وفي ديبقي تنسج الثياب المثقلة والعمامم الشرب الملونة ، والدببقي المذهب ، والعمامم الشرب المذهبة ، وهي عمامم تحمل رقوماً منسوجة بالذهب ، يبلغ ثمن العمامة منها ٥٠٠ دينار سوى الحرير والغزل ، وقد استحدثت هذه العمامم وغيرها في زمن العزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ<sup>(٣)</sup> .

وفي تونة يعمل طراز تنيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحياناً<sup>(٤)</sup> .

### القازم

كانت القازم فرضة مصر والشام ، فمنها كانت تحمل المحولات إلى الحجاز واليمن ، وكانت القازم قبل العصر الفاطمي على اتصال بالفرما فقد ذكر ابن خرداذبة أن « الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإنجليزية والأندلسية والصقلية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يحبون من المغرب الحندم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فتحة في البحر الغربي ، فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القازم ، وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً » ثم يركبون البحر الشرقي من القازم إلى الجار وجدة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القازم ، ثم يحملونه إلى الفرما »<sup>(٥)</sup> . وقد

(١) جمال الدين الشيال ، مجل تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩ ص ٧٠ - حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٦٠١ .

(٢) القرطبي ، ج ١ ص ٣٩٧ .

(٣) نفسه ص ٣٩٨ .

(٤) نفسه ص ٣١٨ .

(٥) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، لندن ١٨٨٩ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

اضمحل شأن القازم منذ أن تحولت التجارة إلى عيذاب ، ولذلك أعفى الحاكم بأمرالله أهل القازم بما كان يؤخذ منهم من مكوس المراكب<sup>(١)</sup> ، تشجيعاً للتجار على قصدها .

وامتازت بعض مدن مصر بنشاط كبير لوقوعها وسط مناطق زراعية وصناعية هامة ، أو لوقوعها على طريق المتاجر المنقولة في النيل إلى الثغور الشمالية لمصر أو إلى القسقاط ، ومن أمثال هذه المدن فوه التي تقع على الطريق المائي الهام بين ساحل البحر المتوسط والقسقاط ، قريباً من مخرج خليج الاسكندرية ، ومنفلوط الواقعة على النيل والتي يصعد إليها التجار في المراكب النيلية لاستحلاب قمحها إلى القسقاط والقاهرة ، وكان معروفاً بطيبة ورزانة حباته<sup>(٢)</sup> .

#### طرابلس

كان لنشأة طرابلس في السهل الواقع على مصب نهر أبي علي أثر كبير في اشتغال طائفة من سكانها بالزراعة وكانت المناطق المزروعة لا تقتصر على غوطة طرابلس المحيطة بها ، وتعرف أحياناً بالمرج ، وإنما كانت تمتد على ضفتي نهر أبي علي وعلى سفوح الجبال القريبة منها . وقد اشتهرت طرابلس في العصر الفاطمي بزراعة قصب السكر ، والنخيل<sup>(٣)</sup> ، والفواكه أمثال النارج والترنج والموز والليمون<sup>(٤)</sup> ، وكان يحمل من طرابلس إلى مصر في زمن الحاكم بأمرالله الفواكه اليابسة والرطبة<sup>(٥)</sup> . ويصف الادريسي محاصيلها الزراعية في عصره بقوله : « ولها رساتيق وأكوار

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٧٥ .

(٢) ابن جبير ، ص ٦٥ .

(٣) الاضطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر الحيني ، القاهرة ١٩٦١ - ناصر خسرو ، سفرنامه ، طبعة القاهرة ، ١٩٤٥ ص ١٣ - Heyd, Histoire du commerce

du Levant, t. II, p. 459

(٤) ناصر خسرو ، ص ٨ .

(٥) يحيى بن سعيد الأتطاكي ، ص ٢٠٠ .

وضياع جلية ، وبها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات الشيء الكثير <sup>(١)</sup> . وقد ترتب على ثروة طرابلس الزراعية قيام عدة صناعات اختصت بها طرابلس في العصر الفاطمي ، فمن الزيتون كان يستخرج الزيت في المعاصر ، ومن الزيوت صنع الصابون الذي اختصت طرابلس بصناعته ، ومن قصب السكر كان يصنع السكر الطرابلسي الذي ذاعت شهرته في العصور الوسطى ، وإلى جانب هذه الصناعات فاقت طرابلس غيرها من مدن الشام في صناعة الورق <sup>(٢)</sup> ، وصناعة المنسوجات الحريرية .

وكان طبيعياً أن تصبح طرابلس في العصر الفاطمي مركزاً هاماً للتجارة في الشام لعاملين : الأول ميناؤها الواسع الذي يمكن أن يتسع لعدد كبير من السفن ، والثاني قيام حرفتي الزراعة والصناعة بها وبأعمالها مما يترتب عليه ضرورة تصريف منتجاتها إلى الخارج . ولقد ظهرت طرابلس منذ أن خضعت لمصر الفاطمية كمدينة تجارية من الطراز الأول وهو أمر تؤيده أقوال الرحالة والمؤرخين العرب : فناصر خسرو يشيد بذكر أسواقها وخوانثاها ، ويمتدح صناعة الورق فيها ، ويعظم ثروتها الزراعية كما أنه يشير إلى اتحادها قاعدة تجارية في البحر المتوسط تصل إليها السفن من مختلف الأقطار للتجارة <sup>(٣)</sup> . والإدريسي يؤكد أنها « مدينة عظيمة » والوارد والصادر إليها كثير » ، كما يذكر أنها « معقل من معاقل الشام مقصود إليها بالأمته وضروب الأحوال وصنوف التجارات » <sup>(٤)</sup> . وكانت السفن التجارية الإسلامية والفرنجية منذ العصر الفاطمي تصل ما بين مصر والشام عن طريق ميناء طرابلس ، فقد أمر العزيز بالله بإرسال المرة من غلات مصر لنجدة منجوتكين ، فوصلت إلى طرابلس ، ومنها على ظهور الإبل

(١) الإدريسي ، وصف فلسطين والشام من كتاب زهرة المشتاق ، نشره جيليمستر ، بون ١٨٨٥ ص ١٧ .

(٢) ناصر خسرو ، ص ١٣ .

(٣) نفسه ، ص ١٣ .

(٤) الإدريسي ، ص ١٧ .

إلى أفامية<sup>(١)</sup>، وعندما حاصرها الصليبيون برأً وبحراً وقلت بها الأقوات وصلت إليها السفن الفاطمية من مصر تحمل الفلّة والميرة<sup>(٢)</sup>.

### صور وصيدا وبيروت

ذاعت شهرة صور وصيدا منذ أقدم العصور في صناعة الزجاج والخزف<sup>(٣)</sup>، وظلت صور تحتفظ في العصر الإسلامي بهذه الشهرة، فكان يعمل بها الزجاج المحكم والفخار<sup>(٤)</sup>، وذكر المقدسي أن صور كانت تصدر السكر والخزف والزجاج المحروط والمعمولات<sup>(٥)</sup>. أما صيدا فكانت أكثر أهمية في مجال التجارة البحرية من صور، وعلى الرغم من قصر فترة الاستقرار التي نعمت بها صيدا في العصر الفاطمي بسبب تصارع القوى الإسلامية المختلفة، وتنازع الولاة على السلطان، فإنها بلغت ذروة ازدهارها في هذا العصر. ونستدل من وصف ناصر خسرو لصيدا في سنة ٤٣٨ هـ على أنها كانت تعتمد في ثروتها الاقتصادية على قصب السكر والفاكهة، كما نستدل أيضاً من وصفه لسوق صيدا وبهائه وحسن منظره على ازدهار التجارة الصيداوية وهو أمر طبيعي باعتبارها ثغراً بحرياً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموانئ الشام الأخرى وموانئ مصر<sup>(٦)</sup>. ويشير ابن العديم الحلبي إلى أن السفن المصرية كانت تخرج من تنيس ومن الاسكندرية إلى طرابلس الشام وصور<sup>(٧)</sup>. أما بيروت فكانت في العصر الفاطمي الأول مركزاً هاماً للتجارة، وكانت تجارات البحر عليها دارة واردة وصادرة<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن القلانسي، ص ٤٢.

(٢) راجع كتابي: طرابلس الشام في التاريخ، ص ١٠٩.

(٣) راجع كتابي: دراسة في تاريخ صيدا ص ٤٧.

(٤) الأعلام الخطيرة، ج ١ ص ١٦٣.

(٥) المقدسي، ص ١٨٠.

(٦) دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص ٨٥، ٨٦.

(٧) ابن السديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، نشره الدكتور سامي الدحان، دمشق ١٩٥١.

ج ١ ص ٢٢٢.

(٨) ابن حوقل، ص ١٦٢.

## المدن الداخلية في الشام

نقتصر هنا على ذكر ثلاث من هذه المدن كانت مراكز تجارية هامة بين الجوف السوري والسواحل ، هي : بعلبك ودمشق وحلب .

أما بعلبك فتقع على حافة سهل مرتفع فسيح من جهته الشمالية بين سلسلي جبال لبنان الشرقية والغربية ، يعرف بسهل البقاع أخصب سهول الشام ، على مسافة تبعد عن دمشق بنحو ٣١ ميلاً ، ويبلغ ارتفاع هذا السهل البعلبي نحو ١١٥٠ متراً فوق مستوى سطح البحر<sup>(١)</sup> . وتعتمد بساكن المدينة ومزارعها التي تلتف حولها على نبع غزير المياه يسمى رأس العين . وكانت بعلبك أهم مدن البقاع من الناحية الاقتصادية بحكم وقوعها على الطريق التجاري بين صور والشرق ، وكانت لهذا السبب محطاً للقوافل التجارية بين البلاد الشرقية والسواحل . وقد ازدهرت بعلبك في العصر الفاطمي ، فكانت على حد قول ابن حوقل « مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة ، بيّنة الخصب والرخص ، وهي قرية قريبة من مدينة بيروت على ساحل بحر الروم ، وهي فرضتها وساحلها »<sup>(٢)</sup> ، وذكر المقدسي أن بها المزارع والأعناب ، كما ذكر من تجاراتها الملاين ( جمع ملبن )<sup>(٣)</sup> ، وظلت بعلبك تحتفظ بشهرتها في إنتاج الكروم والأعناب حتى عصر المماليك<sup>(٤)</sup> . ويشير القزويني إلى أن الميرة كانت تنقل من بعلبك إلى جميع بلاد الشام<sup>(٥)</sup> . ويلخص ياقوت خيراتها ومنتجاتها بقوله : « وببعلبك دبس »<sup>(٦)</sup> ، وجبن وزيت ولبن ليس في الدنيا مثلاً ، يضرب فيها المثل »<sup>(٧)</sup> . وإلى

(١) جاتين سورديل ، دائرة المعارف الإسلامية الجديدة ، مادة بعلبك ، ص ١٠٠٠ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٢ .

(٣) المقدسي ، ص ١٦٠ ، ١٨١ .

(٤) أبو الحسن ، التاجم الزاهرة ، ج ١٣ ص ٨١٠ .

(٥) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٥٦ .

(٦) يصنع من حنبلها .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان مادة بعلبك ، جلد ١ .



جانب مدينة بطبك في الداخل كانت مدينتا دمشق وحلب تشغلان من حيث التجارة الداخلية مركزاً ممتازاً ، أما دمشق ، مصر الشام<sup>(١)</sup> ، فتقع على ارتفاع يصل إلى ٦٩٠ متراً فوق مستوى سطح البحر ، عند السفوح الشرقية لسلسلة جبال أنتيلبنان ، وفي بداية السهول الفسيحة الممتدة إلى الشرق والشمال الشرقي حتى الفرات ، وإلى الجنوب حتى قلب جزيرة العرب<sup>(٢)</sup> ، وحظيت دمشق لذلك السبب ولقربها من جزيرة العرب والعراق والجزيرة ومصر ، بمرکز اقتصادي هام لقيامها بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب<sup>(٣)</sup> ، وكانت بالإضافة إلى ذلك سوقاً لمنطقة زراعية ومركزاً صناعياً هاماً<sup>(٤)</sup> ، وأهم ما اختلفت به دمشق صناعة المنسوجات الحريرية والدباج النفيس الذي نسب إليها ، وصناعة الأواني الزجاجية المنزلة بالمناء وصناعة الورق ، هذا إلى صناعات معدنية كالخلى والأسلحة وصناعة الأثاث .

أما حلب فتقع في مفترق الطرق التجارية الكبرى في شمال الشام<sup>(٥)</sup> ، وعلى حدود البادية ، وقد ازدهرت في العصر الفاطمي ، وكانت على حد قول الحسن بن أحمد المهلب في كتاب المسالك والممالك الذي وضعه للتخليفة الفاطمي العزيز بالله ، مدينة جليلة ، عامرة آهلة ، حسنة المنازل ، وبها من الكور والضيايح ما يجمع سائر الغلات النفيسة ، وكان إقليمها الممتد ما بين معرة مصرين إلى جبل السقاء غنياً بالتين والزبيب والفستق والساق والحبة الخضراء ، تحمل إلى مصر والعراق وتجهز إلى كل بلد<sup>(٦)</sup> .

(١) القديسي ، ص ١٥٦ .

(٢) جان سوفاجيه ، دمشق الشام: لغة تاريخية ، ترجمة فؤاد أفرم البستاني ، بيروت ١٩٣٩ ص ٦ .

(٣) محمد كرد علي ، دمشق مدينة السحر والشعر ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٦ ، ١٩٤٤ .

(٤) سوفاجيه ، ص ٨ .

(٥) وفي ذلك يذكر الاصطخري أنها تقع على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات ( الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر الحيني ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٦ - ابن حوقل ، ص ١٦٣ ) .

(٦) ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ج ١ ، القسم ١ ، دمشق ١٩٥٣ ، ص ١٥٣ .

ويذكر القزويني أنه كانت يزرع في أرضها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكرم والمشمش والتفاح والتين ، وفي موضع آخر يقول : « ومن عجائبها سوق الزجاج ، فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة ، تحمل إلى سائر البلاد للتحنف والهدايا »<sup>(١)</sup>. ويشير الأصطخري إلى أن بالتينات وهو حصن يقع قريبا من حلب على ساحل البحر « يجمع لحشب الصنوبر ، الذي ينقل إلى الشامات وإلى مصر والثغور »<sup>(٢)</sup>.

وكانت حلب تحصل المكوس عما يمر من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق ، وإليها كان يقد التجار من جميع الأقطار المذكورة للتجارة<sup>(٣)</sup> ، فكانت على هذا النحو باب المشرق والمغرب ، ولهذا كثرت بها السلع الشرقية والرومية وغيرها ، فابن الشحنة يذكر أن من خصائصها « نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير والصوف واليزري والقماش المعجمي وأنواع الفراء من السمور والوشق والقنك والسنباب والشعلب وسائر الوبر ، والبضائع الهندية وأجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الأجناس ، فإنه قد يتفق أنه يباع فيها في يوم واحد ما لا يباع في غيرها في شهر كل ذلك بأطيب ثمن وأرغبه ، مثلا إذا أحضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال لا تباع في شهر ، وعلى هذا فقس »<sup>(٤)</sup>.

(١) القزويني ، آثار البلاد ، ص ١٨٤ .

(٢) الأصطخري ، ص ٤٧ - ابن حوقل ، ص ١٦٧ .

(٣) سفرنامه ، طبعة بيروت ، ص ٤٤ .

(٤) ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، بيروت ١٩٠٩ ص ٢٥٠ وما يليها .

(٣)

## التجارة البحرية الخارجية

(أ) مع المدن الإيطالية والدولة البيزنطية

اقترن قيام الدولة الفاطمية في مصر بقيام حكومات مركزية في أوروبا سعت إلى إقرار الأوضاع الاقتصادية فيها عن طريق استئناف التبادل التجاري مع دول قارتي إفريقيا وآسيا ، ويعبر عن هذا الاتجاه الجديد الزيادة المحسوسة في عدد الحجاج الأوروبيين الوافدين إلى بيت المقدس ، ولا يخفى أثر هذه الرحلات عبر الشام ومصر في زيادة معرفة العالم الأوروبي باقتصاديات الشرق الأدنى الإسلامي ، ولعل ذلك يفسر إلى حد كبير العامل الاقتصادي الذي كان مستتراً وراء المظهر الديني للحركة الصليبية ، التي كان يمكنها أن تحقق لأوروبا المسيحية السيطرة على سواحل الليباني والتحكم بالتالي في الطرق التجارية البرية المؤدية إلى الشرق الأقصى الغني بتوابله وسلعه ، مما كانت تحتاج إليه الدول الأوروبية<sup>(١)</sup> . وقد تجلت الدوافع الاستعمارية للحركة الصليبية بعد أن استقرت أقدامهم في المنطقة ، وسيطروا على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصدر ثراء عريض للمستغلين بها<sup>(٢)</sup> ، وغلبت الصفة التجارية البحتة على الجالية الصليبية التي لم يكن الباعث الديني يعنينا إلا بالقدر الذي يكفل لها تحقيق مصالحها<sup>(٣)</sup> .

وكانت المدن الإيطالية قد عقدت مع مصر الإسلامية منذ أيام الطولونيين علاقات تجارية ، إذ كان من الطبيعي أن تسمى هذه المدن الإيطالية البحرية إلى تدعيم علاقاتها التجارية مع مصر باعتبار أن الطريق التجاري الذي

(١) راشد البراري ، ص ٢١١ .

(٢) جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، الاسكندرية ١٩٦٣ ، ص ٧٢ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٧٤ .

يمر بها أفضل بكثير من الطريق البري الذي يخترق بلاد الجزيرة والشام لسرعته ولرخص تكاليف النقل فيه<sup>(١)</sup>. ولم تلبث القوى البحرية لهذه المدن أن نازعت القوى البحرية الإسلامية في غرب البحر المتوسط ، ولم يحل عام ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) حتى صارت ييزة وجنوة قوتين بحريتين عظيمتين ، بينما استطاعت البندقية التي تركزت بحريتها في التجارة والنقل لا في احترام القوصنة أن تبني لنفسها في أواخر القرن الرابع الهجري قوة بحرية ، أخذت تزداد على مر الأيام . وكانت أمالقي الواقعة على الساحل الغربي لإيطاليا المنافس الأول لتجارة البندقية في بيزنطة والعالم الإسلامي ، وتوثقت علاقاتها التجارية مع مصر الفاطمية . وكان اهتمام أمالقي موجهاً بوجه خاص إلى نقل المنسوجات الحريرية التي تصنع في ديبق من قرى دمياط إلى سوق روما ، وأصبح لها فنادق بالإسكندرية ، وعلى الرغم من خضوع أمالقي سياسياً للنورمان منذ سنة ١٠٧٦ م ، فقد ظل تجارتها يتعاملون مع مصر الفاطمية .

أما جنوة فكانت بحريتها قد بلغت درجة كبيرة من القوة منذ عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، واتسعت علاقاتها مع مصر منذ النصف الثاني من القرن الخامس ، بعد أن تحررت من سلطان البيزنطيين ، وأصبحت حرة التصرف في اتباع سياسة اقتصادية تتفق ومصالحها دون أي اعتبار آخر ، وكان الجنويون يشتركون غلات مصر كالشب والنطرون والسكر ويبيعونه إلى تجار الروم .

كذلك اهتمت ييزة بتمكين علاقاتها التجارية مع الخلفاء الفاطميين ،

---

(١) استطاعت البندقية رغم احتفاظها بصلاحتها مع بيزنطة واعترافها بسلطانها عليها أن تتعامل على نطاق واسع مع البلاد الإسلامية عن طريق تصدير حاصلاتها الثلاثة : الحديد والخشب والأسلحة ، وهي مواد كانت متوافرة لديهم ومطلوبة بوجه خاص على طول السواحل الإسلامية من فلسطين إلى الهندية ، يضاف إلى ذلك أن تجارة الرقيق درت على البنادقة أرباحاً طائلة من أسواق الرقيق في العالم الإسلامي ما بين قرطبة وبينداد ( أرشيبالد لويس ، للقوى البحرية ، ص ٢٧٠ )

منذ أن تحولت إلى النشاط البحري في أواخر القرن الخامس الهجري ، فأرسلت سفيراً إلى الخليفة الفاطمي الظاهر في سنة ٥٤٩ هـ ( ١١٥٤ م ) ، لتصفية الرواسب المتخلفة عن حادثة اعتداء جماعة من البيزية على المسلمين بالقتل ، ومحاولة استرضاء مصر عن طريق تعهدها بعدم تقديم أي مساعدة للصليبيين في الشام أو غيرهم من أعداء مصر .

أما البندقية فكانت ترتبط منذ قيام الدولة العباسية بعلاقات تجارية مع السواحل الإسلامية ، إذ كانت رغم ولائها للبيزنطيين ، ورغم القيود البيزنطية التي فرضت عليها ، تشتغل بتصدير الرقيق والخشب لمصر والشام ، ولم ترضخ لتحريم الامبراطور البيزنطي ليو الخامس اشتغالها بالتجارة مع البلاد الإسلامية ، بدليل أن سفنها استطاعت في سنة ٢١٣ هـ ( ٨٢٨ م ) ، أن تنقل رفات القديس مرقس من الإسكندرية<sup>(١)</sup> . وظلت البندقية تمد مصر بالحديد والسلاح والأخشاب اللازمة لصناعة السفن إلى أن أصدر الإمبراطور حنا تريمسكس في عام ٣٦١ هـ ( ٩٧١ م ) قراراً حرم عليهم فيه نقل هذه المواد إلى البلاد الإسلامية ، ومع ذلك ، فلم تنقيد حكومة البندقية بهذه السياسة ، وعمل رؤساؤها على تدعيم علاقاتهم التجارية مع مصر .

ونلاحظ أن الأساطيل الإيطالية لعبت دوراً سياسياً ذا وجهين ، فبينما كان الإيطاليون يرتبطون مع مصر اقتصادياً ، نراهم يسهمون في إنجاح الحركة الصليبية منذ حملتها الأولى على بلاد الشام ، بففضل العون والمساعدات البحرية التي قدمها الجنوية والبندقية والبيزية للصليبيين ، تمكن هؤلاء من السيطرة على المدن الساحلية في الشام ، وفي مقابل ذلك ظفر الإيطاليون في الثغور الشامية التي خضعت للصليبيين بامتيازات كثيرة ، وأنشأوا فيها الوكالات التجارية للإشراف على شؤون التجارة ونقل الحجاج<sup>(٢)</sup> .

(١) ارشيبالد لويس ، ص ١٧٩ - شارل ديبل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، القاهرة ،

١٩٤٨ ، ص ٢١ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية ، ص ٢٠٤ .

(٢) ارشيبالد لويس ، ص ٣٨٣ .

أما فيما يتعلق بالبيزنطيين ، فقد سعوا إلى تمكين علاقاتهم التجارية مع مصر بعد أن تحسنت العلاقات السياسية بين بيزنطة والقاهرة منذ سنة ٤٧١ هـ ( ١٠٧٨ م ) ، فقد كانت بيزنطة في حاجة إلى النسيج الذي يصنع في تنيس ، في مقابل الغلال والفراء ، ويذكر ناصر خسرو أن « سلطان الروم ( يقصد الامبراطور البيزنطي ) كان قد أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس ، فلم يقبل السلطان ، وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون » . ويشير ناصر خسرو إلى أنه كان يربط حول تنيس ألف سفينة ، منها ما كان خاصا بالتجار ، ومنها ما كان للسلطان ، وأن الرحلة من تنيس إلى القسطنطينية كانت تستغرق عشرين يوما<sup>(١)</sup> . وكان بالقاهرة حي لتجار البيزنطيين يعرف بحارة الروم ، وهي حارتان : حارة الروم السفلى ، وحارة الروم العليا التي عرفت في العصر المملوكي بالجوانية ، كما كان في القسطنطينية عدد من تجار مصر جاء ذكرهم في جملة من ذكرهم بنيامين التطيلي من الجاليات الإسلامية<sup>(٢)</sup> .

ومن مظاهر إقبال بيزنطة على التجارة الإسلامية وسعيها إلى اجتذابها إلى القسطنطينية أنها أقامت وكالتين بالعاصمة ، لإحداها لتجار الحرير الفاخر ، والثانية لتجار التوابل والمطور<sup>(٣)</sup> .

## (ب) مع الأقطار الإسلامية

### ١ - المغرب الإسلامي

كان من الطبيعي أن تعمل الدولة الفاطمية في مصر على تدعيم علاقاتها التجارية ببحر أم بني زيري الصنهاجيين ، نوابها في المغربين الأدنى والأوسط ، من جهة ، ومع صقلية من جهة ثانية ، ومع الأندلس في عصري الطوائف

(١) ناصر خسرو ، ص ٤٠ .

(٢) Viajes de Benjamin de Tudela, Madrid, 1918, p. 62

(٣) أرشيبالد ليريس ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

والمرابطين من جهة ثالثة . وكانت الطريق الممتدة بجذاء الساحل من الاسكندرية إلى سوسة هي آمن الطرق البحرية التي كانت تسلكها السفن التجارية المصرية أو الزيرية أو الصقلية ، وحتى الأندلسية ، وذلك منذ أن سيطرت بيزنطة على كل من جزيرتي إقريطش وقبرص . ويذكر أبو عبيد الله البكري أن المهدية كانت مرفئاً لسفن الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها<sup>(١)</sup>، وكانت السفن تحمل من ليبيا والمغرب منتجات هذه البلاد التي عرفت بها كثرة الزيتون من المهدية<sup>(٢)</sup> وبرقة وسفاقس<sup>(٣)</sup> وقابس<sup>(٤)</sup> ، وكالفتق الذي كان يحمل من قفصة وشط الجريد إلى مصر<sup>(٥)</sup> ، والثياب والعائم السوسية<sup>(٦)</sup> ، والثياب الحيرية من قابس<sup>(٧)</sup> ، وجلود الثور والبقر التي كانت تصل من أوجلة إلى برقة ، ثم تنجز بها المراكب القادمة من الاسكندرية<sup>(٨)</sup> ، وجلود اللط وقرونة<sup>(٩)</sup> ، والصوف والتبر من تكرور وغانة<sup>(١٠)</sup> وأودغست<sup>(١١)</sup> ، والقطران وجلود الدباغ من برقة وقصر طليشة بليبيا<sup>(١٢)</sup> .

ومن الأندلس كان يصدر الزيت من إشبيلية إلى الاسكندرية<sup>(١٣)</sup> ، والزئبق من قرطبة<sup>(١٤)</sup> ، والموشي من المرية ومالقه<sup>(١٥)</sup> ، والبسط التنتلية من مرسية ،

( ١ ) البكري ، ص ٣٠ .

( ٢ ) الإدريسي ، ص ١٠٩ .

( ٣ ) البكري ، ص ٢٠ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٧٢ .

( ٤ ) الإدريسي ، ص ١٠٦ .

( ٥ ) البكري ، ص ٤٧ .

( ٦ ) الإدريسي ، ص ١٢٥ - التجاني ، رحلة لتجاني ، ص ٢٠٦ .

( ٧ ) البكري ، ص ٩٧ - الإدريسي ، ص ١٠٦ .

( ٨ ) الإدريسي ، ص ١٣١ .

( ٩ ) البكري ، ص ١٧١ .

( ١٠ ) الإدريسي ، ص ٣ ، ٧ .

( ١١ ) البكري ، ص ١٥٩ .

( ١٢ ) الإدريسي ، ص ١٣٦ .

( ١٣ ) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٩٩ .

( ١٤ ) الإدريسي ، ص ٢١٣ .

( ١٥ ) الضبي ، ص ٤٦٨ - المقرئ ، ج ٤ ص ٢٠٧ .

والتين المائقي من مائة<sup>(١)</sup> . ومن صقلية كانت يصل إلى مصر الكتان الرقيق والنياب المنقوشة القيمة في السفن<sup>(٢)</sup> ، وخشب السفن من جفلود وشنت ماركو<sup>(٣)</sup> ، والحديد من مسيني وبارم<sup>(٤)</sup> .

## ٢- المشرق الإسلامي

لم تنقطع الصلات التجارية بين مصر والعراق في العصر الفاطمي على الرغم من الخلافات السياسية والمذهبية بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، فقد كانت تصل إلى مصر من العراق الحرير الأزرق التنسيدي القرقوني المنسوج بالذهب ، والنسيج المعروف بالعنابي الذي اختصت به بغداد ، والنسيج المعروف بالموصلي الذي اشتهرت الموصل بصناعته ، كما كانت تصل إليها كيزان البلور البغدادي . وكان تجار العراق يقدون إلى مصر لشراء ما يلزمهم من المنسوجات الصوفية التي اشتهرت أسيوط بصناعتها ، وعن طريق هؤلاء التجار وصلت هذه المنسوجات إلى بلاد المعجم ، وعرفت هناك باسم الصوف المصري<sup>(٥)</sup> . كذلك كان هؤلاء التجار يقبلون على شحن سفنهم بكيات من الثروب المصنوعة بتنيس ، والأردية الملونة ، ويذكر القريري أن الحمل من النسيج التنسيدي كان يبلغ بعد سنة ٣٦٠ هـ « من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق »<sup>(٦)</sup> ، وقد أنشئ لتجار العراق والشام في القاهرة في سنة ٥١٦ هـ وكالة عرفت باسم دار الوكالة الأمرية<sup>(٧)</sup> . ومن الشام كانت ترد إلى مصر الفواكه النادرة والصابون النابلسي والطرابلسي والأواني النحاسية التي اشتهرت دمشق

(١) الإدريسي ، ص ٢٠٠ .

(٢) ناصر خسرو ، ص ٤٥ .

(٣) معجم البلدان ( المكتبة الصقلية ) ص ١١١ - المجري ، الروض المطار ، ص ١٥٦ .

(٤) الإدريسي ( المكتبة الصقلية ) ص ٣٤ .

(٥) ناصر خسرو ، ص ٧٠ .

(٦) القريري ، ج ١ ص ٣١١ .

(٧) نفسه ، ج ٢ ص ٣٢٤ .



بصناعتها<sup>(١١)</sup> ، والورق الذي اختصت دمشق وطرابلس بصناعته<sup>(١٢)</sup> ، والمنسوجات الحريرية من طرابلس<sup>(١٣)</sup> ودمشق<sup>(١٤)</sup> ، بينما كانت يصل إلى الشام الشب والنظرون والكتان والشروب والديقي والديماطي من مصر. كذلك كانت مصر تصدر إلى الشام ما كانت تصنعه القسطنطينية من الأنطاع المستحسنة والشروب الديماطية والكمرات وخرايط الجلد والسيور<sup>(١٥)</sup> ، ومن اليمن كانت تصل إلى مصر سواء إلى عيذاب أو أبلة أو القانم السفن موسوقة بالزيت<sup>(١٦)</sup> ، والطيوب والبخور واللبان<sup>(١٧)</sup> ، والأحجار الكريمة كالعقيق الذي يكثر في جبل شبام<sup>(١٨)</sup> ، والجزع<sup>(١٩)</sup> ، ودم الأخوين<sup>(٢٠)</sup> ، والمعبر من عدن والبحر الأحمر الجنوبي وساحل الشحر<sup>(٢١)</sup> ، واللؤلؤ من عدن<sup>(٢٢)</sup> وعمان<sup>(٢٣)</sup> وقطر<sup>(٢٤)</sup> وهجر<sup>(٢٥)</sup> والأدم والأنطاع من صنعاء وجرش وصعدة<sup>(٢٦)</sup> وزَبِيد<sup>(٢٧)</sup> . ويذكر المقدسي أن اليمن معدن المعائب والعقيق

- 
- ( ١ ) ناهر خسرو ، ص ٦١ .  
 ( ٢ ) المقدسي ، ص ١٢ - ناهر خسرو ، ص ١٣ - محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٤ ص ٢٤٣ .  
 ( ٣ ) القرطبي ، السلك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٨ .  
 ( ٤ ) خطط الشام ، ج ٤ ص ٢٢١ .  
 ( ٥ ) المقدسي ، ص ٢٠٣ - القرطبي ، ج ٢ ص ١٨٥ .  
 ( ٦ ) ناهر خسرو ، ص ٧٣ .  
 ( ٧ ) السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ١٣٠ .  
 ( ٨ ) ابن حوقل ، ص ٤٤ .  
 ( ٩ ) الهمداني ، الإكليل ، ج ٨ ص ٣٠ .  
 ( ١٠ ) نفس المصدر ، ص ٣٢ - المقدسي ، ص ١٠٢ .  
 ( ١١ ) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٥٠ .  
 ( ١٢ ) ابن حوقل ، ص ٥٢ .  
 ( ١٣ ) نفس المصدر ، ص ٥٢ .  
 ( ١٤ ) مروج الذهب ، ج ١ ص ١٤٨ .  
 ( ١٥ ) المقدسي ، ص ١٠١ .  
 ( ١٦ ) المقدسي ، ص ٩٨ - ابن حوقل ، ص ٤٣ .  
 ( ١٧ ) نفس المصدر ، ص ٩٨ .

والأدم والرقيق ، فألى عمان يخرج آلات الصيدلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والسام والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والأسكندروس والصبر والحديد والرصاص والحيزران والفضار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك ، وتزيد عدد بالعنبر والشروب والدرق والحيش والحدم وجلود النمر وما لو استقصيناه طال الكتاب وبتجارات الصين تضرب الأمثال « (١) . وكانت لآلى البحرين وعقيق اليمن يستخدمان لترصيع الحلى في الفسباط ، وكان عاج زنجبار يستخدم في صناعة العلب العاجية والمقابض . ويذكر ناصر خسرو أنه « رأى أنياب الفيل أحضرت من زنجبار وكان وزن كثير منها يزيد على مائتي من ، كما أحضر جلد بقر من الحبيشة يشبه جلد النمر ويعملون منه النعال » (٢)

#### (ج) مع الصين وبلاد ما وراء النهر

العلاقة بين الصين والمسلمين علاقة قديمة تبدأ منذ أيام الدولة الأموية . ومن المعروف أن الإسلام دخل إلى الصين عن طريق تجار سلوكوا الطريق البحري الذي كانت تسلكه السفن التجارية (٣) ، ويبدأ من البصرة حيث تقلع المراكب حاملة البضائع من الأبله فرضة البصرة إلى الصين مارة بعمان ومسقط والبحرين وهرمز بجليج فارس (٤) ، ثم ترسو السفن في ملابار وسيلان ومأبد وسومطرة وجاوة وتنكين . وكانت أهم مدن الصين المفتوحة لتجارة العرب العرب كانتون المعروفة في المصادر العربية باسم خانفو أعظم مراكز التجارة في الهند الصينية (٥) .

(١) المقدسي ، ص ٩٧ .

(٢) ناصر خسرو ، ص ٦٠ .

(٣) زكي محمد حسن ، الصين وفنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤١ ص ٩ .

(٤) بدر الدين سي للصيني ، العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ، ١٩٥٠ ص ١٠٩ .

(٥) جورج فانشو حوراني ، العرب والملاح في المحيط الهندي ، ص ٢١٦ - محمد محمود زيتون ،

الصين والعرب عبر التواريخ ، سلسلة اقرأ ، عدد ٢٥٣ ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٥ .

وكان يصل إلى عدن من الصين الحديد والمسك والكاغند والفتخار والكافور والدارصيني وغيرها<sup>(١)</sup> ، ولذلك عرفت بدهليز الصين<sup>(٢)</sup> . وقد أعجب المسلمون بالتحف الفنية الصينية ، وخاصة الخزف الصيني ، فقلدوه في العصر الفاطمي ، وحاول الخزاف المشهور سعد ومن حذا حذوه من تلاميذه أن يصنعوا نوعاً من الخزف ذي الزخارف المحفورة تحت الدهان ، كانوا يقلدون به خزف سونج الصيني<sup>(٣)</sup> .

وقد بلغت شهرة مصر في صناعة النسيج إلى بلاد ما وراء النهر ، فقلدت الثياب الدبيقية بنواحي خوارزم ، كما قلدت الثياب الأشمونية في بخاري ، وعرفت هناك باسم ثياب أشموني<sup>(٤)</sup> . ويبدو أن مصر كانت تصدر من منتجاتها زيت الفجل الذي كان يحمل إلى العراق وغيرها ، والمسل النحل الذي كان يفتخر به على أعمال الدنيا ، ودهن البلسان ، ودهن الخروع<sup>(٥)</sup> . وكانت مصر أيضاً من بين الأقطار المصدرة للشب ، وشبها يعرف بالشب الواحي ، ويفوق الشب الباني ، كذلك كان يصدر منها في العصر الفاطمي البز الأبيض الدبيقي ووشى الاسكندرية ، وأنطاخ الصعيد ، وستور البنسنا ، ونطوع الحز الإخيمية ، بالإضافة إلى الكتان الذي كان يحمل إلى سائر أنحاء العالم ، والزمرد<sup>(٦)</sup> والسكر .

(١) ابن خردادبة ، ص ١٥٣ - ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٧٠ .

(٢) القديمي ، ص ٣٤ .

(٣) ذكي حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٤) القديمي ، ص ٣٢٤ .

(٥) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٩٣ .

(٦) نفس المصدر ، ص ١٩٤ .



## مراجع القسم الأول



## المراجع

- ١ - ابن الأبار ( أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي ) :  
كتاب الحلة السيرة ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، جزآن ، ١٩٦٣ .
- ٢ - ابن أبي دينار القيرواني :  
المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، تونس ، ١٢٨٦ هـ .
- ٣ - ابن الأثير ( علي بن أحمد بن أبي الكرم ) :  
كتاب الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ ( وطبعة صادر ، بيروت ، ١٩٦٥ ) .
- ٤ - الإدريسي ( الشريف أبو عبدالله محمد ) :  
صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، طبعة لندن ١٨٩٤ - ووصف فلسطين  
والشام ، تحقيق جوانيس جيلديستار ، برن ١٨٨٥ .
- - أرسلان ( الأمير شكيب ) :  
تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٥٢ هـ .
- ٦ - البراوي ( الدكتور راشد ) :  
حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ٧ - پروفسال ( الأستاذ ليثي ) :  
الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور عبد العزيز سالم والأستاذ صلاح الدين حلي ،  
القاهرة ١٩٥٨ .
- ٨ - البكري ( أبو عبيد الله بن عبد العزيز ) :  
كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره البارون دي سلان ، الجزائر ١٩١١ .
- ٩ - البلاذري ( أحمد بن يحيى بن جابر ) :  
كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ١٠ - البلوي ( أبو محمد عبدالله بن محمد المديني ) :  
سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق الأستاذ محمد كرد علي ، دمشق ، ١٣٥٨ هـ .

- ١١ -- BENJAMIN DE TUDELA  
Viajes de Benjamin de Tudela, Madrid, 1918.
- ١٢ -- BRUNDSCHVIG (R.)  
La Berbérie Orientale sous les Hafsides, Paris, 1940.
- ١٣ -- PELLEGRIN  
Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948.
- ١٤ -- التجاني ( أبو محمد عبد الله بن محمد ) :  
رحلة التجاني ، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ، ١٩٥٨ .
- ١٥ -- ابن تغري بردي ( جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ) :  
النجوم الزاهرة في ملك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- ١٦ -- توفيق ( الدكتور عمر كمال ) :  
مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي ، الإمبراطور حنا تيمسك وسياتته الشرقية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .
- ١٧ -- TORRES BALBAS (L.)  
Atarazanas hispano musulmanas, al-Andalus, vol. XI, 1940.
- ١٨ -- JEANINE-SOURDEL  
Baalabek, in New Encyclop. of Islam.
- ١٩ -- ابن جبير ( أبو الحسين محمد بن أحمد البلبسي ) :  
رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم وايت ، لندن ، ١٩٠٧ .
- ٢٠ -- الجبريني ( محمد أبو راس ) :  
مؤنس الأحبة في أخبار جربة ، تحقيق الأستاذ محمد المرزوقي ، تونس ، ١٩٦٠ .
- ٢١ -- الجوزري ( أبو علي منصور العزيزي ) :  
سيرة الأستاذ جؤذر ، تحقيق الدكتور محمد كامل حسين ، والدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٢٢ -- ابن الجوزي ( أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قيزوغلي ) :  
كتاب مرآة الزمان ، ج ٨ ، طبعة شيكاغو ١٩٠٧ ، وحيدر آباد ١٩٥١ ، ١٩٥٢ .
- ٢٣ -- حسن ( الدكتور حسن إبراهيم ) :  
تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٢٤ -- حسن :  
المعز لدين الله الفاطمي ، القاهرة ، ١٩٤٧ .



HASSAN (Dr. Zaki) — ٢٥  
Les Tulunides, Paris, 1933.

٢٦ — حسن ( الدكتور زكي محمد ) :  
كنوز الفاطميين ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٢٧ — حسن :  
الصين وفنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤١ .

٢٨ — حسن :  
فنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٢٩ — حسين ( دكتور محمد كامل ) :  
الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٣٠ — ابن حديد الصقلي :  
ديوان ابن حديد ، تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٣١ — حميد الله ( دكتور محمد ) :  
مجموعة الوثائق السياسية للمهد النبوي والخلافة الراشدة ، بيروت ، ١٩٦٩ .

٣٢ — الحميدي ( أبو عبد الله محمد بن قنوح الأزدي ) :  
جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، تحقيق الأستاذ محمد بن ثابت الطنجي ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٣٣ — الحميري ( أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم ) :  
منتخبات من كتاب الروض المطار في خبر الأقطار ، خاصة بالجزر والبقاع الإيطالية ، تحقيق الدكتور اومبرو ريتزيتانو ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٨ ، ج ١ ، مايو ، ١٩٥٦ .

٣٤ — الحموي ( الأستاذ محمد ياسين ) :  
تاريخ الأسطول العربي ، دمشق ، ١٩٤٥ .

٣٥ — حوراني ( الأستاذ جورج فاضل ) :  
الحروب والملاحاة في المحيط الهندي ، ترجمة الدكتور يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٣٦ — ابن حوقل النصيبی :  
كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢ .

٣٧ — ابن خرداذبة : ( أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ) :  
المسالك والممالك ، لندن ، ١٨٨٩ .

- ٣٨ - ابن خلدون : ( عبد الرحمن بن محمد ) :  
مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٥٧ ،  
( أربعة أجزاء ) .
- ٣٩ - ابن خلدون :  
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ .
- ٤٠ - ابن الخطيب ( لسان الدين ) :  
كتاب أعمال الأعلام ، الجزء الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، الأستاذ  
محمد إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .
- DOZY (R.) - ٤١  
Supplément aux dictionnaires arabes, 2 vols. Beyrouth, 1968.
- ٤٢ - ديل ( شارل ) :  
البنديقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٤٨ .
- DIEHL (Charles) - ٤٣  
Histoire du Moyen-âge, t. III : Le Monde Oriental, Paris, 1936.
- ٤٤ - الذهبي ( الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد ) :  
العبر في أخبار من غير ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٦٠ .
- ٤٥ - رسم ( الدكتور أسد ) :  
الروم والعرب ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٦ .
- Recueil des Historiens des Croisades, t. III. - ٤٦
- ROUSSET - ٤٧  
Histoire des Croisades, Paris, 1957.
- ٤٨ - زكي ( الدكتور عبد الرحمن ) :  
الصلاح في الإسلام ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ٤٩ - زيتون ( الأستاذ محمد محمود ) :  
الصين والعرب عبر التاريخ ، سلسلة اقرأ ، عدد ٢٥٣ ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ٥٠ - سالم ( الدكتور السيد عبد العزيز ) :  
الصلوات التاريخية بين الشام ومصر في العصر الإسلامي ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ،  
بيروت ١٩٦٤ .
- ٥١ - سالم :  
المغرب الكبير ، ج ٢ : العصر الإسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٦ .

- ٥٢ - سالم :  
دراسات في تاريخ العرب ، ج ١ : عصر ما قبل الإسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .
- ٥٣ - سالم :  
طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .
- ٥٤ - سالم :  
تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٥٥ - سالم :  
تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي (طبعة ثانية) الاسكندرية ، ١٩٦٩ .
- ٥٦ - سالم :  
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٧ .
- ٥٧ - سالم والدكتور مختار العبادي :  
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ، ١٩٧٠
- ٥٨ - سالم :  
تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ٥٩ - سالم :  
دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٦٠ - سالم :  
قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ٦١ - سالم :  
تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ٦٢ - سرور : ( دكتور محمد جمال الدين ) :  
دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية في المصور  
الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٦٣ - سرور :  
سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ٦٤ - سلام ( دكتور محمد زغلول ) :  
الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ .
- ٦٥ - سليم ( الدكتور محمود رزق ) :  
التيل في عصر المماليك ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

- ٦٦ - ابن سعيد ( أبو الحسين علي الأندلسي ) :  
المغرب في حل المغرب ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ، تحقيق الدكتور زكي محمد حسن وآخرين ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ٦٧ - سوفاجيه ( الأستاذ جان ) :  
دمشق للشام ، لحة تاريخية ، ترجمة الأستاذ فؤاد أفرم البستاني ، بيروت ، ١٩٣٩ .
- ٦٨ - السيوطي ( جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ) :  
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، مصر ، ١٣٢١ هـ .
- ٦٩ - السيوطي :  
تاريخ الخلفاء ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٧٠ - أبو شامة ( عماد الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل ) :  
مكتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلمي أحمد ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٧١ - ابن الشحنة ( أبو الوليد محمد الدين محمد الحلبي ) :  
كتاب الدر المنضب في تاريخ مملكة حلب ، تحقيق الأستاذ يوسف سر كيس ، بيروت ١٩٠٩ .
- ٧٢ - ابن شداد ( أبو المحاسن يوسف بن رافع ) :  
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٧٣ - ابن شداد ( عز الدين أبو عبد الله محمد الحلبي ) :  
الأعلان الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، المعهد الفرنسي ، دمشق ، ١٩٥٣ - ١٩٦٢ .
- ٧٤ - الشدياق ( الشيخ طنوس بن يوسف ) :  
أخبار الأعيان في جبل لبنان ، بيروت ، ١٩٥٤ .
- ٧٥ - شميرة ( الدكتور محمد عبد الهادي ) :  
الاسكندرية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، مقال في كتاب غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ .
- CHEIRA — ٧٦  
La Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947.
- ٧٧ - الشيال ( الدكتور جمال الدين ) :  
مجل تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩ .

٧٨ - الشال :

وحدة مصر وسورية في العصر الإسلامي ، محاضرات جامعة الاسكندرية ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

٧٩ - صالح بن يحيى :

تاريخ بيروت ، طبعة دار المشرق ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٨٠ - الصني ( الأستاذ بدر الدين حي ) :

العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٨١ - الضي ( أبو جعفر أحمد ) :

بقية المتن في تاريخ رجال الأندلس ، تحقيق كوديو ، مدريد ، ١٨٨٥ .

٨٢ - الطبري ( محمد بن جرير ) :

تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار القاموس الحديث ، بيروت .

٨٣ - الطرطوسي ( مرضي بن علي بن مرضي ) :

تبصرة أولي الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوار ، تحقيق الأستاذ كلود كلن ، مجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسي بدمشق ، ج ١٢ ، سنة ١٩٤٨-٤٧ ، بيروت ، ١٩٤٨ .

٨٤ - عبد التواب ( الأستاذ عبد الرحمن ) :

ملئتنا المائية عبر التاريخ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٨٥ - ابن عبد الحكم ( عبد الرحمن ) :

فتوح مصر والمغرب والأندلس ، تحقيق الأستاذ عبد النعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١ .

٨٦ - عبد الحميد ( دكتور سعد زغلول ) :

فترة حاسمة في تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب والتربية ، الجامعة اللبنانية ، المجلد الأول ، بنغازي ، ١٩٥٨ .

٨٧ - عاشور ( دكتور سميد عبد الفتاح ) :

الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٨٨ - عثمان ( دكتور فتحي ) :

المسودد الإسلامية للبيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٨٩ - عبد الوهاب ( الأستاذ حسن ) :

الآثار الإسلامية بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

- ٩٠ - العبادي ( دكتور أحمد مختار ) :  
دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .
- ٩١ - العبادي :  
في التاريخ العباسي والفاطمي ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- ٩٢ - المدوي ( دكتور ابراهيم أحمد ) :  
إقربطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرون التسع الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ،  
أكتوبر ، ١٩٥٠ .
- ٩٣ - المدوي :  
الأمريون والبيزنطيين ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ٩٤ - المدوي :  
الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ٩٥ - المدوي :  
قوات البحرية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٩٦ - ابن العديم الحلبي ( كمال الدين أبو القاسم عمر ) :  
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق الدكتور سامي الدغاني ، ج ١ ، دمشق ، ١٩٥١ .
- ٩٧ - ابن عذاري ( أبو العباس أحمد ) :  
البيان المغرب في أخبار المغرب ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٠ .
- ٩٨ - المنذري ( أحمد بن عمر بن أنس بن الدلائي ) :  
ترصيع الأخبار ، وتنويع الآثار ، والبيستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى الممالك ،  
تحقيق الدكتور عبد العزيز الأمواني ، مدريد ، ١٩٦٥ .
- ٩٩ - عريب بن سعد :  
صفة تاريخ الطبري ، لندن ، ١٨٩٧ .
- ١٠٠ - العريفي ( دكتور السيد الباز ) :  
الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ١٠١ - عماد الدين الاصفهاني ( أبو عبد الله محمد ) :  
كتاب الفتح القسي في الفتح القسيمي ، تحقيق الأستاذ محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ١٠٢ - المعري ( شهاب الدين بن فضل الله ) :  
وصف إفريقيا والمغرب والأندلس ، من كتاب مسالك الأبصار ، تحقيق الأستاذ حسن  
حميني عبد الوهاب ، تونس ، ١٩٠٦ .

- ١٠٣ - عنان ( الأستاذ محمد عبدالله ) :  
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، القاهرة ، ١٩٣٤ .
- ١٠٤ - عواد ( الأستاذ ميخائيل ) :  
المآصر في بلاد الروم والإسلام ، بغداد ، ١٩٤٨ .
- ١٠٥ - VASILIEV  
Byzance et les Arabes, t. I Bruxelles, 1935.
- ١٠٦ - أبو الغداء ( الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ) :  
المختصر في أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩ .
- ١٠٧ - ابن الفرات ( ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ) :  
تاريخ ابن الفرات، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت ١٩٣٩ .
- ١٠٨ - FAHMY (Dr. Ali Moh.)  
Muslim sea power in the eastern Mediterranean, Cairo, 1966.
- ١٠٩ - WIET (G.)  
Une inscription d'un prince de Tripoli de la dynastie des Banu Ammar,  
Mémorial Henri Basset, Paris, 1928.
- ١١٠ - القزويني :  
آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠ .
- ١١١ - ابن القطان ( علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي ) :  
جزء من كتاب نظم الجان ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، تطوان .
- ١١٢ - ابن الفلاس ( أبو يعلى حمزة ) :  
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ .
- ١١٣ - القلقشندي ( أبو العباس أحمد ) :  
صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩١٣ .
- ١١٤ - كاشف ( دكتورة سيدة اسماعيل ) وعمود ( دكتور حسن ) :  
مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين ، القاهرة .
- ١١٥ - CANARD  
Les expéditions des Arabes contre Constantinople, dans l'histoire et dans  
la légende, Journal Asiathique, 1926.
- ١١٦ - كرد علي ( الأستاذ محمد ) :  
خطط الشام ، ج ٤ ، دمشق ١٩٣٦ .

- ١١٧ - كرد علي :  
دمشق مدينة البحر والشعر ، سلسلة أقرأ ، عدد ١٦ ، القاهرة ١٩٤٤ .
- ١١٨ - الكندي ( أبو عمر محمد بن يوسف ) :  
كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق الأستاذ رفن جمت ، بيروت ، ١٩٠٨ .
- ١١٩ - LÉVI-PROVENÇAL (E.)  
Histoire de l'Espagne Musulmane, t. II, Leiden, 1950.
- ١٢٠ - لوكاس ( الفريد ) :  
المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة الدكتور زكي اسكندر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
- ١٢١ - لويس ( أرشيبالد ) :  
القرى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ١٢٢ - ماجد ( دكتور عبد المنعم ) :  
نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ١٢٣ - ماجد :  
ظهور دولة الفاطميين وسقوطها في مصر ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .
- ١٢٤ - ماجد :  
تاريخ الحضارة الإسلامية في المنصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ١٢٥ - ماهر ( الدكتور سعاد ) :  
البحرية في مصر الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ١٢٦ - مقرر ( آدم ) :  
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
- ١٢٧ - مجهول :  
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق الدكتور سميد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .
- ١٢٨ - مجهول :  
الحلال المرشدة ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ .
- ١٢٩ - مرزوق ( دكتور محمد عبد العزيز ) :  
الفن المصري الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٢ .



- ١٣٠ - المسعودي ( أبو الحسن علي بن الحسين ) :  
مروج الذهب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٣١ - المسعودي :  
التنبيه والإشراف ، طبعة بيروت ، ١٩٦٥ .
- ١٣٢ - المصري ( علي مصطفى ) :  
ابن حمدى الصقلي ، سلسة أقرأ ، عدد ٢٥٠ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ١٣٣ - المقدسي ( شمس الدين أبو عبد الله محمد ) :  
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة لندن ، ١٩٠٦ .
- ١٣٤ - المقرئ ( أحمد بن محمد التلساني ) :  
فتح الطبيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق الأستاذ محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
- ١٣٥ - المقرئ ( قتي الدين أحمد بن علي ) :  
اتماظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشبال ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ .
- ١٣٦ - المقرئ :  
اتماظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، نسخة مصورة من مخطوطة مكتبة سراي أحمد الثالث بإسطنبول ، محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٠ م
- ١٣٧ - المقرئ :  
الساوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ١٣٨ - المقرئ :  
كتاب المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٣ أجزاء ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ .
- ١٣٩ - المقرئ :  
البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق الأستاذ إبراهيم ومزي ، القاهرة ، ١٩١٦ .
- ١٤٠ - ابن ماتي ( الأسعد بن المهذب ) :  
كتاب قوانين الدراوين ، تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ،  
( طبعة مطبعة الوطن ببولاق ، القاهرة ١٩٢٢ هـ ) .
- ١٤١ - ابن منجب الصيرفي :  
الإشارة إلى من نال الوزارة ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

- ١٤٢ - ابن منظور ( جمال الدين محمد ) :  
لسان العرب ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ .
- ١٤٣ - ابن منكل ( محمد ) :  
كتاب الأحكام اللوكسية والقضوابط التموسية في فن القتال في البحر ، لوحة ٤١ ،  
للجانب ٢٩ ، نسخة مصورة محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية رقم ٩ م .
- ١٤٤ - مؤنس ( دكتور حسين ) :  
أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية في البحر المتوسط ، المجلة التاريخية  
المصرية ، مايو ١٩٥١ .
- ١٤٥ - مؤنس :  
المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية  
المصرية ، المجلد ٤ ، ١٩٥١ .
- ١٤٦ - مؤنس :  
فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ١٤٧ - ناصر خسرو :  
سفرنامه ، ترجمة الدكتور يحيى الحشاش ، القاهرة ، ١٩٤٥ ( وطبعة بيروت ١٩٧٠ )
- ١٤٨ - الناضوري ( دكتور رشيد ) :  
أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٨
- ١٤٩ - نسيم ( دكتور جوزيف ) :  
الوحدة وحركات اليقظة إبان المدبران الصليبي ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .
- ١٥٠ - نسيم :  
العرب والروم واللاتين ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .
- ١٥١ - النعمان ( القاضي أبو حنيفة بن محمد المغربي ) :  
المجالس والمساربات ، مخطوطة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٦٠ ، وقطعة  
نشرها الأستاذ فرحات الدشرابي ، بعنوان « قضية إقريطش في عهد المزمز لدين الله » ،  
حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ، تونس ، ١٩٦٥ .
- ١٥٢ - النعمان :  
دعائم الإسلام ، تحقيق الأستاذ آصف علي فيضي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ١٥٣ - النويري ( محمد بن قاسم السكندري ) :  
الإمام بما جرت به الأحكام القضية في وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من مخطوطة  
الهند ، محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، برقم ٧٣٨ م

- ١٥٤ - النوري ( شهاب الدين أحمد ) :  
 نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة محفوظة بـدار الكتب المصرية ، برقم ٥١٩ .  
 معارف عامة .
- ١٥٥ - ابن هانيء الأندلسي :  
 كتاب تبين الماني في شرح ديوان ابن هانيء الأندلسي المغربي ، تحقيق الدكتور زاهد علي ، مصر ، ١٣٥٢ هـ .
- ١٥٦ - HEYD (W.) :  
 Histoire du Commerce du Levant, 2 vols., Leipzig, 1885.
- ١٥٧ - الحمداني ( أبو محمد الحسن بن أحمد ) :  
 كتاب الإكليل ، الجزء الثامن ، تحقيق الدكتور نبيه أمين فارس ، برنستان ، ١٩٤٠ .
- ١٥٨ - الحمداني :  
 صفة جزيرة العرب ، تحقيق الأستاذ محمد بن بليهد النجدي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ١٥٩ - الحمداني : ( ابن الفقيه ) :  
 مختصر كتاب البلدان ، لندن ، ١٨٨٥ .
- ١٦٠ - هونيرباخ ( ولهم ) :  
 البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ، تطوان ، ١٩٥٤ .
- ١٦١ - ابن واصل ( جمال الدين ) :  
 تاريخ الراصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين ، نسخة مصورة من مخطوطة باريس ، محفوظة بالمكتبة العامة بجامعة الاسكندرية ، برقم ٦٤ .
- ١٦٢ - ابن الوردي ( زين الدين عمر ) :  
 تمة المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، القاهرة ١٢٨٥ .
- ١٦٣ - ياقوت الحموي ( شهاب الدين أبو عبد الله ) :  
 معجم البلدان ، خمسة مجلدات ، بيروت ، ١٩٥٥ .
- ١٦٤ - يحيى بن سعيد الانطاكي :  
 صفة كتاب سعيد بن بطريق ، بيروت ، ١٩٠٩ .
- ١٦٥ - اليعقوبي ( أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ) :  
 كتاب البلدان ، لندن ، ١٨٩١ .
- ١٦٦ - اليعقوبي :  
 تاريخ اليعقوبي ، طبعة دار صادر ، بيروت ( جزآن ) وطبعة النجف ، ٣ أجزاء ، النجف ، ١٣٨٥ هـ .
- ١٦٧ - يني ( جرجي ) :  
 تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١ .



البحرية الإسلامية في مصر والشام  
في عصر الأيوبيين والمماليك

للدكتور أحمد مختار العبادي



## تمهيد

امتازت مصر بموقعها الجغرافي الفريد بين القارات الثلاث : أوروبا وآسيا وأفريقيا ، وقد لعبت الملاحة دوراً هاماً في ربط مصر بشعوب تلك البلاد عن طريق البحر الأبيض المتوسط شمالاً ، والبحر الأحمر شرقاً ، ثم بحر النيل الذي يربط بين أجزائها وبين شعوب أفريقيا جنوباً .

وهذا التعدد في أنواع البحار التي تطل عليها مصر ، قد فرض عليها اتخاذ سياسة خاصة تتفق مع كل جبهة من هذه الجبهات البحرية المختلفة .

فكل بحر من هذه البحار الثلاثة - الأبيض والأحمر والنيل - له تاريخه وأحداثه وسفنه وتجارته وقواعده الخاصة به . ومن ثم رأيت أن يكون حديثي عن البحرية العربية أيام الأيوبيين والمماليك ، مبنياً على أحداث هذه البحار الثلاثة في تلك الفترة من تاريخ مصر ، وليس على أحداث كل دولة على حدة ، لأن كلتا الدولتين لم تأت مصر على فراغ ، وإنما وجدت فيها جذوراً تاريخية وحضارية ، ومؤثرات جغرافية وجهت سياستها وحددت لها معالم الطريق . وعلى هذا الأساس قسمت هذا الموضوع إلى ثلاثة أبواب :

١ - الباب الأول عن البحرية النيلية ، تكلمت فيه عن بحسر النيل النيل وسحابة ودور صناعته وسفنه والأحداث التاريخية والمواقع البحرية التي وقعت فيه على عهد الأيوبيين والمماليك .

٢ - الباب الثاني عن البحر الأحمر وقواعده ومراكبه وأهميته لمصر بحكم اتصاله بالحجاز واليمن والمحيط الهندي وتجارة الشرق ، مع ذكر

المواقع الحربية التي وقعت في مياهه أبان الفترة التي ندرسها .

٣ - والباب الثالث عن البحر الأبيض المتوسط الذي يربط مصر والشام بأوروبا والمغرب العربي ، مع بيان أهم أحداث الحرب والسلام التي دارت في مياهه العربية على عهد الأيوبيين والمماليك .

وكان ديوان الأسطول هو الديوان المختص بالنفقة على شؤون القوات البحرية من سفن حربية وجند وبجارة وأسلحة ومؤونة بالإضافة إلى دور الصناعة التي قامت بأعمال الصيانة اللازمة للأسطول . وكانت شؤون الأسطول قبل ذلك على عهد الفاطميين تتبع ديواناً اسمه « ديوان جيش المصريين » فجاء صلاح الدين وغيره إلى ديوان الأسطول ، وولّى عليه قائداً من قبله عرف بصاحب الأسطول ، وكتب إلى جميع الأعمال المصرية والشامية يؤكد عليهم وجوب طاعته وتلبية طلباته : « القول قول صاحب الأسطول وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه »<sup>(١)</sup> .

وخصص صلاح الدين لديوان الأسطول متحصلات إقليم الفيوم ، والحبس الجبوتي ، وحراج السنط ، وحصيلة النطرون التي بلغت وقتذاك ٨ آلاف دينار ، وذلك فضلاً عن متحصل الزكاة وقدره أكثر من ٥٠ ألف دينار ، وأجرة المراكب الديوانية . وأضيف إلى تلك المتحصلات المخصصة لديوان الأسطول ، حصيلة قريتي اثنتين وطنيندي التابعتين لعمل البهنسا بحافظة المنيا الحالية ، وفي سنة ١١٩١ م ( ٥٨٧ هـ ) عين صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ، فعيّن صفي الدين ابن شكر نائباً في ذلك الديوان<sup>(٢)</sup> .

ولقد أهتم صلاح الدين بزيادة مرتبات المستقلين في الأسطول الذين كانوا

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٦٩ حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٧١ ( القاهرة ١٩٦٤ ) .

(٢) المقرئ : السلك لمرفعة دول الملوك ج ١ ص ٧٣ ، ١٠٨ .



يأخذون روايتهم حسب دينار الأسطول . وكان دينار الأسطول مثل دينار الجيش مسمى لا حقيقة ، غير أن المراجع المختلفة لا تسعف بشيء في هذا الموضوع ما عدا أن صلاح الدين قرر سنة ١١٧١ م ( ٥٦٧ هـ ) أن يكون دينار الأسطول  $\frac{3}{4}$  الدينار العام ، بعد أن كان  $\frac{5}{8}$  ذلك الدينار على عهد الفاطميين . ويبدو أن قيمة ذلك الدينار اختلفت باختلاف درجات رجال الأسطول <sup>(١)</sup> .

وبعد عهد صلاح الدين صار الاهتمام بأمر الأسطول يتوقف على مدى قوة أو ضعف الخطر الصليبي على السواحل العربية ، ففي أيام السلطان الكامل محمد وولده السلطان الصالح أيوب ، شهدت مصر إهتماماً بالأسطول الأيوبي نتيجة للحملات الصليبية التي هاجمت السواحل المصرية بقيادة جان دي برين صاحب عكا ، ولويس التاسع ملك فرنسا . ويظهر لنا هذا الاهتمام أيضاً في الوصية التي كتبها الصالح أيوب قبل وفاته لابنه وولي عهده تورانشاه ، ويقول فيها : « واحفظ يا ولدي ما أقوله لك فهذا جميعه ما عرّفتني به الأخ فخرالدين ، وأخبرني أنه وقف على كتاب بخط صلاح الدين أن الفيوم ومنود والسواحل والحراج للأسطول ، فالأسطول أحد جناحي الإسلام ، فينبغي أن يكونوا شباعاً ، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة دائبة ، جاؤوا من كل فج عميق ، وهم رجال معروفون بالقذف والقتال » <sup>(٢)</sup> .

ولقد حرص سلاطين المماليك بعد ذلك على الاحتفاظ بأسطول قوي ، لاسيما بعد أن تركز الخطر الصليبي في جزيرة قبرص ، واشتدت غارات القبارصة على سواحل مصر والشام . وقد أشار قدامة إلى أن نفقات

(١) المقرئ : السلو ج ١ ق ١ ص ٤٥ ، حسنين محمد وبيع : نفس المصدر ص ٧٢ .  
(٢) النويري (شهاب الدين أحمد) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٧ ورقة ٩١ - ٩٢ (خطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) ويقوم الزميل الدكتور جوزيف نسيم بشر هذه الوصية كلمة في مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

الأسطول العربي عندما كان يستعد للغزو في ذلك الوقت ، بلغت نحو مائة ألف دينار» (١) .

وتمكنت مصر في النهاية من القضاء على هذا الورك الصليبي الخطير عندما احتلت جزيرة قبرص سنة ١٤٢٦ م ، ولكنها لم تلبث أن اصطدمت بخطر التوسع البرتغالي الذي سلبها تجارتها وأموالها في المحيط الهندي والبحر الأحمر ، ثم بالخطر العثماني التركي الذي سلبها أرضها وممتلكاتها سنة ١٥١٧ م فكان ذلك بداية لمصر جديد .

---

(١) محمد ياسين الجوي : تاريخ الأسطول العربي ص ٨٩ ، سماد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٠٢ .

## الباب الأول

البحريّة النيليّة  
في عصري الأيوبيين والمماليك



## الباب الأول

### البحرية النيلية في عصر الأيوبيين والمماليك

ارتبطت حياة المصريين بالنيل<sup>(١)</sup> ارتباطاً وثيقاً ، فهو الذي يروهم ويروي أراضيهم ، ولولاه لكانت مصر جزءاً من الصحراء الممتدة على جانبي الوادي . وقد بلغ من حب المصريين له أنهم قدسوه وألوهوه من قديم وأطلقوا عليه لاسم حابي . أما لفظ نيل الذي عرف به حتى اليوم ، فقد أطلقه عليه اليونانيون ، وهو مشتق من كلمة نيلوس ، وعندهم انتقل هذا الاسم إلى مختلف اللغات . وعندما فتح العرب مصر ، ظاولوا يستعملون لفظ النيل للدلالة على النهر ، ولم ينكروا أصله اليوناني ، وإن أطلقوا عليه أيضاً اسم البحر كما فعل المصريون القدماء من قبل حيناً أطلقوا عليه اسم يارو أي البحر العظيم .

ولقد ظلت موارد الدولة على مدى العصور تعتمد على النيل ، تبعاً لارتفاعه وانخفاضه ، وما يخرج ريفه<sup>(٢)</sup> من غلات ومحاصيل . ولما كان يجري النيل بمصر صالحاً للملاحة ، فإنه أصبح الطريق الرئيسي لنقل البضائع والمحاصيل والمسافرين من مكان لآخر سواء في داخل البلاد نفسها أو إلى الثغور البحرية كالاسكندرية ودمياط ورشيد والقرما<sup>(٣)</sup> .

(١) يقدر طول النيل بنحو ٦٥٠٠ كم .

(٢) المقصود بالريف في مصر هو الأراضي الداخلية المتاخمة للنيل ، بينما تطلق في المغرب والأندلس على الأراضي المتاخمة للبحر أو المحيط ، فيقولون ريف البحر وأرأف المدة والأندلس . ثم صار هذا اللفظ اسماً عاماً على الجبال الممتدة بمحاذ البحر المتوسط في شمال المغرب الأقصى وهي جبال الريف التي ينتمي إليها بطل الريف عبد الكريم الخطابي .

(٣) محمد حمدي النواوي : نهر النيل في المكتبة العربية ص ٩ .

وفي زمن الفيضان عندما يغمر الماء الأرض، كان الانتقال بين القرى غير ميسر إلا عن طريق القوارب وخفاف المراكب. كذلك كان الاتصال بين شاطئ النيل يتم - كما هو الحال اليوم - أما عن طريق سفن خاصة تعبر بين شاطئيه، أو عن طريق الجسور (الكبارى) التي لم تكن في ذلك الحين إلا سفناً متراسة بجانب بعضها، ومغطاة بألواح خشبية ليمر عليها الناس ببضائعهم ودوابهم.

### حراج خشب السفن في وادي النيل:

ومن المشاكل الرئيسية التي واجهت الحكومة المصرية على مر العصور، مشكلة الحصول على المواد الخام اللازمة لبناء السفن مثل الخشب والحديد والكتان والقطران والزفت... الخ. وكان الخشب هو أهم تلك المواد بطبيعة الحال. وقد عني قدماء المصريين بغرس أنواع من الأشجار التي جلبوها من وسط أفريقيا والهند مثل شجر السنط *acacia*، والطرفاء أو الأثل *Tamarisk*، واللخ *Lebeks*، والجميز *Sycamore*، والسدر (التبق) *Nabk*.

وقد أشار الرحالة اليوناني استرابون الذي زار مصر في القرن الأول قبل الميلاد، إلى وجود غابات من شجر السنط بنواحي ممفيس وأبيدوس (العراة المدفونة) في صعيد مصر. كذلك استوردت مصر خشب الأرز والصنوبر من الشام والبلقان وخشب الأبنوس من الحبشة والسودان<sup>(١)</sup>.

وفي العصر الإسلامي استمرت الحاجة ملحة إلى خشب السفن خصوصاً بعد اشتداد الضغط المسيحي وامتناع بعض الدول المسيحية من تصديره إلى مصر. ومن المعروف أن موقعة الصواري التي انتصر فيها الأسطول المصري على الأسطول البيزنطي سنة ٦٥٤ م (٤٣٥ هـ) ما هي إلا مظهر

(١) أنظر: A. F. Weheba: The Agriculture of Egypt during the Arab Period: p. 642-1517 A. D. p. 134-141, (Thesis of. M. A. unpublished, University of London 1952).

من مظاهر ذلك الصراع العنيف بين المسلمين والبيزنطيين من أجل الحصول على خشب الأناضول ( آسيا الصغرى ) .

لهذا عني ولاية مصر وملاصقتها بزيادة انتاج الخشب المحلي عن طريق غرس أشجار السنط واللبنج والجميز والطرفاء أو الاثل على ضفاف النيل أو حول ضياعهم وبساتينهم الشاسعة . كذلك حرص هؤلاء الحكام على احتكار تجارة الخشب ومنع الناس من التصرف في أعواده ، وتشديد الحراسة على حراجه ولا سيما حراج السنط acacia التي كانت تعرف باسم الحراج السلطانية<sup>(١)</sup> .

وقد ذكر التابلسي أن صلاح الدين الأيوبي اعتبر هذه الحراج السلطانية كأنها من المعادن ، ليس لأحد فيها ملك ولا اختصاص ، فهي لبنت المال وقد عملت بها أوراق غلدة في الدنوان<sup>(٢)</sup> .

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تحديد مساحة هذه الحراج المصرية ، إلا أنه من المعروف أنها كانت توجد في أماكن مبعثرة في جنوب الدلتا وصعيد مصر .

ففي جنوب الدلتا كان يوجد بضواحي مصر والقاهرة كالمطرية وما حولها شجر سنط يساوي ما يقرب من مائة ألف دينار . وكذلك الحال بالنسبة لحراج السنط في قلوب والأراضي القريبة منها مثل ناي وطنان . هذا إلى جانب ما كان يوجد في الجزيرة من سنط وائل وغير ذلك<sup>(٣)</sup> .

(١) أنظر : (Aly Bahgat: Les Forêts en Egypte, Bull. Inst Egyp. 1900).

(٢) عثمان بن إبراهيم التابلسي (ت ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ص ٤٥ - ٦٠ . (Bulletin d'Études Orientales. t. XVI, 1958-1960 . Damas 1961) . وقد ألف التابلسي هذا الكتاب برسم خزانة السلطان الصالح نجم الدين أيوب .

(٣) التابلسي: كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ص ٤٥ - ٦٠ ويشير القرطبي (اتماغل الحنفا ص ٢٧٧) إلى أن الخليفة العزيز بالله الفاطمي خرج إلى الجزيرة ليصيد سمياً ، ثم عاد وهو بين يديه . وهذا قد يؤيد ما رواه التابلسي من وجود حراج في الجزيرة .

أما حراج الصعيد ، فكانت أكثر من ذلك ، إذ يروي كل من ابن ماتي والمقرزي أنه في عهد صلاح الدين « كان يوجد في الأشمونين وفي أسيوط وأخميم وقوص<sup>(١)</sup> أشجار من سنط لا تحصى كثرة ، لها حراس يحومونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه . وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار . وكان يستخرج من هذه النواحي مال يقال له رسم الحراج ، ويحتج في جبايته بأنه نظير ما تقطعه أهل النواحي ، وتنتفع به من أخشاب السنط في عمارة طواحينهم وسواقيهم وخشب النار . وآخر ما كان يجبي منهم يعرف بمقرر السنط ، وهو بمثابة اجرة قطع الخشب وحزمه وحمله من الحراج بدلًا منهم . وكان على المستخدمين في ذلك أن لا يقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الأسطول لكنهم انما يقطعون الأطراف التي ينتفع بها في الوقود فقط . ويقال لهذا الذي يقطع حطب النار ، فيباع للتجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير ، ويكتب على أيديهم زنة ما بيع عليهم ، فاذا وردت المراكب بالحطب إلى ساحل مصر ، اعتبرت عليهم وقوبل ما فيها بما عين في الرسالة الواردة واستخرج الثمن على ما في الرسالة . وكانت العادة أنه لا يباع بما في البهناوية إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية »<sup>(٢)</sup> .

على أن هذه العناية بالحراج لم تلبث أن أخذت تقل تدريجياً منذ أواخر أيام الدولة الأيوبية ، « وصار العوام والخواص على مر الزمان يقطعون منها ما يحتاجونه بالزر اليسير ، ويحضرونه إلى ساحل مصر ويصالحون ديوان ساحل السنط على الثلث المقرر للديوان بشيء يسير ، ويبيعونه بالأموال المستكثرة حتى لما صار هذا مكسبه ، صار جماعة من الأعيان المتكشيين

(١) ذكر صاحب كتاب الاستبصار ( ص ٨٧ ) أنه بالقرب من قوص وقط كان يوجد على أيامه ( ق ١٢ م ) شجره كثيفة .

(٢) الأسمد بن ماتي ( ت ١٢٠٩ م ) : قوانين الديوانين ص ٣٤٥-٣٤٧ ، المقرزي : الخطط ج ١ ص ١١١ ، ١٩٤ .



على الدنيا يبعثون ويحضرون السنط ويبيعونه وكلاؤهم بالجل . وكذلك كان الحال بالنسبة لأهل الصعيد الذين حول الحراج بمن قرب وبعد ، صاروا يقطعون ما يحتاجونه من السواقي وآلات المعاصر وغيرها ، وما يوقدون به في معاصرهم بالجل الكثيرة على مر الزمان »<sup>(١)</sup> .

وهكذا أخذت حراج السنط في الاختفاء بحيث لم يبقه القرن الثالث عشر الميلادي إلا وكانت حراج الدلتا في طنان وبطي وقلوب والجيزة قد اختفت تماماً ثم تلتها حراج الصعيد في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي ، وتحولت معظمها إلى أراضي زراعية<sup>(٢)</sup> . فالقريزي الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي يقول إنه على أيامه : « قد بطل هذا جميعه ، واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة » ونسي هذا من الديوان »<sup>(٣)</sup> .

على أن اختفاء حراج السنط من ضفاف النيل لم يمنع من وجودها في أماكن أخرى من الديار المصرية ، مثال ما يرويه بعض المؤرخين من أن أشجار السنط كانت تنمو بكثرة في شبه جزيرة سيناء وحول السويس ، وأن صلاح الدين اهتم بتلك الأشجار لأهمية أخشابها في بناء السفن في وقت اشتدت فيه الحرب البرية والبحرية ضد الصليبيين حتى بلغ ثمن العود الواحد من تلك الأشجار مائة دينار . وفي عصر المماليك ظلت القوافل تحمل أخشاب شجر السنط بانتظام بين السويس والقاهرة مما أضفى على السويس أهمية اقتصادية خاصة<sup>(٤)</sup> .

ومن الأشجار الأخرى التي استخدمها المصريون في بناء سفنهم ، نذكر شجر اللبغ Lebebs الذي يشبه السنط في قوته وله زهرة زكية الرائحة

(١) التابلسي : المرجع السابق ص ٤٨ .

(٢) القريزي : المخطوط ج ١ ص ١٢٠ . (Wecheba Op. cit. p. 140 & Bahgat A. : Op. cit.)

(٣) القريزي : المخطوط ج ١ ص ١١٠ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : مدينة السويس ومنطقتها منذ الفتح العربي إلى بداية العصر الحديث

ص ٧٧ ( كتاب السويس في سلسة بلادنا ) .

بسمها العامة «دقن الباشا» . وقد وصف خشبه بعض المؤرخين أمثال أبي حنيفة الدينوري (ت ٨٩٥ م) وعبد اللطيف البغدادي (ت ١٢٣١ م) والمقريزي (ت ١٤٤٢ م) ، فقالوا بأنه عود تنشر منه ألواح السفن ، وربما أرعفت ثاشرها ، وأن أصحاب المراكب يستخدمونه لبعض العمل ، فإذا ضم منه لوحان ضمّاً شديداً وجعلاً في الماء سنة التحما وصاروا لوحاً واحداً ، ويباع اللوح منه بخمسين ديناراً<sup>(١)</sup> . ويذكر ياقوت الحموي (١٢٢٩ م) بأنه رأى شجر اللبخ في مصر ، وأنه ينبت بكثرة في جميع نواحيها ، بينما ينص المقريزي (ت ١٤٤٢ م) على أنه ينبت بصفة خاصة في مدينة أنصنا<sup>(٢)</sup> (النصبة الحالية) بمركز ملوى .

كذلك كان شجر الجميز من ضمن الأشجار التي استخدم خشبها أيضاً في بناء الأسطول المصري ، وقد أشار إليه المقريزي عند قوله :

«وكان يوجد بشاطئ النيل في جزيرة الروضة صف جميز يزيد على أربعين شجرة قطعت جميعها في الدولة الظاهرية (الظاهر بيبرس) ، وعمر

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٥٥٥ .

(٢) ورد في تاريخ مصر أنه كان يوجد في شرقي النيل بالصعيد بلدة قديمة تسمى بيسا Bésa وفي سنة ١٣٠ م أنشأ الإمبراطور هديران الروماني ملك مصر بأرض هذه البلدة قبراً لقلامه انطونيوس الذي خرق عندما في النيل ، ثم بنى أعیان هذه البلدة مساكنهم حول حدائق هذا القبر ، فعرفت المدينة منذ ذلك الوقت باسم انطنوية Antinóe واختفى اسم بيسا نهائياً . ولم يلبث اسم انطنوية ان حُرف إلى An cina, Eansené, Enselé . سماها العرب أنصنا . وقد وصفها الإدريسي (ق ١٢ م) بأنها مدينة مطلمة كثيرة الدساتين وأن فروعون جلب منها الصحرة في يوم الموعد لقاء موسى النبي (زوجة المشتاق ص ٤٥ ، ٤٦) ويضيف صاحب كتاب الاستبصار (ق ١٢ م) بأنه ينسب إلى هذه المدينة مارية القبطية التي أهداها القوقس إلى الرسول (صلم) (كتاب الاستبصار ص ٨٥) . وقد ظل اسمها يطلق على زمامها لغاية أرائل القرن التاسع عشر الميلادي ، وبسبب خراب مساكن هذه البلدة قيد زمامها باسم الشيخ عبادة سنة ١٨١٥ م وبذلك اختفى اسم أنصنا ، ومكانها اليوم الاطلال الواقعة في حوض مدينة النصبة (المحفة عن انصنا) بأراضي الشيخ عبادة الواقعة شرقي النيل بمركز ملوى . راجع محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، القسم الاول ، الخاص بالبلاد المتدثرة ص ١٢٢-١٢٣ (القاهرة ١٩٥٣) .

بها الشواني عوض الشواني التي كان قد سترها إلى جزيرة قبرص<sup>(١)</sup> .

هذا ، ويشير ابن اياس في مواضع عديدة إلى أن بعض سلاطين دولة المماليك الثانية (البركاسة) استخدموا في انشاء المراكب الحربية « أشجار الغيطان » لأنها كانت تقطع من الغيطان رغم أنف أصحابها ، ومثال ذلك قوله :

« وفي ذي القعدة سنة ٨٦٣ هـ ( ١٤٥٩ م ) رسم السلطان اينال بعمارة المراكب بسبب التجريدة التي عينها إلى قبرص ، وكان الشاد<sup>(٢)</sup> على عمارة المراكب سنقرقرق الزردكاش ، فأظهر في تلك الأيام التي كان شاداً فيها غاية الظلم والفساد ، وقطع أشجار الغيطان غصباً ، وحصل منه للناس غاية الضرر<sup>(٣)</sup> ... وفي رمضان سنة ٨٦٤ هـ ( ١٤٦٠ م ) انتهت عمارة المراكب الأغربة التي أنشأها السلطان بجزيرة اروي<sup>(٤)</sup> ، بسبب التجريدة المعينة إلى قبرص<sup>(٥)</sup> .

وفي موضع آخر يذكر ابن اياس هذه الحادثة بقوله :

وفي سنة ٨٦٣ هـ ( ١٤٥٩ م ) ، حضر إلى الأبواب الشريفة جاك Jacques<sup>(٦)</sup> ابن ملك قبرص ، وطلب من السلطان اينال نجدة ، فعين

(١) المغربي : الخطط ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) الشاد موظف من كتاب الأموال بالدواوين وعمله ضبط أموال الديوان التابع له ، وكلت لكل ديوان من دواوين الدولة ناظر تحت المستوفي والشاد (صح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

(٣) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٦٦ .

(٤) جزيرة اروي أو الجزيرة الوسطى ، تقع في وسط النيل بين بولاق وجزيرة الروضة وبر الجزيرة انحسر عنها الماء حول سنة ٧٠٠ ق ( ١٣٠٠ م ) وتعرف اليوم باسم الجزيرة أو جزيرة الزمالة . راجع ( عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ص ٩٤ ) .

(٥) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٧٦-٧٧ .

(٦) هذا الأمير جاك ابن غير شرعي لملك قبرص جان الثاني دي لوزنيان Jean II de Lusignan وبعد وفاة هذا الملك سنة ١٤٥٨ م تولت الحكم ابنته الشرعية شارلوت التي تزوجت ابن عمها لورنس دي سافوي وأشرعته معه في الحكم . فاضطر أخوها جاك Jacques إلى السفر إلى مصر للاستنجاد بسلطانها اينال الذي قبل طلبه وولاه ملكاً على قبرص وصار يعرف باسم Jacques II le Bâtard ( ١٤٦٠-١٤٧٣ م ) .

راجع ( ابن اياس ) : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٦٥ حاشية ٤ ، تحقيق محمد مصطفى ( القاهرة ١٩٥١ ) .

السلطان معه تجريدة ، وكان باش العسكر ، الأمير يونس الدوادار . ثم أن السلطان شرع في عمارة أغربة بالجزيرة الوسطى ، وكان الشاد على عمارة هذه الأغربة الأمير سنقر قرق الزردكاش فحصل منه غاية الظلم لأرباب الفيضان بسبب الأخشاب . فلما كملت عمارة تلك الأغربة نزل السلطان بنفسه ، وكشف على عمارة الأغربة ، وكان له يوم مشهود ، ونزل من القلعة في موكب عظيم ، وتوجه إلى الجزيرة الوسطى فرموا قدامه الأغربة في البحر والنفط والطبل عمال حتى انتهى ذلك « (١) .

ومن الغريب أن اسم الفيضان كان يطلق أيضاً على بعض أنواع السفن المصرية منذ أيام الفاطميين وقد أشار إليها المؤرخ المغربي ابن القطان عند وصفه لبعض قطع الأسطول المصري التي وصلت إلى المغرب على أيامه ، فيقول : « وفيها ( أي سنة ٥٣٢ هـ - ١١٣٧ م ) كان غزو المراكب المصرية التي وصلت من الاسكندرية ، منها المركب الفيضاني ، والمركب المعجزي ، وكانت عظيمة الجرم جداً ، وكانت فيها أموال عظيمة وخلق كثير » (٢) .

ولا ندري ان كانت هذه المراكب الفيضاني والمعجزي لها علاقة بالخشب الفيضاني وأعجازه ، وكيفما كان الأمر فإنه من الملاحظ أن حكام مصر في مختلف العصور كانوا لا يترددون ، حينما يشع خشب السفن ، في استخدام أي نوع يجدونه من الأشجار ما دام يصلح لهذا الغرض . وقد ظلت هذه العادة مستمرة حتى عهد محمد علي ، إذ يروي الجبرتي أنه اضطر إلى استخدام أشجار التوت والتبنق في عمل المراكب إلى جانب الأخشاب الرومية (٣) .

ومن كل ما تقدم نرى أن مصر رغم انتاجها لأنواع مختلفة من خشب السفن ، فإن هذا الانتاج المحلي لم يسد حاجتها فضلاً عن أنه كان يقل جودة عن الخشب الأجنبي . ولهذا اضطرت مصر إلى استيراده من الشام

(١) ابن الجيس : بدايع الزهور في وقائع الدهور ج ٢ ص ٦٣ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٣٣ - ٢٣٤ نشر محمود مكي .

(٣) الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٤ ص ١٥٨ .

والأناضول والبلقان والبندقية . وغير بعيد كذلك أن يكون تدخل الجيوش الأيوبية والملوكية في افريقية ( المغرب الأدنى ) على عهد صلاح الدين <sup>(١)</sup> ، والظاهر بيبرس <sup>(٢)</sup> ، والناصر محمد بن قلاوون <sup>(٣)</sup> وغيرهم ، كان من دوافعه الحصول على أخشاب هذه المنطقة وكذلك على القطران الذي كان يصنع من زبوت بعض اشجارها ، وقد نص الإدريسي على أن هذه الصناعة كانت راجحة في نواحي طرابلس الغرب في مكان يسمى اللثك .

أما بخصوص خشب الأناضول فيروي ابن بطوطة ( ق ١٤م ) عند كلامه على مدينة العللايا الواقعة على ساحل الأناضول ، أنها كثيرة الخشب ومنها يحمل إلى الاسكندرية ودمياط ، ويحمل منها إلى سائر بلاد مصر <sup>(٤)</sup> .

كذلك يفهم من كلام ابن اياس أنه في أيام دولة المماليك الجراكسة ، جرت العادة أن يخرج جماعة من الأمراء والجنود في عدد من المراكب إلى مكان يسمى الجون لاحضار الأخشاب من هناك . وأغلب الظن أن المقصود بالجون هنا هو مدينة بئر التركية الواقعة على ساحل البحر المتوسط في الأناضول ، إذ يقول ابن اياس في هذا الصدد : « وفي ربيع الأول سنة ٨٨٣ هـ ( ١٤٧٨ م ) عين السلطان قايتباي الأمير وردبش الظاهري بأن يخرج إلى الجون بسبب احضار الأخشاب ، وعين معه جماعة من الجنود ، وأمرهم أن يدخلوا إلى قبرس ويطلبوا أصحابها بالجزية ، ويتوجهون من هناك إلى الجون لاحضار الأخشاب على العادة <sup>(٥)</sup> .

كذلك كانت جمهورية البندقية Venecia تمتد مصر بالخشب والمواد اللازمة لبناء السفن . ففي جميع المعاهدات التجارية التي أبرمت بين مصر وبين البلاد المصدرة للخشب ، نلاحظ أن مصر كانت تنص دائماً على طلب

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٥٩ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٨ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٧ .

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ٢ ص ٢٥٧ ، نشر وترجمة دقيربي وسالحييتي ( باريس ١٩٢٢ ) .

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٢ ؛ صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٣٧ .

خشب الأرز والصنوبر والحديد والقطران وغير ذلك من المواد التي تقوم عليها صناعة السفن والمرامي . وفي بعض الأحيان كانت هذه الدول المسيحية تضطر تحت ضغط الصليبيين والبيزنطيين إلى وقف بيع خشب السفن لمصر ، ولكنها لا تلبث أن تعود ثانية إلى تصديره لها عندما تتفق مصلحتها الاقتصادية مع مصالح المصريين . فحينما هدد البرتغاليون تجارة مصر والبنادقة في المحيط الهندي ، والبحر الأحمر على عهد قنصوه الغوري سلطان مصر ، أرسل إليه البنادقة الأخشاب إلى السويس ومعها عمال ماهرون في إنشاء الأساطيل ، وكان الغرض من ذلك هو مقاومة نفوذ ذلك العدو المشترك في تلك البحار .

### دور الصناعة المطيلة على النيل

من المعروف أن لفظ دار الصناعة في المصطلح الإسلامي يعني المكان الخاص بصناعة السفن وقد انتقلت تلك التسمية بلفظها ومعناها إلى إسبانيا بعد أن فتحها العرب ثم انتشرت من هناك إلى أوروبا في صور مختلفة مثل Arsenal, Atarazana, Darsana ومن الطريف أن هذا اللفظ ارتد إلينا بعد تحريفه في صورة ترسانة كما هو جار على الألسن اليوم .

وقد جرت العادة أن تكون دور الصناعة قريبة من ساحل البحر أو النهر ، وقريبة كذلك من مناطق الخيامات الطبيعية اللازمة لإنشاء السفن وأهمها الخشب . ولهذا كان من الطبيعي أن يكون نهر النيل مركزاً لصناعة الأساطيل الحربية والتجارية في مصر . وذلك لأن خشب السفن كانت أشجاره تنبت في واديه ، وكذلك الكتان الذي تصلح أليافه لعمل الحبال وأدوات السفن<sup>(١)</sup> . ثم إن نهر النيل نفسه كان طريقاً سهلاً لنقل

(١) قال ابن الفقيه (كتاب البلدان ج ٥ ص ٦٦) ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه الدقس كانت تصنع منه حبال السفن وكننت تسمى الفرقس . راجع كذلك (سماد ماهو : البحرية في مصر الإسلامية ص ٣١٢) .

الخامات قبل تصنيعها إلى دور الصناعة المنتشرة على سواحه . وقد أشار ابن ماتي إلى بعض أنواع المراكب الحكومية النيلية التابعة لليونان الأسطول مثل مراكب أرباع الكيل ، والمراكب الملوحة ، التي كانت مهمتها نقل الأخشاب من الحراج إلى دور الصناعة الحكومية <sup>(١)</sup> . ولا شك أنه كانت توجد أيضاً صناعات غير حكومية لبناء السفن الأهلية على امتداد وادي النيل وفروعه مصر . ولا زالت بقايا هذه الصناعات الأهلية مستمرة حتى اليوم .

أما دور الصناعة الرسمية التي ينفق عليها ديوان الأسطول ، فقد أنشئ بعضها في الثغور البحرية المطلّة على البحرين الأبيض المتوسط والأحمر ، وأنشئ البعض الآخر على ساحل النيل وهي التي تهمننا في هذا الباب .

وبلاحظ أن هذه الصناعات الرسمية أو الحكومية التي قامت على ساحل النيل ، قد تركزت بصفة خاصة بمدينة مصر عند قبة الدلتا . ونظراً لأن هذه المنطقة كانت عرضة لتغير مستمر نتيجة لتنقل النيل وعدم استقراره في إقليم الدلتا بوجه عام ، فإن هذه الدور الصناعية لم تتخذ مكاناً ثابتاً على شاطئ النيل بل كانت تتغير على مر العصور نتيجة لانحسار مياه النيل عنها وظهور بعض الجزر أمامها .

ومن أهم دور الصناعات التي أنشئت على ساحل مدينة مصر والجزر المقابلة لها نذكر :

#### ١ - دار صناعة الروضة

وهي أول صناعة أنشئت في النيل عقب الفتح العربي لمصر وكانت تسمى في بادئ الأمر بدار صناعة الجزيرة ثم سميت بصناعة الروضة في العصر الفاطمي نسبة إلى البستان الذي أنشأ في شمال الجزيرة الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ١٠٩٦ م ( ٤٩٠ هـ )

(١) الأمدن بن ماتي : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٤٨ .

وسماه بالروضة . وهذه الجزيرة تقع في النيل ويواجه طرفها الشمالي ما يسمى الآن جاردن سيتي ، والطرف الجنوبي أمام مصر القديمة . وظلت صناعة هذه الجزيرة تعمل منذ الفتح العربي إلى أن حولها محمد بن طنج الأخشيد إلى ساحل النيل بالفسطاط ، وجعل موضعها بستاناً سماه المختار . وفي زمن الفاطميين أعيدت صناعة الجزيرة من جديد وصارت تختص بإنشاء الحرايق والشلنديات ، بينما تخصصت صناعة الفسطاط بإنشاء الشواني وغيرها من المراكب النيلية اللوانية<sup>(١)</sup> . ولما ولي السلطان الصالح نجم الدين أيوب على مصر أنشأ بها قلعة الروضة التي امتدت مبانيها إلى مقياس النيل في طرفها الجنوبي فمرفت أيضاً بقلعة المقياس ، وجعلها مقراً له ولما يليكه البحرية .

وبعد سقوط الدولة الأيوبية ، قلت العناية بجزيرة الروضة وخربت قلعتها ودار صنعتها ، وأهل الجسر الذي يربط بينها وبين مدينة مصر . فلما ولّى السلطان الظاهر بيبرس ، اهتم بمهارة الجسر وقلعة الروضة كما اهتم بدار صنعتها لكثرة ركوبه بحر النيل واعتنائه بمهارة الشواني ولعبها في البحر ، ففدت السفن الحربية والتجارية تصنع في صناعة الروضة تارة ، وفي صناعة الفسطاط أو مصر تارة أخرى<sup>(٢)</sup> .

واستمرت عناية سلاطين المماليك بصناعة الروضة حتى نهاية دولتهم وبداية الاحتلال العثماني . وقد أشار ابن إياس إلى ذلك عند قوله :

« وفي سنة ٩٢٧ هـ ( ١٥٢٠ م ) توجه ملك الأمراء إلى الروضة وكشف على المراكب الحربية التي عمرها هناك ثم شق البحر وطلع من عند قصر ابن العمري وتوجه من هناك إلى القلعة ، فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان »<sup>(٣)</sup> . ويضيف ابن إياس في أحداث السنة التالية ( ٩٢٨ م ) أن

(١) المقرري : السوفك ج ١ ق ص ٣٠١ حاشية ١ ؛ الخطط ج ٢ ص ١٩٦ .

(٢) للمقرري : الخطط ج ٢ ص ١٨٥ ، ٢٩٧ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٤٧ .



جماعة من التجارين والقلافة في دار صناعة الروضة ، توجهوا إلى ملك الأمراء ، وعلى رؤوسهم المصاحف وهم يستغيثون « الله ينصر السلطان سليمان » ، فظن ملك الأمراء أنهم من الجامع الأزهر ثم تبين أنهم تجارون وقلافة أتوا يشكون من الشاد على المراكب التي عمرها ملك الأمراء في الروضة بأنه قد ظلمهم وجار عليهم . فلما كثر منهم الضجيج ، أمر ملك الأمراء من حوله من الانكشارية بضربهم فشتتوا أجمعين » <sup>(١)</sup> .

## ٢ - دار صناعة مصر ( القسطنط ) أو صناعة العائر

أنشأها محمد بن طنج الأخشيد سنة ٩٣٦ م بساحل مصر القديمة وظلت تعمل أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك . فيروي المقرئ أن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي أنشأ بها مراكب مفصلة وحملها على الجمال من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة <sup>(٢)</sup> . وكانت قد ملكها الفرنج ، فنازها في ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ ( ١١٧٠ م ) وأقام المراكب وأصلحها وطرحها في البحر وشحنها بالهاتلة والأسلحة ، وقاتل أيلة في البحر حتى فتحها <sup>(٣)</sup> . ويضيف المقرئ أن هذه المدينة الصناعية قامت بإنشاء السفن والحرايق التي نقلت الأمراء والجنود إلى اليمن على عهد صلاح الدين <sup>(٤)</sup> . ولم تقتصر هذه الصناعة على إنشاء مراكب الغزو في البحر الأحمر أو النيل ، بل أمدت صلاح الدين أيضاً بأساطيل البحر المتوسط أثناء جهاده للصليبيين في الشام . فكانت هذه المراكب بعد تمام إنشائها في صناعة مصر ، تشحن بآلات الحرب والهاتلة ثم تقلع في النيل إلى الثغور الشمالية كالاسكندرية أو رشيد أو دمياط أو الفرما <sup>(٥)</sup> ، حيث تمر من هناك إلى جهاد أعداء

(١) ابن الجاس : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٢) قلعة أيلة أو عقبة أيلة ، ومكانها اليوم العقبة الأردنية ، وإيلات الحاضرة للحكم الإسرائيلي .

(٣) المقرئ : المخطوط ج ١ ص ١٨٥ .

(٤) المقرئ : السلك ج ١ ق ص ٧٤ .

(٥) كان يمر بالفرما قديماً فرع النيل البلوزي ، أما الاسكندرية فكان يربطها بالنيل قناة الخليج التي تقابل ترعة الحمودية اليوم .

الدين من الروم أو الفرنج في البحر المتوسط<sup>(١)</sup> .

وفي عهد كل من السلطان الكامل محمد وولده الصالح أيوب ، قامت دار صناعة مصر بدور هام في إعداد المراكب الحربية التي كان لها الفضل الأول في صد العدوان الصليبي على مصر بقيادة جان دي بريين صاحب عكا ، ثم لويس التاسع ملك فرنسا<sup>(٢)</sup> .

ولقد سار سلاطين المماليك على سنته أسلافهم الأيوبيين من حيث العناية بدار صناعة مصر ، فيروي المقرئ أن السلطان الظاهر بيبرس منع الناس من التصرف في أعواد العمل ( أي خشب السفن ) ، وأمر بإنشاء عشرين شونة ، ولازم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم مدة شهر المحرم سنة ٦٧٠ هـ ( ١٢٧١ م ) إلى أن تم انشاؤها . فلما كان في نصف المحرم سنة ٦٧١ هـ زاد النيل حتى لمبت الشواني بين يديه ، فكان يوماً مشهوداً<sup>(٣)</sup> . ومن طريف ما يحكى أنه بينما كان السلطان بيبرس منهمكاً في الاشراف على عملية بناء هذه السفن الحربية في صناعة مصر ، وفدت عليه رسل ملك صقلية ، فاستقبلهم وهو جالس بين الأخشاب ، والصناع والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشواني وهي تمد ، فراعهم ما شاهدوا<sup>(٤)</sup> .

واقترى ببيبرس سلاطين المماليك الذين جاءوا بعده ، فاهتم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بإنشاء أسطول قوي في صناعة مصر سنة ٦٩٢ هـ وعهد بإعدامه إلى الوزير شمس الدين محمد بن السعوس . فلما كملت عدته ستين شينياً أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والجند ، ثم سار السلطان إلى صناعة مصر لمرض الأسطول وأقام لذلك احتفالاً كبيراً أقبل عليه الناس من كل مكان قبل الاحتفال بثلاثة أيام ، وبنوا لهم أكواخاً من الخشب

(١) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٣٣ .

(٣) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ١٩٤ .

(٤) المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠١ .

وأخصاصاً من القش على شاطئ النيل خارج مدينة مصر ، وعلى شاطئ جزيرة الروضة المقابل له بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله لرؤية ذلك . وركب السلطان من قلعة الجبل بكرة ، ووقف قدام دار النحاس بشاطئ مصر القديمة ، ثم برزت الشواني واحدة بعد واحدة ، وقد عمل في كل شونة برج وقلعة ، وأخذت تقوم بناورات بحرية وتقاتل بعضها بعضاً ، وترمى بالنفط ، كما تبارى البحارة ، وأظهر كل واحد منهم في شونته عملاً معجباً ، وصناعة غريبة يفوق بها صاحبه . ثم تقدم ابن موسى الراعي في مركب نيلية ، ودشن الأسطول الجديد بقراءة الآية الكريمة « بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم » (١) .

وسار السلطان الناصر محمد بن قلاوون على منوال أخيه الأشرف خليل من حيث العناية بصناعة مصر ومراكبها . ففي سنة ٧٠٢ هـ ( ١٣٠٢ م ) ، أنشأ السلطان الناصر في هذا المصنع أسطولاً قوياً غزا به جزيرة أرواد عند ساحل مدينة طرطوس شمالي طرابلس . وقد أعطانا القريري وصفاً للاحتفال الذي أقيم بمناسبة انزال هذه الشواني البحر استعداداً لسفرها إلى طرابلس ، قال :

« فلما كان المحرم سنة ٧٠٢ هـ ( ١٣٠٢ م ) تنجرت عمارة الشواني ، وجهزت بالمقاتلة والآلات ، والنفطية والأزودة مع الأمير جمال الدين أقوش والي البهنسا . واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم في البحر ، ونزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون والأمراء لمشاهدة ذلك . ثم برزت الشواني للعب كأنها في الحرب : فلعب الأول والثاني والثالث . وأعجب الناس بذلك إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب . ثم تقدم الرابع وفيه أقوش ، فما أن خرج من ميناء الصناعة بمصر ، وتوسط النيل حتى لعب به الريح ، ومال به ميله واحدة ، فأنقلب وصار أعلاه أسفله ، فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها ذات الاحمال ،

(١) القريري : الخطط ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

وتكدر ما كانوا فيه من الصفو ؛ وتلاحق الناس بالشيني وأخرجوا من سقط منه في الماء ، فلم يعدم منه سوى أقوش ، وسلم الجميع ، وعاد السلطان والأمراء إلى القلعة <sup>(١)</sup> .

هذا ، ويفهم من كلام المقرئ أن دار صناعة مصر قد توقف العمل فيها بعد ذلك ، إذ تربي جرف في البحر الذي يفصل بينها وبين جزيرة الروضة ، ثم تحولت أرضها إلى بستان عرف ببستان كيسان ثم ببستان الطواشي <sup>(٢)</sup> .

### ٣ - دار صناعة القس أو القشم

أطلق اسم القس على القرية القديمة التي عرفت عند الفتح العربي باسم أم دين ، وهي محلة بظاهر القاهرة على شاطئ النيل ومكانها اليوم محطة باب الحديد وشارع كلوت بك إلى حديقة الأزبكية . وقد أنشأ الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ( ٩٧٢ - ٩٧٥ م ) في هذا المكان داراً كبرى لصناعة الأساطيل عرفت بصناعة القس . كذلك أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ( ٩٩٦ - ١٠٢٠ م ) مسجداً على النيل في تلك المنطقة أيضاً <sup>(٣)</sup> .

وظلت القس <sup>(٤)</sup> تقرأ هاماً للقاهرة كما ظلت دار صناعتها تعمل حتى بداية العصر الأيوبي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي حينما أخذ ماء النيل ينحسر غرباً عن ساحل القس ، وعن سور القاهرة الذي ينتهي عند القس ، فامتلات المنطقة بالرمال ، وظهرت الجزر التي أخذت تزداد سنة بعد أخرى حتى أصبح النيل لا يمر بهذه المنطقة إلا في أيام الفيضان ، أما في باقي أيام السنة ، فكانت قطعة فسيحة من الأرض تكسوها الحلفاء

(١) للمقرئ : السائق ج ١ ق ٣ ص ٢٨ ، الخطط ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) للمقرئ : الخطط ج ٢ ص ١٩٧ .

(٣) كان جامع القس يقع مكان جامع أولاد عتات حالياً في أول شارع إبراهيم باشا .

(٤) القس تحريف لكلمة المكس بمعنى الجباية أو الضرائب حيث كان الماكس ، أو صاحب المكس يقع هناك .

وتنزل فيها بمالك السلطان الرياضة ولرمي النشاب في التلال الرملية الموجودة بها . وعرفت هذه المنطقة منذ ذلك الوقت باسم بولاق . وفي سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ، الثالثة ، ( ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م ) اتجهت العناية إلى تعمير منطقة بولاق ، فسكنها الأمراء والجنود والكتاب والتجار والعامة ، وصارت بولاق ثغراً لمدينة القاهرة <sup>(١)</sup> .

وهكذا نجد أن النيل عند ساحل القاهرة قد ترحل عن مجراه نحو الغرب ، فبعد أن كان يمر بساحل القس (ميدان رمسيس) ، انتقل تدريجياً إلى غربي بولاق .

#### ٤ - دار صناعة بولاق

صارت بولاق ثغراً هاماً للقاهرة ، وقاعدة لصناعة السفن منذ أواسط القرن الرابع عشر الميلادي وقد أشار السيوطي في حوادث سنة ٧٥٧هـ إلى هبوب عاصفة شديدة أغرقت نحو ثلثمائة مركب عند ساحل بولاق <sup>(٢)</sup> . وازدهرت هذه الصناعة بوجه خاص في عصر دولة المماليك الجراكسة (ق ١٥ ، ١٦ م) . وقد وردت نصوص كثيرة في هذا الصدد . نكتفي بذكر بعضها على سبيل المثال . فيروي ابن اياس أن السلطان قنصوه الغوري « توجه نحو طره <sup>(٣)</sup> في صفر سنة ٩١٧هـ وكان سبب نزوله إلى هناك هو عرض المركب الكبير الغليون الذي عمره في بولاق عند الرصيف ، فلما كمل ، زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل ، وتوجهوا به إلى طرا وعرضوه على السلطان في البحر ، ورموا قدامه بالمدايق ذهاباً وأياباً كما

(١) الفرزي : الخطط ج ٢ ص ١٨٥ - ١٨٦ ، سعاد ماهر ، القاهرة القديمة وأحيائها ( المكتبة الثقافية ١٩٦٢ ) ص ٦٧ - ٦٨ ، عبد الرحمن زكي : القاهرة ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ( القاهرة ١٩٤٣ ) .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣) طره اسمها المصري القديم طاور ، قرية قديمة على الشاطئ الشرقي للنيل جنوب القسطنطينية وكان فوق جبلها منارة قديمة الآن شهيرة بمحارجها .

وراجع (عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ص ١٥٤) .

فعل قبل ذلك لما عرض المراكب الأغرابة . فقد هناك أسمطة حافلة ،  
وابتهج في ذلك اليوم ، وكان يوماً مشهوداً<sup>(١)</sup> . ويضيف ابن اياس أن  
السلطان الغوري أنشأ بعد ذلك بستين مركباً ببولاق على صفة المركب  
القديم المسماة بالذهبية ، فلما فرغ منها العمل ، أمر بأن تزين بالصناجق  
ويضعوا فيها الطبول والزمور والنفوط ، وتجيء وهي على هذه الهيئة من  
بولاق إلى تحت المقياس حتى يشاهدها السلطان وهو بالمقياس ، فأنشراح  
السلطان في ذلك اليوم إلى الغاية<sup>(٢)</sup> .

ولقد استمرت دار صناعة بولاق تعمل إلى ما بعد انتهاء دولة المماليك  
في مصر بوقت طويل ، وقد أفاد ابن اياس في ذلك وحسبنا أن نقبض  
بعض كلامه عن بداية العصر العثماني ، يقول : « وفي صفر سنة ٩٢٧ هـ ( ١٥٢٠ م )  
نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه إلى بولاق وكشف على المراكب التي  
عمرها هناك ، فأنزلوها إلى البحر قدامه .. وحينما عزم السلطان العثماني على  
غزو جزيرة رودس ، واحتاج إلى المراكب والغزاة ، صار واليه على مصر  
يركب ويكبس على ساحل بولاق ومصر العتيقة ، ويقبض على النواتية  
والفلاحين والمغاربة ، فهرب الناس قاطبة من السواحل »<sup>(٣)</sup> .

#### ٥ - دار صناعة الجزيرة الوسطى أو جزيرة أروى ( الزمالك )

هذه الجزيرة انحسر عنها الماء خلال سنة ٧٠٠ هـ ( ١٣٠٠ م ) ، وهي  
تقع في وسط النيل بين جزيرة الروضة ، وجزيرة الجيزة ، وبولاق ، وبر القاهرة .  
وكانت تعرف بالجزيرة الوسطى أو جزيرة أروى<sup>(٤)</sup> ، أما اليوم فتعرف  
بإسم الجزيرة أو جزيرة الزمالك<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن اياس : صفحات لم تشر من بدائع الزهور ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) ابن اياس : نفس المربع السابق ص ٢٩٨ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٠٣ .

(٤) أطلق اسم أروى على عدة شخصيات نسائية منها والدة الخليفة عثمان بن عفان ، وأروى بنت  
عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الألبانية في تاهرت بالجزائر والملكة الحرة أروى  
الصليحية في اليمن . راجع كتابنا ( دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٤٧ ) .

(٥) عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ص ٦٤ .

وقد أقام سلاطين المالك فيها دار صناعة لإنشاء السفن الحربية ،  
 فيروي ابن أياس أن السلطان سيف الدين ابنال ( ١٤٥٣ - ١٤٦٠ م ) حينما  
 رسم بإرسال حملة إلى جزيرة قبرص ، شرع في عمارة مراكب أغربية  
 بالجزيرة الوسطى ، فلما كملت عمارة تلك الأغربة ، نزل السلطان بنفسه  
 من القلعة ، وتوجه إلى تلك الجزيرة ، فرموا قدامه الأغربة في البحر ،  
 والنقط والطليل عمال حتى انتهى ذلك<sup>(١)</sup> . ويضيف ابن أياس أنه في رجب  
 سنة ٩٢٧ هـ ( ١٥٢٠ م ) توجه ملك الأمراء إلى الجزيرة الوسطى ، وسبب  
 ذلك أن الأمير تم الناظر على وقف الدشيثة<sup>(٢)</sup> . كان قد صنع هناك  
 مركباً عظيمة بسبب حمل الدشيثة . وكان طولها مائة وعشرون ذراعاً ،  
 وبها قرن وطاحون ، وصهريج للماء الحلو ، ومقصود ومبيت ، واسطبل  
 للخيال ، فمرضاها على ملك الأمراء ، ثم فك أخشابها وأرسلها على ظهور  
 الجبال إلى الطور ، ومن هناك يرسلها إلى البحر المالح<sup>(٣)</sup> .

#### ٩ - دار صناعة قصر ابن العيني

بنى هذا القصر على شاطئ النيل شيخ فري هو المقر الشهابي أحمد  
 ابن العيني ، وذلك سنة ٨٧٠ هـ ( ١٤٦٥ م ) فنسب إليه وصار يعرف  
 بقصر ابن العيني ثم القصر العيني الذي أقيمت على أرضه في أيامنا كلية  
 الطب ومستشفى القصر العيني<sup>(٤)</sup> .

يروى ابن أياس أنه في ذي القعدة سنة ٨٧١ هـ ( ١٤٦٦ م ) ركب  
 السلطان الظاهر خشقدم من القلعة وشق مصر المتينة إلى أن جاء إلى  
 شاطئ البحر فنزل في الحراقة وانحدر إلى قصر ابن العيني الذي أنشأه في  
 منشأة المهراني ( على النيل تجاه آخر الروضة ) فأقام به إلى آخر النهار ،

(١) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٦٣ . وصفحات لم تنشر ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) الدشيثة : القمح الجروش أي الذي يطحن غليظاً .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٤٧ ، ٢٦٠ .

(٤) عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ص ١٦٦ .

ومد له ابن العيني هناك أممطة حافلة ، وقدم له بعد ذلك مقدمة حافلة ما بين خيول وقماش وغير ذلك<sup>(١)</sup> . واستمرت هذه الصناعة تعمل حتى بعد نهاية دولة المماليك ، إذ يشير ابن اياس في حوادث سنة ٩٢٨ هـ ( ١٥٢١ م ) إلى أن الوالي توجه نحو قصر ابن العيني ، وكشف على المراكب التي أنشأها هناك ، واستمجد الصناع في مرعة العمل<sup>(٢)</sup> .

هذه هي دور الصناعة في مصر المطلة على النيل ، وقد تركزت كما رأينا على شاطئ النيل وجزره حول العاصمة . وبطبيعة الحال كانت هذه المصانع مزودة بكافة أرباب الحرف المتخصصين في بناء السفن كالنجارين والحدادين والقلافطة وغيرهم .

ولقد اشتهرت مصر من قديم بهذه الصناعة ، ووجدت بها عائلات قبطية تخصصت في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير أو الجبال في بنائها ، وكذلك في طلاؤها بالزفت والقطران ، وزخرفتها بمختلف الألوان .

ولهذا اعتمد المسلمون على اقباط مصر في دور الصناعة التي أقاموها بمصر والشام والمغرب . ولما استولى المغول على بغداد ( ١٢٥٨ م ) وبلاد المشرق الإسلامي ، هاجر إلى مصر عدد كبير من أرباب الحرف والصناعات ومن بينها صناعة السفن .

ويعطينا التويري السكندري مثالا على ذلك عند قوله : « وقد صنع نجارو البغادة بمصر في بضع وثلاثين وسبعمائة ( ق ١٤ م ) للسلطان الناصر محمد بن قلاوون مركبا بنيل مصر متقنة العمل ، مختصرة الطول ، طرف مجاذيفها كهيئة مطرحة الخبازين المدورة الميكرة . تدور تلك المراكب عند الجذف لها في جانبها الواحد بسرعة إذا اختير دورانها ، وإذا اختير سيرها تسير بالجحف بسرعة في الجانبين ، وتدعى الشبارة . فلما ركبها السلطان اختار الحرافقة عليها وتركها »<sup>(٣)</sup> .

(١) ابن اياس : صفحات لم تنشر من يدائع الزهور ص ١٧٥ .

(٢) ابن اياس : يدائع الزهور ج ٣ ص ٣٠٢ .

(٣) ابو القاسم التويري : كتاب الامام ورقة ١٢٧ ب ، ١٢٨ م نسخة برلين .



## الاحتفالات بأعياد النيل

اهتم المصريون بنهر النيل وقيضانه لارتباط حياتهم به ، ولهذا أقاموا له أعياداً مختلفة في مواسم معينة من السنة ، بعضها لاعتقادهم انها تجلب فيضاً مناسباً ، والبعض الآخر احتفالاً بالوفاء وتامم الزيادة المطلوبة .

ومن أهم هذه الأعياد التي استمرت في أيام الأيوبيين والمماليك ، أعياد وفاء النيل وتتضمن الاحتفالات بتخليق<sup>(١)</sup> المقياس ، وكسر سد خليج أمير المؤمنين ، وكسر سد قناة بحر أبي المنجا .

وكان تخليق المقياس ، وكسر سد الخليج يتم في يوم واحد على عهد الأيوبيين والمماليك . وقد أعطانا أبو السرور البكري الصديقي ( ق ١٧ م ) صورة لحفلات الوفاء في زمنهم فيقول : « كان يركب السلطان أو نائبه ومعه الأمراء وأركان الدولة من قلعة الجبل ، فيخرج من باب السلسلة إلى الرميطة ثم الصليبة ثم قناطر الكباش إلى أن يدخل مصر القديمة تجاه دار النحاس على شاطئ النيل ، فينزل هناك وقد أعدت له الحراقة الذهبية والحراقة التي يقال لها العقبة وهي باسم السلطان ، مزينة مزخرفة بالذهب وغيره ، فينزل السلطان ومن معه من الخواص في الحراقة ، وينزل من بقي في الذهبية . وهناك سفن شتى وحراقات كثيرة مزينة يركب فيها أربابها من الأمراء والمباشرين وغير ذلك . ثم تسير الحراقة بالسلطان والسفن المذكورة كلها تابعة لها في السير ، ويشق السلطان البحر حتى ينتهي إلى الروضة ، فيركب بعض خيوله إلى أن ينتهي إلى المقياس السعيد ، فيدخل هناك هو ومن معه ، ويخلق المقياس بالزعفران المشرب بالورد والمسك ، ثم يصلي ركعتين هناك ، ثم تمد له أحسطة جليلة . ثم تقدم له سفينة من شباك المقياس وقد علق عليه ستر الذهب فوق البسطة فيركب هو ومن معه ثم يسير راجعاً في بحر مصر والناس حولهم في سفائنهم والطبول والزamor تضرب إلى أن ينتهي إلى بحر مصر ثم ينمطف على الخليج الحاكمي إلى

(١) خلقة ( بتشديد اللام ) بمعنى تطهيره ومسحه بالزعفران والمسك عند وفاء النيل .

القاهرة وهو مع ما ذكرنا يبدر الذهب والفضة على من حوله وعلى من قرب منه من الناس من الفقراء برأ وبجرأ ذهاباً وأياباً ، والفواكه والحلوى ونحو ذلك تفرق إلى أن ينتهي إلى سد مصر وهو عبارة عن جسر مكتمل من التراب تجاه القنطرة . ثم يشير السلطان إلى جماعة موكلين به بأيديهم المساحي إشارة بمندبل أو غيره ، فيقطعون ذلك في أقل من دقيقة . ثم تقدم له الخيول فيركب ويكرر راجعاً إلى القلعة » (١) .

أما الاحتفال بفتح قناة أبي المنجا ، فكان بعد عيد الصليب بسبعة أيام . وكانت هذه القناة تخرج من النيل قرب بلدة شبرا الحالية ثم تمر ببليس وتلتقي في شمالها ببحر الفرما الذي يسير مخترقاً برزخ السويس إذ ذاك حتى مدينة الفرما على البحر المتوسط غربي بورسعيد الحالية . وقد يدعى حفر قناة أبو بحر أبي المنجا سنة ٥٠٦ هـ ( ١١١٢ م ) في عهد الخليفة الأمر الفاطمي ، ونيط بحفره أبو المنجا ابن شعبا اليهودي . وكان يوم فتح هذه القناة من أيام القاهرة وأعيادها يشترك فيه السلطان والأمراء والناس جميعاً (٢) .

على أنه يبدو أن هذا الاحتفال الأخير لم يستمر حتى نهاية دولة المماليك ، إذ يذكر القرطبي ( ق ١٥ م ) صراحة بأن الاحتفال بكسر سد بحر أبي المنجا قد تلاشى على أيامه (٣) .

### النيل مقبرة للفراة

ساهمت البحرية النيلية بدور فعال في سلسلة الحروب المتقطعة التي نشأت عن الحركة الأوربية العدوانية ضد الشرق العربي منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي . واصطلح المؤرخون على تسمية تلك الحركة الواسعة

(١) ابو مسرور البكري الصديقي : قطف الازهار من الحطوط والاثار ورقة ٨ ، علي مبارك :

الحطوط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلاها القديمة والشهرة ج ١٨ ص ٣٣ ،

العلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) القرطبي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١١٩ حاشية .

(٣) القرطبي : الحطوط ج ١ ص ٤٨٨ .

باسم الحروب الصليبية ، من باب الإشارة إلى أن غرضها هو الاستيلاء على الأراضي المقدسة التي تتصل بظهور المسيح عليه السلام في فلسطين ، مع أن غرضها الحقيقي هو الاستيلاء على بلاد الشرق العربي كله من الشام إلى فلسطين ، ومن فلسطين إلى مصر والعراق وتونس<sup>(١)</sup> . وحقق الصليبيون منذ بادئ الأمر نصراً سريعاً على المسلمين في الأراضي الشامية وأسسوا هناك أربع أمارات صليبية وهي الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس .

ولم يكتف المستعمر الصليبي بهذا النجاح الذي أحرزه في الشام ، بل سعى إلى احتلال مصر أيضاً ، وتكررت محاولاته للوصول إلى وادي النيل ، ومنها تلك المحاولة التي قام بها ملك بيت المقدس عموري الأول Amalric ( ١١٦٢ - ١١٧٤ م ) الذي صرح بأن بليس والقاهرة جنبه وزيادة يأكلها بسهولة<sup>(٢)</sup> ، ولكنه وجد في جيش نور الدين محمود بن زنكي بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، أكبر مدافع عن مصر .

وقد كان نهر النيل مسرحاً لمعارك الفريقين وتحركات جيوشهم ومراكبهم<sup>(٣)</sup> وانتصر شيركوه على خصمه عند قرية البابين ، إحدى قرى المنيا ، وانتهى الصراع آخر الأمر بالسحاب الصليبيين عن مصر سنة ١١٦٩ م .

ولم يستسلم الصليبيون لهذه الهزيمة ، بل عاودوا الكرة في العام التالي سنة ١١٧٠ م بحملة بحرية كان هدفها الاستيلاء على دمياط والدخول منها إلى وادي النيل . واشترك في هذه الحملة جنود عموري الأول ، وأسطول الأمباطور البيزنطي مانويل الأول كومنين ( ١١٤٣ - ١١٨٠ م ) وكان هذا العدوان في بداية عهد صلاح الدين الذي سارع بإرسال الجيوش إلى دمياط في النيل وحشر فيها كل من عنده . ودام الحصار على دمياط

---

(١) محمد مصطفى زيادة : الغزوة الكبرى الأولى لاستيلاء الصليبيين على مصر ( كتاب كفاونا ضد الغزاة ص ٢٠٥ ) .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٣١ نشر محمد حلي ( القاهرة ١٩٦٢ ) .

(٣) أبو شامة : نفس المرجع ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

خمين يوماً اضطّر الفرنج بعدها إلى العودة خائبين كقول المثل :

« ذهبتم النعاما تطلب قرنين فمادت بلا اذنين »<sup>(١)</sup> .

وكان عند مدخل فرع دمياط برج عال مبني في وسط النيل ومشحون بالهائلة ويعرف ببرج السلسلة ، إذ كانت تمتد منه سلسلتان : احدهما تتجه على النيل إلى دمياط على الضفة الشرقية ، والأخرى تتجه إلى جيزة دمياط وهي الشاطئ الغربي المواجه لدمياط . فإذا وثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور من فرع دمياط . لهذا كان هذا البرج هو مفتاح دمياط أو قفل الديار المصرية كما يسميه المؤرخون المعاصرون . ومن بقاياها عزية البرج الحالية<sup>(٢)</sup> .

ولقد اهتم صلاح الدين بتحصين مدينة دمياط ، فبنى أسوارها<sup>(٣)</sup> وحفر خندقاً كبيراً حولها ، كما حرص على زيارتها بنفسه لتفقد حصونها . وفي ذلك يقول كاتبه العاد الأصفهاني : « ثم خرج السلطان من القاهرة واستصحب ولديه الأفضل عليا والعزير عثمان ، وجعل طريقه على دمياط ، ورأى في الحضور بالغر المذكور ومشاهدته الاحتياط ، وكان له بها سبي كثير جلبه الأسطول ، فامتد مقامه بظاهر البلد يومين ووهب لي منه جارية »<sup>(٤)</sup> .

واقتردى السلطان العادل بأخيه صلاح الدين فشيّد سنة ١٢١٧ م مدينة العادلة جنوب دمياط على الضفة الشرقية للنيل ، وشحنها بالهائلة خشية قدوم الصليبيين إلى مصر من جهة البحر ، فأصبحت منذ ذلك الحين مدينة

(١) المرجع السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٥٧ .

(٢) للقريري : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٨٨ حاشية ٣ ، ابو شامة : النيل على الروضتين ص ١٠٨ نشرة عزت المطار الحسيني .

ويقال ان هذا البرج تم بناؤه في عهد الخليفة العباسي المتوكل سنة ٢٣٨ هـ ( ٨٥٢ م ) .  
(٣) يقال ان سور دمياط استخدم في بنائه احجار بعض الاهرامات الصغيرة ( السلوك ج ١ ص ١٣٨ ) .

(٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩ - ٦٩٠ .

جهادية لحماية دمياط ومنع الصليبيين من دخولها<sup>(١)</sup>. على أن هذه الحصانة التي تميزت بها دمياط وغيرها من الثغور المصرية ، لم تغير من عزم الصليبيين على غزو مصر خصوصاً بعد أن تبين لهم أن معظم المقاومة التي أبدوها صلاح الدين وأخوه العادل كان مصدرها مصر .

وعلى هذا الأساس بدأ الصليبيون في تنفيذ ما عزموا عليه بمعاودة الهجوم على مجازم المفضل دمياط سنة ١٢١٨ م ( ٦١٥ هـ ) . وكانت هذه الحملة - وهي المعروفة في كتب التاريخ بالحملة الصليبية الخامسة - قد تجتمعت في عكا ثم أبحرت في أسطول ضخم إلى دمياط بقيادة جان دي بريين ملك مملكة بيت المقدس التي لم يكن في يده منها سوى ثغر عكا ، وشاركه في القيادة نائب عن البابا اسمه الكاردينال بلاجيوس . وكان يحكم مصر في ذلك الوقت الملك الكامل محمد الأيوبي نيابة عن أبيه السلطان العادل الذي كان يحارب الصليبيين في الشام .

ثم نزل الصليبيون في البر الغربي لمدينة دمياط ( جيزة دمياط )<sup>(٢)</sup> ، وشرعوا في مهاجمة برج دمياط وقطع سلاسل لتمر مراكبهم في بحر النيل .

ونقض الملك الكامل فأرسل الأساطيل إلى دمياط ، وصار يركب كل يوم عدة مرات من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور وأعمال الحملة في مكابدة الفرنج . واستمر برج السلسلة يقاوم هجمات الصليبيين أربعة أشهر ، ثم تمكن الفرنج آخر الأمر من الاستيلاء عليه بعد أن أقاموا أمامه برجاً ضخماً على بطسة كبيرة ، سهل لهم التغلب على المقاومة المصرية .

وقد كان لهذا الحادث وقع أليم في نفوس المسلمين حتى أن العادل حينما بلغه خبره وهو يبرج الصفر بالقرب من دمشق ، تأوه تأوهاً شديداً ، ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً ، ومرض من ساعته ثم مات بعد أيام قليلة<sup>(٣)</sup> .

(١) المقرئ : الحط ج ١ ص ٢١٦ ، حنين ربيع : النظم المالية زمن الأيوبيين ص ٦٩ .

(٢) المجيزة في اللغة الناحية ، ولله سمى كذلك لأنه يحاذ إليه من دمياط . راجع جلال الدين الشيباني : تاريخ مصر الإسلامية ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) المقرئ : السالك ج ١ ق ١ ص ١٠٩ .

واستقل الملك الكامل بملك مصر بعد وفاة أبيه ، وأخذ يعمل على عرقلة تقدم الأسطول الصليبي في النيل بعد أن حطمت سلسلة البرج ، فنصب عوضاً عن السلاسل جسراً من السفن في عرض النيل ، ولكن الفرنج قاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى نجحوا في قطعه واختراقه . عند ذلك أمر الكامل بتفريق عدة من مراكبه في النيل فاستحال بذلك على السفن الصليبية التقدم جنوباً .

واحتال الفرنج على هذا الاجراء بأن حفرُوا فرعاً قديماً من فروع النيل يسمى الخليج الأزرق كان يأخذ مياهه من فرع دمياط عند بلدة بورة (١) ، ويصب في البحر المتوسط شمالاً ، فأعاد الصليبيون حفرة من الرمال التي طمرته ، وصارت مراكبهم تجري فيه من البحر إلى بلدة بورة التي تواجهها على الضفة الشرقية المقابلة منزلة العادلية حيث معسكر السلطان الكامل . وبهذا أصبح الجيشان الأيوبي والصليبي وجهاً لوجه ، لا يفصل بينهما إلا ماء النيل . ودارت بين الفريقين معارك بحرية ، استطاع المصريون خلالها أسر مرمة ( سفينة كبيرة ) للفرنج كاذت من عجائب الدنيا لا تعمل فيها النار لأنها مصفحة بالحديد وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً (٢) .

واستمر الحال على هذا الوضع بضعة أشهر كانت دمياط خلالها في مأمن من العدو ، إذ كان النيل يفصل بينهما ، والامدادات تصلها بسهولة من العادلية . ولكن الظروف مرعان ما تغير الأحوال ، إذ وقعت مؤامرة في معسكر السلطان كان هدفها خلع الكامل وتولية أخيه الفائز . واكتشف الكامل المؤامرة في حينها ، ولكنه خشي على نفسه منها ، فترك معسكره

---

(١) بورة بلدة مندثرة على الضفة الغربية للنيل جنوب غرب دمياط ينسب إليها السمك البوري ، ومكانها اليوم قرية كلو البطيخ . والظاهر أنه لكثرة زراعة صنف البطيخ بأراضيها . اشتهرت به فتغلب اسمه عليها واختفى اسم بورة . ( محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ج ١ ص ١٧٦ ، ١٧٩ ) .

(٢) الفرزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٥ .

لبلا وانسحب جنوباً إلى أشموم طنّاح وهي أشمون الرومان حالياً بمركز دكرنس . وحينما علم الجند بانسحاب قائدهم ، لحقوا به تاركين خيامهم وأثقالهم بالعادلية . وانتهر الصليبيون هذه الفرصة ، فعبّروا النيل إلى البر الشرقي واستولوا على معسكر العادلية وما فيه من ذخائر ثم صعدوا شمالاً إلى مدينة دمياط واحرقوا بها من البر والبحر في يناير سنة ١٢١٩ م .

واستطاع السلطان الكامل في ذلك الوقت أن يتغلب على المؤامرة التي قامت ضده وأن يطرد زعماء المتآمرين من بلاده أمثال أخيه الفائز والأمير الكردي عماد الدين بن المشطوب . ثم نهض لحاربة الصليبيين وفك الحصار عن دمياط .

وحاول السلطان الاتصال بأهل دمياط ليرفع من روحهم المعنوية . فعهد إلى جندي من رجال حرسه يسمى شمائل أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة . فكان يسبح في النيل بعيداً عن أعين الصليبيين الذين امتلأ النيل براكبهم ، فيدخل إلى مدينة دمياط ويقوي قلوب أهلها ويمدّم بوصول النجادات ثم يعود إلى السلطان بأخبارهم<sup>(١)</sup> .

وظلت دمياط تقاوم ما يقرب من سنة حتى استبد الجوع بأهلها ، وتفتت الأمراض والأوبئة فيهم ، فانهارت مقاومتهم واستولى الصليبيون على المدينة وعاثوا فيها فساداً في نوفمبر سنة ١٢١٩ م ( شعبان سنة ٦١٦ هـ ) .

وكان السلطان الكامل في ذلك الوقت خيماً عند رأس بحر أشموم طنّاح ( البحر الصغير حالياً ) في المنزلة التي عرفت بعد ذلك باسم المنصورة تيمناً بانتصاره<sup>(٢)</sup> . وكانت النجادات والأمدادات تصل إليه باستمرار بقيادة

---

(١) المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٨ وقد كلف السلطان هذا البطل اللدائي بولاية القاهرة بعد ذلك ، وإليه تسبب خزانة شمائل .

(٢) تقع مدينة المنصورة على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط ، وكانت في أيام مؤسسا السلطان الكامل وولده محاطة بالأسوار والآلات الحربية والساتر ثم أخذت تنمو حتى صارت من أهم المدن المصرية .

أخوته وأقربائه أمراء الأيوبيين في الشام ، إلى جانب المصريين والعربان من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحي حتى أسوان ، ونودي بالنفير العام بالآلا يبقى أحد ، فاجتمع من المسلمين المجاهدين عالم لا يقع عليه حصر<sup>(١)</sup> .

كذلك وصلت إلى الصليبيين في دمياط امدادات وفيرة من أوروبا والأمارات الصليبية في الشام فلما تكامل جمعهم تقدموا من دمياط بجيوشهم وأساطيلهم ، ونزلوا جنوباً تجاه بلدة طلخا شمالي المعسكر الإسلامي ، بحيث صار لا يفصل المعسكرين سوى قناة أو بحر أشموم طنح . ثم التحم الفريقان في قتال عنيف بالبر والبحر ، وقامت البحرية الايوبية النيلية بدور هام في تلك المارك ، إذ يروي القريري أن الأسطول المصري بقيادة الأمير بدر الدين بن حسون ، تقدم في مائة شيني وحراقة كبيرة في بحر المحلة - وهو فرع قديم كان يخرج وقت ذاك من النيل قرب منها ثم يتصل بالنيل ثانية شمالي طلخا والمنصورة أي قرب ميدان القتال - واستطاع أن يقطع الطريق على السفن الصليبية القادمة من دمياط بالميرة والذخائر إلى ميدان القتال ، وأن يستولي على عدد كبير منها برجالها وأسلحتها وميرتها<sup>(٢)</sup> .

ويضيف القريري أن السلطان الكامل استغل فرصة زيادة النيل في ذلك الوقت ، وأمر جماعة من المسلمين بعبور بحر المحلة في الأرض التي يسكن عليها الفرنج ويفتحوا هناك مكاناً عظيماً في النيل . فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرق الأرض التي هم عليها وحال بينهم وبين الرجوع إلى دمياط ، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها سوى جهة واحدة ضيقة عند بحر أشموم طنح ، سددها الكامل بعدد من جنوده ، فانحصر الصليبيون بذلك من سائر الجهات ، وأدركوا أنهم خسروا المعركة فلاندوا إلى طلب الصلح وبعثوا إلى السلطان الكامل يطلبون الأمان لأنفسهم ، وأنهم يسلمون

(١) القريري : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٢ .

(٢) القريري : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٧ .



دمياط بدون قيد أو شرط<sup>(١)</sup> ، وقبل السلطان هذا العرض ، وقد كان في مقدوره إبادتهم ، ودخلت الجيوش الأيوبية دمياط سنة ١٢٢١م (٥٦١٨ هـ) . وبذلك تنتهي أحداث تلك الحملة العدوانية التي كان للنيل والبحيرة النيلية أثر كبير في نهايتها واندحارها .

وعلى الرغم من كل هذا الفشل الذريع الذي باءت به حملة جان دي بريين ، فإن الصليبيين ظلوا متمسكين بمشروعهم القديم الذي يقضي بضرورة غزو مصر واستعادة بيت المقدس عن طريقها . وكان المتقصد أو المخلص الصليبي في هذه المرة هو ملك فرنسا لويس التاسع الذي قرر إعادة الكرة ولم يكد يمضي على الحملة السابقة ثلاثون عاماً . ولم تحف تلك الحقيقة على المؤرخ العربي المعاصر جمال الدين بن واصل حينما قال : « ان ملك فرنسا ريداً فرانس حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج .. وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية »<sup>(٢)</sup> .

ثم أبحر الأسطول الفرنسي من ميناء مرسيليا خريف سنة ١٢٤٨ م إلى جزيرة قبرص التي كانت تحت حكم آل لوزنيان Lusignan وهم مسيحيون لاتينيون . وهناك أقام لويس التاسع مدة الشتاء يعد للحملة التي عرفت في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة السابعة . ثم أبحر من قبرص في مايو سنة ١٢٤٩ م متجهاً إلى مصر . وقد صحب معه أخويه شارل أنجو D'Anjou ، وروبرت دارتو D'Artois ثم لحق به بعد ذلك أخوه الثالث الكونت دي بواقيه .

وكان سلطان مصر في ذلك الوقت هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الكامل . ويقال إنه علم بأنباء هذه الحملة مسبقاً من صديقه وصديق أبيه فردريك الثاني هو هنتاوفن ملك صقلية وأمبراطور الدولة الألمانية

(٢) المقرئ : نفس المرجع ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ج ٢ ص ٣٥١ ، المقرئ : السلوك ج ١

ص ٣٣٤ حاشية ١ .

وأنت مدينة دمياط سوف تكون مجاز الصليبيين المفضل لغزو مصر . عندئذ أسرع السلطان حتى عسكر في بلدة أشموم طنناح ، وأصدر أوامره بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة ، كما وضع فيها حامية من عرب بني كنانة للدفاع عنها . ثم بعث إلى نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين ابن علي الهذباني الكردي ، أن يجهز قطع الأسطول في دار صناعة مصر ويعمرها بالرجال والعدد<sup>(١)</sup> ، إذ لم يكن يخفى عليه أهمية القوة البحرية في رد العدوان . فشرع الأمير حسام في تجهيز الشواني الحربية وإرسالها إلى السلطان شيئاً بعد شيء . كذلك أرسل الصالح أيوب جيشاً إلى دمياط بقيادة الأمير فخرالدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وأمره أن ينزل في البر الغربي لدمياط (جيزة دمياط) ليحول دون نزول العدو إلى الشاطئ<sup>(٢)</sup> .

ثم وصل الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية قبالة دمياط بتاريخ ١ يونيو سنة ١٢٤٩ م وفي اليوم التالي نزل الصليبيون إلى البر الغربي للنيل حيث وقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات انسحب بعدها الأمير فخرالدين بجيشه وبجماية المدينة إلى المعسكر السلطاني بأشموم طنناح . وجعل أهل دمياط على أثر ذلك خائفين مذعورين ، وتركوا جسر السفن الذي يصل بين البر الغربي ودمياط قائماً ، فعبر عليه الصليبيون واحتلوا المدينة بسهولة . واستشاط السلطان غضباً لما وقع ، فأمر بشنق الكتانين الذين ارتدوا عن دمياط دون قتال ، كما تغير على الأمير فخرالدين واشتد في تأنيبه لدرجة أن بعض الأمراء همّوا بقتل السلطان لولا نصيحة فخرالدين لهم بالتريث لأن السلطان مريض بمرض خطير وصائر لأجله عن قريب .

ويعلل المؤرخ الفرنسي وأحد فرسان الحملة جوفانفيل ، سبب ذلك الانسحاب بأن الأمير فخرالدين أرسل إلى السلطان ثلاث مرات بالحمام الزاجل يخبره بنزول الفرنج إلى الساحل ، ولكنه لم يتلق رداً ، فظن أنه

(١) المقرري : السالف ج ١ ق ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) أبو الحسن بن تفرج يردى : للتجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢١ - ٢٣٢ .

مات وآثر الرحيل بسرعة<sup>(١)</sup> . وإذا علمنا أن الأمير فخر الدين كان يطمح فعلاً في سلطنة مصر لنفسه بعد وفاة السلطان ، اتضحت لدينا حقيقة هامة وهي أن انسحاب هذا الأمير كان سبباً لتحقيق أمانيه اعتقاداً منه بأن السلطان قد مات<sup>(٢)</sup> .

وكيفما كان الأمر ، فإن السلطان اضطر أمام هذه الأحداث إلى الارتداد بمعسكره إلى مدينة المنصورة حيث نزل بالقصر السلطاني على ساحل النيل وربطت السفن الحربية تجاه المدينة كما أخذت جموع العربان والجنود المطوعة تند إلى تلك القاعدة الجديدة ، واستمر الحال على ذلك المتوال ستة أشهر من يونيو إلى نوفمبر سنة ١٢٤٩ م ولويس التاسع ينتظر في دمياط قدوم أخيه الثالث الكونت دي بواتييه . فلما وصل هذا الأخ ، عقد الملك مجلساً للتشاور في أحسن طريق تسلكه الحملة . فأشار بعضهم بالذهاب إلى الاسكندرية لأنها مرفأ طيب تأوي إليه السفن ويكون التموين فيه سهلاً<sup>(٣)</sup> . ولكن الكونت دي أرتو عارض ذلك الرأي وقال بضرورة الذهاب إلى القاهرة العاصمة : « فمن يريد قتل الثعبان فليحطم رأسه أولاً » ووافق لويس التاسع على رأي أخيه<sup>(٤)</sup> .

وبدئنا يستقر الرأي على الزحف صوب القاهرة ، توفي السلطان الصالح أيوب ، فقامت زوجته شجر الدر<sup>(٥)</sup> بتدبير شؤون الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين . وفي الوقت نفسه

---

(١) انظر (Joinville. Hist. of St. Louis tr. by Evans p. 48 — 49) .  
(٢) راجع ( احمد مختار المبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ص ١٠٣ ) وكذلك ( ابن واصل : مفرج الكروب ورقة ٣٦٤ ، القرطبي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٥ ) .  
(٣) عن طريق البحر بالطبع إذ ليس من المقول ان امراء فرنسا كانوا يقصدون للوصول الى الاسكندرية اختراق الدلتا بالمرض وعبر نهر النيل بغروعه .

(٤) Joinville : Op. cit. p. 54.  
(٥) المراجع المعاصرة وشبه المعاصرة تذكر الاسم كما اوردناه في المتن ، اما المراجع المتأخرة فتذكره بصيغة شجرة الدر . ومن الواضح ان تسمية المعاصرين وأشباهم هي الأصح .

أرسلت إلى ابنه وولي عهده تورانشاه تحته على الرحيل من ولايته في حصن  
كيفا بأطراف العراق إلى مصر ليعتلي السلطنة بعد أبيه .

ثم علم الفرنج وفاة الصالح أيوب <sup>(١)</sup> ، فانتهزوا الفرصة وتركوا دمياط  
زاحفين جنوباً على شاطئ النيل الشرقي لفرع دمياط ، وسفهم تسير  
حذاهم في النيل . وبعد عدة وقفات في فارسكور وشارمساح وفارامون ،  
وصلوا إلى قناة أشموم طناح ( البحر الصغير ) في ١٩ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م .  
فصار على يمينهم فرع النيل ، وأمامهم بحر أشموم يفصلهم عن معسكرات  
المسلمين في المنصورة . ولوالة التقدم جنوباً تعين على الفرنسيين أن يعبروا  
فرع دمياط أو قناة ( بحر ) أشموم طناح ، فاختر لويس القناة <sup>(٢)</sup> .

ولقد شاهد بحر أشموم أروانا عديداً من البطولات التي قام بها المجاهدون  
المصريون لمنع العدو من عبوره . وكان السلطان قبل وفاته قد رسم ببذل  
المكافآت الكبيرة لكل من يأتي برأس فرنجي ، ولهذا أقبل الفدائيون على  
شن الغارات على معسكرات الصليبيين واختطاف كل من تصل يديهم إليه ،  
فاذا شعر بهم الفرنج ألغوا بأنفسهم في الماء ، وسبحوا إلى أن يصيروا في  
بر المسلمين . وكانوا يتحيلون في اختطاف الفرنج بكافة الطرق التي تثير  
الدهشة والاعجاب ، مثال ذلك أن مجاهداً من المسلمين « قور بطيخة »  
وأدخل رأسه فيها ثم غطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج ، فظنه  
بعضهم بطيخة سائبة في الماء ، ولما نزل لأخذها خطفه ذلك الغدائي وأتى  
به أسيراً إلى معسكر المسلمين <sup>(٣)</sup> .

وتمكن العدو أخيراً من العبور بعد أن دله بعض الخونة على خائض  
في بحر أشموم مقابل مبلغ من المال . فعبرت الحيلة الصليبية دون أن

(١) المغربي : السلوك ج ١ ق ٢ ( ٣٤٦ ) .

(٢) انظر : ( Oman : The History of the Art of War in the Middle Ages L. p. 342 — 345 ).

(٣) المغربي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٨ ، جوزيف نسف : المدون الصليبي على مصر  
ص ١٠٣ .

تلقي مقاومة اثناء عبورها ، ولم يشعر المسلمون إلا والفرنجة معهم في المعسكر ، فانتشر الذعر بين الجند ، وخرج الأمير فخر الدين يوسف قائد الجيش من الحثام وامتطى صهوة جواده دون أن يلبس درعه ، وحاول أن يلم شمل الجنود الفارين بالهجوم هو وبعض مماليكه على العدو المتقدم ، ولكن السيوف اعتورته من كل جانب فسقط قتيلًا بعد أن تفرق عنه فرسانه . واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت دارتوا أحد أبواب المنصورة ، وواصلوا تقدمهم في فضايل مبعثرة إلى داخل المدينة يقتلون المصريين بينما وشالًا حتى وصلت ثلاثتهم إلى أبواب القصر السلطاني نفسه<sup>(١)</sup> .

وبينا الكل على ذلك ، جمعت فرقة المماليك البحرية الصالحية<sup>(٢)</sup> قواها خارج المدينة ، ثم أطبقت على الفرنج بقيادة الأمير بيبرس البندقداري فانقلب نصر الصليبيين إلى هزيمة ، وأوسعهم المماليك قتلًا حتى أهلكوهم عن آخرهم بما في ذلك قائدهم الكونت دي ارتوا نفسه الذي لقي جزاء تهوره واندفاعه .

(١) القرطبي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٩ ، أحمد غنار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ص ١٠٦ .

(٢) استكثر السلطان الصالح أيوب من شراء المماليك الأتراك الصنار السن ، واعتنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ثم ابتنى لهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة واسكنهم بها كما اتخذها مقرًا للملك . وعرف هؤلاء المماليك باسم المماليك البحرية الصالحية . ويرى بعض المؤرخين أمثال القرطبي وابن تقيي أن تسميتهم بالبحرية نسبة إلى بحر النيل الذي يحيط بشكائهم في جزيرة الروضة . غير أن للمؤرخين المعاصرين أمثال ابن واصل وأبي شامة لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لفظ بحرية . يضاف إلى ذلك أن هناك فرقًا إسلامية عديدة سميت بالبحرية بعيدًا عن جزيرة الروضة أو النيل مثل فرقة الغز البحرية في مصر الفاطمي ، والبحرية المالدية التي كونها المعادل جدد الصالح أيوب ، والمماليك البحرية في عهد الدولة الرسولية باليمن . وهذا يدل على أن لفظ بحرية استخدم قبل عهد الصالح أيوب وفي بلاد بعيدة عن بحر النيل . وأغلب الظن أنهم سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحر وقد أورد هذا التفسير المؤرخ الفرنسي جوفانيل في كتابه عن الملك لويس التاسع . ومن المعروف أن جوفانيل أسر في مصر واستغلط بالمماليك وتحدث إليهم . وقد يؤيد هذا الرأي أن المماليك البحرية جلبوا من أسواق النخاسة من بلاد التفجاق شمال البحر الأسود فمعبروا هذا البحر ثم البحر المتوسط ثم بحر النيل فكانهم جاءوا من وراء البحار فعلًا .

وبعد ذلك بقليل وصل ملك فرنسا إلى ميدان القتال ، ونجح في إقامة جسر على بحر أشموم لتعبر عليه الرجالة ، غير أن الروح المعنوية الجديدة التي أثارها موقعة المنصورة ( ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م ) في صفوف المسلمين قد طغت على أخبار النجاح المؤقت الذي أحرزه الفرنسيون .

وفي اليوم التالي عقد قائد الجيش الأمير فارس الدين أقطاي مجلس حرب عرض فيه على المسلمين كزاغند ( أي معطف ) الكونت أرتوا قائلاً بأنها سترة الملك نفسه ، وأن شعباً بدون ملك جسم بلا رأس لا يخشى منه خطر ، وعلى ذلك سوف نهجم الفرنسيين في يوم الجمعة إذا طاب لكم ذلك . ووضح من هذه العبارة أن المسلمين قد اختلط عليهم الأمر حينما وجدوا على المعطف الشعار الملكي الفرنسي وهو زهرة الزنبق *Fleur de Lis* فظنوه معطف الملك نفسه وأن الذي قتل هو لويس التاسع .

وفي فجر يوم الجمعة ( ١١ فبراير ١٢٥٠ م ) أمر أقطاي أربعة آلاف من فرسانه بالتقدم حتى حاطوا معسكر الفرنج ، وهذا خلاف فرق الاحتياطي الرابطة عن كتب مستعدة للطوارئ . وبعد أن انتهى أقطاي من ترتيب جيوشه ، تقدم بمفرده راكباً فرساً ليشهد صفوف الصليبيين ومراكز القوة والضعف فيها حتى يحرك قواته على أساسها ، وشغلت هذه العمليات وقت أقطاي حتى منتصف النهار ، ثم أمر بقرع النقارات ، ومن ثم بدأ الحيلة والمشاة في الهجوم من جميع النواحي على شكل درج *en échelon* كما لو كانوا يلعبون الشطرنج على حد قول جوفانيل . واستخدم الممالك النار الأخرقية في هجومهم ، ولكن الملك لويس تمكن من الثبات وإعادة خط القتال إلى ما كان عليه بعد أن تكبد خسائر فادحة وبذلك تنتهي موقعة المنصورة الثانية التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم لا يستطيعون البقاء في مراكزهم ، وأن عليهم الانسحاب إلى دمياط قبل فوات الفرصة<sup>(١)</sup> .

(١) انظر (Joinville : Op. cit. p. 79 - 80 ; King : Op. cit. p. 247)

ثم قدم تورانشاه بعد أيام قليلة من هذه الواقعة ، وتولى قيادة الجيوش بنفسه ، وأخذ في تدبير خطة لإجبار الصليبيين على التسليم ، وخلصتها أن يقطع عليهم خط الرحمة كما فعل جده السلطان الكامل من قبل مع حملة جان دي بريين ، وكما أوصاه أبوه الصالح أيوب في وصيته التي تركها له قبيل وفاته والتي يقول له فيها : « .. وهذا العدو المخنول [ الفرنج ] ان تزلوا منزلة من تقدمهم قبالة المنصورة ، فرتب المسكر يكونوا ثابتين خلف الستائر على البحر ليلاً ونهاراً ، فهم ما لهم زحف إلا بالشواني ، فقوموا الشواني كيفما قدرتم ، واجتهدوا أن تكون بعض الحاربيق على بحر المحلة من خلف مراكزهم تقطع عنهم الميرة ، وهو يكون ان شاء الله سبب هلاكهم ، فذلك المرة ما انتصر الشهيد رحمه الله عليهم إلا من بحر المحلة » (١) .

وتنفيذاً لهذه الوصية أمر تورانشاه بنقل عدة سفن مفصلة أجزاء على ظهور الجمال ، وانزالها بعد تركيبها في بحر المحلة وراء الخطوط الفرنسية . وبهذه الوسيلة تمكن الأسطول المصري من مهاجمة السفن الفرنسية المحملة بالمواد والأقوات والاستيلاء عليها وأمر من فيها . وقد نتج عن ذلك حلول المجاعة بالمسكر الفرنسي ، وتفشى الأمراض والأوبئة بين الجنود فساء حالهم . وعول الملك لويس على الانسحاب إلى دمياط تحت جنح الظلام ، وأمر بإزالة الجسر الذي على نهر أشعوم ، غير أن الصليبيين تعجلوا أمرهم ، فسهبوا عن قطع الجسر ، فعبده المصريون في الحال وركبوا أعناق الصليبيين ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، واستمرت المطاردة في فارسكور حيث أحشدوا بالصليبيين من كل جانب فقتلوا وأمسروا منهم عدداً كبيراً (١) .

ولقد سار السلطان تورانشاه على سياسة والده وجده في بذل المكافآت السخية لكل من يأتي برأس فرنجي . وهنا يعطينا المؤرخ السكندري أبو القاسم

(١) أررد هذه الوصية شهاب الدين أحمد التنويري ( نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٧ ورقة ٨٩ - ٩٣ ، دار الكتب المصرية رقم ٤٤٩٩ معارف عامة ) .

(١) ابن واصل : مغزج الكروب ورقة ٣٦٨ ، المقرئ السالك ج ١ ق ٢ ص ٣٥٧ .

النوري صورة حية من أعمال المقاومة الشعبية في ذلك الوقت ، يقول :  
 « حدثني أحمد الدمياطي عن والده المعروف بإبن طهليلش قال : كنت  
 أستاذ السمك بدمياط ، فلما كانت وقعة دمياط ، كنت ابن خمس عشرة  
 سنة ، فكنت أجد الجماعة من الفرنج على ساحل البحر ( النيل ) خائزين  
 من الجوع فاطرح عليهم الشبكة وأبادرهم بالذبح ، وأحمل رؤوسهم في  
 الشبكة وآتي بها السلطان . وكان السلطان رسم بأن من أتى برأس افرنجي  
 يأخذ ديناراً ، فأخذت بعدد ما معي أول مرة من الرؤوس عن كل رأس  
 ديناراً . ثم أعطيت بما جئت به ثاني مرة عن كل رأس درهماً ، وكان  
 غيري قد أتى بالرؤوس فأعطي كما أعطيت ، فقلت أخذت أولاً لكل  
 رأس ديناراً وأخذ الآن لكل رأس درهماً !! فقيل قد رخصت الرؤوس  
 لكثرتها من ذبح المسلمين لهم فصار لكل رأس بدرهم . وكان ذبحهم هينا  
 على المسلمين بسبب جوعهم ، لأن المسلمين قعدوا لهم على طريق ميرتهم مق  
 يأتونهم بها من عند أصحابهم بدمياط فيقتلونهم ، ويأخذون الميرة منهم ،  
 فجاعت الفرنج الذين يقاتلون المسلمين والمحلت عزائمهم عن القتال . وكسرت  
 الخولة عليهم الجسور ففرقوا بقاء النيل وأمر منهم نحو سبعين ألف نفر  
 حتى ملكهم الفرنسيين » (١) .

ولم يشأ لويس التاسع أن ينجو بنفسه رغم الحاح الدونطارياء عليه ،  
 بل قرر الإقامة مع المؤخرة كي يحمي أصحابه على حد قول أبي الحسن .  
 وبذلك تمكن المصريون من أسرهم وأمر من معه من الأشراف والفرسان  
 في قرية منية أبي عبدالله شمالي المنصورة ببضعة أميال . ثم سيق لويس  
 التاسع إلى مدينة المنصورة حيث سجن بـدار القاضي فخر الدين ابراهيم  
 ابن لقمان . وهكذا وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى نهايتها الفاشلة (٢) .

(١) عبد بن قاسم النوري السكندري : كتاب الانام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور  
 المقضية في وقعة الاسكندرية نسخة برلين ورقة ٢٠٨ أ ( توجد صورة في كلية الآداب  
 بالاسكندرية رقم ٢٦٦٧ ) .

(٢) قال الشاعر الماصر جمال الدين بن مطروح عذراً للفرنسيين بمد هذا الفشل : =



## نشاط البحرية النيلية في جنوب الوادي

إذا كانت البحرية النيلية قد ساهمت بدور إيجابي في القضاء على المعتدي الصليبي في دلتا النيل شمالاً ، فإنها لم تتهاون أيضاً في القيام بواجبها نحو حماية الأطراف المصرية الجنوبية من غارات مملكة النوبة المسيحية في أعالي النيل . وغير بعيد أن يكون هناك صلة أو تجاوب صليبي بين عدوان الشمال والجنوب .

وكيفما كان الأمر ، فإن السياسة المصرية بوجه عام ، وفي عهد الأيوبيين والمماليك بوجه خاص ، اهتمت بمملكة النوبة اهتماماً كبيراً ، لأنها تكون جزءاً أساسياً من الشبكة النيلية التي تجمعها مع مصر ، ولأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسياسة مصر التجارية في النيل والبحر الأحمر ، هذا فضلاً عن أن قوافل الحجاج القادمة من المغرب ومصر قد تحولت عن طريق سيناء إلى طريق النيل جنوباً حتى قوص فعيذاب وذلك بسبب الامارات الصليبية التي قامت في الشام وفلسطين مما جعل الطريق من هناك محفوفاً بالمخاطر<sup>(١)</sup> .

وكان النوبيون يدينون بالمسيحية على مذهب الكنيسة المصرية ( كنيسة الاسكندرية )<sup>(٢)</sup> ، كما كانوا يدينون بالولاء والطاعة لسلطان مصر منذ اتفاقية البقط<sup>(٣)</sup> ، التي عقدها معهم القائد العربي عبدالله بن سعد بن أبي مروح سنة ٦٥٠ م ، إلا أنهم لم يحافظوا دائماً على هذا العهد ، فكثيراً ما امتنعوا

= وقل لهم ان اخبروا عودة لأخذ ثار أو لقصص صحيح

دار ابن لقمان على حلفنا والتيد باق والطواشي صحيح

هذا ولا تزال دار ابن لقمان معروفة بمدينة المتصورة .

(١) مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٤٢ - ١٤٥ .

(٢) نفس المرجع ص ١٧٦ .

(٣) البقط ما كان يؤخذ من النوبة في كل عام في قرية القصر على بعد خمسة اميال جنوبي اسوان ولفظ البقط مأخوذ من الكلمة المصرية القديمة باق Balk بمعنى عبد ، أو الكلمة اللاتينية Pactum بمعنى عقد أو اتفاق ، أو انها عربية الاصل بمعنى الجماعة المتفرقة أو بقعة من الأرض . راجع : (السيدة للكشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٥ ، مصطفى مسعد : نفس المرجع ص ١١٢) .

عن دفع البقط وشنوا الغارات على بلاد الصعيد بالبر والبحر وكثر ايداؤهم للمصريين<sup>(١)</sup>. واضطر ولاية مصر نتيجة ذلك إلى توجيه الحملات التأديبية إلى بلاد النوبة تمسكاً منهم بشروط هذا البقط الذي يرمز للتفوذ المصري في تلك البلاد .

ولقد ساهمت البحرية في هذه الحملات بنقل الجنود والأسلحة والآلات والأقوات حتى مدينة أسوان ثم تسير الجنود على جانبي الوادي في أراضي النوبة نظراً لوجود الشلالات والجنادل في مجرى النيل هناك . إلا أنه يفهم مع ذلك من النصوص التاريخية أن بعض الوحدات الخفيفة من الأسطول المصري كانت تقوم بمطاردة العدو في هذه المناطق الخطرة الملاحية .

وقد جرت العادة عندما تكون حركة العصيان في جنوب النوبة ، أن تتخذ الحملات التأديبية طريق البحر الأحمر بدلاً من النيل لتفادي اختراق النوبة من الشمال ، فتسير الأساطيل المصرية في البحر الأحمر إلى عيذاب أو إلى ميناء سواكن جنوباً ، ومن هناك تتقدم الجيوش في البر إلى جنوب النوبة .

ولقد شجعت هذه الحملات على هجرة بعض القبائل العربية إلى بلاد النوبة والاستقرار فيها والاختلاط بأهلها وخاصة في منطقة مريس شمالي النوبة . ونذكر على سبيل المثال عرب ربيعة الذين تزوجوا من بنات رؤساء النوبيين وأصبحت لهم مصالح مادية لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروف هناك وهو توريث ابن البنت أو ابن الأخت . ونتيجة لذلك صار لبني ربيعة نفوذ كبير في منطقة أسوان وما يليها جنوباً في أرض مريس .

وتوطدت علاقات حسنة بين بني ربيعة والدولة الفاطمية في مصر ، واستعان بهم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في القبض على الثائر أبي ركة عندما لاذ بالفرار من مصر إلى النوبة . ونجح أبو المكارم أمير ربيعة في

---

(١) يقول المقرئ اعماط الحفا لوحة ١١٥ أ مثلاً « وفي سنة ٥٠١ هـ وردت الاخبار بأن مملك النوبة قد تجارز برأ وجرأ ( النيل ) ودول على قصد البلاد القبلية » .

القبض عليه وتسليمه للفاطميين سنة ١٠٠٦ م . وقد كافأه الفاطميون على ذلك بمنحه لقب كنز الدولة ، وتوارث أبناؤه هذا اللقب ، وعرف بنو ربيعة ببني كنز ، وهم الكتوز الحاليون هناك بين أسوان وكرومكو<sup>(١)</sup> .

وفي بداية عصر صلاح الدين الأيوبي ، تجمّع في شمالي النوبة عدد كبير من الجنود السودانيين الهاربين من مصر ، وأخذوا ، بمعاونة النوبيين ، مهاجمين بلاد الصعيد سنة ١١٧٢ م ( ٥٧٢ هـ ) تمهيداً لاحتلال مصر وإعادة الحكم الفاطمي إليها . فأنفذ صلاح الدين أخاه تورانشاه لدفع هذا الخطر ، وشحن مراكب كثيرة في النيل بالرجال والأقوات ، ونازل تورانشاه قلعة ابريم<sup>(٢)</sup> واستولى عليها ، ثم مضى بجملته إلى داخل بلاد النوبة حتى دتقله وحاول جماعة من جنوده الأكراد بقيادة الأمير ابراهيم الكردي العبور إلى جزيرة في النيل تسمى دندان ولكنهم غرقوا جميعاً ، ثم عاد تورانشاه إلى أسوان بعد أن أخضع شمال النوبة وترك حامية أيوبية في قلعة ابريم . وقد عبر الشاعر أبو الحسن الدروي عن نشاط البحرية في هذه الحملة عند قوله في مدح تورانشاه :

تقلدوا الأنهار واستلموا الأندران ، فالتيران تجري مياه<sup>(٣)</sup>

وترتب على جهود تورانشاه الحربية في النوبة أن حصل على إقطاع اشتمل على الجهات الواقعة بين قوص وأسوان وعينذاب ، وكانت عبرته في السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار<sup>(٤)</sup> .

وفي عصر المماليك تكررت اعتداءات النوبيين على الأراضي المصرية ، فيبروي المؤرخون أن ملك النوبة المدعو داود انتهز فرصة انشغال السلطان

(١) مصطفى محمد محمد : المرجع السابق ج ١٣٤ - ١٣٥ و Trimingham : Islam in the Sudan p. 68).

(٢) ابريم بلدة قديمة على الضفة الشرقية للنيل في منطقة النوبة المصرية التي عرفت في العصر الروماني باسم Nubata وفي المراجع القديمة باسم نرس .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ج ١ ق ٢ ص ٥٣١ .

(٤) راجع ( أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦٦ ) .

الظاهر بيبرس بحروبه ضد المغول والصليبيين ومملكة أرمينيا الصغرى ،  
وهاجم ثغر أسوان سنة ١٢٧٢ م ويبدو أن داود قسام بهذه الأعمال  
الاستفزازية مدفوعاً بروح صليبية وكراهية دينية بدليل أنه هاجم أيضاً  
ميناء عيذاب لا يقصد تهديد التجارة المصرية في البحر الأحمر فحسب ،  
بل لقطع طريق الحج في هذه المنطقة أيضاً<sup>(١)</sup> .

وقد رد بيبرس على هذا العدوان بإرسال حلتين متتاليتين إلى بلاد  
النوبة في سنتي ١٢٧٣ - ١٢٧٥ م بقيادة آقسنقر الفرقاني وعزالدين الأفرم .  
وقد ساهمت البحرية في هذه العمليات بعدد من الحرايق والسفن الحربية ،  
وتمكن الأمير عزالدين من اختراق الجنادل بمراكبه قرب الشلال الثاني  
والانتصار على الملك داود وأسرته وإقامة عمه شكندة ملكاً على النوبة .  
وقد أنشأ السلطان بيبرس عقب هذا النصر ديواناً خاصاً للنوبة في القاهرة  
تحت إشراف الصاحب بهاء الدين ابن حنا لمراقبة وصول الجزية من النوبة  
بانتظام<sup>(٢)</sup> .

وفي عهد السلطان قلاوون تجددت الحرب بين مصر ومملكة النوبة  
بسبب امتناع الملك سمamon عن دفع الجزية المتفق عليها . فأعد السلطان  
قلاوون حملة ضخمة لاختضاعه . وامتازت هذه الحملة بوفرة عدد الحرايق  
التي بلغت عدتها خمسمائة لحمل الزاد والسلاح والأثقال . وغادرت الحملة  
القاهرة سنة ١٢٨٩ م ، فلما وصلت أسوان ، سار نصف الجيش في السبر  
الشرقي بقيادة الأمير أيديمر وإلى قوص ، على حين سار النصف الآخر في  
البر الغربي بقيادة عزالدين الأفرم . واعتصم الملك سمamon بجزيرة في النيل  
تبعد خمسة عشر يوماً عن دققله ، فبعث إليه أيديمر رسالة يطلب منه  
المفاوضة ووعده بالأمان ، غير أن سمamon لم يقبل المفاوضة وفر من

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٧٨ .

(٢) القرطبي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢١ - ٦٢٢ .

الجزيرة جنوباً إلى جهة الأبواب خوفاً من وصول المراكب الملوكية للقبض عليه . وانتهت تلك الحرب بانتصار قلاوون وعودة سمامون إلى دفسع الجزية صاغراً<sup>(١)</sup> .

ولم تلبث هذه المملكة أن أخذت تصطبغ بصبغة عربية إسلامية ، وتفقّد طابعها المسيحي تدريجياً نتيجة لاختلاطها بالعرب بحيث لم يكّد ينتصف القرن الرابع عشر الميلادي حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام ، وانتقل الملك فيهم إلى بني كنز فسقطت عنهم الجزية لأن بني كنز عرب مسلمون من ربيعة<sup>(٢)</sup> .

### بعض أنواع السفن النيلية

كان وصف النيل وكثرة عدد السفن التي تجري فيه ، من أهم الموضوعات التي جذبت أنظار الرحالة الذين زاروا مصر في العصور الوسطى عامة وفي عهد الأيوبيين والمماليك خاصة . وقد جرت العادة أن المواطن العادي من أهل البلد قد تفوته أمثال تلك الملاحظات المحلية التي لا يتنبه إليها إلا الزائر الغريب عن ذلك البلد ، ومن هنا تظهر قيمة أقوال الرحالة والمسافرين من هذه الناحية .

فالرحالة الفرناطي ابن سعيد المغربي الذي زار مصر في القرن الثالث عشر الميلادي ، أبدى دهشته من كثرة المراكب التجارية التي تمر بساحل القسقاط ثم يقول :

« ولئن قلت اني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل ، فاني أقول حقاً »<sup>(٣)</sup> .

---

(١) المغربي الساروك ج ١ ق ٣ ص ٧٤٩ - ٧٥١ ، جمال الدين سرور : دولة بني ملاوون في مصر ص ١٥٣ ، محمد مصطفى مسعد : المرجع السابق ١٥٨ .

(٢) حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٢٩٤ - ٢٩٨ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٩١ ، محمد مصطفى مسعد : المرجع السابق ص ١٧٢ - ١٧٥ .

(٣) المغربي : الخطوط ١ ص ٣٤٣ ، محمد حدي المناوي : نهر النيل في المكتبة العربية ص ١٩٤ .

كذلك لاحظ الرحالة الطنجي ابن بطوطة نفس هذه الملاحظة عندما زار مصر في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، إذ يقول : « ان بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ، ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق »<sup>(١)</sup> .

وقد يشك المرء في صحة هذا العدد لأول وهلة ، ولكن حينما يقارنه بوصف الرحالة الايطالي فريسكو بالدي Frescobaldi الذي زار مصر مصر سنة ١٣٨٤ م أي بعد ابن بطوطة بنحو ستين سنة ، يتضح له صدق رواية الرحالة العربي . يقول فريسكو بالدي : « كان في القاهرة عدد عظيم من المراكب حتى إنه لو جمعت جميع المراكب التي شاهدها في جنوه ، والبندقية ، وأنكونا ، بصرف النظر عن المراكب ذات الطابقين ، لما عادلت ثلث المراكب التي شاهدها هنا »<sup>(٢)</sup> .

ويروي خليل بن شاهين ( ت ١٤٦٩ م ) أنه أحصى ما بساحل مدينة مصر من المراكب ، فكانت تتيف على ألف وثمانمائة مركب »<sup>(٣)</sup> .

ولقد اختلفت السفن النيلية في أسمائها وأشكالها وأحجامها تبعاً للغرض الذي استعملت من أجله ، فهناك سفن لحمل الغلال والبضائع وأخرى لنقل الحجاج والمسافرين وثالثة لنزهة الملوك والأمراء ، ورابعة للأغراض الحربية وهكذا . ولا يتسع المجال هنا لحصر أسماء تلك السفن ووصف أشكالها وتحديد مهمتها ، وحسي أن أعرض على سبيل المثال نصاً مختصراً عن بعض أنواع هذه السفن نقلًا عن المؤرخ السكندري محمد بن قاسم النويري ( ق ١٤ م ) يقول فيه :

« ومراكب النيل معروف منها حراريق ودرامين ومراكب وشخاتير :

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦٩ ( نشر وترجمة دقيري وساجيني ، باريس ١٩١٧ ) .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ، المقدمة الفرنسية ص ١٠ نشر وترجمة دقيري وساجيني .

(٣) ابن خليل الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٢٧ ، محمد حمدي المنادي : المرجع السابق ص ١٩٤ .

فالحارريق واحديتها حراقة ، تتخذ لزهة الملوك والأمراء لقضاء أشغالهم ومهماتهم ، والدراامين واحديتها درمونه تتخذ لحمل غلالهم من اقطاعاتهم في ابان زيادة النيل ، والمركب برسم حمل بضائع التجار والركاب من بلاد مصر إليها ، ومن مصر إلى بلادها ، والشخاتير واحديتها شخورة وهو برسم تعدية الناس من الشط إلى الآخر في ابان زيادة النيل واختراقه من مصر إلى الجيزة ، ومن الجيزة إليها . والنيل يركب أراضي مصر في ابان زيادته ، فلا يتوصل إلى قراها إلا في الشخاتير « (١) » .

---

(١) التويري : كتاب الالام ورقة ١٢٧ ب نسخة برلين .





## الباب الثاني

البحرية الإسلامية في البحر الأحمر  
في عصري الأيوبيين والمماليك  
(١١٦٩-١٥١٧م)



## الباب الثاني

### البحرية الإسلامية في البحر الأحمر

في عصري الأيوبيين والمماليك  
(١١٦٩-١٥١٧م)

امتازت مصر بشواطئها الشرقية الطويلة الممتدة على البحر الأحمر . وقد هباً لها هذا الموقع الجغرافي أن تتصل في سهولة مع جيرانها سكان الجزيرة العربية ثم بلاد الهند والصين عبر المحيط الهندي . وقد نوه بذلك المؤرخون العرب عندما وصفوا مصر بأنها « فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها » ف ساحلها بمدينة القازم ( السويس ) يحمل منه إلى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند - الخ »<sup>(١)</sup> .

ويبلغ طول البحر الأحمر من السويس إلى باب المندب ٢٢٤٠ كم . وعرضه في أوسع جهاته ٣٥٠ كم . أما تسميته بالأحمر فهي تسمية أغريقية نسبة إلى لون الشعب المرجانية التي تكثر فيه . وكان المصريون القدماء يطلقون عليه اسم الأخضر العظيم<sup>(٢)</sup> ، أما العرب ، فقد أطلقوا عليه أسماء متعددة ، هي نفس أسماء المسدن والبلاد المطلة عليه مثل : بحر القازم<sup>(٣)</sup> ، وبحر جدة<sup>(٤)</sup> ، وبحر عيذاب<sup>(٥)</sup> ، وبحر اليمن<sup>(٦)</sup> ، وبحر

- 
- (١) القرطبي : الخطط ج ١ ص ٢٨ .  
(٢) محمد الميد غلاب : منطقة السويس الجغرافية خلال التاريخ ص ٧ .  
(٣) رحلة ابن جبير ص ٣٥ ( طبعة بيروت ) .  
(٤) رحلة ابن جبير ص ٤٤ .  
(٥) نفس المصدر ص ٤٦ .  
(٦) النوري السكتدي : كتاب اللام ورقة ١٧٣ ب ( نسخة برلين ) .

الحجاز<sup>(١)</sup>، وبحر فرعون<sup>(٢)</sup>. ولعل هذه التسمية الأخيرة تعبر عن قصة غرق فرعون مصر في هذا البحر أثناء مطاردته للنبي موسى الكليم عليه السلام.

ولقد أجمعت كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب على أن البحر الأحمر يختلف عن البحر المتوسط في طبيعته وسفنه ورياحه وأعاصيره وطرق الملاحة فيه .

فالرحالة الأندلسي البلنسي ابن جبير ( ١٢١٧ م ) يصف المصاعب التي واجهته أثناء عبوره لهذا البحر من عذاب إلى جدة بقوله : « وكان نزولنا بحجة حامدين الله عز وجل ، وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عايناه في تلك الليلة الأيام طول مقامنا على البحر ، وكانت أهوالاً شتى ، عصمنا الله منها بفضل وكرمه ، فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه ، وكثرة شعابه المعارضة فيه . ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها واقتصامها<sup>(٣)</sup> المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسي من مراسيه . وربما سنحت<sup>(٤)</sup> الجلبة<sup>(٥)</sup> بأسفلها على شعب من تلك الصعاب أثناء تحللها ، فنسمع لها هداً يؤذن بالأس ، فكنا فيها نموت مراراً ونحيا مراراً .. وأبصرنا من صنعة الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة أثناءها أمراً ضخماً ، يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلال نصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد ، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه<sup>(٦)</sup> .

كذلك يصف الرحالة الطنجي ابن بطوطة ( ق ١٤ م ) صعوبة السير في هذا البحر بقوله :

(١) إي شامة : كتاب الروشتين ج ١ ص ١٩١ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥٠ .

(٣) اقتصامها : انكسارها .

(٤) سنحت : لصقت بالأرض .

(٥) الجلبة والجمع جلاب وجلبات نوع من سفن البحر الأحمر التي لا يستعمل في بنائها المسامير .

(٦) رحلة ابن جبير ص ٥١ - ٥٢ ( طبعة بيروت ) .

« وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، و يرسون وينزلون إلى البر ، فإذا كان الصباح صعدوا الى المركب ، وهم يسمون رئيس المركب الريان ، ولا يزال أبداً في مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الأحجار ، وهم يسمونها البنات » (١) .

أما المؤرخ السكندري محمد بن قاسم النويري ، فيعطينا صورة جميلة لبعض العادات والتقاليد التي كانت متبعة بين ملاحى هذا البحر مع الإشارة إلى أسماء بعض مراكبه وطريقة صنعها وتزيمها فيقول :

« ومراكب بحر اليمن ليست مسمورة بالمسامير مثل مراكب بحر الروم ( أي البحر المتوسط ) ، بل مخيطة بالقنبار وهو ليف قشر جوز النارجيل (٢) ، وذلك لما في بحر الهند واليمن من جبال المغناطيس الذي إذا شهما الحديد طار إليها بسرعة لعشقه لها (٣) ... ومن أسماء مراكب بحر اليمن والهند ، الجلاب ، والزوم ، والسنايك ، واحدها جلبة ، وزومة ، وسنبوك . ومن عادة الجلبة في سيرها إذا قريت من بر عنده جبل ، يقف التواتية بقلّة

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ ( الطبعة الاوروية لشر ورجة دفريري وسانجنتي ) .

(٢) يذكر ابن بطوطة ان هذا الليف كان يدينغ في مصر على ساحل عيذاب ثم يضربونه بالمراب ثم يفزله النساء وتصنع منه الحبال التي يخيطنون بها خشب المراكب بدلاً من المسامير ، ثم يضعون خلالها دسراً من عيدان الجريد ثم يطونها بالشعوم مثل دهن الخروع أو دهن القرش حتى يلين عودها لكثرة الشامب المتروضة في هذا البحر .

(٣) اسطورة جذب جبال المغناطيس للسفن المسمرة في البحر الاحمر كانت شائعة في المصور القديمة والوسطى ، وقد ذكرها كل من النويري السكندري والقزويني وماركوبولو وغيرهم وواضح انها فكرة خاطئة بدليل ان السفن اليونانية والرومانية كانت تسير في البحر الاحمر وهي محملة بالمسامير والحديد . وقد اختلفت اقوال المؤرخين حول الاسباب التي من اجلها استعملت الحيتوط في بناء سفن البحر الاحمر والمحيط الهندي بدلاً من المسامير . وكيفما كان الامر فان دور الصناعة في مصر كانت تصنع هذين النوعين وترسل لكل بحر السفن الخاصة به . راجع التفاصيل في ( سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ١٩٣ - ١٩٥ ، محمد ياسين المحوي : تاريخ الاسطول المصري ص ٥٨ وما بعدها ) .

ويسلم على الجبل ويقول : « أها الجبل ! هذا مركب الناخودا<sup>(١)</sup> . مسافر من البلد الفلاني يريد البلد الفلاني ، خاطرك معه » . وربما طبخ شيئاً من أرز ورمى به البحر ويقول له : « هذا ضياقتك أها الجبل » . وهذا فعلهم في كل جبل يرونه . وكذلك في بحر عذاب ، يجمع من التجار ما يؤكل ، ويرمى له في البحر برسم الهدية . ومن عادتهم إذا لم يكن عندهم ربح يذبحون دجاجة سوداء أو جدياً أسود ويلطخ بدمه أصول الصواري ، ويبخر بالعود القهاري . قال بعض التجار :

« ولقد رأيت نوتياً وقد أخذ السكين وهو يحارب في الهواء وحده بها ، فسأته عن ذلك ، فقبل لي أنه يقاتل الريح لتخلفه عنا » . وقال أيضاً : « أئمننا جمعة ليس معنا ربح والبحر كأنه جامد ، ونحن في اللجة ، فأخذوا قلعة بجوفة البطن وجعلوا فيها من جميع كل بضاعة شيئاً يسيراً ، وصوروا على شبه المركب بالصواري والقنوع ، وعملوا في الصواري شمعيات ونزل النواتية في سنوك ، وأخذوا القلة وطافوا بها في البحر سبع دورات حول المركب ثم تركوا القلة في الماء تعوم والشمع يقد بها ، وقالوا هذه هدية البحر . فلم تزل القلة على وجه الماء حتى يأتي الهواء ويقوى عليها الموج فيأخذها ويمضي بها . ثم من عادتهم أن يكون في المركب أربعة غطاسين ليس لهم شغل إلا إذا زاد الماء في المركب فيتدهنون بالشيرج ، ويسدون مناخرهم بالشمع ، وينزلون البحر مقلع بالقنوع يجري ، ومع كل واحد منهم خطافان ، وبينهما جبل رقيق ، فيطرح الخطاف الأول في خشب المركب فوق الماء ، ويفطس بالثاني ويتنقل به تحت الماء قليلاً مثل الحوت حول المركب ، ويتجسس بأذنه ، فحينما يجمع خبز الماء ، سده بالشمع لأنها تكون ثقلاً مسدودة بالجريد وهي موضع الخياطة ، فربما يزرق ذلك الجريد المشدود بجبل ليف النارجيل فأمره خفيف . فيسد في

(١) الناخودا أو الناخودة هو قائد المركب Capitaine de navire والكلمة اصلها فارسي . فار : مركب خداه : رب . راجع : Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes II p. 648.

نهاره المشرين والثلاثين ثقباً . ويطلع الفطاس لا يصعب عليه شيء من ذلك سواء ، كان الريح أو السكت ، وهذا من أعجب الأشياء . ومراكب الهند بأجمعها بسبعة قلوب مربعة في كل مركب ، وتلك القلوب من حصر النارجيل والكتان ، وهي خيطة بخيط النارجيل المعروف بالقتنار . وبأرض الهند موضع يقال له البدكور يعمرن به مراكباً كبيراً ليسافروا بها إلى عدن موسوقة بالفلفل والبضائع الجليلة ، ويعتدون بالقسي العقار والسلاح لقتال السارق في البحر . والسارق أجناس مختلفة من الهنود الكفار ، تجهزم ملوكهم لقطع الطريق على التجار ولهم على ذلك جامكية ، وربما غلبوا وغابوا ، ولكنهم بعد أخذ الأموال لم يأمرؤا أحداً بل يرمونهم في أي ساحل لجأوا إليه . وملوك السواحل يحكمون لهم بالتمكن والبيع مما غنموه ، ومن عرف شيئاً لا يأخذه إلا بالشراء منهم ، ويقولون هذا عمارة المدائن <sup>(١)</sup> .

هذا ، وقد أجمع المؤرخون على أن سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي كانت تصنع من أخشاب متينة مثل خشب الساج أو خشب جوز الهند Teak الذي امتاز بمتانته ومرونته وقوة احتفاله للتأثيرات الجوية والبحرية القاسية في تلك البحار . كذلك يجمع المؤرخون على أن هذه السفن كان لا يستعمل في بنائها المسامير الحديدية مثل سفن البحر المتوسط بل كانت تحاط ألواحها بجبال الليف وتثبت بدمر ( مسامير خشبية ) من عيدان النخل ، ثم تطلّى بالشحوم مثل دهن سمك القرش <sup>(٢)</sup> ، كي يلين عودها لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر علماً بأن سفن البحر المتوسط كانت

(١) راجع ( التوربي السكندري : كتاب الألام بالاعلام فها جرت به الأحكام والأمر المقضية في وقعة الاسكندرية . ورقة أ ١٢٣ - ١٢٧ ب ، نسخة برلين ( صورة بكتلية أداب الاسكندرية ) .

(٢) كانوا يصطادون ما صفر من سمك القرش ويطحونه في اللقدور فينوب جميع لحمه ويصير شحماً مذاًباً ، وهذا الشحم مشهور ببلاد اليمن في عدن وغيرها من المدن الساحلية راجع ( محمد بن منكل : الحيل في الحروب وقتح الدائن وحفظ الدروب لوجه ٣٧ ) .

تقلط بالقطران أو القار كما سبق أن بينا ، ويلاحظ أن الليف المستعمل في خياطة هذه السفن كان يسمى بالقنبار أو القنبر وهو ليف قشر جوز النارجيل ، كانوا يدبغونه في حفر على الساحل ثم يدرسونه ويضربونه بالرازاب ثم يفتله النساء وتصنع منه الأمراس أو الحبال التي تصنع منها هذه المراكب التي كانت تنقل التجارة والحجاج في البحر الأحمر أو المحيط الهندي .

وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دعت إلى استخدام الحبال بدلاً من المسامير في بناء هذه السفن ، فبعضهم يردد هذه الاسطورة القائلة بأن جبال البحر الأحمر كانت تحتوي على صخور المغناطيس تحت سطح الماء فتجذب السفن المبنية بالحديد إلى قاع البحر . ولا شك أن هذه الأسطورة غير صحيحة بدليل أن السفن الحديدية تسير في هذه البحار دون أن يصيبها أذى . ويرى فريق آخر أن استعمال حبال الليف في صنع هذه المراكب يرجع إلى ملوحة مياه البحر الأحمر التي كانت تتلف المسامير ، غير أن هذا الرأي أيضاً غير صحيح لأن مياه البحر المتوسط لا تختلف عن مياه البحر الأحمر في درجة الملوحة إلا بنسبة ضئيلة جداً . ولعل السبب الحقيقي في ذلك هو أن السفن المخططة تكون أقل عرضة للكسر من المراكب المصنوعة بالمسامير إذا اصطدمت بشعاب المرجان في البحر فضلاً عن أنها تستطيع الرسو على الشواطئ الصخرية المنتشرة في هذه البحار ، هذا إلى جانب أن صناعة المسامير أو استيرادها في مناطق البحر الأحمر والمحيط الهندي كان يتطلب نفقات كثيرة ، في حين أن خشب جوز الهند وأليافه ودهن القرش وغير ذلك من المواد اللازمة للخياطة كانت متوفرة في هذه المناطق<sup>(١)</sup> .

---

(١) راجع ( جورج فاضل حوراني : العرب والملاحه ص ٢٤٥ ؛ سعاد ماهر : المرجع السابق ص ١٩٥ ) .



## الصراع حول السيطرة على البحر الأحمر

أشارت كتابات المؤرخين القدامى إلى وجود علاقات تجارية وعسكرية بين مصر وبين سواحل البحر الأحمر منذ أيام الفراعنة ، كما أشارت كذلك إلى وجود قناة قديمة تربط النيل بخليج السويس لهذا الغرض أيضاً<sup>(١)</sup> .

وكانت هذه القناة تهمل أحياناً ، ويحدد حفرها أحياناً أخرى على مر العصور . ولما فتح عمرو بن الماص مصر ، أعاد حفرها من جديد لربط مصر بالحجاز سياسياً واقتصادياً ، وأطلق عليها اسم خليج أمير المؤمنين نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي أشار بحفرها . ومن ثم صار هذا الخليج مسلکاً لسفن التجار والحجاج التي كانت تسير فيه إلى البحر الأحمر لتتجه إلى الحجاز واليمن والهند .

وهكذا اهتمت مصر بمنطقة البحر الأحمر من قديم ، ورسمت لنفسها هناك سياسية تقليدية ثابتة تقوم على تأمين تجارة البحر الأحمر وضمان سلامة التجار والحجاج فيه ، والتحاليف مع القوى الحاكمة في البلاد المطلة عليه كالحجاز واليمن والنوبة . وكثيراً ما دفعتها تلك السياسة في فترات قوتها إلى التدخل عسكرياً في حكم تلك البلاد لضمان احكام سيطرتها على هذا الشريان الحيوي الهام .

ففي أواخر العصر الفاطمي ، عندما هاجم أمير مكة بمراكبه ثغر عيذاب وقطع الطريق على تجار مصر ( ٥١٢ هـ ١١١٨ م ) ، أعلن وزير مصر الأمير الأفضل ابن بدر الجمالي أنه سيسير بنفسه في أسطول أوله عيذاب وآخره جده ، وأرسل إلى أشرف مكة وأعظمهم بما فعل أميرهم ، وأقسم في كتابه أنه لا يصل إلى مكة من أعمال الدولة تاجر ولا حاج إلى أن يرد أمير مكة ما أخذه من أموال التجار ... فلما وردت المكاتبه على الأشرف بمكة ، اشتد الأمر عندهم وبعثوا رسولاً من قبل أميرهم ،

---

(١) ابراهيم نصحي : السويس في المصور القديمة حتى الفتح العربي ص ٣٩ وما بعدها .

فلما وصل ساحل مصر لم يؤبه به ، ولا جرى عليه ضيافه ، وقيل له : « ما يقرأ لك كتاب ولا يسمع منك خطاب دون إعادة المأخوذ من التجار إليهم » وشاهد مع ذلك الجد والاهتمام بأمر الأساطيل وتجهيز المسافر إلى صاحبه ، فاللزم باحضار جميع أموال التجار ، وسأل التوقف عن الاسراع بما عول عليه من قصد صاحبه ، وأجل لعوده أجلاً قريباً ، فأجيب إلى ذلك ، وسار فلم ينقضي الأجل حتى عاد وصحبته جميع ما أخذ من التجار من البضائع والأموال » (١) .

وحينما ولى صلاح الدين الأيوبي حكم مصر سنة ٥٦٤ هـ ( ١١٦٩ م ) وجه عنايته نحو حماية البحر الأحمر وتجارته وحجابه والأماكن المقدسة المطلّة عليه من خطر المستعمر الصليبي الذي كان يحتل سواحل الشام وفلسطين .

واعتمد صلاح الدين في تنفيذ تلك السياسة على أسطوله البحري ، فعمل على تقويته مستغلاً في بنائه أخشاب السنط التي كانت تنمو بكثرة في وادي النيل وصعراء سيناء كما سبق أن ذكرنا (٢) .

وفي سنة ٥٦٦ هـ ( ١١٧٠ م ) عزم صلاح الدين على احتلال قلعة أبله التي تقع على فوهة البحر الأحمر ومداخله ، وكانت بأيدي الصليبيين ، فعمّر لها المراكب الحربية في دور صناعة مصر ( القسطنطينية ) ثم نقل أجزائها وأخشابها مفككة على الجمال إلى ساحل البحر الأحمر حيث تم تركيبها وشحنها بالرجال والإلات . ومن هناك « هاجم القلعة المذكورة وفتحها واستباح بالقتل والأمر أهلها ، وملأها بالعدد والعدد ، وحصنها بأهل الجلاء والجلد لأنها في مر حجاج مصر » (٣) .

---

(١) المقرئ : انماط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا ورقة ١١٧ ( نسخة مصورة بمكتبة الحرم الديكتور جمال الدين الشيال عن نسخة طوب فبو سراي ) وكذلك ( محمد حمدي المتاري : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٢٢٩ .

(٢) راجع القسم الأول الخاص بالبحرية النيلية .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٧ .

وبعد سنوات قليلة من فتح أبله ، أرسل صلاح الدين حملة بقيادة أخيه تورانشاه ، احتلت اليمن سنة ٥٦٩ هـ ( ١١٧٣ م ) ثم بسط نفوذه على الحجاز وصار يدعى له على منابر مكة . ولا شك أن هذا التدخل المصري في البلاد المطلة على البحر الأحمر جنوباً وشمالاً ، كان الهدف من ورائه هو السيطرة على مداخل هذا البحر وحماية تجارته وحجابه من الخطر الصليبي الرابط في سيناء وجنوب فلسطين .

ومهما قيل من روايات أخرى حول أسباب هذا التدخل الأيوبي في منطقة البحر الأحمر وخاصة اليمن<sup>(١)</sup> ، فإن الأحداث التالية تبرر صدق ما قلناه . فيروي المؤرخون أنه في سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٢ م ) حاول الأمير الصليبي أرنأط Renaud de Chatillon صاحب حصن الكرك جنوبي فلسطين ، مهاجمة مكة والمدينة عن طريق البحر ، فبنى سفناً حربية حملها على جبال الأعراب المجاورين بكراء اتفق معهم عليه ، فلما بلغ ساحل البحر أكل انشامها وتآليفها ودفعها في البحر ، ثم أوقف منها مركبين عند قلعة أبله لمنع أهلها من استقاء الماء ، بينما سارت بقية السفن جنوباً نحو عيذاب ، فقتلوا وأمروا وأحرقوا في البحر نحو ستة عشر مركباً ، وأخذوا بعذاب مركباً قادماً بالحجاج من جدة ، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج بين قوص وعيذاب ، وقتلوا الجميع ، وأخذوا مركبين فيها بضائع جاءت من اليمن ، واستولوا على أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين ، وأخذوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلا ولا وصل قبلهم رومي إلى ذلك الموضع ، فانه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية

---

(١) اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت صلاح الدين إلى احتلال اليمن ، فالبعض يرى أنه أراد أن يتخذها ملجأ له ولأسرته إذا ما أخرجته سيده نور الدين محمود من مصر . والبعض الآخر يرى أن صلاح الدين أراد بذلك أن يقضي على النفوذ الشيعي في اليمن كما فعل في مصر . والبعض الثالث يرى أنها كانت مؤامرة صليبية فاطمية كانت تهدف إلى تشتيت واضاف قوات الأيوبيين بغية احتلال مصر . وكيف كان الأمر في مدى صحة هذه الأسباب ، فالتنا نستقد أن السبب الطبيعي المنطقي لاحتلال الأيوبيين لليمن هو الدفاع عن مجال مصر السيامي والاقتصادي في البحر الأحمر ، والسيطرة على مداخله الجنوبية .

سوى مسيرة يوم واحد... ثم مضوا إلى الحجاز يريدون دخول مدينة الرسول ﷺ وإخراجه من الضريح المقدس، وأشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم<sup>(١)</sup>، فلما وصل الخبر إلى مصر وبها الملك العادل نائباً عن أخيه صلاح الدين، أمر الحاجب لؤلؤ، فعمر المراكب بمصر وسار بها براً إلى أبيه حيث أنزلها في البحر هناك، وشحنها بالرجال ذوي التجربة من أهل الدين والحمة مع أنجاد من المغاربة البحريين<sup>(٢)</sup>، وسار إلى أبيه فظفر بالركب الفرنجي عندها، فخرق السفينة وأخذ جندها، ثم عدى إلى عيذاب، وشاهد بأهلها العذاب، ودلوه على مراكب العدو فتبعها، فوقع بها بعد أيام، فأوقع بها وواقعا، وأطلق المأسورين من التجار، ورد عليهم ما أخذهم. ثم صعد إلى البر، فوجد أعراباً قد نزلوا منه شعاباً، فركب خيلهم وراء الهاربين، وكانوا في أرض تلك الطرق ضارين، فحصرهم في شعب لا ماء فيه، وأسرم بأسرهم، وكان ذلك في أشهر الحج، فساق منهم أسيرين إلى منى كما يساق الهدى، ونحرهما بها كما تنحر البدن، وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م)، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم، وقطع أسباغهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف، ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف<sup>(٣)</sup>.

وللشاعر أبي الحسن بن النروي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الواقعة أشعار منها :

مر يوم من الزمان عجيب	كاد يبدي فيه السرور الجماد
إذ أتى الحاجب الأجل بأمرى	قرنتهم في طيها الأصفا
يجمال كأنهن جبال	وعلوج كأنهم أطوا
قلت بعد التكبير لما تبدي	هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي	وسواه من اللآلي يصاد <sup>(٤)</sup>

(١) للفرزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٧٩ .

(٢) رحلة ابن خببر ص ٣٤ (طبعة بيروت) .

(٣) يقدر عند الأمرى بنحو مائة وسبعين أسيراً . راجع (أوشامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٥ - ٣٧) .

(٤) أوشامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٦ .

أثار هذا التدخل الصليبي في البحر الأحمر انتباه سلاطين الأيوبيين والمماليك إلى ميناء عيذاب ، فازداد اهتمامهم بها خصوصاً بعد ازدياد أهميتها التجارية . كذلك يلاحظ في هذا الصدد أن قرب الوجود الصليبي من جنوب الشام وصحراء سيناء ، وتخريبهم لمدينة القلزم سنة ١١٥٠ م ، قد جعل التجار والحجاج المسلمين يتجنبون طريق القلزم - أبله للوصول إلى الجزيرة العربية . وقد أدى ذلك إلى اضطرار شأن خليج ومدينة القلزم<sup>(١)</sup> (السويس) منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بعد أن كانت تلك المدينة ميناء الملاحة إلى الحجاز والهند في القرون الإسلامية الأولى<sup>(٢)</sup> . لهذا اضطر التجار والحجاج إلى اتباع طريق صعيد مصر والصحراء الشرقية إلى عيذاب ومن الأخيرة عبر البحر الأحمر إلى جدة والحجاز .

لم يلبث ميناء عيذاب نتيجة لذلك ان صار محط تجار الهند واليمن والحبشة ، يردون في البحر إليه ثم يسلكون الصحراء الشرقية التي سميت باسم هذا الميناء - صحراء عيذاب - إلى مدينة قوص على الضفة الشرقية للنيل ، ومنها يتجهون في النيل شمالاً إلى القاهرة<sup>(٣)</sup> .

كذلك ازدهر ميناء القصير شمالي عيذاب ، وذلك لقربه من مدينة قوص التي كانت هي الأخرى عاصمة للصعيد ، ومركزاً للعلماء والتجار ورجال المال . وكان بها فندق للكارمية<sup>(٤)</sup> ، ينزل فيه تجارهم من القاهرة والاسكندرية .

(١) خربت مدينة القلزم في القرن الخامس الهجري ، وأنشأ التجار قاعدة جديدة لهم بجوارها وهي السويس ، وبذلك حل اسم السويس محل القلزم . وما زال التل المرتفع القائم بجوار السويس يعرف اليوم باسم قلعة القلزم (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥١) .

(٢) ابن خردادبه : المسالك والممالك ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٤ - ٤٦٨ ، المقرئ : الخط ج ١ ص ٢٠٢ ، صبحي بني لبيب : تاريخ تجارة الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي (رسالة لم تنشر) ص ٩١ .

(٤) هم التجار الكارمية أو تجار الكارم ، ويقال ان المقصود بالكلام هو العنبر الاصفر ، وقيل =

ولقد بلغ من اهتمام الأيوبيين والمماليك بتجارة البحر الأحمر وسواحله أن مدوا نفوذهم إلى الحجاز واليمن بل وإلى ميناء سواكن المنفذ البحري للممالك النوبة ( ٦٦٤ هـ سنة ١٢٦٥ م ) مما أدى إلى أحكام السيطرة المصرية على البحر الأحمر مع تهديد المعازل المسيحية في بلاد النوبة .

واستمر هذا الطريق الجنوبي : قوص — عيذاب مسلماً للتجار والحجاج في ذهابهم وإيابهم مدة طويلة تزيد على ثلاثمائة سنة ( ٤٥٠ — ٧٦٠ هـ — ١٠٦٢ — ١٣٥٨ م ) استطاعت دولة المماليك خلالها أن تقضي على دولة الصليبيين في الشام وتطردهم منه نهائياً سنة ١٢٩١ م<sup>(١)</sup> . وكان من نتائج ذلك زوال الخطر الصليبي عن جنوب الشام وصحراء سيناء ، وعودة الحياة من جديد إلى خليج السويس ، فصارت كل من ميناء السويس والطور مكان حط واقلاع للسفن عابرات المحيط الهندي والبحر الأحمر .

ولقد استغلت دولة المماليك في مصر فرصة أمن الملاحة والتجارة في شمال البحر الأحمر وجنوبه من الخطر وعملت جاهدة على جذبها إليها ، يشهد على ذلك المنشور الرسمي الذي اذاعه السلطان المنصور قلاوون ( ت ١٢٩٠ م ) على التجار الذين يصلون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ، وهو مرسوم جميل يذكرنا بالدعاية السياحية في الوقت الحاضر إذ يقول فيه : « . . . ومن يؤثر الورود إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أفيائها وأقناؤها ، فليعزم عزم من قصد الله له في ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن فطن ، ومسلة لمن تقرب عن الوطن ، ونزهة لا

= انها تحريف لكلمة Kanem إحدى بلاد السودان الغربي في شمال شرق بحيرة تشاد وتنسب إليها جاليات تجارية في مصر واليمن كانت يبدأ تجارتها البهار — الواردة من الهند . وقد نص أبو شامة على أكارم عدن وإن لم يشر إلى أصلهم أو جنسيتهم . راجع : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٧ . وكذلك (Dozy : Suppl. aux Dic. Arabes II p. 460)  
(١) القرطبي : الخطوط ١ ص ٢٠٢ ، مصطفى مسعد ، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٣٣ — ١٤٤ .

يلها بصر ، والتمتع بها في ربيع دائم ، وخير ملازم ، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه . . . فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الأهمية في الارتحال إليها ، والقدوم عليها ، ليجد الفعّال من القفال أكبر ، ويرى احساناً يقابل في الوفاء بهذه المهود بالأكثر ، ويحل منها في بلدة طيبة ، وفي سلامة في النفس والمال ، وسعادة تمول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه . . » (١) .

هذا ، ويلاحظ أن ازدهار حركة التجارة في خليج السويس شمالاً ، قد أدى آخر الأمر إلى إهمال طريق عيذاب جنوباً ، ومن ثم أخذت عيذاب تضمحل شيئاً فشيئاً حتى خربها السلطان برسباي سنة ١٤٢١ م (٢) .

على أن السلطان برسباي وإن كان قد قضى على ميناء عيذاب ، إلا أنه في نفس الوقت قد تنبه إلى أهمية ثغر جدة المقابل له ، فعمل على إبعاد نفوذ شريف مكة عن هذا البندر ، وجعله تحت إشرافه مباشرة . وهكذا أصبحت جدة مدينة مصرية ، وصار ناظرها يعين من قبل سلاطين المماليك ، وكان يشد أزره حامية مملوكية للدفاع عن هذا الميناء ضد غارات الأشراف (٣) .

ولقد جنت مصر أرباحاً طائلة من ضريبة العشر التي فرضتها على مراكب الهند وغيرها المارة بجدة ، حتى إنه يقال إن ناظر جدة كان يحمل إلى الخزانة المصرية في كل عام ما يزيد على السبعين ألف دينار (٤) .

(١) راجع ( القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ، سعيد عاشور : السويس منذ الفتح العربي إلى بداية العصر الحديث ص ٨٢ ) .

(٢) مصطفى محمد : نفس المصدر ص ١٤٣ حاشية ٣ .

(٣) احمد عبد الحميد خفاجي : موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة ص ٩٠ ( رسالة لم تلشر ) .

(٤) انظر : Gaston Wiet : (Hist. de la Nation Egyptienne. Tome IV p. 574) .

غير أن الظروف سرعان ما تغير الأحوال ، ففي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، فوجئت مصر بنجاح الملاح البرتغالي فاسكو دا جاما في الالتفاف حول أفريقيا عن طريق رأس الأعاصير ( الرجاء الصالح فيما بعد ) والوصول إلى شواطئ الهند<sup>(١)</sup> . وقد ترتب على هذا الكشف الجغرافي الخطير ، أن تحول النشاط التجاري إلى هذا الطريق الجديد بدلاً من طريق البحر الأحمر مما أدى إلى حرمان دولة المماليك من الأرباح التي كانت تحصلها على بضائع الشرق الأقصى المتجهة إلى جدة أو المارة عبر الأراضي المصرية إلى أوروبا .

ولم يكتف البرتغاليون بذلك ، بل أخذوا في مهاجمة السفن الهندية المحملة بالبهار والتوابل إلى جدة ، وهددوا بغزو بلاد الحجاز وتخريبها بقطع كل اتصال بين المحيط الهندي والبحر الأحمر ، وتحويل متاجر الشرق الأقصى بالقوة إلى أسواق لشبونة . وقد نجم عن ذلك أن شعت البضائع الهندية في الموانئ المصرية ، وحرمت مصر من مصدر ثروتها وقوتها .

ولقد بذل السلطان قنصوة الغوري ( ١٥٠٠ - ١٥١٦ م ) مجهودات كبيرة لمقاومة هذا الخطر البرتغالي ، فأخذ في اعداد الأساطيل وتجهيزها بالمدافع والأسلحة التارية ، كما احتكر خشب السفن في مصر<sup>(٢)</sup> ، وعمل على استيراده من آسيا الصغرى ومن جمهورية البندقية التي أضرت بتجارها هذا الطريق الجديد أيضاً .

وفي سنة ١٥٠٥ م ( ٩١١ هـ ) أبحرت من السويس حملة بحرية مصرية من خسين سقينة بقيادة الأمير حسين الكردي . وصحبت الحملة جماعة كثيرة من البنائين والتجارين والفعلة لتحصين ميناء جدة وانشاء الأبراج اللازمة للدفاع عنها إذا ما دامها البرتغاليون<sup>(٣)</sup> .

---

(١) يليني انت تشيد منا بفضل الملاح العربي احمد ابن ماجد الذي رافق فاسكودي جاما ودله على طريق الهند .

(٢) ( ابن الياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٥٥ ) .

(٣) ( ابن الياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٤ - ٨٥ ، صبحي يني لبيب : المرجع السابق ص ٢٢٣ .



وكان أسطول البرتغاليين في نفس هذا الوقت قد أبحر من المياه الهندية في عشرين سفينة بقيادة الفونسو دالبوكرك Alfonso d'Albuquerque واستولى على جزيرة سوقطره Socotra التي تشرف على مدخل البحر الأحمر ثم أغار على ميناء عدن اليمنى وعبر باب المندب ، وتحول إلى سواكن بقصد الاتصال بملك الحبشة ، والاتفاق معه على تحويل مجرى نهر النيل ومنعه من الجريان إلى مصر ، ثم أبحر متجهاً نحو جدة بقصد انزال قواته على شاطئ الحجاز . غير أنه ما أن علم بوجود الأسطول المصري الكبير في مياه جدة ، حتى سارع بالانسحاب بسفنه من مياه البحر الأحمر . أما الأمير حسين الكردي ، فقد تقدم على رأس وحداته البحرية لمطاردته ، واتجه نحو سواكن ومنها إلى عدن ثم إلى شواطئ الهند . وهناك تمكن في بادئ الأمر من انزال الهزيمة بالأسطول البرتغالي في صيف عام ١٥٠٨ م في موقعه شول Chaul على الشاطئ الغربي للهند . غير أنه ما كادت النجدة تصل للبرتغاليين في العام التالي ، حتى تقدموا لمهاجمة الأسطول المصري في خليج ديو Diu على ساحل ملبار وألحقوا به هزيمة ساحقة في ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ م ( ١٥١٥ هـ )<sup>(١)</sup> .

واستغل البرتغاليون هذا النصر في مواصلة التحكم في قواعد تجارة الشرق الأقصى ، وقطع الطريق البحري بين المحيط والبحر الأحمر ، فاستولوا على جوا Goa سنة ١٥١٠ م وعلى ميناء ملقه ملتقى سفن الصين والهند في جنوب شرق آسيا سنة ١٥١١ م ثم اتبعوا ذلك بمحاولات عديدة للاستيلاء على معاقل البحر الأحمر مثل جدة ونجا والحديدة ، ولكن محاولاتهم في تحقيق هذا المشروع باءت بالفشل بفضل نجدة الأسطول المصري ، وحسن دفاع الحاميات المصرية المربطة هناك .

(١) احمد دراج : الممالك والفرنج في القرن الخامس عشر الميلادي ص ١٣٧ .

وقد أشار ابن اياس إلى الرحلات التفيشية التي قام بها السلطان الغوري إلى مدينة السويس للاشراف بنفسه على اعداد الأساطيل وتجهيزها بالآلات والمقاتلة قبل إبحارها لمنع البرتغاليين من دخول البحر الأحمر .

وهكذا نجد أن نفوذ البرتغاليين قد اقتصر فقط على مياه المحيط الهندي ، بينما ظلت مصر هي صاحبة السيادة في مياه البحر الأحمر .

## الباب الثالث

البحرية الإسلامية في البحر المتوسط  
في عصري الأيوبيين والمماليك



## الباب الثالث

### البحرية الإسلامية في البحر المتوسط في عصري الأيوبيين والمماليك

أولاً - في العصر الأيوبي

(٥٦٤-٦٤٨ هـ = ١١٦٩-١٢٥٠م)

يعتبر البحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور مركزاً للحضارات الكبرى ، وأداة وصل بينها شرقاً وغرباً . وقد حمل لواءها الشعوب المطلة عليه كالمصريين القدماء ، والفينيقيين ، واليونان ، والرومان ثم العرب ، فتحكوا في مياهه وجزره وسواحه . وساهمت مصر بنصيب كبير في هذا المضمار لطول سواحلها ، وكثرة قواعدها ، وقوة أساطيلها التي كانت تتمخر في عبابه .

ولقد اعتنت الدولة الفاطمية ، كما رأينا في القسم الأول ، - بأمر الجهاد البحري ، فكانت أساطيلها موزعة على جميع موانئها المصرية والشامية المطلة على هذا البحر كالاسكندرية ودمياط وعسقلان وعكا وصور وغيرها . وكان يشرف على قيادة تلك الأساطيل أمير كبير من أعيان الأمراء وأقوام جاشاً . وقد بلغت عدة الأسطول الفاطمي أيام المعز لدين الله ، أكثر من سبائة قطعة واستطاع أن يسيطر على معظم سواحل هذا البحر ، ويبث الرعب في قلوب الأعداء<sup>(١)</sup> .

(١) التلغشتدي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٦١٩ .

غير أن هذه الدولة الفاطمية لم تلبث أن ضعفت في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بسبب انقساماتها الداخلية ، فتقلصت قواتها البحرية ، وعجز أسطولها عن حماية المدن الساحلية الشامية من هجمات الأساطيل الصليبية ، فلم ينته القرن الحادي عشر الميلادي إلا وكان الأوروبيون سادة لصقلية وجنوب إيطاليا والأقاليم الساحلية في الشام إلى جانب تحكمهم في طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب<sup>(١)</sup> .

ولما قامت الدولة الأيوبية المجاهدة ( ٥٦٤ - ٦٤٨ هـ = ١١٦٩ - ١٢٥٠ م ) على أنقاض الدولة الفاطمية ، كانت البحرية العربية في مصر والشام قد ضعفت تماماً بعد أن استولى الصليبيون على عسقلان وصور وعكا وغيرها من القواعد البحرية في الشام ، وامتدت غاراتهم إلى المدن الساحلية المصرية كالاسكندرية ودمياط وتينيس ورشيد . ولهذا اهتم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي منذ بداية حكمه بالعمل على إحياء البحرية العربية كسلاح مضاد للعدوان الصليبي ، وقام في سبيل تقويتها بعدة إصلاحات داخلية نذكر منها :

أولاً : أفرد للبحرية ديواناً خاصاً للانفاق عليها عرف باسم ديوان الأسطول ، وولى عليه سنة ٥٧٢ هـ ( ١١٧٦ م ) صديقاً من أصدقائه لم تذكر المراجع عنه شيئاً سوى أن صلاح الدين كتب إلى جميع ولاة الأعمال المصرية والشامية يأمرهم بتنفيذ طلباته كلها وصلت إليهم من حيث جمع الرجال للخدمة في الأسطول : « والقول قول صاحب الأسطول ، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه »<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ٥٨٧ هـ ( ١١٩١ م ) عين صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ، ثم عين العادل بدوره صفى الدين بن شاكور نائباً له في ذلك الديوان<sup>(٣)</sup> .

(١) ارشيبالد لويس : القوى التجارية والبحرية في حوض البحر المتوسط ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ج ١ ص ٢٦٩ ، حسنين محمد ربيع : التنظيم المالي في مصر زمن الأيوبيين ص ٧١ .

(٣) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

ولقد تولى ديوان الأسطول الاتفاق على دور الصناعات المختلفة وأمدّها بكل ما تحتاج إليه من أخشاب وآلات .

ثانياً : خصص صلاح الدين لـديوان الأسطول أموالاً ضخمة وهي متحصلات أقليم الفيوم ، والحبس الجبوشي ، وحراج السنط ، وحصيلة النظرون التي بلغت وقتذاك ثمانية آلاف دينار ، إلى جانب متحصل ديوان الزكاة وقدره أكثر من خمسين ألف دينار ، وأجرة المراكب الديوانية ، وحصيلة قريتي أشنين وطنبذة من كورة البهنسا في محافظة المنيا الحالية<sup>(١)</sup> .

ثالثاً : استعان صلاح الدين في بناء أسطوله بالخشب المحلي في مصر بالإضافة إلى أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في جبال لبنان فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت<sup>(٢)</sup> . كذلك عقد معاهدات تجارية لهذا الغرض مع الجمهوريات الإيطالية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع<sup>(٣)</sup> .

وكان يوجد بالإسكندرية ديوان اسمه المتجر السلطاني لشراء مختلف البضائع المستوردة من الخارج واللازمة للجيش والأسطول كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية ، فكانت المتجر السلطاني يشتري هذه المواد بأموال الخس المفروضة على التجار<sup>(٤)</sup> .

رابعاً : منع صلاح الدين الأهالي والتجار من التعامل مع البلاد المسيحية في المواد الحربية ، وأصدر مرسوماً في هذا الصدد يقول فيه : « واقتضى مرسومنا الشريف أن لا يمكن أحد من نقل سلاح ولا عدة حرب إلى

(١) المقرئبي : نفس المرجع ج ١ ص ٧٣ .

(٢) محمد بن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ص ١٠١ نشر سامي الدعان ( دمشق ١٩٦٣ ) .

(٣) انظر : (Heyd : Histoire du Commerce du Levant, tome I p. 396) وكذلك (الباز القرئبي : مصر في عصر الأيوبيين ص ١٧٢) .

(٤) ابن نماني : قوانين الدواوين ص ٣٢٧ ، حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٥١ .

جهة البلاد الرومية . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدم أمره العالي بأن لا يمكن أحد من نقل سلاح ولا عدة إلى جهة البلاد المذكورة ، والاحتراز على ذلك كل الاحتراز ، فيحيط علمه بذلك » (١) .

خامساً : اهتم صلاح الدين بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمتاور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام . فحشد فيها الأجناد البطالين (٢) ، والايك (٣) ، والابدال (٤) ، والمنورين ، للرباطة فيها وحراستها ، وقد أصدر مرسوماً بهذا المعنى يقول فيه : « إن مرسومنا الشريف اقتضى الاجتهاد في حفظ السواحل والمواني ، والاهتمام بأمرها ، واقامة الايك والابدال في أوقاتها على العادة ، والزام أربابها بمواظبتها ، وكذلك المنورون بالديبانات (٥) ، والمناظر والمتاور في الاماكن المعروفة ، وتعهدها أحوالها » (٦) .

وكان على المنورين إذا ما كشفوا عدواً في البحر مقبلاً من بعيد ، أشعلوا النار على قمم المتاور أو المنائر إذا كان الوقت ليلاً ، أو أثاروا فيها الدخان ان كان الوقت نهاراً . هذا إلى جانب استخدام الطبل والتفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو . وكثيراً ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للأخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك ، وإن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا

(١) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٠٥ .

(٢) البطالون من الأبراء والأجناد هم المعاطلون من أعمال الدولة ووظائفها واقطاعاتها لأسباب ودوافع مختلفة . راجع ( القرطبي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٣ حاشية ٤ ) .

(٣) الايك والايك : الحراس ، وفي هذا المعنى ترد بعض النصوص في سيرة صلاح الدين مثل : والايك بين الطريق وبين العدو مانعاً من يخرج من عسكرهم أو يدخل راجع :

(Dozy : Supplément aux Dic. Arabes, II. p. 851).

(٤) الابدال بمعنى البديل الذي يحل محل الحرس .

(٥) الديبانات كلمة فارسية الأصل ( ديبه بان ) ومعناها المراقب أو الحارس وتعني أيضاً مكاتب المراقبة في موضع مرتفع .

(٦) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٠٤ ، ج ١٠ ص ٢١٢ .



طريقة ارسال هذه الاشارات<sup>(١)</sup> . وهذه الطريقة التي تشبه صفارات الانذار في وقتنا الحاضر ، كان من الممكن ابلاغ القاهرة عن وقوع غارة بحرية في أقصى شمال الشام في ليلة واحدة أو نهار واحد .

ولعل الوصف الذي أورده المقدسي لبعض مناوّر الشام ، يعطينا فكرة عن دورها في مقاومة الصليبيين ، فيقول : « وكفر سلام من قرى قيسارية ، كبيرة آهلة ، بها جامع على الجادة ، وهذه القصبّة رباطات على البحر ، ويقع بها النفير ، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانبيهم معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ، ويذهبون إليهم في الرسائل ، ويحملون إليهم أصناف الأطعمة وقد ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم ، فان كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط ، وان كان نهاراً دخنوا . ومن كل رباط إلى القصبّة عدة منائر شاهقة قد رتب فيها أقوام ، فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الأخرى ، فلا يكون ساعة إلا وقد انفر من بالقصبّة وضرب الطبل على المنارة ، ونودي إلى ذلك الرباط ، وخرج الناس بالسلاح والقوة »<sup>(٢)</sup> .

ماداماً : عمل صلاح الدين على تحصين الثغور المصرية المطلّة على البحر المتوسط مثل الاسكندرية ودمياط وتيس ، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وحفر الخنادق حولها . وحرص صلاح الدين على تقصّد سير العمل فيها بنفسه ، فزار دميّاط في سنة ٥٧٢ هـ ( ١١٧٦ م ) صحبة ولديه الأفضل والعزّيز وأقام فيها يومين متفقداً حصونها<sup>(٣)</sup> ، كذلك أمر بإخلاء مدينة تيس المجاورة لها ، وإعادة بناء أسوارها ولم يترك فيها سوى المقاتلة فقط<sup>(٤)</sup> ، أما أسوار الاسكندرية ، فكان البدء في عمارتها وتجديدها سنة ٥٦٦ هـ

(١) راجع كتابنا ( دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٠١ ) .

(٢) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٧٧ .

(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩ .

(٤) القرّني : السلوك ج ١ ق ١ ص ١١١ .

(١١٧١ م) حينما كان صلاح الدين وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي ، ثم زارها للمرة الثانية في أوائل سلطنته سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) عقب زيارته لمدينة دمياط وذلك لمباشرة سير العمل في أسوارها . وقد صام بها رمضان وسمع الحديث علي الحافظ أبي الطاهر السلفي .

ويضيف المؤرخ أبو شامة أن صلاح الدين خلال هذه الزيارة الثانية لمدينة الاسكندرية ، أمر بتعمير الأسطول ، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة . ولما تم عمل المراكب ، أمر بحمل الآلات ، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وأمره بالأبحار البحر وأن يفزو جزائره<sup>(١)</sup> .

أما زيارة صلاح الدين الثالثة لمدينة الاسكندرية ، فكانت في سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، وفيها عاين سور المدينة بعد اتمامه ، فكان من حسن الآثار والمآثر<sup>(٢)</sup> . ويقال ان صلاح الدين في خلال تلك الزيارة أمر والي المدينة واسمه وقتذاك فخر الدين قراجا ، بكسر أربعائة عمود روماني كانت تحيط بعمود السواري ، والقائما عند شاطئ البحر لمنع مراكب العدو من الوصول إلى مرسأها أو لكسر حدة الأمواج علي سور الاسكندرية<sup>(٣)</sup> . وهكذا صارت مدينة الاسكندرية بفضل عناية صلاح الدين ، للقاعدة البحرية الكبرى في مصر ، كما شارك أسطولها في كثير من العمليات الحربية التي دارت ضد الصليبيين سواء في مياه البحر المتوسط أو البحر الأحمر .

مأبهاً : حرص صلاح الدين علي رفع أجور رجال الأسطول لتحسين حالهم ، فقرر بأن يكون دينار الأسطول ٣/٤ الدينار العام بعد ان كان ٨/١٠ ذلك الدينار ، أي بزيادة عشرين في المائة تقريباً<sup>(٤)</sup> ، كذلك استخدم

(١) (٢) أبو شامة : المرجع السابق ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩ - ٦٩٠ .

(٣) عبد الطيف البغدادي : كتاب الافادة والاعتبار ص ٢٨ ، عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية في العصر الاسلامي ص ٢٤٥ .

(٤) للقريري : السلوك ج ١ ص ٤٥ ، محمد ربيع : المرجع السابق ص ٧٢ .

الملاحين من المناربة في أساطيله نظراً لاختصاصهم ومهارتهم في هذا الجهاد البحري . وقد أشاد المؤرخون أمثال ابن جبير والنويري السكندري بشجاعتهم في هذا الميدان زمن الأيوبيين والمماليك .

ثامناً : عمل صلاح الدين على بث روح الحرب والجهاد في نفوس المسلمين ، وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس عن طريق المدارس المعتمدة التي أنشأها في مصر والشام . وقد حرص صلاح الدين على أن يكون هو نفسه قدوة صالحة لهذا العمل ، فكان يجلسه لا يخلو من ذوي الفضل وأولى النباهة الذين كانوا يتجاذبون بحضرة أطراف الفوائد ولا سيما فضائل الجهاد وفرائض التائب والاستعداد له <sup>(١)</sup> . وكان الرجل الذي يريد التقرب إلى صلاح الدين ، يحثه على الجهاد أو يذكر له شيئاً من أخبار الجهاد . ولقد ألفت له كتب عديدة في هذا الموضوع ، وكان وزراؤه وكتابه في مقدمة الذين لبوا رغبته . فيقول العماد الأصفهاني : « وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها يجميع آدابه وأحكامه ، فقدمته بين يديه فأعجبه ، وكان يلزم مطالعته » <sup>(٢)</sup> ، وكذلك يقول القاضي الفاضل : « وأنا ممن جمع له في الجهاد كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روي فيه ، وشرحت غريبها ، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل » <sup>(٣)</sup> .

وبعد عشر سنوات قضاهما الأسطول الأيوبي في اعداد وتدريب ، قام في ربيع ٥٧٥ هـ ( ١١٧٩ م ) بثلاث عمليات حربية ناجحة ضد العدو في مياه البحر المتوسط ، وهي :

العملية الاولى : يصفها الكاتب المعاصر القاضي الفاضل بأنها كانت غارة لستين شينياً أغارت على سواحل الامبراطورية البيزنطية ، وعلى الإمارات

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٥ .

(٢) ابو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٢٤ .

(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢١ .

الصلبية بساحل الشام ، حيث هبط المجاهدون المسلون وقوغلوا في داخل أراضيها ، وأسروا فيها ما يقرب من الألف أسير ، « أحضروهم قيد الأسار ، وغنمت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لا تعرف عين الدرهم ولا وجه الدينار » (١) .

والعملية الثانية : كانت معركة بحرية مع سفن العدو ، ظفر فيها الأسطول المصري ببطستين كبيرتين (٢) ، عاد بها وبعن فيها إلى الاسكندرية . وقد حدث هذا النصر في نفس الوقت الذي انتصرت فيه جيوش صلاح الدين بالبر عند مرج العيون بنواحي مدينة بالياس في شمال الشام ، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل : « فما أقرب ما بين النصرين في المصرين ، وما أعذب عذاب الفئتين ، وتجريمهما الأمرين ، لقد عم النصر ، وتساول في البر والبحر » (٣) .

أما العملية الثالثة : فكانت غارة بحرية مصرية على ميناء عكا التي يعتبرها القاضي الفاضل « قسطنطينية الفرنج ودار كفرهم » . وقد استطاع الأسطول المصري أن يقتحم الميناء ويحطم ويكسر ما فيه من مراكب وبضائع مدة يومين ، وهذا — كما يقول القاضي الفاضل — « ما لم يقم به أسطول مثله في سالف الدهر ، ولا في حالة قوة اسلام ولا ضعف كفر » (٤) .

وفي سنة ٥٧٦ هـ ( ١١٨٠ م ) هاجم الأسطول المصري جزيرة أرواد واستولى عليها ، ومن هناك صار يغير على مدينة انطروطوس المواجهة لها شمال طرابلس ، فحرب مبانيها وأشعل النار فيها (٥) .

(١) نفس المرجع ج ٢ ص ١١ .

(٢) البطسة مركب كبير الحجم يستخدم لتقل الجنود .

(٣) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٩ .

(٤) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٣ - ١٤ .

(٥) الباز العربي : مصر في عصر الايوبيين ص ١٧٤ ، Grousset : Hist. des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Vol. II. p. 680 - 681.

وفي السنة التالية ٥٧٧ هـ سنة ( ١١٨١ م ) ظفر الأسطول المصري ببطسة عظيمة من سفن العدو كانت قادمة من إيطاليا ( ابريا ) وتحتوي على ألفين وخمسة مائة نفس من رجال القوم وأبطالهم<sup>(١)</sup> .

وفي السنة التي تلتها ( ٥٧٨ هـ سنة ١١٨٢ م ) قام الأسطول المصري بعدة غارات على مواقع العدو في البحر المتوسط ، منها غارة على مدينة بيروت سبي منها غنائم كثيرة<sup>(٢)</sup> ، وأخرى على جزيرتي كريت وقبرص ، وغارة ثالثة على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى ظفر فيها بمركب شحن صليبية كبيرة تحمل أخشاباً إلى عكا ومعها نجارون لبنوا منها شواني للصليبيين ، فأمر التجارون ومن معهم ، وهم نيف وسبعون . وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون وكفى شرها المؤمنين<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م ) ظفر المسلمون ببطسة أخرى مقلعة من الشام فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجاً منهم خيالة ذوو شكة وإزعة ، وتجار أولو ثروة واسعة<sup>(٤)</sup> .

كل هذه الانتصارات السالفة تبين بوضوح أن نشاط الأسطول المصري ضد قوافل العدو وقواعده البحرية خلال السنوات العشر التي سبقت وقعة حطين ، قد عمل على شل حركة امداداته ومواصلاته البحرية مما ساعد على نجاح خطط صلاح الدين في الشام .

كان صلاح الدين خلال هذه المدة يعمل على جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد الممالك الإسلامية المتفرقة في الشرق الأدنى ، واستطاع أخيراً أن يكون جبهة عربية متحدة تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٩ .

(٣) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٧ .

(٤) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٨ .

وقد شرح صلاح الدين سياسته هذه في خطاب أرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء يقول فيه : « ولو أن أمور الحرب تصلحها الشرعة لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لا تحتل في التدبير إلا الوحدة ، فإذا صح التدبير لم يحتل في اللقاء إلا العدة » (١) .

وكانت الخطوة المنطقية التالية لهذه الوحدة هي أن يقوم صلاح الدين بهجوم إسلامي عام على مملكة الصليبيين في بيت المقدس . فاتجه بجيوشه إلى قلعة طبرية فحاصرها وسيطر على آبار المياه المجاورة ، وجعل نهر الأردن وراءه ، وكان هدفه من ذلك هو استدراج الجيوش الصليبية من ساحل الشام إلى المكان الذي حدده هو للمعركة ، وهو تل صخري مجاور لا مياه فيه وهو تل حطين . ففي هذا المكان أزل صلاح الدين بالصليبيين هزيمة فادحة في يوليو سنة ١١٨٧ م ( ٥٨٣ هـ ) وقتل وأمر منهم عدداً كبيراً حتى قال المؤرخ المعاصر ابن الأثير : « وكان من يرى القتل يحسب أن ليس هناك أسرى ، ومن كان يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى ! » (٢) .

ولقد فتح هذا النصر الطريق إلى بقية الممتلكات الصليبية ، واختار صلاح الدين أن يبدأ أولاً بالمدن الساحلية ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وخاصة غرب أوروبا قلب الحركة الصليبية فيصبحوا محصورين داخل بلاد الشام ويسهل القضاء عليهم . هذا فضلاً عن أن استيلاء صلاح الدين على مواني الشام سيمكنه من تحقيق الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام (٣) .

ولقد تعاونت البحرية المصرية مع الجيوش الشامية على استرداد عكا وقيسارية وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من الثغور الساحلية . ولم

(١) أبو شامة : المروج السابق ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٤ ، Stevenson : The Crusaders in the East p. 249 .

(٣) القرطبي : السلوك ج ٢ ص ٩٣ ، ٩٦ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٩ - ٩٢ .

يستعص على صلاح الدين سوى مدينة صور لأنها - كما يصفها العماد الأصفهاني - محاطة بالبحر من معظم نواحيها كأنها سفينة<sup>(١)</sup> . واضطر صلاح الدين إلى استدعاء الأسطول المصري المرابط في عكا لمحاورة صور من جهة البحر بينما حاصرها هو بجيوشه من جهة البر .

وكان للصليبيين في داخل ميناء صور مراكب وحراريق مجهزة برمادة الجروج والسهام ، فلما دنا منها الأسطول المصري ، دارت بين الفريقين معركة بحرية ، ونجح المصريون في تشتيت مراكب العدو وإبعادها وضرب حصار قوي حول ميناء صور . وكان من المنتظر أن تسقط المدينة سريعاً بعد هذا النصر الذي أحرزه المسلمون ، ولكن حدث أن رجال الأسطول احتفلوا بانتصارهم ، وسهروا في تلك الليلة إلى السحر أمام ميناء صور ، ثم غلبهم النوم ، فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم وأمرؤا خمسة من شوانيمهم ، وأسرؤا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ، وألقى بجارتها بأنفسهم في البحر بين تاج وهالك . واضطر السلطان إلى إصدار أوامره إلى رؤساء المراكب الباقية أن يسيرؤا إلى بيروت خوفاً عليها من السقوط في يد العدو لقلتها<sup>(٢)</sup> .

ولا شك أن هذه الهزيمة التي مني بها الأسطول المصري في مياه صور قد رفعت من روح الصليبيين المعنوية بداخل المدينة ، فصارؤا يخرجون منها من حين لآخر ويفيرون على جيوش المسلمين المحاصرة للمدينة مما اضطر صلاح الدين آخر الأمر إلى رفع الحصار عن صور والانسحاب جنوباً إلى عكا<sup>(٣)</sup> .

ولكن على الرغم من كل ذلك فإن صلاح الدين قد خرج من نصر حطين بأحراز انتصارات أخرى حرر فيها فلسطين واسترد بيت القدس في

(١) (٢) ابن شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ١١٩ .

(٣) راجع الرسالة التي كتبها صلاح الدين يصف فيها صورية احتلال صور في ( التلغندي :

المرجع السابق ج ٧ ص ٣٤٠ ) .

ذكرى ليلة الإسراء والمعراج ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، كما استرد جميع القواعد البحرية الشامية باستثناء صور وطرابلس وانطاكية . وقد عبر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله في رسالة إلى أخيه تورانشاه باليمن : « وان بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قبيلاً سلاماً سلاماً »<sup>(١)</sup> .

على أن سقوط بيت المقدس وضياع معظم الممتلكات الصليبية ، كان له رد فعل عظيم في غرب أوروبا ، إذ أخذت البابوية تبشر بحملة صليبية جديدة ، وتحض الملوك والحكام على فض منازعاتهم الداخلية والاشتراك في هذه الحملة .

وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غرب أوروبا وهم : فردريك بربروسا أمبراطور ألمانيا ، ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب الثاني ملك فرنسا . وتعتبر هذه الحملة التي تعرف بالحملة الصليبية الثالثة والتي امتد تأريخها ثلاث سنوات ( ١١٨٩ - ١١٩٢ م ) ، من أكبر الحملات الصليبية في عدد جيوشها وأساطيلها<sup>(٢)</sup> . ولا شك أن أخبار الاستعدادات لهذه الحملة قد بلغت صلاح الدين ، ففي خطابه إلى أخيه تورانشاه باليمن ، نجد إشارة صريحة إلى أن صاحب القسطنطينية وأصحاب الثغور المغربية والمستخدمين بالإسكندرية ، كتبوا له يندرونه بأن العدو قد أجمع أمراً وأوقد نار الحرب<sup>(٣)</sup> . كذلك يروي المؤرخون أن بعض رجال صلاح الدين نصحوه بتخريب عكا وتدمير أسوارها وإقامة عدد من المرابطين مكانها لخطورة موقعها على المسلمين إذا ما تملكها الصليبيون . غير أن صلاح الدين كان لا يميل إلى تخريب المدن العامرة<sup>(٤)</sup> . ولهذا لم يستجب لهذا الرأي ،

(١) راجع الرسالة التي كتبها صلاح الدين إلى أخيه تورانشاه ، في ( القلقشندي : المرجع السابق ج ٧ ص ٢٤ ) .

(٢) عمر كالوفيتي : ملكة بيت المقدس للصليبية ص ٢٠١ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣٦ .

(٤) يؤيد ذلك أن صلاح الدين حينما اضطر بعد ذلك إلى تخريب عسقلان خوفاً من سقوطها في يد الصليبيين ، جمع أولاده ورجال دولته ونقشهم في هذا الأمر قبل صدوره . ويؤثر =



وفضل أن يزيد في استحكامات عكا ووسائل الدفاع عنها ، واختار لهذا العمل الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الذي سبق أن أدار السور حول مصر والقاهرة ، وبني قلعة جبل المقطم ، « فاستدعاه من مصر هو وأساتيد العمل وأنفاره وآلاته ودوابه وأبقاره ، وفوض إليه عمارة عكا ، وعينه والياً عليها » . كذلك استدعى حامية من جنود مصر للمشاركة في الدفاع عن هذا الثغر الهام<sup>(١)</sup> .

ثم أخذت حشود الصليبيين وأساطيلهم تنزل تباعاً على عكا في سنة ٥٨٥ هـ ( ١١٨٩ م ) . ويقدر عدد سفنهم بما لا يقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الأوربية . وهذا العدد الكبير كان يزيد بكثير على ما كان عند صلاح الدين من سفن حربية<sup>(٢)</sup> . وقد اعترف صلاح الدين بهذا التفوق البحري للعدو في بعض رسائله مثل قوله : « ومن خبر الكفار أنهم الآن على عكا يمدح البحر براكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للسليبين منهم أمرٌ من أجاجه ... فإذا قتل المسلمون واحداً في البحر بعث البحر عوضه ألفاً »<sup>(٣)</sup> .

على أن صلاح الدين لم يقف ساكناً حتى تكتمل تجميعات العدو حول عكا ، بل سارع في مهاجمته ، واستطاع فتح الطريق إلى المدينة لامتدادها بالئون والأسلحة والرجال ، كما رتب اليك الدائم (الحرس) لمنع العدو من الخروج من خيامه ، فانحصر فيها بحيث صار لا يخرج منها أحد إلا يقتل أو يجرح<sup>(٤)</sup> . وأظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولة وشجاعة تسترعي الانتباه .

= عنه أنه قال في هذا الصدد : « والله لأن افقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من أن اهدم فيها حجراً واحداً ، ولكن إذا قضى الله بذلك لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع ؟ » .

راجع ( أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢ ) .

(١) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٣٨ .

(٢) الباز العريني : مصر في العصر الايوبي ص ١٨٤ وكذلك

(Grousset : Hist. des Croisades, III. p. 23).

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٤) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٢ .

واستمر الوضع على هذا النحو ، والقنال دائر على عكا إلى أن كثرت جثث القتلى ، وجيف الدواب من الجانبين ، واضطر صلاح الدين إلى الإبتعاد من راحتها إلى مكان داخلي بعيد عن عكا يسمى الخروبة . وقد أفاد الصليبيون من هذا الانسحاب ، إذ تمكنوا من أطباق الحصار حول المدينة وقطع الطرق إليها .

وهنا نجد البحرية العربية تتحمل عبء الاتصال بحامية المدينة من جهة البحر ، وامتدادها بالثون والأموال والذخائر والرسائل وغير ذلك . فيروي أبو شامة أن السلطان صلاح الدين استدعى الأسطول المصري في أواخر سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ، فقدمت خمسون قطعة بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ الذي فاجأ مراكب العدو في مياه عكا وانتصر عليها وبدد شملها وظفر منها بركبي شحن مملوئين بالفلل والأموال والرجال ، كما أمد حامية المدينة بما تحتاج إليه من طعام وسلاح<sup>(١)</sup> .

على أن هذه المرة لم تلبث ان نفدت بعد قليل مما اضطر الأمير بهاء الدين قراقوش والي المدينة ، إلى الاستنجاد بصلاح الدين من جديد<sup>(٢)</sup> . واستمر الأسطول المصري يشق طريقه بنجاح إلى عكا حاملاً إليها مختلف الامدادات . وقد اتخذ من ميناء حيفا - في جنوبها - مأوى يختبئ فيه إذا ما اشتد خطر الفرنج في البحر . وكثيراً ما ارتطمت بعض سفنه بصخور الشاطئ بسبب هيجان البحر في فصل الشتاء . وقد اضطر الملك العادل أن يربط يحيوشه عند ميناء حيفا للاشراف على السفن القادمة من مصر في طريقها إلى عكا<sup>(٣)</sup> .

أما في شمال عكا ، فكانت مدينة بيروت هي قاعدة الأسطول الشامي . وكان يوجد على سواحلها في مكان يسمى الزيب أو الزئب طائفة من

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٤٨ ، ١٥٤ ، ابن واصل : مغرر الكروب ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦١ .

(٣) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨١ - ١٨٢ .

المسلمين يحجزون السفن الداخلة إلى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج<sup>(١)</sup>. وكان لأمير بيروت في ذلك الوقت واسمه عز الدين سامه ، غزوات كثيرة في البحر ضد مراكب العدو المارة ببيروت في طريقها إلى عكا ، فغنم هو ورجاله مغانم كثيرة خلدت له ادخار الغنى . ويؤثر عن هذا الأمير سامه أو أسامة ، أنه استولى على خمس سفن من أسطول ملك المماليك ريتشارد قلب الأسد ، كانت مملوءة خيلاً ورجالاً ونساءً وأموالاً<sup>(٢)</sup>.

كذلك يروي العماد الأصفهاني أن السلطان صلاح الدين « كان قد أمر نواب الاسكندرية بتجهيز سفن كبار وتعميرها بالفلال والأقوات وتسييرها إلى عكا ، ولكنها أبطأت عن الموعد المطلوب مما أضر بالمقيمين بمدينة عكا . وفكر صلاح الدين فيما يتعجل به الفرض ، فكتب إلى متولي بيروت عز الدين سامه ، فجهز بطسة كبيرة مملأها ميرة وغلة كثيرة وأركبها جماعة على زي الفرنج بمسوحى اللحى ، بمسوخى الحلى ، وأصحبهم صلباناً ، وخيل بهم رهباناً . وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة ، وهي بساحل بيروت منبودة ، فأمر السلطان بترميمها وتتميمها ، فملئت بالشحوم واللحوم ، وأربعائة غرارة غلة ، وأحبال من النشاب والنفط ، ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت . وأرادوا أن تتشبه ببطس العدو في البحر ، فشدوا زناير واستصحبوا خنازير ، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين ، وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين . ولما حاذوا بها عكا ، صوبوا بها نحوها ، والريح تسوقها ، والفرنج من مراكبهم تقول : « ما هذه طريقها » ، وهي كالسهم النافذ قد سد فوها ، فدخلت الثغر ، واجتزأ البلد نصف شهر »<sup>(٣)</sup>.

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٤ ، ولعل المقصود بالزيب في المتن هو المكان المعروف حالياً بجبل الديب على ساحل بيروت الشمالي .

(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٣) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦١ .

ويضيف العباد الأصفهاني « انه بعد ذلك بقليل ، وصلت في البحر ثلاث مراكب مصرية كأنها ثلاث هواضب ، فجاءت أعلامها كالأعلام ، طائرة كالسهام ، ولم تبال بمراكب العدو فخرقتها ، وقربت من سفينة العدو ففترقتها ، وعين الكفر عبرى ، وامتلأ الثغر بها وأثرى »<sup>(١)</sup> .

هذا ، ويروي ابن شداد رواية أخرى تتفق مع رواية العباد الأصفهاني حول أهمية الدور الذي قامت به بيروت في امداد عكا بالغلل والطعام فيقول :

« وكان السلطان صلاح الدين قد أعد بيروت بطسة وعمرها ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة . وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين . وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة ، فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين ، وتزوا بزي الفرنج حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد ، وعلقوا الصلبان ، وجاؤا قاصدي البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا إليهم واعتصموا في الحراقات والشواني ، وقالوا : نراكم قاصدين البلد . واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : أو لم تكونوا أخذتم البلد ؟ فقالوا : لم نأخذ البلد بعد . فقالوا : نحن نرد القلوع إلى العسكر ، ووراءنا بطسة أخرى في هوائها ، فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد . وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها ، فاشتدت البطسة الإسلامية في السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت وفه الحمد ، وكان فرحاً عظيماً فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد »<sup>(٢)</sup> .

هذا وقد ظهرت خلال تلك المعارك بطولات عديدة نذكر منها بطولة الضفدع البشري عيسى العوام الذي كان يشد على وسطه الرسائل والذهب

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦٠ .

ثم يغوص ليلاً في البحر على غرة من العدو ويخرج من الجانب الآخر من  
مراكب العدو ، ويدخل عكا حيث يسلم الرسائل إلى رجال الحامية ،  
بينما كان الذهب يصرف نفقة للمجاهدين .

وفي ذات يوم حل عيسى العوام أكياس الذهب والكتب ، وعام في  
البحر ، فجرى عليه أمر أهلكه ولم يسمع لم خبر ، فأيقن البعض بهلاكه  
بينما ظن البعض الآخر بفراره بالأموال . وبعد أيام بينما كان الناس على  
طرف البحر في المدينة وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً ، فافتقدوه  
فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب والكتب ، فبرأه الله  
بما قالوا ، وقدر له أداء الأمانة بعد وفاته كما كان يؤديها في حياته <sup>(١)</sup> .

بطولة أخرى كان صاحبها الأمير مجاهد جمال الدين محمد بن ارككز  
الذي تخلفت سيفته عن بقية الأسطول المصري ، فأحاطت بها مراكب  
العدو ، واضطر ملاحوها إلى القفز في الماء طالبين النجاة بأنفسهم بينما  
ظل أميرهم يقاتل ويقاوم ، فمرض عليه الصليبيون الأمان إذا استسلم لهم ،  
« فقال ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير ، فلا يخاطر الخطير إلا  
مع الخطير . فجاه إليه المقدم الكبير ، وظن أنه قد حصل له الأسير ،  
فماقره وعانقه ، وقوي عليه وما فارقه ، ووقعا في البحر وغرقا وتراقبا ،  
وعلى طريق الجنة والنار افترقا ا » <sup>(٢)</sup> .

وهناك أيضاً بطولة يعقوب الحلبي الذي خرج من بيروت على رأس  
سفينة كبيرة ( بطسة ) مشحونة بالآلات والميرة الرجال لأمداد حامية  
عكا ، فاعترضه ملك إنجلترا ريتشارد وحاصره بسفنه التي كانت تبليغ  
الأربعين قطعة ، فقاتلهم المسلمون قتالاً عنيفاً ، وأحرقوا لهم سفينة كبيرة  
غرقت بن فيها . ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولي عليها ،

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٢ .

قال المقدم يعقوب : « والله لا نقتل إلا عن عز ، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً » . ثم حطموا جوانب البطسة بالمعاول حتى فتحوها ، فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها وما فيها ، ولم يظفر العدو منها بشيء<sup>(١)</sup> .

هذه النصوص وأمثالها تعطينا صورة واضحة لما بذلته البحرية العربية من شجاعة وتضحية ضد عدو يفوقها قوة وكثرة في هذا الميدان . ولهذا اعتمدت في مقاومته على عنصرى المفاجأة والحيلة مع صدق العزيمة ، وفي هذا يقول صلاح الدين نفسه في إحدى رسائله : « وكان عدد مراكبهم كبيراً ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزيمة ، وللقليل مع العزم الصادق كثير »<sup>(٢)</sup> .

هذا ، ولم يتردد صلاح الدين في استغلال كل فرصة تعينه على قهر خصمه في هذا الميدان البحري . فيروي على سبيل المثال أنه اتفق مع جماعة من قرصنة الفرنج على الاغارة على مراكب العدو التجارية وأمدم ببعض السفن الصغيرة المعروفة باسم البراكس<sup>(٣)</sup> ، فركبوها وظفروا بمراكب لتجار ، بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة ، فأسروهم وأحضرهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم جميع ما غنموه ، وأبت عليه نفسه أن يأخذ منها شيئاً .

كذلك تروي المصادر أن صلاح الدين أرسل في سنة (٥٨٦ هـ ١١٩٠ م) سفيراً من قبله هو الأمير عبد الرحمن بن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور الموحدى يطلب اعانته بالأساطيل لتحول بين أساطيل الأعداء وبين امداد النصرانية بالشام . وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور رفض هذا الطلب لأن صلاح الدين لم يلقيه في رسالته بلقب أمير المؤمنين<sup>(٤)</sup> أي لم يعترف بخلافة الموحدين ، فقد ذهب بعض المؤرخين المغاربة إلى أن

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٣) براكس جمع بركوس وهي السفينة الصغيرة ، راجع (أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٢) .

(٤) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٧٥ وما بعدها .

المصور قد أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام<sup>(١)</sup> . وكيفما كان الأمر فإنه يلاحظ أن أساطيل الموحدين في ذلك الوقت كانت هي الأخرى تجابه أخطاراً جسيمة في مياه المحيط الأطلسي غربي الأندلس حيث كانت أساطيل الألمان والإنجليز والفاطمية ( سكان الأراضي الهولندية ) المتجهة إلى الشام ، كثيراً ما ترسو في المواني البرتغالية وتعاون ملك البرتغال سانشو الأول في مهاجمة جيرانه المسلمين في غرب الأندلس . لهذا كان على أسطول الموحدين أن يعمل على حماية هذه الأطراف المغربية الإسلامية من هذا الخطر الصليبي<sup>(٢)</sup> .

وفي أوائل سنة ١١٩١ م اشتد ضغط الصليبيين على عكا ، وعظمت شكاية حامية المدينة من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهو وملازمة القتال ليلاً ونهاراً . وقرر صلاح الدين تجديد حامية المدينة بواسطة أسطوله ، إلا أن هذه العملية لم تتم بنجاح بسبب صعوبة الظروف التي تمت فيها وتكالب العدو على المدينة من كل ناحية . ويعلق كل من ابن الأثير وأبي شامة على ذلك بقوله : « ودخل إلى عكا من لم يجرب حصارها ، ولم يجرب منافعها ومضارها .. ودخل إليها عشرون أميراً عوض ستين ، فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا ، فلا جرم ان وقع الوهن وقضى الأمر »<sup>(٣)</sup> .

هذا وقد زاد الموقف حرجاً ، احتلال ملك المجلترا ريتشارد لجزيرة قبرص من أيدي البيزنطيين في نفس تلك السنة سنة ١١٩١ م . ومن ثم صارت قبرص قاعدة بحرية جديدة للصليبيين ، ومركزاً دائماً لتموين أماراتهم في الشرق العربي . وقد أثار هذا الحادث موجة من الفرح والحاس في نفوس الصليبيين ، فشددوا هجماتهم على عكا ، واضطرت حامية المدينة أن

(١) السلاوي الناصري : الاستقصاء لخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) ابن هذاري : البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب ج ٤ ص ١٧٥ وكذلك :

(Huici Miranda : Historia política del Imperio Almohade. I. p. 342).

(٣) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨٢ ، صعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٦٢ .

توجه آخر نداء بالحمام الزاجل إلى صلاح الدين يقولون فيه : « إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ثامن الشهر ( جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ ١١٩١ م ) ان لم تعملوا معنا شيئاً ، نطلب الأمان ونسلم البلد<sup>(١)</sup> .

ولم تنجح جميع المحاولات العسكرية التي بذلها صلاح الدين لانقاذ عكا ، فاضطر قائدها قراقوش إلى الاستسلام في يولييه سنة ١١٩١ م بعد مقاومة دامت سنتين تقريباً .

ثم واصل الملك ريتشارد زحفه جنوباً بجذاء الشاطئ ، وأساطيله تسير بجواره في البحر . واستطاع أن يستولي على شاطئ فلسطين من عكا إلى يافا ، ثم المحسدر جنوباً نحو عسقلان . وخشي صلاح الدين على مصر من اطماع الصليبيين خصوصاً وأن ملك إنجلترا ريتشارد قد صرح بذلك مراراً وحصل على كثير من الجمال والظهر لهذا الغرض<sup>(٢)</sup> . واضطر صلاح الدين إلى تخريب مدينة عسقلان فحرم الصليبيين من هذه القاعدة البحرية التي كان من الممكن استغلالها في مهاجمة مصر ومثلما فعلوا بمد سقوطها في أيديهم من قبل سنة ١١٥٣ م على عهد الفاطميين . وهكذا استطاع صلاح الدين بهذا أن يحتفظ بفتح المسالك الشرقية المؤدية إلى مصر<sup>(٣)</sup> .

وحاول ريتشارد قلب الأسد أن يسترجع بيت المقدس ، ولكنه فشل تماماً ، واضطر أن يعقد صلح الرملة مع صلاح الدين في نوفمبر سنة ١١٩٢ م ( ٥٨٨ هـ ) ، وأهم شروطه أن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية من صور إلى يافا ، وتبقى بيت المقدس تحت الحكم الإسلامي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج إليها دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن شداد : التوادر السلطانية ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٣) البار العريبي : مصر في عصر الإبريين ص ١٨٦ .

(٤) عماد الدين الأصفهاني : الفتوح القسي في الفتوح القدسي ص ٣٤٣ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٩٨ ، عمر كال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٠١ .



وقام صلاح الدين عقب هذه الهدنة بالعمل على خلاص أصحابه من الأسر ،  
ونذكر منهم بهاء الدين قراقوش ، والي عكا السابق ، الذي تلقاه السلطان  
بالبر والبر<sup>(١)</sup> . كذلك اهتم صلاح الدين بتفقد بعض الثغور الشامية ،  
فزار صيدا ثم بيروت حيث استقبله وإليها عز الدين سامسة في شوال  
سنة ٥٨٨ هـ<sup>(٢)</sup> .

واضطر صلاح الدين بعد ذلك إلى العودة إلى دمشق حيث وافته المنية  
في العام التالي سنة ٥٨٩ هـ ( ١١٩٣ م ) ، ودفن هناك ومعه سيفه الذي  
كان معه في الجهاد ليتوكل عليه إلى الجنة<sup>(٣)</sup> .

كان صلاح الدين من الحكام القلائل الذين آمنوا بقيمة السلاح البحري  
في جهاد الصليبيين وتأمين سلامة بلاده . ولعل الحوار التالي الذي دار بينه  
وبين وزيره القاضي الفاضل يعطينا صورة صادقة لما كان يجيش في نفسه  
من مشاعر نبيلة نحو هذا الجهاد البحري . قال القاضي الفاضل :

« وقع للسلطان في ذي القعدة سنة ٥٨٤ هـ أن يتفقد البلاد الساحلية  
ويرتب أحوالها ، فسرنا على الساحل من عسقلان إلى عكا وكان الزمان  
شتاء عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً عظيماً ، وموجه كالجبال ، كما قال الله  
تعالى ، وكنت حديث العهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي حتى  
خيل لي أنني لو قال لي قادر : لو جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك  
الدنيا ، لما كنت أفعل ، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب  
دينار أو درهم ، واستحسن رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر .  
هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه .  
فبينما أنا في ذلك إذ التفت إليّ وقال عن نفسه : « أنه متى يسر الله  
تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت وركبت هذا  
البحر إلى جزائهم أتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٥ .

بإله أو أموت . فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يحظر لي ، وقلت له : « ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى ولا أقوى نية منه في نصرته دين الله » ، وحكيت له ما خطر لي ، ثم قلت : « ما هذه إلا نية جميلة ، ولكن المولى يسير في البحر المسامر ، وهو سور الإسلام ، ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه » . فقال : « أنا استفتيك ، ما أشرف الميتات ؟ » . فقلت : « الموت في سبيل الله » . فقال : « غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات » <sup>(١)</sup> ! هكذا كان شعور صلاح الدين نحو الجهاد البحري ، وهو شعور قلما نجد مثله بين حكام العصر الوسيط .

نرى بما تقدم أن الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت في تحقيق هدفها الأساسي وهو استرداد الأماكن المقدسة في فلسطين من المسلمين ، إلا أنها في الوقت نفسه استطاعت أن تسيطر على معظم شواطئ الشام بما فيها من موانئ مثل صور وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا فضلاً عن عكا التي غدت المنفذ الرئيسي للمملكة بيت المقدس الصليبية على البحر المتوسط <sup>(٢)</sup> . ولا شك أن البحرية العربية قد خسرت كثيراً من جراء ضياع معظم سواحلها وقواعدها الشامية ، وزاد الطين بلة أن وفاة صلاح الدين قد أدت إلى وقوع خلافات ومنازعات بين أبناء البيت الأيوبي مما أضعف المقاومة الإسلامية بوجه عام .

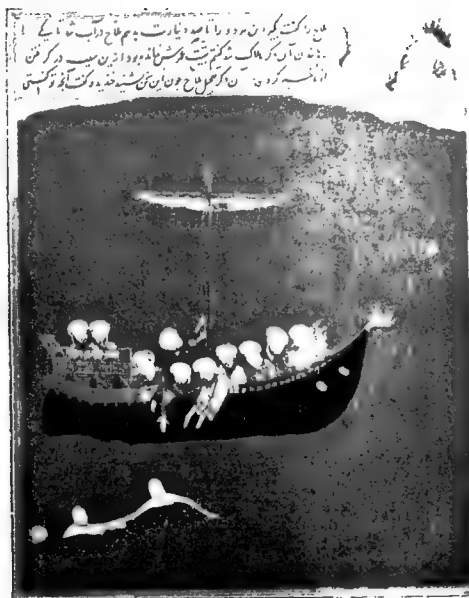
ولقد انتهر ملك قبرص عموري لوزنيان هذه الفرصة ، وهاجم مدينة بيروت بأساطيله وجنوده واستولى عليها سنة ٥٩٣ هـ ( ١١٩٧ م ) بعد أن فر عنها صاحبها عز الدين سامة بدون حرب أو مقاومة . وقد أثار هذا العمل استياء الكثيرين مثل قول الشاعر المعاصر :

سلم الحصن ما عليك ملامه      ما يُلام الذي يروم السلامه  
فقطاء الحصون من غير حرب      سنة سنّها ببيروت سامه <sup>(٣)</sup>

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) سيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٠٢ ،

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٣ .



سفینه اسلامیة

من کتاب (Catalogue of the Persian Manuscripts (Chester Beatty Library)



وعلى الرغم من أن الملك العادل قد نجح في توحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت سلطانه ، واستعاض عن بيروت بمدينة يافا التي استولى عليها سنة ١١٩٢ م ، إلا أن البحرية الأيوبية في الواقع كانت قد أصابها الضعف والاهمال منذ ذلك الوقت .

وإذا استثنينا بعض الانتفاضات التي حدثت فيها على يد كل من الملك الكامل والملك الصالح أيوب ، نتيجة للعدوان الصليبي على مصر في حلتي جان دي بريين سنة ١٢١٨ م ولويس التاسع سنة ١٢٤٨ م<sup>(١)</sup> ، إلا أنها كانت كما وصفها المقرئ بقوله :

« ثم قل الاهتمام بالأسطول ، وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة إليه ، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه ، طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا بالسلاسل نهاراً ، وسجنوا في الليل ، حتى لا يهربوا . فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجل في مصر ، وإذا قيل لرجل يا أسطولي ، غضب غضباً شديداً ، بعدما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والفرقة في أعداء الله ، ويتبرك بدعائهم الناس »<sup>(٢)</sup> .

---

(١) راجع القسم الأول الخاص بالبحرية النيلية .

(٢) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ١٧٤ .

## ثانياً- البحريّة في مصر والشام في عصر المماليك

(٦٤٨-٩٢٢ هـ = ١٢٥٠-١٥١٧ م)

فقد المسلمون سيطرتهم على البحر المتوسط منذ قيام الحركة الصليبية ، وتمكن الغرب المسيحي من السيطرة على سواحل هذا البحر وجزره وتجارته بحيث صار مجرأ أوريباً . وقد اعترف ابن خلدون بهذا التحول عند قوله : لما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام باسترجاع ثغور الشام من يد الأمم النصرانية ... تتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية ، فأمدهم بالعدد والأقوات ، ولم تقاوم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه ، وضعف المسلمين منذ زمن طويل عن ممانعتهم هناك . ولم يكن سلطان الفرنج على غرب البحر المتوسط بأقل منه على شرقه ، فلقد ملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي ، وقويت ريجهم في بسط هذا البحر ، واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم ، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم ثم تراجعت بعد ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدول ونسيان عوائد البحر ، ورجع التنصاري فيه إلى دينتهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأمم في لجه وعلى أعواده ، وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية <sup>(١)</sup> .

وورث المماليك دولة أساتذتهم <sup>(٢)</sup> ، الأيوبيين في مصر والشام ، وواصلوا

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٧-٤٠ .

(٢) كانت علاقة الملوك بسيدته أو أستاذه تسمى في المصطلح الرسمي الملوكي بالاستاذية ، بينما كانت رابطة الزمالة التي تربط الملوك بزميله الملوك في الخدمة تسمى بالحشداشية . وكانت هاتان العلاقتان الاستاذية والحشداشية من أقوى الروابط التي قامت عليها دولة المماليك في مصر والشام .

سياستهم الجهادية نحو اخراج الصليبيين من أماراتهم الباقية على الساحل الشامي مثل عكا وطرابلس وأنطاكية وما تبعها من قلاع وثغور .

وتنبغي الملاحظة هنا أن الممالك كانوا فرساناً وأصحاب خيل ، وقوتهم برية في أساسها ، فضلاً عن أنهم كانوا يمانون عجزاً كبيراً في مواد بناء الأساطيل ولا سيما خشب السفن ، فأشجار السنط التي كانت توجد بكثرة في جنوب الدلتا وصعيد مصر وشبه جزيرة سيناء على عهد الفاطميين والأيوبيين ، قد أخذت تقل تدريجياً منذ أواخر العصر الأيوبي ، وصار العوام والخواص يقطعون منها ما يحتاجونه لعمل السواقي وآلات المعاصر وغيرها ، وما يوقدون به في بيوتهم ومعاصرهم بالجلل الكثيرة بحيث لم ينته القرن الثالث عشر الميلادي إلا وكانت حراج الدلتا حول القاهرة في المطرية وقلوب والجيزة قد اختفت تماماً ، ثم تلتها حراج الصعيد في البهنساوية والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص ، فاختفت هي الأخرى في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي وتحولت إلى أراضي زراعية ، ثم يأتي القريري في القرن الخامس عشر فيؤيد ذلك بقوله : وقد بطل هذا جميعه ، واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة <sup>(١)</sup> .

على أن هذه الموانع في مجموعها لم تحل دون اهتمام بعض سلاطين الممالك بإنشاء الأساطيل لمواجهة الخطر الصليبي الكامن بوجه خاص في جزر البحر المتوسط ولا سيما جزيرة قبرص التي تزعم ملوكها آل لوزنيان <sup>(٢)</sup> مشروعات الصليبيين في الشرق العربي .

(١) القريري : الخطط ج ١ ص ١١٠ ، ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) سقت الإشارة إلى أن ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد انتزع جزيرة قبرص من يد اسحاق كرومين البيزنطي وكان مستقلاً بها عن الإمبراطورية البيزنطية وذلك بمساعدة جي ده لوزنيان ملك بيت المقدس سنة ١١٩١ م . ثم باع ريتشارد جزيرة قبرص للفرسان الداوية ولكنها هارت عليهم وبطل البيع . ثم عرض ريتشارد على جي دي لوزنيان أن يشتريها فاشتراها ومنذ ذلك الوقت ( ١١٩٢ م ) قامت أسرة لوزنيان للصليبية في قبرص .

### استرداد الثغور الشامية من أيدي الصليبيين

كان السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨ - ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م ( أول سلاطين المماليك اهتماماً بإنشاء قوة بحرية يستعين بها في حرب أعدائه الذين يفترون على بلاده من جهة البحر المتوسط فيروي المقرئ : « انه نظر في أمر الشواني الحربية واستدعى رجال الأسطول ، وكانت الأمراء قد استعملوا في الحراريق وغيرها وندبهم للسفر ، وأمر بمد الشواني وقطع الأخشاب لمراكمتها وإقامتها على ما كانت عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأحرز على الخراج ومنع الناس من التصرف في الأخشاب ، وتقديم بمهارة الشواني في ثغري الاسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشواني ومصلحتها . فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فانها كانت عدة كثيرة » (١) .

ويضيف المقرئ رواية طريفة تدل على مبلغ عناية هذا السلطان بأسطوله وهي أنه اضطر يوماً إلى استقبال - سفراء ملك صقلية في دار صناعة مصر ، فدخلوا عليه وهو جالس بين الأخشاب والصناع والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشواني وهي تمد فراعهم ما شاهدوا » (٢) .

كذلك اهتم بيبرس بتحصين الثغور وحفظ السواحل وتعمير الجسور المؤدية إليها ، فأمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخوراً عظيمة ليحول دون مرور سفن الصليبيين وتكرر مأساة دمياط من جديد ، كما شيد برجاً للمراقبة في ثغر رشيد ، وعمر أسوار الاسكندرية ونصب عليها مائة منجنيق للدفاع عنها ، وجدد بناء المنار الذي بها ، وطهر ترعة الخليج ( المحمودية الآن ) التي تصل المدينة بالنيل وتمدها بالمياه العذبة . وقد بلغ من اهتمام بيبرس بمدينة الاسكندرية أنه زارها أربع زيارات رسمية وحرص على التقرب إلى أهلها وزيارة صلاحها أمثال أبي القاسم

(١) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ١٩٤ - السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٤٧ .

(٢) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٦٠١ .



محمد بن منصور القباري وأبي عبدالله محمد بن سليمان الشاطبي اللذين يطلق اسمهما على أكبر حين من أحياء المدينة وهما حي القباري التجاري وحي الشاطبي الجامعي .

ولقد اتسمت سياسة السلطان بيبرس نحو الصليبيين في الشام بطابع العنف والقسوة . والسبب في ذلك يرجع إلى أن الصليبيين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك ، ويعملون كإدلاء ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الأراضي الشامية . وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي أتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية وإحاطة المغول علماً بها مما سهل عليهم إحباط خطط المسلمين في كثير من الأحيان . ولم يقتصر الأمر على ذلك النحو ، بل نجد أن بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكري أو الدفاع المشترك ضد المسلمين . ولم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت إرادتها على الصليبيين في كثير من الأحيان ، وصارت تلمي عليهم لإرادة الحان المغولي المهيم في تبريز أو مراغة أو بغداد .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين في الشام ، كانت بلا شك السبب الحقيقي لتلك السياسة العنيفة التي أتبعها بيبرس وخلفاؤه نحو الصليبيين إذ عز عليهم أن يكونوا مراقبين من الفرنج لحساب المغول ، فصمموا على طردهم من الشام<sup>(١)</sup> .

وبدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين على شكل مناقشات محلية ، ويفهم من كلام المقرئ أن بيبرس ذهب بنفسه إلى الشام سنة ١٢٦٣ م ، وكانت حركاته وقشده تسدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها توزيعاً استراتيجياً خاصاً . وعندما سارعت إليه وفود الإمارات الصليبية تطلب

(١) راجع (مفضل بن أبي الفضائل : التتبع للسديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٩٢ - ١٩٥ تحقيق وترجمة المستشرق الفرنسي بلوشيه E. Blochet باريس ١٩١٢ )

منه السلام والمهادنة ، قابلها بمتهى الجفوة ، وقال لرسلهم : « ردوا ما أخذتوه من البلاد ، وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فلإني لا أقبل غير ذلك » ، ثم طردهم من مجلسه مما يدل على تصميمه على القتال<sup>(١)</sup> .

وفي أوائل سنة ١٢٦٥ م دخل بيبرس في عمليات حربية واسعة النطاق ضد الإمارات الصليبية الساحلية ، فاستولى على مدينة قيسارية ثم على مدينة أرسوف في جنوبها . وفي السنة التالية ١٢٦٦ م هاجم بيبرس قاعدة استراتيجية خطيرة في الشام وهي قلعة صفد التي كانت قاعدة لفرسان الداوية ، وبعد قتال عنيف تمكن من الاستيلاء عليها .

ولاشك أن هذا النصر قد أصاب الصليبيين بضربة قاسية ، وحطم مغنوياتهم إلى حد كبير بدليل أن بعض القوى الصليبية سارعت إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس على أساس مبدأ المناصفة أو المشاركة معه في غلات بلادهم ومنتجاتها<sup>(٢)</sup> ، ولعل من أطرفها تلك الهدنة التي أبرمت بين السلطان بيبرس وبين ملكة بيروت ازابيلا Isabella بنت الملك جون الثاني ابلين John II Ibelin ، التي تطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة وهو تعريب لاسم البيت الحاكم في بيروت D'Ibelin<sup>(٣)</sup> .

وقد خلفت ازابيلا أباه بعد وفاته سنة ١٢٦٤ م على بيروت وجبالها باعتبارها ابنته الكبرى . وكانت هذه الملكة قد تزوجت وهي طفلة من الملك الطفل هيو الثاني ملك قبرص الذي مات قبل أن يعقد عليها . وحاول خليفته هيو الثالث الوصي على قبرص أن يستغلها كوريثة لعرش قبرص لتنفيذ مشاريعه الصليبية في الشرق ولكنه لم ينجح . وذلك لأن الملكة ازابيلا عقدت هدنة مع السلطان بيبرس سنة ١٢٦٨ م ( ٦٦٧ هـ )

(١) المثيري : السلك ج ١ ص ٤٨٥-٤٨٦ .

(٢) راجع على سبيل المثال ( الفلشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٤٢-٥١ ، ابو الحسن : التاجم الزاهرة ج ٧ ص ٥١٠ )

(٣) فريخ ابن القرات ج ٧ ص ٣٥ تحقيق قسطنطين زريق .

مدتها عشر سنوات ، وصارت كلما سافرت إلى قبرص ، تذهب إلى لقاء  
السلطان بيبرس وتترك مملكتها ودیمة بین یدیہ إلى حین عودتها<sup>(١)</sup> .

وقد أورد الفلقشندي<sup>(٢)</sup> نصوص هذه الهدنة ، وهي في مجموعها مفيدة  
لأنها تبين لنا حدود مملكة بيروت ونواحيها في ذلك الوقت . ونلاحظ  
أن كثيراً من أسماء مدنها وأحيائها ما زالت باقية إلى اليوم . وفيما يلي  
نص هذه المعاهدة :

« استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ،  
وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة ، فلانة بنت فلان ، مالكة بيروت  
وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية ، أولها يوم الخميس  
سادس رمضان سنة سبع وستين وستائة ، على بيروت وأعمالها المضافة  
إليها ، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر  
ابن أيوب ، وأمام ولده الملك العظيم عيسى ، وأيام الملك الناصر صلاح الدين  
يوسف بن العزيز . والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية  
بمقتضى الهدنة الظاهرية . وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها :

---

(١) تزوجت هذه الملكة سنة ١٢٧٢ م ( ٦٧٠ هـ ) رجلاً انجليزياً يدعى هامو الغريب  
Hamo l'Estrange كان من اتباع الأمير الانجليزي ادوارد (ادوار الأول ملك إنجلترا قياً بعد)  
على أن هذا الزوج لم يلبث أن مات في العام التالي ، ويبدو أنه كان لا يثق في نوايا هيو الثالث  
ملك قبرص ، فأرصى قبيل وفاته بوضع زوجته ومملكة بيروت تحت حماية السلطان بيبرس .  
ولما علم هيو الثالث بذلك أقدم على محاولة جريئة وهي خطف الملكة ازابيلا كي يزوجه في  
قبرص من الشخص الذي يختاره لها . ولكن السلطان بيبرس احتج على هذا العمل وهدد  
بضرورة تنفيذ وصية هامو واعادة الملكة ازابيلا إلى بيروت في الحال . واضطر الملك هيو  
أن يعيد ازابيلا إلى بيروت حيث اتخذت لنفسها حرساً من المايك . وعاشت هذه الملكة  
بعد وفاة بيبرس وتزوجت مرتين ثم ماتت سنة ١٢٨٢ تاركة حكم بيروت إلى اختها اشيلا .  
واستمرت بيروت في حكم أسرة ابلين إلى أن سقطت نهائياً في يد السلطان الأصغر خليل  
ابن قلاوون عقب سقوط عكا ١٢٩١ م . راجع :

( Steven Runciman : A History of the Crusades Vol. III p. 342-343 ) .

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩-٤٢ .

من حد جبيل شمالاً ، إلى حد صيدا جنوباً وهي المواضع الآتي ذكرها :  
جونية بحدودها ، والعذب بحدودها ، والعصفورية بحدودها ، والرواق  
بحدودها ، وسن الفيل بحدودها ، والرح والشوف بحدودها ، وأنطلياس  
بحدودها ، والجديدة بحدودها ، وحسوس بحدودها ، والبشرية بحدودها ،  
والذكوانة وبرج قراجار بحدودها ، وقرينة بحدودها ، والنصرانية بحدودها ،  
وخلد بحدودها ، والناعمة بحدودها ، ورأس الفقيه ، والوظاء المعروف  
بمدينة بيروت ، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار ، ومن  
سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادرین منها ، والواردین إليها من جميع  
أجناس الناس ، والمترددین إلى بلاد السلطان بیبرس وهي :

« الحيرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها ؛ والمملكة  
الأنطاكية وقلاعها وبلادها ؛ وجبله واللاذقية وقلاعها وبلادها ؛ وحصن  
المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ؛ ومملكة حصن عكا وما هو  
منسوب إليه ؛ والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ؛  
والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ؛ والمملكة البعلبكية  
وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ؛ والمملكة الدمشقية وما هو مختص  
بها من قلاعها وبلادها ورعاياها ؛ والمملكة الشقيفية وما يختص بها من  
قلاعها وبلادها ورعاياها ؛ والمملكة القدسية وما يختص بها ؛ والمملكة  
الخلبية وما يختص بها ؛ والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها  
من القلاع والبلاد والرعايا ؛ والمملكة الترابلسية ؛ والمملكة الصرخدية ؛  
ومملكة الديار المصرية جميعها بشفورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها  
وبرها وبحرها ورعاياها وما يختص بها ؛ والساكين في جميع هذه الممالك  
المذكورة ، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلادها ، وما سفتحه الله تعالى  
على يده ويد نوابه وغلماؤه ، يكون داخل في هذه الهدنة المباركة ، ومنتظماً  
في جملة شروطها ، ويكون جميع المترددین من هذه البلاد وإليها آمنين  
مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ، من الملكة قلاينة وغلماؤها ،  
وجميع من هو في حكمها وطاعتها ، بجرأ وبرأ ، ليلاً ونهاراً ، ومن مرابكها





وشوانيتها . وكذلك رعية الملكة فلانة وغلانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلاناه ومن هو تحت حكمه وطاعته : برأ وبحراً ، ليلاً ونهاراً ، في جيلة واللاذقية ، وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه .

وعلى أن لا يحدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة ، والقواعد المستقرة من الجهتين . وان عدم لأحد من الجانبين مال أو أخذت أخيدة ، وصحت في الجهة الأخرى ، ردت ان كانت موجودة ، أو قيمتها إن كانت مفقودة . وان خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً ، فان وجدت ردت ، وإن لم توجد حلف والي تلك الولاية المدعى عليه ، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي ، وبرئت جهته من تلك الدعوى . فإن أبى المدعى عليه عن اليمين ، حلف والي المدعي وأخذ ما يدعيه . وان قتل أحد من الجانبين خطأ كان أو عمداً ، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره ؛ فارس بفارس ، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح . وان هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره ، رد من الجهتين هو والمال ، ولا يعتذر بعذر .

وعلى أنه إن صدر فرنجي من بيروت إلى بلاد السلطان ، يكون داخلا في الهدنة ، وان عاد إلى غيرها لا يكون داخلا في هذه الهدنة .

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجربين المفسدين .

وبذلك انمقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين ، لا ينقضها مرور زمان ، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ، ولا تنقض بموت أحد الجانبين .

وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً ،

ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق في تاريخ كذا .

وفي سنة ١٢٦٨ م ( ١٦٦٦ هـ ) استولى بيبرس على مدينة يافا في الجنوب ، ثم وجه ضربة حاسمة في نفس السنة إلى أم أمارة صليبية وهي انطاكية في أقصى الشمال . فيروي المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق : احدها اتجهت إلى ميناء السويدية لقطع الصلة بين انطاكية والبحر خوفاً من أساطيل العدو ، والثانية سدت الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول امدادات من أرمينيا الصغرى ، والثالثة وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها سنة ١٢٦٨ م <sup>(١)</sup> . ويفهم من كلام النويري أن بيبرس استخدم الحيلة قبل التوجه بمحوشه إلى امارة انطاكية إذ تظاهر بأنه يريد مدينة طرابلس وحاصرها فعلاً ، فهرع صاحب انطاكية يوهن السادس بأسطوله لتجديتها ، وعندئذ ترك بيبرس خيامه ومتاعه عند طرابلس متظاهراً بالخوف والهزيمة واتجه من فوره إلى انطاكية واحتلها بالطريقة التي ذكرناها ، بينما كان أهل طرابلس يلهون ويقولون « الظاهر بيبرس خاف منا !! » <sup>(٢)</sup> . ويفهم من هذه النصوص أن بيبرس لم يحاول استخدام اسطوله عند الهجوم على انطاكية بل اعتمد في ذلك على قوته البرية فقط ، بدليل أنه عمد إلى استبعاد اسطول انطاكية من المعركة أولاً ، ثم وضع فرقة عسكرية بين المدينة والبحر لمنع عنها أي مدد من هذه الناحية ، وبذلك تم له احتلال المدينة <sup>(٣)</sup> .

وكيفما كان الأمر فإن سقوط امارة انطاكية كان في الواقع كارثة

---

(١) القرطبي : السلوك ج ١ ص ٥٦٨ .

(٢) النويري : كتاب الإلام فيما جرت به الأحكام المفضية في وقعة الإسكندرية لوحة ١٦٩ ف ( مخطوطة الهند ) .

(٣) غنم بيبرس من انطاكية غنائم كثيرة حتى قيل إن التقود قسمت بين الجنود بالطامات ، كما بلغ من كثرة الأسرى انه لم يبق غلام إلا وله غلام وبيع الصغير باثني عشر درهماً ، والجارية بخمسة دراهم . القرطبي : السلوك ج ١ ص ١٤٧ .



كبرى على القوى الصليبية لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سنداً قوياً للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية وتشير المراجع إلى الرسالة التي كتبها بيبرس إلى أميرها بوهمند السادس الذي كان مقيماً وقتئذ في إمارته الثانية طرابلس في جنوب انطاكية . وكانت هذه الرسالة مليئة بعبارات السخرية والتهكم . وليس الذي يعنينا هنا هو السخرية أو التهكم وإنما استنتاج ما وصلت إليه أحوال الصليبيين من ضعف حتى استطاع بيبرس أن يوجه أمثال تلك العبارات إلى صاحب أكبر إمارة صليبية في الشام في ذلك الوقت<sup>(١)</sup> .

ثم أخذ بيبرس بعد ذلك في مهاجمة إمارة طرابلس سنة ١٢٧٠ م ( ٦٦٩ هـ ) فاستولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة والحصون المحيطة بها ومن أهمها حصن الأكراد Crac de Chevallier وحصن عكار ، فأصبح في مقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها ، ولكن الأنباء الواردة بوصول حملة صليبية إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد إلى عكا ، جعلته يوجب صاحب طرابلس إلى طلبه بعقد صلح معه لمدة عشر سنوات سنة ١٢٧١ م<sup>(٢)</sup> . ومن الطريف ما يحكى في هذا الصدد من أنه في أثناء المفاوضات التي دارت بين رسل بيبرس وبوهمند السادس ، كان بيبرس نفسه مندساً بين أعضاء الوفد الذي يمثل بلاده ، ومتنكراً في زي خادم كي تتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيداً لفتحها فيما بعد .

هذه الجراءة التي اتصف بها بيبرس جعلته يقوم بمحاولة أخرى جريئة

(١) أبو الحسن : التيجون الزاهرة ج ٧ ص ١٤٧ .

(٢) الأمير إدوارد المذكور في المتن هو إدوارد الأول ملك إنجلترا فيما بعد . وقد حاول أثناء مقامه في الشام أن يقصد حلفاً مع خان مغول فارس أبنا بن هولاكو على غزو مصر والشام ولكن هذا المشروع لم يتحقق نتيجة لانشغال أبنا في محاربة مغول تركستان . ولم يلبث إدوارد نفسه أن طمنه أحد الحشيشية بمنجوره ولكن الطمعة لم تكن قاتلة واضطر إلى العودة إلى إنجلترا بعد أن هدد هدنة مع بيبرس .

حينما حاول غزو جزيرة قبرص سنة ١٢٧٠ م وكان يحكم هذه الجزيرة الملك هيو الثالث لوزجنان الذي اشتهر بإطباعه الصليبية في الشام وبعداوته الشديدة لنفوة الممالك. وقد بلغ من غدر هذا الملك أنه قبض على رسل السلطان بيبرس وهم في طريقهم إلى سلطان سلاجقة الروم بأسيا الصغرى عن طريق قبرص رغم الأمان المعطى لهم. وغضب بيبرس من جرأة هذا الملك وغدره ، فصمم على غزو جزيرته ، وانتهر فرصة غيابه في زيارة لمكا سنة ١٢٧٠ م ( ٦٦٩ هـ ) وأرسل اسطولاً من سبعة عشر شينياً تحت قيادة الرئيس جمال الدين مكي بن حسون لغزو قبرص أثناء غيبته . ويفهم من كلام المؤرخين أن هذا القائد لجأ إلى سلاح الحيلة والخدعة لمباغطة العدو على حين غفلة وذلك بأن طلى ظاهراً السفن بالقار ، ورسم على أعلامها الصليبان كما كان يفعل الصليبيون في سفنهم . وقد أنكر بعض المجاهدين على قائدهم هذا العمل ، ولكنهم اضطروا إلى تنفيذ أوامره بعد اقتناعهم بأن الحرب خدعة وأن من مصلحة المسلمين إيهام العدو بأن سفنهم مسيحية . وحينما اقترب المسلمون من ميناء لياسول على الشاطئ الجنوبي للجزيرة ، هبت عليهم رياح عاصفة ، فاصطدمت معظم سفنهم بشعب الميناء وتحطم منها أحد عشر شينياً ، وعرف القبارصة من صباح البحارة أنها سفن اسلامية ، فأمرؤا جميع من فيها وعدتهم ألف وثمانمائة رجل . أما الشواني الستة الباقية فلإنها نجحت وعادت سالمة وعليها الرئيس ابن حسون .

وشمت هوج الثالث بالظاهر بيبرس وكتب إليه يقرعه ويوبخه ، ولكن بيبرس رفض أن يجعل من هذا الحادث هزيمة ، واعتبره إصابة عين لأن رأيته لم تحذل قط .

وتصادف في ذلك الوقت أن استولى بيبرس على حصن القرن بالشام ، فرد على ملك قبرص بخطاب يقارن فيه بين العمليتين بقوله : « وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، وإنما الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب ... وما النصر بالهواء ملج ، وإنما النصر بالسيف هو الملج ، ونحن ننشئ في يوم واحد عدة قطائع ، ولا ينشأ لكم من حصن

قطعة ، ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لكم في مائة سنة قلعة . وكل من أعطى مجدافاً جَدَفَ ، وما كل من أعطى سيفاً أحسن الضرب به أو عرف . وأنتم خيولكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيول .. ولو أن في الملك سكونا ، كان من الواجب عليه ( هيو الثالث ) أن سكت وما تكلم <sup>(١)</sup> .

وواضح من هذا الخطاب أنه رغم طرافته يتضمن اعترافاً صريحاً من بيبرس بالتفوق البحري لحصمه خصوصاً عند قوله : « وأنتم خيولكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيول » . ولكن على الرغم من ذلك فإن السلطان بيبرس صمم على إعادة بناء اسطوله ، إذ يذكر المقرئ : « أنه أمر بقطع أربعين شجرة جيز من جزيرة الروضة لبني بها اسطولا عوض الاسطول الذي تحطم على سواحل جزيرة قبرص ، وانه لزم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم مرة مدة شهر المحرم سنة سبعين وستائة ( أغسطس ١٢٧١ م ) إلى أن تنجزت ، فلما كان في نصف المحرم سنة إحدى وسبعين وستائة ( يوليو ١٢٧٢ م ) زار النيل حتى لعبت الشواني بين يديه فكان يوماً مشهوداً <sup>(٢)</sup> .

غير أنه يلاحظ أن بيبرس رغم هذا الاستعداد البحري ، لم يحاول غزو جزيرة قبرص مرة ثانية . ولعل ذلك راجع إلى انشغال هذا السلطان بجبهة خطر أشد وأخطر من الخطر الصليبي ، ألا وهو الخطر المغولي . إذ يروي المؤرخون أنه في نفس تلك السنة ( أي سنة ١٢٧٢ م ) توجه بيبرس لملاقاة التتر في أرضهم ، وحل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجبال ، وأتزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه ، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة ١٢٧٣ م . ويبدو أن نجاح بيبرس في هذه الحملة مكنته من جذب عسده من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه ، إذ يروي مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقا أو أبغا خان نكب أمرة الجوينيين

(١) المقرئ : السلو ج ص ٥٩٤ ، سديد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٤٧ - ٤٩ .

(٢) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ١٨٥ ، ١٩٤ .

الذين كانوا يحكون العراق في عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس ، والاتفاق معه على تسليم العراق له ، ومن بين هؤلاء المؤرخ عطا الجويني حاكم العراق وأخوه الخواجه شمس الدين محمد وزيره وأبنائهما . وكلهم أهل فضل وأدب وأرياب جود وكرم ، وكانت مجالسهم محط رحال الأدباء والكتاب والشعراء ومناط آمالهم . بذلوا كل ما في وسعهم لتعمير ما خربه المغول ولم يتأخروا عن تنفيذ كل ما هو نافع وصالح<sup>(١)</sup> .

هذه الحادثة التي تذكرنا بنكبة البرامكة أيام هارون الرشيد ، تدل بوضوح على أن بيبرس استطاع أن ينتصر على أعدائه في هذه الجبهة المغولية ، وأن يؤمن بذلك حدوده الشرقية من المغولي ولو على حساب انتقامه من القبارصة في الجبهة الغربية وعدم القيام بغزو جزيرتهم مرة ثانية .

وفي عهد خلفه السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩=١٢٧٩-١٢٩٠م) سقطت مدينة اللاذقية سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٧ م) وهي آخر ما تبقى من إمارة انطاكية الصليبية ، وسقطت بعد ذلك مدينة طرابلس الشام سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ويفهم من كلام المؤرخين أن السلطان قلاوون أطبق عليها يحيى وشه ومجانيقه من جهة البر ، ولم يحاول الاستعانة بالأسطول لهاجتها من ناحية البحر للبرجة أن الكثيرين من سكانها الصليبيين فروا من هذه الجهة على ظهر السفن إلى جزيرة قريبة من الساحل تعرف بجزيرة القديس نيقولا ، ولكن المماليك لحقوا بهم وقتلهم عن آخرهم . ويذكر المؤرخ المعاصر أبو الفداء أنه ركب سفينة من طرابلس إلى هذه الجزيرة بعد أن فرغ الناس من نهبا ، ولكنه لم يستطع البقاء فيها من رائحة جيف القتلى<sup>(٢)</sup> .

كذلك يلاحظ أن السلطان قلاوون بعد أن استولى على مدينة طرابلس ،

(١) فؤاد عبد المعطي القصيدة : مؤرخ المغول رشيد الدين ص ٥٨-٥٩ .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٣٠ ؛ أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ ؛ سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٦٩ .

أمر بهدمها وأقام مكانها عدداً من الأبراج على طول الساحل حول الميناء ،  
ونقل مدينة طرابلس إلى سفح الجبل في الداخل بعيداً عن الشاطئ حول  
قلعة صنجيل ( سان جيل ) خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية <sup>(١)</sup> .

وخلف قلاوون على عرش مصر والشام ابنه السلطان الأشرف خليل  
( ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ = ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م ) الذي وجه كل اهتمامه نحو القضاء  
على الأمانة الباقية من دولة الصليبيين في الشام وهي عكا . وهنا تتكرر  
نفس الظاهرة السالفة وهي أن الأشرف خليل هاجم المدينة من ناحية  
البر ، وضرب حول أسوارها حصاراً قوياً مزوداً بآلات المجانيق الضخمة  
التي بلغ عددها ما يقرب من المائة منجنيق وذلك في إبريل سنة ١٢٩١ م .  
وبعد شهر من الضرب المتواصل تمكن المسلمون من اقتحام المدينة في ١٨  
مايو سنة ١٢٩١ م ( ٦٩٠ هـ ) وهنا يشير المؤرخون إلى أن أهالي المدينة  
اقتحموا الميناء وتجمعوا على ظهر السفن الراسية هناك بغية الفرار إلى  
قبرص أو إلى أي مكان آخر ينجيهم من الموت . وقد تسبب عن ذلك  
الزحام الشديد غرق بعض السفن وحدث هرج واضطراب في جميع  
انحاء الميناء التي كان يجب أن تظل مفتوحة لامتداد المدينة بوسائل المقاومة  
والامدادات .

وواضح من وصف سقوط عكا أن البحرية الإسلامية لم تحاول قطع  
الطريق على الصليبيين الفارين من عكا عن طريق البحر على غرار ما حدث  
تماماً في طرابلس وانطاكية من قبل مما يدل على أن دور البحرية في هذه  
الفتوحات الشامية كان لا يذكر تماماً بالنسبة إلى ضخامة العمليات العسكرية  
البرية التي قام بها كل من بيبرس وقلاوون والأشرف خليل . ولقد تلي  
سقوط عكا احتلال المرافئ الصليبية القليلة الباقية مثل صور وصيدا وحيفا  
وبيروت وانطرطوس ، فيتم بذلك طرد الصليبيين من الشام .

---

(١) الأمير صالح بن يحيى : أخبار السلف من ذرية بخت بن علي أمير القرب ببيروت ( المعروف  
بتاريخ بيروت ) ص ٢٢ .

وعلى الرغم من أن دور البحرية العربية لم يكن إيجابياً في حروب الاسترداد للشعور الشامية ، إلا أننا نلاحظ بعد ذلك حقيقة هامة وهي أن امتلاك المسلمين لسواحل بلادهم جعلهم يشعرون بمسؤولية المحافظة عليها ويهتمون بوسائل الدفاع عنها خصوصاً بعد أن تركز الخطر الصليبي في الجزر المجاورة في مياه البحر الأبيض المتوسط .

وهنا نلمس حركة أحياء جديدة للبحرية العربية ، يشهد بذلك اهتمام المنصور قلاوون بطرابلس وجعلها نيابة سلطانية يحكمها نائب للسلطان برسوم سلطاني ، وكان من أهم اختصاصاته شد البحر وشد الشواني (١) ، بجواني نيابته وهي طرابلس واللائقية وانطرطوس وجبل (٢) .

كذلك أشار القرطبي إلى اهتمام السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بإنشاء أسطول قوي بعد عامين من استيلائه على عكا ( أي في سنة ٦٦٢ هـ - ١٢٩٣ م ) ، وكيف أن المصريين أقبلوا من كل صوب وحذب لمشاهدة مناورات هذا الأسطول بعد إتمامه بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله لرؤية ذلك قصار جمعاً عظيماً (٣) .

وخلف الأشرف خليل أخوه الناصر محمد بن قلاوون ( ٦٩٣ - ٦٩٤ هـ ، ١٢٩٨ - ١٣٠٨ هـ ، ٧٠٩ - ٧٤١ هـ ) الذي واصل سياسة أخيه البحرية واهتم بإنشاء الأساطيل للدفاع عن سواحل بلاده (٤) . وكانت بعض فلول الصليبيين المنسحبة من الشام قد استقرت في جزيرة أرواد الواقعة على بعد ثلاثة

---

(١) كلفة شذ لها معاني كثيرة وقد تعني هنا الأشراف أو الأعداد أي أنه يشرف على البحر وعلى أعداد السفن ، ومنها كلفة الشاد أو الشد على عمارة الراكب وهو الموظف أو الناظر الذي يشرف على أعداد المراكب . راجع ( ابن أبيس : صفحات لم تشر من بدائع الزهور ص ٦٥ - ٦٦ ) .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢٢ ص ١٧٦ .

(٣) راجع ( القرطبي : الخطط ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ ) .

(٤) القرطبي : الخطط ج ٢ ص ١٩٥ ، السواك ج ١ ق ٣ ص ٢٨ .

أميال في البحر أمام بلدة انطرطوس شمال طرابلس ، واتخذتها قاعدة يشنون منها الغارات على المواني الشامية ولا سيما مدينة طرابلس القريبة منها . ومن ثم قرر السلطان الناصر محمد احتلال تلك الجزيرة ، فأعد الأسطول وشحنه بالهائلة والسلاح والنفط ، وأسند قيادته إلى أمير البحر سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري . ثم أبحر الأسطول سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) متجهاً إلى ميناء طرابلس حيث انضم إليه نائب طرابلس الأمير اسنمر كرجي ومعه الرئيس البطراني المغربي ببعض القطع البحرية التي تحت قيادته ، ثم أطبقت الحملة على جزيرة أرواد واستولت عليها عنوة بعد أن حطمت أسوارها وقتلت ألفاً من أهلها وأمرت نحواً من خمسمائة<sup>(١)</sup> . وهكذا خلت السواحل من الصليبيين ولم يبق منهم أحد بالشام إلا من هو أسير أو نصراني ذمي .

#### جزيرة قبرص وخطورتها على مصر والشام :

على أن طرد الصليبيين من الشام لم يحل دون استمرار غاراتهم على الثغور المصرية والشامية . ولقد تزعمت جزيرة قبرص هذه المشروعات الصليبية العدوانية بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين شواطئ المسلمين في مصر والشام وآسيا الصغرى ، وبحكم منفعتها الخاصة من الحروب الصليبية كمرکز تجاري هام وسوق عالمية للممالك الصليبية الغربية في حوض البحر المتوسط ، وكل هذا دفع بملوكها من آل لوزنيان إلى تبني الفكرة الصليبية ومحاولة استعادة مملكة بيت المقدس من جديد .

وزاد الموقف خطورة أن ملوك هذه الجزيرة رحبوا بغلول الفرسان الاستبارية الفارين من الشام ، وعاونوهم على انتزاع جزيرة رودس من الدولة البيزنطية سنة ١٣٠٩م ، واتخاذها قاعدة صليبية أخرى شاركت قبرص في سياستها الحربية والاقتصادية ضد الممالك . وكانت هذه السياسة تقوم

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٦ ، أوفداه : المختصر في أخبار البشر ج ٧ ص ٥٧ .  
Dozy: Suppl. aux dic. arabes I p. 735.

على بناء السفن الحربية وفرض حصار بحري ضد تجارة الدولة المملوكية في البحر المتوسط بغية اضعافها سياسياً واقتصادياً ، فيسهل بذلك التغلب عليها واستعادة الأراضي المقدسة .

ولعل الذي يهنا من هؤلاء الملوك القبارصة هو الملك بطرس الأول لوزنيان Peter I. Lusignan ( ١٣٥٠ - ١٣٦٩ م ) الذي ولد وترعرع في أحضان الفكرة والتقاليد الصليبية في قصر أبيه الملك هوج الرابع . ولهذا كان الملك بطرس الأول من الأشخاص الذين تتجلى فيهم فروسية العصور الوسطى بأجلى معانيها : فهو فارس ومحارب ، وهو أيضاً متدين ومتصوف ، هذا إلى جانب تمسكه بلقب الملكية وتاجها في ملكة بيت المقدس الوهمية التي لم يعد لها وجود . وكل هذا دفعه إلى التحمس بشدة للحركات والأعمال الصليبية .

واختار هذا الملك مدينة الاسكندرية لتكون هدفاً لمدوانه نظراً لأهميتها كثغر تجاري عالمي تنتهي عنده طرق التجارة الشرقية لتبدأ منه الطرق التجارية المتجهة إلى الغرب<sup>(١)</sup> .

وكانت الضرائب التي تجبى على مرور البضائع خلالها تمد السلطان بمورد مالي ضخم يساعده على محاربة الصليبيين . فسقوط الاسكندرية في أيدي الصليبيين سوف يمدم بمرکز اقتصادي كبير فضلاً عن مركزها الاستراتيجي الذي يمكن استخدامه كنقطة ارتكاز لغرض حصار بحري على مصر ونجاح مبدأ التحريم التجاري المنشود .

ولا شك أن هذا الملك كانت له عيون وجواسيس ليحيطونه علماً بأحوال المدينة وحصونها ونقط القوة والضعف فيها كي يمهّدوا له الطريق . وقد أعطانا المؤرخ المعاصر محمد بن قاسم النويري أمثلة لأعمال بعض هؤلاء الجواسيس الذين اكتشف المصريون أمرهم قبل وقعة الاسكندرية .

---

(١) من أم ما كانت الاسكندرية تستورده من الغرب هو الحديد والخشب والرقيق والمنبر . أما الشرق فقد حل إلى الاسكندرية سلماً عديدة أهمها التوابل والمطور والأحجار الكريمة .



من ذلك مثلاً أنه ضبط شخص في داخل خندق سوق الاسكندرية يقبسه ولكنه لم يقر بشيء رغم تعذيبه بإيقاد فتاويل في أصابعه وسجن . وشوهد شخص فرنجي على أعلا سور الاسكندرية من جهة دار الصناعة يقبس ارتفاع السور بحبل فلما قبض عليه أشهر اسلامه فأخلي سبيله . وقد انتقد النويري هذا الاجراء وقال انه كان ينبغي التحفظ عليه لمنع تسرب هذه المعلومات إلى الأعداء ، ودلل على ذلك بأن القبارصة نزلوا الاسكندرية من نفس هذا المكان الذي تدلى فيه بالحبل ، وأن الملك بطرس طلب هذا الأسلمي ( أي الذي أسلم ) فلم يوجد إذ كان قد هرب متكرراً بعد خلاصه . كذلك وجد في القاهرة جواسيس من الفرنج متكبرين في زي النساء وقبض عليهم وعوقبوا بالعذاب المهن . وكذلك وجد في ناحية أبي قبر شرقي الاسكندرية قبل الواقعة فقير زاهد تبارك به أهل الناحية من الصيادين واعتقدوا فيه ، ثم طلب منهم سمكاً فجاءوا له بسمك كثير ، فأشعل ناراً على الساحل لشي السمك ثم اعطاهم ، فلما ذهبوا إلى منازلهم جاء غرابان للفرنج إلى هذا المكان ونهوه وأسروا عدداً كبيراً من سكانه ، فلما بحثوا عن هذا الفقير لم يعثروا عليه ، فأيقنوا أنه كان جاسوساً للفرنج بأشعاله النار في تلك الليلة من غير عادة له بإيقادها . ومنذ ذلك الوقت تنبه الناس وتحذروا من الفقراء وصاروا يسألونهم عن ما هو التصوف للتأكد من شخصياتهم . كذلك عثر على سقاء أشقر أزرق العينين مستعرب اللسان فلما سئل عن أمره أجاب بأنه من جزيرة قبرص وأنه اعتنق الإسلام وتزوج امرأة مسلمة من القاهرة وأنجب منها غلاماً أسماه محمداً . فلما كشفوا أمره أودعوه السجن وعذبه فاعترف بأنه من جملة جواسيس متفرقة بمصر والشام أرسلهم بطرس قبل وقعة الاسكندرية . واستطاع أن يحصل على معلومات خطيرة من كبار رجال المسلمين بحبل مختلفة .

ويذهب النويري كذلك إلى أن ملك قبرص قد حضر بنفسه إلى الاسكندرية كأحد التجار ونزل عند شمس الدين بن غراب كاتب الديوان بالمدينة ، فأطاح له بذلك فرصة التعرف على أحوال المدينة . ويبدو أن حاكم المدينة الأمير

صلاح الدين بن عرام قد تأثر بما شاع عن خيانة ابن غراب فأمر بقتله<sup>(١)</sup> .  
هذا ويضيف الكاتب والفارس الصليبي المعاصر جيوم دي ماشو<sup>(٢)</sup> ،  
أن شخصاً يدعى برسفال الكولوني Perceval de Cologne كان في استطاعته  
التجول في مدينة الاسكندرية بحرية تامة بما ساعده على احاطة الملك  
القبزمي علماً بمواطن ضعف المدينة في شرقي السور الشمالي<sup>(٣)</sup> .

### حملة بطرس الأول لوزنيان على الاسكندرية

لعل من نتائج المعلومات التي حصل عليها ملك قبرص من جواسيسه  
المنشقرين في مصر ، أنه اختار وقتاً مناسباً جداً للقيام بحملته على الاسكندرية  
وهو ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م ( ٢٢ المحرم سنة ٧٦٧ هـ ) ففي هذا الوقت  
كان والي المدينة صلاح الدين بن عرام غائباً عنها لاداء فريضة الحج . وكان  
نائبه جنغرا أو جنغرا ضعيفاً متردداً لا يصلح لمثل هذه المواقف الحاسمة .

كذلك كان هذا الوقت موسماً لفيضان النيل والطريق بين القاهرة  
والاسكندرية عبر الدلتا قد غمرته المياه ولا يصلح لمسير نجدة عسكرية  
سريعة من العاصمة لانقاذ المدينة ، بل كان على هذه النجدة أن تسلك  
طريقاً آخر عبر الصحراء وهو طريق طويل متعب .

(١) عن أخبار هؤلاء الجواسيس راجع ( محمد بن قاسم التوري المالكى السكندري ) : كتاب  
الانام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المفضية في رقعة الاسكندرية نسخة الهند الخطية  
لوحات ٢٢١ أ - ٢٢٢ ب وقوجد منها صورة بمكتبة كلية آداب الاسكندرية تحت  
رقم ٧٣٨ م ) .

(٢) هذا الكاتب الفارس جيوم دي ماشو Guillaume de Machaut اشترك مع بطرس في حملته  
على الاسكندرية وألف عنها كتاباً بالشعر ( ٩٠٠ بيت ) اسمه La Prise d'Alexandrie .  
ويلاحظ أنه يمثل وجهه النظر الصليبية بينما كان معاصره التوري يمثل وجهة النظر المصرية .  
وقد نشر ديوان ماشو في جنيف سنة ١٨٧٧ ، أما كتاب الانام فلا يزال مخطوطاً .

(٣) راجع : Paul Kahle, Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria mélanges :  
maspéro, t. LXVII, III, Orient Islamique pp. 137-154, Le Caire 1940.  
وقد ترجم هذه المقالة وعلق عليها درويش النخيلي وأحمد قدرى في مجلة كلية الآداب  
بالاسكندرية ) .

يضاف إلى ذلك أن سلطان مصر في ذلك الوقت كان طفلاً في الثانية عشرة من عمره وهو الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون ، بينما كانت السلطة الفعلية في يد يلبغا الخاسكي ، وهذا أدى إلى اضطراب الأحوال الداخلية بمصر في تلك الفترة . لهذا كانت الظروف كلها مهيأة لخدمة العدو .

اتجهت السفن الصليبية<sup>(١)</sup> إلى الميناء الغربي لمدينة الاسكندرية ، فظنوا الأهالي أول الأمر سفناً للبناقة جاءت للتجارة على عادتها في كل سنة ، ففرحوا لرؤيتها وخرجوا لاستقبالها ولكنهم قوبلوا بإرسل من السهام فأدركوا أنهم أمام خطر صليبي . عندئذ بدأت الاستعدادات على عجل لإغلاق الأبواب وشحن القلاع بالهتات واستدعاء عرب البحيرة للمشاركة في الدفاع عن المدينة . وحاول الصليبيون اختراق أبواب المدينة من هذه الناحية ولكنهم فشلوا ، عندئذ اتجهت بعض قواتهم إلى الميناء الشرقي حيث وجدوا ثغرة لم يحسب المصريون حسابها . ذلك ان ترعة الخليج ( المحمودية الآن ) التي تصل مياه النيل بالمدينة ، كانت تصب مياهها في الميناء الشرقي بالقرب من باب الديوان عن طريق فتحة تحت السور . فاستغل بعض الصليبيين هذه الثغرة وعبروا منها وتسلقوا السور من سلمه الداخلي وتمكنوا من إحراق باب الديوان المجاور كي يدخل منه بقية زملائهم . هذا في الوقت الذي كان فيه المدافعون السكندريون مشغولين في الجانب الآخر من الحائط برد الغزاة عن الميناء الغربي . وكان من المتعذر على هؤلاء المدافعين التحول بسرعة إلى الميناء الشرقي لوجود بعض الأبراج الحائلة ، فأسقط في أيديهم وعم الهرج والاضطراب في صفوف القوة المدافعة ، وأخذ الأهالي يفرون من المدينة بشكل جنوني ، بينما انقض عليهم الصليبيون انقضاضاً وحشياً ، ولم يفرقوا بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود المقيمين في البلد ، فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من رجالها ونساءها وعائوا في المدينة فساداً وتخريباً

(١) يقدر المؤرخون الأوروبيون عدد هذه السفن الصليبية بمائة قطعة فأكثر . أما التوربي فحدد مجموع السفن التي حملت الغنائم عند الانسحاب بما يزيد على سبعين مركباً .

ونهباً أسبوعاً كاملاً . وقد أعطانا النويري — وهو شاهد عيان — صورة حية لهذا التخريب عند قوله : « وأحرق الفرنج حوانيت الصوف بكالها ، وسوق القشاشين ، والحوانيت الملاصقة لقيسارية <sup>(١)</sup> ، الأعاجم من خارجها ، وحوانيت شارع المرجانيين وبعض فنادقه <sup>(٢)</sup> ، وفندق الطيبة مع فندق الجوكندار <sup>(٣)</sup> وفندق الدماميني الذي بسوق الجوارى ، ووكالة <sup>(٤)</sup> الكتان المقابلة للجامع الجيوشي بالقرب من العطارين . ثم أن الملاعين أحرقوا فندق الكتلانيين وفندق الجنويين وفندق المرسليين . ثم كسروا أيضاً حوانيت الشاعين والبياعين ودمروا ما فيها من الأوعية والأواني والحفائق ، فصارت ملقاة مطروحة في الطرقات قد سال ما فيها من زيت وعسل وسمن وغير ذلك . وكسروا أيضاً حوانت الصاغية وأخذوا ما فيها من مال ومصاغ كما أخذوا من حوانيت الصرف ما كان فيها من دنانير ودرهم ثم أتى القبارصة على قيسار البزازين ونهبوا أقمشة التجار المصريين والشاميين الميأة للسفر بها إلى مصر والشام ، ونهبوا أيضاً الحرير الذي قدمت به تجار الأعاجم وغيرهم إلى الاسكندرية . ونهبوا من الدور الأموال والأقمشة والمصاغ والفرش والبسط والنحاس وغيره ، كما قتلوا الناس في الدور والحمامات والشوارع والحانات . وكانت الفرنج تخرج بالنهب من الاسكندرية

---

(١) (٢) (٣) تسمية الفندق جاءت من الكلمة اليونانية Pandokeon ، وهي تعادل كلمة الخان الفارسية ، وكلمة الوكالة العربية ( من التوكيل ) ، وكلمة القيسارية اللاتينية الأصل لأنها كانت نشأ بواسطة القيصر أو الأمباطور الروماني . فهي كلها منشآت تجارية كان ينزل فيها التجار بامتنتهم . ويبيعون فيها بضائعهم . إلا أنه يلاحظ ان القيسارية كانت سوقاً مخصصة لبيع سلعة معينة وغالباً ما كانت هذه السلعة تصنع بنفس القيسارية التي يقطن بأعلاها صناع هذه السلعة مثل قيسارية البزازين . أما الوكالة فكانت مركزاً لتجارة الجملة وغالباً ما تكون باسم السلعة التجارية التي هي مخصصة لها مثل وكالة الكتان أو وكالة البلح . أما الفندق فيكون باسم الطائفة التي تنزل به مثل فندق الكتلانيين ، أو قد يكون باسم منشأة مثل فندق الدماميني ، أو قد يكون باسم نوع من التجار تخصصوا في تجارة معينة مثل فندق الطيبة ( أي تجار الطيب والسطور ) .

(٤) الجوكندار هو حامل الجوكان السلطان عند لعب الكرة . والجوكان هو الصولجان الذي تضرب به الكرة وهو عصا طولها أربعة ورأسها مقوفة تزيد عن نصف ذراع .

إلى مراكزهم على الأبل والحيل والبقال والحير ، فلما فرغوا من النهب وقضوا أربهم من البلد طعنوها بالرماح وعرقبوها بالصفاح وتركوها ملقاة في الميناء « (١) » .

ويفهم من كلام المؤرخين ان هذه الحملة لم تقتصر على القبارصة والروادسة فقط ، بل كانت تضم عدداً من نصارى الاسبان (٢) والانجليز وغيرهم من الاوربيين الذين انخرطوا في جماعة السيف التي أسسها بطرس لوزنيان وهي جماعة من من الفرسان لها صيغة دولية لأنها تضم عدداً كبيراً من أبناء الأشراف من ممالك متعددة .

وكانت خطة ملك قبرص تقوم على البقاء في مدينة الاسكندرية لتنفيذ المشروع الصليبي الذي جاء من أجله وهو فرض الحصار الاقتصادي على سواحل مصر وغيرها من الموانئ الإسلامية واستعادة بيت المقدس ، غير أن غالبية أتباعه خالفوه في رأيه ، ورأوا ضرورة الاسراع في الانسحاب عن المدينة حرصاً على الأسلاب التي غنموها وخوفاً من وصول جيوش النجدة المصرية من القاهرة خصوصاً بعد أن أحرق الأهالي أبواب المدينة أثناء فرارهم مما جعل الجيوش الصليبية مهددة من كل جانب .

وفي يوم الخميس ١٦ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م وجد الملك نفسه وحيداً في قلة من أنصاره الصليبيين المتحمسين بينما ركب الباقون السفن استعداداً للابحار قانعين بما أصابوه من غنائم وأسلاب . واضطر الملك بطرس وأصحابه إلى سرعة الابحار إلى قبرص عندما علم بأن طلائع الجيش المصري قد وصلت إلى ضواحي الاسكندرية .

(١) التنويري : كتاب الامام لوحة ٨٢ وما بعدها ( غطوطة دار الكتب ) .

(٢) نذكر منهم الكتلان والاراجونيين سكان أراجون وقطالونيا في شمال شرق اسبانيا . راجع : (Madelena Luz pomes : Los Aragonese en la conquista y Saqueo de Alejandria por Pedro I. de Chipre, Estudio de Edad media de la Corona de Aragon tome. V. p. 361-405) .

وعلى الرغم من الحسائر التي لحقت بالسكندريين ، فإن هذه الحملة قد فشلت في تحقيق الهدف المنشود منها وهو الاحتفاظ بثغر الاسكندرية ، ولهذا شبه النوبري الملك القبرصي باللص الغادر سواء في طريقة دخوله المدينة أو خروجه منها ، لأن الملوك إذا ملكوا بلدأ صمدوا فيه ودافعوا عنه <sup>(١)</sup>.

### سدى هذه الفارة في العالم الاسلامي

أثارت هذه الفارة الوحشية على السكان الآمنين في الاسكندرية موجة من السخط والغضب في أنحاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً :

ففي الأندلس غرباً ، لم يجد المسلمون وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى بالاغارة على جيرانهم المسيحيين الأسبان في مدينة جيان Jean التابعة للملك قشتالة رغم الماهدات المبرمة بين الطرفين . ففي رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه أبي عبدالله محمد الخامس الغني بالله إلى سلطان بني مرين بفاس يصف له فيها حملته على جيان ودافعها بقوله :

« سلام كريم بفتح الفتوح المؤبد بالملائكة والروح ... فنوينا أن نرفع بها هضم جانب الاسكندرية ، ونقوم بفرض الكفاية على الكافة المرضية ، فاستدعينا أهل الجهاد ونقصنا أطراف البلاد عن أولى الجلادة والجلاذ في الحرم سنة ٧٦٨ هـ ( ١٣٦٦ م ) بعد سنة كاملة من حداث الاسكندرية ، ونادى منادي الحمية : « يا لثارات أهل الاسكندرية ! » هذه الصيحة الجميلة التي كانت شعار الأندلسيين في هجومهم تعبر عن موجة الغضب التي أثارتها بالأندلس غارة القبارصة الوحشية على الاسكندرية ، كما أنها تحمل في طياتها معاني الأخوة والتضامن بين الشعوب الإسلامية أمام الغدر والعدوان مهما بعدت بينها المسافات <sup>(٢)</sup>.

(١) راجع ( سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٦٠-٧٠ ) وكذلك .  
(Atiya Surial: The Crusades in the later Middle ages p. 345-370).  
(٢) راجع كتابنا دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٤٥ .

ويسوق لنا التوربي قصة طريفة في هذا الصدد وهي أن رجلاً من أهل بلدة مليج<sup>(١)</sup> كانت قد دخل الاسكندرية يتسوق منها لدكانه التي ببلده على جاري عادته فصادف بها وقعة القبرصي حين ظفر بها فأمر بحملة من أسر من أهلها ، ووقع في سهم رجل من نصارى أسبانيا ، وانتقل معه إلى مدينة جيان . فلما ظفر السلطان ابن الأحمر ( محمد الخامس الغني بالله ) بها ، كان في جملة من أمره منها . قال الأسير المليجي : « لما وقعت بين يدي سلطان غرناطة أبي عبدالله محمد ( الخامس ) بن الأحمر ( الغني بالله ) ، قلت له متسغيثاً :

« أيها الملك المنصور ، انني رجل مسلم من ذرية المسلمين ، ولم أكن نصرانياً ولا أبنائي ولا أجدادي نصارى » . قال : ومن أين أنت ؟ قلت : أنا من بلدة يقال لها مليج من أرض مصر بين القاهرة والاسكندرية ، دخلت الاسكندرية أتبضع منها على جاري عادتي بدكاني التي هي ببليدي ، فصادفت وقعة القبرصي بها ، فنهبت وأسرت ، فأثت بي النصارى إلى هذه الأرض واستوفيت ما كتب علي ، وقد خلصني الله تعالى من الأسر على يديك بما فتح الله عليك ، وقد حصلت بين يديك ، وأنا الآن في جملة أسراك ، وأنا مسلم مثلك ، أقرأ ما تيسر من القرآن وأصلي على سيد الأنبياء محمد ابن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم سيد ولد عدنان . ثم تشاهدت وقرأت سورة من القرآن ، فعمل أي من المسلمين لا من النصارى الكافرين ثم قال لي : « ووقعة الاسكندرية صحيحة كما قيل ؟ قلت له ظفر بها صاحب قبرص ، نهبها وأسر منها ، وأنا من جملة تلك الأسارى . ثم أخبرته بخبر ظفره بها وفرار أهلها منها حتى تسلمها الملعون منهم في يوم واحد وهو يوم الجمعة في أواخر المحرم سنة ٧٦٧ هـ . فقال السلطان عند ذلك : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . إنا لله وإنا اليه راجعون ، لقد هتكنا أهل الاسكندرية بين النصارى ، أأهم كلب من كلاب الجزر ، فل عددم ،

---

(١) مليج بلدة في محافظة المنوفية بمصر ، وبها مسجد سيدي علي المليجي .

ونهب بلدهم ، ولا أخذ لهم بثأر ، فآه آه ! ، لو كنا بالقرب من قبرص  
لكانت قبرص أكلة رجل من أهل الأندلس . قال الأسير الملبجي : ثم  
ان السلطان أحسن إلي وأطلق سبيلي . ولي الآن نحو سنة أقطع السهل  
والوعر إلى أن وصلت إلى الاسكندرية صحبة الركب المغربي ، وهما أنا  
سائر إلى بلدي ملبج .

ويضيف النويري ان بعض الاندلسيين القادمين في الركب المغربي بسبب  
الحج أخبروه بأن ملك قشتالة أرسل إلى سلطان غرناطة يطلب منه الصلح  
بعد ان داخله الرعب بسبب تحريبه لمدائنه . فقال السلطان لرسوله :  
« هو يريد أن يصلحني بينما تمضي النصارى إلى سواحل المسلمين بأرض  
مصر يقاتلهم ؟ ! » ، لا كان ذلك أبداً حتى ترد أموال الاسكندرية إليها  
مع أسراها ويأتيني كتاب صاحب مصر بأنكم اصطلحتم معه لأنه خادم  
الحرمين الشريفين وأنا خادمه بسبب ذلك . وحينئذ أصلح صاحبك القند  
( القمط ) وإلا السيف بيني وبينه حتى أملك أشيلية وقرطبة وطليلة  
وأعيدها للمسلمين كما كانت لهم . فلما بلغ القند مقاتله قصر لسانه عن  
رد جوابه (١) .

أما المشرق الاسلامي فانه هو الآخر لم يقف مكتوف الأيدي أمام  
هذا العدوان الوحشي على الاسكندرية فيروي النويري أن الختان المغولي  
أويس بن الشيخ حسن برزج Burzug ( أي العظيم ) سلطان الدولة الجلائرية  
المغولية بالعراق وفارس حينما بلغه خبر تلك المذبحة تألم ألماً كبيراً .  
وتصادف أن جماعة من تجار الفرنج دخلوا بلاده لبيع أقمشة ومنسوجات  
في مدينة تبريز ، فقبض عليهم وأحضرهم وقال لهم :

« هذا قماش الاسكندرية نهبتموه منها وجئتم تبيعونه ببلدي » . فقالوا :  
لا والمسيح ما نهبناه ولكن اشتريناه ممن نهبه . فقال كذبتم بل أفسدتم

(١) راجع النويري : كتاب اللام لوحات ١١٠ - ١١٤ ( مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٤٤٩ )  
ونجد صورة شسمية منها بكلية الآداب جامعة الاسكندرية رقم ٧٣٧ م ) .



للد المسلمين يا كلاب ، وأتيتم تبيعون أقستهم ببلدي . فعند ذلك أمر بالحوطة على أموالهم وقتلهم عن آخرهم . قيل كان عدتهم ثمانمائة عالج ، هكذا أخبرت عنهم تجار البغادة الواردين إلى الاسكندرية ببضائعهم<sup>(١)</sup> .

ويضيف النويري ان جماعة من رسل ملوك الفرنج حضروا بعد ذلك بين يدي السلطان أويس المذكور وقدموا له الهدايا ، وسألوه أن يترك تجارهم يدخلون بلاده يبيعون ويبتاعون . فقال لهم الملك أويس :

« أنا اسمي أويس بن حسن بن حسين ، مسلم بن مسلم ، وأنتم تعتدون على بلاد المسلمين وتأتون بلادني بتاجركم تبتغون الفضل ؟ لا والله لا أرضى بذلك ، ولو سبقني ملك إلى قتل الرسل لقتلتكم ، ولكن ارجعوا من حيث أتيتم واجتهدوا في صلحكم مع سلطان مصر ، واستدركوا ما أفسدتم من الحال الذي فعلتم بالاسكندرية . فان أتيتوني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته ، مكنتم حينئذ تبيعون ببلدي وتبتاعون منه ما تحتارون . وان لم تفعلوا ذلك وعدتم إلى بلدي فليس لكم عندي إلا السيف » . فرجعوا بالخبيرة من حيث أتوا مردود عليهم هداياهم<sup>(٢)</sup> .

أما مصر والشام فقد تجلى الغضب فيها على شكل اجراءات انتقامية سريعة من الجاليات الاوربية وطوائف المسيحيين المقيمين في البلاد وذلك بمصادرة ربيع أموالهم لاصلاح ما خرب في الاسكندرية وفداء أمرى المسلمين واعداد أسطول لغزو قبرص . ولم تلق سياسة الانتقام من أهل الذمة تأييداً من بعض فقهاء المسلمين أمثال الفقيه الشافعي عماد الدين اسماعيل ابن كثير الذي أفتى في دمشق بأنه طالما كان النصارى باقين على الذمة ويؤدون إلينا الجزية وأحكام الملة قائمة فلا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد فوق ما يبدلونه من الجزية<sup>(٣)</sup> .

(١) النويري : كتاب الامام لوحة ٢٥٢ ( مخطوطة الهند ) .

(٢) النويري : كتاب الامام لوحة ٨١ ، ٨٢ ( مخطوطة دار الكتب المصرية ) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية . ج ١٢ ص ٢٥١ .

غير أنه يبدو أن الأمير يلبيغا الخاصكي لم يعمل بكلام ابن كثير وجمع أموالاً من أهل النمة وغيرهم ثم شرع في اتخاذ خطوات حاسمة نحو العناية بالاسطول ، وبمدينة الاسكندرية ، ويرد أمرى المسلمين .

#### ١ - العناية بالاسطول :

حرص يلبيغا الخاصكي على توفير الأخشاب والحديد والآلات بدور صناعة مصر والشام لبناء مائة وخمسين مركباً حريباً ما بين شواني وغربان للغزو ، وحالات وطرايد لحمل الجنود والحيل . فكتب إلى نوابه بالشام بإخراج النجارين إلى الغابات المجاورة لمدينة انطاكية لقطع ونشر أخشاب الصنوبر وغيرها وارسالها إلى دور صناعة مصر . كما كتب إلى بلاد الساحل الشامي مثل طرابلس وبيروت وغيرها بأمرها بعمل الشواني والحالات وجمع الرجال من البحارة والغزاة برسم غزو قبرص . قال المؤرخ اللبناني صالح بن يحيى في هذا الصدد : « ورمم يلبيغا للأمير ييدير الخوارزمي بالتوجه إلى بيروت ليعمر من حرشها مراكب كثيرة حمالات وشواني للدخول إلى قبرص فحضر إلى بيروت وأحضر صناع صكثيرة من ساير الممالك فكانوا جماعاً غفيراً . وعمر الأمير ييدير بظاهر بيروت مسطبة عرفت به إلى الآن ( أي وقت المؤلف في القرن ١٥ م ) وكانت المراكب تعمل عندها على بمعد من البحر وحضر عسكر الشام فأنزله فيما بين البحر والمراكب حذراً من مراكب صاحب قبرص لئلا يحضروا حين غفلة فيحرقوا ما يعمل من المراكب »<sup>(١)</sup> .

ويذكر النويري ان دور الصناعة في مصر استطاعت أن تبني في عام واحد مائة مركب حربي ، وأنه نودي في القاهرة ومصر بحضور البحارة والنفاطة ومن يريد الجهاد في سبيل الله للسفر مع المراكب ، فاجتمع عدة من المغاربة ، رجال البحر ، وكتببت أسماؤهم وقررت لهم المعاليم ، وأقيمت

(١) راجع (صالح بن يحيى : أخبار السلف ص ٣٠ ، أبو المحاسن : التجرم الزاهرة ج ١١ ص ٣٠ ، ولعل مكان هذه المسطبة هو المعروف اليوم باسم المسيطبة في بيروت .

لهم نقيباً . ولما اكتمل الجمع في ربيع الأول سنة ٧٦٨ ، أمر الأمير يلبغا بشحن المراكب بالرجال الأبطال والأسلحة الثقيلة ، كما أمر الغزاة أن تلبس الزرد النضيد ومصفحات الحديد بالبر فلبستها ، وتسليحت بأسلحتها وركبت خيولها . ثم أمر يلبغا بإحضار رسل صاحب الكتلان لمشاهدة عرض هذين الجيشين اللذين والبحري ، فنظروا لتلك المراكب الحربية وإلى ما فيها من الهمم العالية ، ورأوا تلك الجنود التي هي كاللود قد تهبأت للقتال والحرب والنزال ، وجذفت تلك الطرايد والغربان ، الشبيهة لوناً بالطيور الغربان ، ببحر النيل حادرة وصاعدة تود أنها حينئذ بمجزيرة قبرص قاصدة ، بعد أن سارت جوانبها بالطوارق المدهونة وبباطنها الأسلحة المسنونة ، وقد صارت رجال الحرب الشجعان مشحونة ، والأعلام بالرياح تحفق ، والأبواق تزعق ، والمزامير تزمز والأبطال بأصواتها تجر ، والطبول تضرب ، والنفط بشره ملتهب ، وقد اجتمع لرؤية تلك المراكب ألوف صاروا على شاطئ النيل صفوف ينظرون لتلك المراكب التي صارت من أعجب العجائب فعند ذلك انخلعت قلوب رسل صاحب الكتلان من رؤية تلك المراكب الحربية التي عمرت بسبب أخذ ثار الاسكندرية وسرعة عمارتها في عام واحد ، فتحققوا أن يلبغا لاخراب قبرص وسائر الجزائر قاصد<sup>(١)</sup> .

ويضيف النوري أن الأمير يلبغا لم يتردد في حشد كل ما يضر العدو من المكائد في هذه الحملة التي يعمدها لغزو قبرص . من ذلك مثلاً أنه ملأ قدوراً من الفخار بالثعابين والحيات الكبار والصغار كي يرمي بها على الفرنج فيقتل بصكها من صادفته ثم تنكسر وتسمى الأحناش بينهم تنهشهم وتدهشهم وتحيدهم عن مواقفهم في الحرب وتكون لهم شغلاً شاغلاً فتورثهم العطب وسوء المنقلب<sup>(٢)</sup> .

(١) النوري : كتاب الامام لوحة ١٣٧-١٣٨ (الهند) .

(٢) النوري : كتاب الامام لوحة ٢٠٧ (الهند) .

غير أن الأمير يلبنغا الخاصكي لم يعيش للأسف لتحقيق هدفه ، إذ اغتيل  
ببعض مماليكه سنة ٦٧٨ هـ فتوقف بجوته اعداد الاساطيل لغزو قبرص<sup>(١)</sup> .

## ٢ - العناية بالاسكندرية :

كانت العناية بشعر الاسكندرية من أهم الأعمال التي واكبت حركة تعزيز  
الاسطول العربي ، فقد صدرت الأوامر عقب غارة القبارصة بتحويل  
الاسكندرية من مجرد ولاية إلى نيابة للسلطنة ، فبعد ان كان يتولاها أمير  
طبلخاناه أي أمير أربعين صار يحكمها نائب لسلطان برتبة أمير مقدم ألف  
يسمى ملك الأمراء وله من السلطات في نيابته ما يمثل السلطات كي  
يتحمل مسؤولية حمايتها ورعاية مصالحها . وفي ذلك يقول القلقشندي :  
« صارت الإسكندرية نيابة جليلة تضاهي نيابة طرابلس وحماه وصفد ،  
وبها كرسي سلطنة ونجاة<sup>(٢)</sup> سلطانية توضع على الكرسي ، ونائبها من  
القدمين يركب في المواكب بالشباب<sup>(٣)</sup> السلطانية ومعه أجناد الحلقة  
المرتبون بها ، ويخرج في موكبه إلى ظاهر الإسكندرية خارج باب البحر  
ويجتمع إليه الأمراء المسبرون بها هناك ثم يعود وهم معه إلى دار النيابة ،  
ويمد السباط السلطاني ويأكل الأمراء والأجناد ويحضره القضاة وتقرأ  
القصص على عادة النيابات ثم ينصرفون »<sup>(٤)</sup> .

---

(١) يعطينا المؤرخ البيروني صالح بن يحيى مثلاً على توقف العمل في المراكب الحربية التي كانت تعد  
في صناعة بيروت بقوله : فلما توفي يلبنغا العمري في ليلة الأحد عشر ربيع الآخر سنة ثمان  
وستين وسبعائة بطاوا العبارة في المراكب المذكورة ولم ينزل منهم إلى البحر سوى حالتين  
كبار الواحدة بأسم سنقر والثانية بأسم قراجا وهما أميرين من أمراء ذلك الوقت ، ثم بقوا بعد  
ذلك في مساحة بيروت حتى تلفا وكذلك تلف بقية الشراطي التي لم تنزل إلى البحر . وكان  
قد صرف عليها مال عظيم فذهب ضياعاً لم يستفاد منها سوى الحديد بعدما أخذت الناس  
منه شيئاً كثيراً . راجع ( صالح بن يحيى : أخبار السلف من ذرية بختنغر بن علي أمير العرب  
بيروت المعروف بتاريخ بيروت ص ٣٠ ) .

(٢) النجاة خنجر مقوس يشبه السيف .

(٣) الشباب آلة موسيقية من فرع المزمار .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢

وتنسب معظم أعمال الإصلاح والانشاء في الاسكندرية بعد وقعة القبارصة إلى نائبين من نواب السلطنة بها وهما : سيف الدين إلاكز ٧٦٧-٧٦٨ هـ ، وصلاح الدين خليل بن عرّام الذي تولى نيابتها ست مرات ، الأولى في سنة الواقعة ٧٦٧ هـ ، والأخرى على فترات متقطعة بعدها (١) .

وينسب النويري إلى الأمير سيف الدين إلاكز عدة إجراءات دفاعية مضادة لحيل الفرنج من ذلك أن العدو اعتاد أن يستخدم للزحف نحو الخنادق والأسوار زحافات تمشي على بكر يحركها من هو بداخلها وهي مصنوعة من الخشب القرو الملبس بصفائح الحديد وجلود الجمال والبقر والقطن المبلل والشبد حامية لها من رمي النار كي تستطيع أن تصل إلى السور أو الخندق فيقوم من بداخلها بردم الخندق وتقب السور . وكانت هذه الزحافة تعرف عند المغاربة بإسم القطوس أي القط وجمعها قطاطيس لأن مشيتها كمشي القط إذا أراد مرقعة اللحم .

ولإتقاء خطرهما أمر سيف الدين إلاكز بإحضار الأحجار الصوانية المرسوق بها أكف الحديد المثنية الأصابع ، والمفرزة فيها النصول المحددة الأطراف ، وتعليقها بسرياقات من القنب في البكر في أعلا أبواب الاسكندرية . فإذا أرخصت هذه الآلة على الزحافة كسرتها ورفعت من بداخلها حياً أو ميتاً (٢) .

ويضيف النويري أن مجاهداً مغربياً عرض على الأمير إلاكز سلاحاً جديداً عبارة عن قدور كفتيات صغيرة من الفخار ضيقة الأفام مملوءة جيراً ناعماً مطفئاً بالبول ، وكانت الواحدة منها ملء الكف في قدر الرمانة مسدودة الفم المضيق بمشاقة ( كالقنابل اليدوية الآن ) ثم حكى له قصة استعمال هذا السلاح ومدى تأثيره فقال : بينا كنا مسافرين في البحر

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها ص ٣٥١ ، ٣٧٠

(٢) النويري : كتاب الامام لرحمة ٢٠٥ ، ٢١٠ ب (المند)

المالح بين سقايس وطرابلس ، صادفنا مركب للأفرنج فيه مقاتلة وتحارب فلما رأونا قصدونا فلما قربوا منا ألقوا الكلابير بمركبنا . وكانوا بأجمعهم عليهم سراويل الحديد . وكنا قبل تكليبهم لمركبنا نرمي عليهم بالسهم فلا تؤثر فيهم ، فلما تكلمت المركبان ، وصار الجانب ملتصقاً بالجانب ، قفز من مركبنا رجال حصلوا بمركبهم فصاروا يضربونهم فلا يؤثر فيهم . وكنت قد أعددت بمركبنا هذه القدور الكفيات ، فأمرت من مركبنا من أصحابنا أن يرموا الفرنج بها ، وكانت الواحدة منها ملء الكف ، فصار كل واحد يتناول واحدة ويرمي عليهم فتصكهم ، فيصعد الجار بعد إنكسارها في وجوههم ويدخل في أعينهم ويصعد في خياشيمهم يفسد أنفاسهم ويعمي أبصارهم ، وصارت المسلون يلقونهم في البحر فغوص الواحد منهم إلى قعر البحر لثقل ما عليه من الحديد . فرمينا منهم نحو ستين علجاً وهربت بقيتهم نزولاً بطن المركب ، فعدنا إلى باب بطننا وسددناه عليهم وممراته بالمسامير ، وأطلقنا من مركبهم إلى مركبنا ثلاثين تاجراً مسلماً وعشرين مملوكاً وخمس عشرة جارية كانت الفرنج أسرتهن ، ثم أخذنا ما كانوا أخذوه لهم من حرير وبسط وقوت ، وأخذنا ما كان للفرنج من الأثاث وقلاع مركبهم ، وعدنا إلى بئر مركبهم خسفناها ومضينا إلى مركبنا سالمين ، ففُتِر مركب الفرنج بالماء من ذلك الحسف الذي خسفناه بها فامتلأت بالماء وغرقت ، وكان إنتصارنا عليهم بعون الله تعالى وتلك القدور الكفيات المملوءة جيئراً وبولاً ، قال : فلما رآها الأمير إلأكرز أعجبه مرآها واستحسنها وأمر القرموسي<sup>(١)</sup> أن يصنع مثلها عدة كثيرة ، فعملوا نحو عشرة آلاف واحدة ملئت جيئراً ناعماً مطقياً بالبول وُرُفعت بقصر السلاح<sup>(٢)</sup> في المدينة حاصلاً

(١) القرموسي أو القرموسي كلمة دخيلة من أصل يوناني معناها الخنزير أو النخاري Potier

راجع (Dozy : Suppl. aux Dic. Arabes. II. p. 337)

(٢) هذا القصر كان بمثابة مخزن قد سُحنت قاعاته بالأسلحة المختلفة التي تون المقاتلة في الحرب . ويفهم من كلام التوري أن هذه القاعات كانت تسمى بأسماء السلاطين بدليل أن السلطان الأخرق شعبان حينما زار الإسكندرية سنة ١٧٧٠ هـ رسم بأن يعمل له به أيضاً قاعة سلاح تسمى به كما سميت قاعات الملوك بهم فبنيت له فيها من السلاح الجديد شيء كثير فكان عمله =

لوقتها المحتاج إليها . وعملوا أيضاً من القُدور الكبار كثيراً صارت حاصلاً لرمي المجانيق كما يعمل فيها من المكائد المضرة للفرنجة الكفرة « (١) .

وجاء بعد الأمير إلّاكر في نيابة الإسكندرية الأمير صلاح الدين خليل بن عرّام الذي ينسب إليه تعمير وترميم ما تخرّب في المدينة من مساجد ومدارس وأسوار وأبواب . كما ينسب إليه أيضاً حفر المطرقين أو الخندقين اللذين يحيطان بأسوار الاسكندرية من جهة البحر . المطرق الغربي الذي يحمي الساحل الغربي للمدينة من الباب الأخضر وبحر السلسلة ( الميناء الغربية ) إلى قلعة ضرغام . والمطرق الشرقي الذي يحمي الميناء الشرقي من جهة باب الديوان ومجاري الأقنية وهو المكان الذي صعد منه القبارصة السور . ثم أوصل ابن عرّام الخندقين ببعضهما ببعض كما أوصلها بالخندق القبلي الذي يحيط بالإسكندرية من جهة البحر . وبذلك صار من السهل على جيوش التجدة القادمة من القاهرة في وقت الحرب أن تصل خفية إلى جزيرة المنار عبر هذه المطارق أو الخنادق بدلاً من دخولها عبر المدينة من أبوابها القبلية البرية مما يعرض المدينة لأعمال النهب والعبث التي يقوم بها بعض الجنود « (٢) .

غير أن كل هذه الإصلاحات وإن كانت قد أفادت الإسكندرية من الناحية العسكرية ، إلا أنها لم ترجع إليها نشاطها التجاري ولا مكانتها الإقتصادية القديمة ، فمنذ ذلك الوقت أخذ نجم الاسكندرية التجاري في الأفول وقد علق المقرئ على هذه الحالة بقوله : « وكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث ، ومنها اختلّت أحوالها ، وانقضت أهلها ، وقلت أموالهم ، وزالت نعمهم » (٣) . وفي هذا المعنى أيضاً

= لذلك حسنة كاملة ونعمة شاملة وكان هذا القصر يقع بالقرب من جامع عمرو الذي يحتل دير الفرنسكان الآن جزءاً منه ( الإلام ص ١٤٤ ب ، دار الكتب ) .

- (١) التنويري : كتاب الإلام لوصة ٣٠٦ - ٣٠٧ ( المند ) .
- (٢) التنويري : كتاب الإلام لوصة ٢٠٨ ، عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص ٣٧٤ وما بعدها .
- (٣) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ص ١٣٥ ( مخطوط بدار الكتب رقم ٣٣٣٧ ) .

أشار الرحالة امانويل بيلوتي Emmanuel Piloti الذي زار الإسكندرية في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي ، إلى أن المدينة كانت شبه مهجورة من السكان ، وأن مساكنها الكثيرة لا يتعرض لها أحد بالشراء إلا للحصول على رخامها المزخرف وغيره من الأشياء الثمينة التي بداخلها<sup>(١)</sup> .

### ٣ - العناية برد أسارى الاسكندرية :

أحدثت غارة القبارصة على الاسكندرية اضطراباً شديداً في العلاقات بين مصر والبلاد الأوربية في البحر المتوسط ولاسيما الجمهوريات الإيطالية وقطالونيا الاسبانية التي كانت لها علاقات تجارية كبيرة مع مصر . ولهذا سارعت البندقية وجنوا وقطالونيا إلى إرسال رسلها إلى سلطان مصر الأشراف شعبان لتؤكد له عدم اشتراكها في تلك الحملة المشؤومة ولكن السلطان رفض أن يسمح لها بالتجارة في بلاده إلا إذا أعاد ملك قبرص أسرى المسلمين ، فوعده الرسل بذلك وذهبوا إلى مدينة الماغوصة (فماجوستا) شرقي قبرص حيث وجدوا الملك قبرص يمد حملة لمهاجمة بيروت فأقنموه بالعدول عنها ، كما طلبوا منه إعادة أسرى الاسكندرية ومفاوضة السلطان في الصلح ، وما زالوا به حتى وافق على ذلك وسمح لأسرى الاسكندرية بالعودة إلى بلادهم حيث استقبلهم المصريون استقبالا رائعا<sup>(٢)</sup> .

وقدر الملك بطرس أن سلطان مصر سوف يعقد معه صلحا عقب حصوله على أمراء حسبا كان مفهوماً من مفاوضات الصلح . ولكن السلطان شعبان في الواقع لم يستطع أن يغفر للقبارصة ما فعلوه في الاسكندرية ، وكان يأمل أن تتاح له فرصة الانتقام منهم ، ولهذا أخذ يماطل في عقد

(١) انظر (Paul Kahle : Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria, melanges maspero p. 137) .

(٢) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٧٢ وكذلك (Machaut : La Prise d'Alexandrie p. 180) .



الصلح معهم . وأدرك الملك بطرس أن السلطان قد خدعه وأنه لا توجد وسيلة لإجباره على الصلح إلا بالاغارة على سواحل بلاده من جديد . وفي أول عام سنة ٧٦٩ هـ ( سبتمبر ١٣٦٧ م ) أغار بأسطول ضخم على مدينة طرابلس الشام ، غير أن استعدادات المسلمين في هذه المرة لم تمكنه من احراز أي نجاح ، فارتد عنها خائب السعي بعد أن فقد من رجاله نحو الألف . ويذكر النويري أن مجاهداً من أهل طرابلس لحق بالملك بطرس وهو بهم بركوب سفينة عند انسحابه من طرابلس فرمى بنفسه عليه في البحر وأخذ يضربه بالسيف على جوشنه فأصابه بجراحات حصل له منها الألم الكبير ولم يخلصه من الموت سوى جماعة من أتباعه خفوا لتجديده وقتلوا المسلم بسيفهم<sup>(١)</sup> .

وحاول بطرس لوزنيان أن يعوض خسارته في طرابلس بالاغارة على اللاذقية ولكن ثلاثاً من سفنه ارتطمت بسلسلة الميناء وتحطمت إلى داخل الميناء ، عندئذ بادر المسلمون برفع السلسلة بدوران لوالها فارتفعت السلسلة وصارت الشواني محبوسة ، فقبض المسلمون على شني منها وقتلوا جميع من فيه من القبارصة ، وانكسرت الاثنتان لثقلها على السلسلة حين دخولها<sup>(٢)</sup> .

وهاجم بطرس بعد ذلك مدينة بانياس فأخلاها أهلها ، فأحرقها ، إلا أن جيش المسلمين المحاذي لمراكبه في البر أدركه فقتلوا من الفرنج الكثيرين<sup>(٣)</sup> .

وغضب السلطان شعبان من هذه الغارات العدوانية على سواحل بلاده ، ورد عليها بأن كلف قائداً بحرياً من قواده وهو رئيس دار الصناعة بالاسكندرية الرايس ابراهيم التازي بالاغارة على جزر العدو . وفي ٢٩ رجب

(١) النويري : كتاب الألام لوحة ٢٥٦ ب .

(٢) النويري : نفس المرجع لوحة ٢٥٧ أ .

(٣) النويري : نفس المصدر لوحة ٢٥٧ . وكذلك (Makbairas : Recital concerning the sweet Land of Cyprus entitled « Chronicle », edited by Dawkins, Vol. I. p. 193)

سنة ٧٦٩ هـ ( مارس ١٣٦٨ م ) اقلع التازي من ثغر الاسكندرية في مركبين حربيين بها خسبالة مقاتل متجهاً إلى جزيرة قبرص وما يحاورها من جزر فغم سفينة بقلعين للعدو أرسلها إلى الاسكندرية بعد أن حجز معه رجالها واستمر التازي في غاراته ثلاثة وعشرين يوماً عاد بعدها محملاً بالغنائم والأمرى فارجت الاسكندرية لقدمه ، وخرج أهلها إلى موضع منارها لاستقباله ، واصطف الترك المجردة لحراسة الاسكندرية بطول الساحل راكبين خيولهم ، متطلعين إلى الغرابين القادمين ، وقد ارتفعت عليها أعلام السلطان . ودخل الرئيس ابراهيم التازي الاسكندرية وسار من خلفه أسارى الفرنج يتقدمهم راهب كهل وهو راكب حمار ووجه لذنبه ، وخلفه يسر خمسة وثلاثون أسيراً حفاة الأقدام قد ربطت أعناقهم بالحبال وأيديهم بالحشب<sup>(١)</sup> .

ثم لقي الملك بطرس لوزيان مصرعه على يد بعض رجاله سنة ٧٧٠ هـ ( ١٣٦٩ م ) ، إلا أن موته لم يغير من سياسة قبرص العدوانية نحو مصر والشام نتيجة لرفض سلاطين المماليك ابرام صلح معها . لهذا استمر قراصلتها يغيرون على الشواطئ الاسلامية ، ويحidon من وسائل دفاعها البحري والبري خير مقاوم لهم . وحسبنا أن نشير إلى تلك المحاولة التي قام بها الأسطول القبرصي لنزو مدينة الاسكندرية من جديد سنة ٧٧٠ هـ ، فتصدت له المراكب بقيادة الرئيس ابراهيم التازي ، ووسائل الدفاع الساحلي من جروح وسهام ومجانيق ، وخاضت معه معركة بحرية ضارية فقد فيها بعض سفنه وعدداً كبيراً من رجاله ، ثم فر هارباً لا يلوي على شيء<sup>(٢)</sup> .

وهكذا نرى أن محاولة القبارصة في فرض صلح بالقوة لم تحرز أي نجاح بل زادت من اصرار المسلمين على الانتقام ولو بعد حين .

(١) التوري : الايام لوحة ٩٧ وما بعدها ، عبدالعزيز سالم : تاريخ الاسكندرية ص ٣٦٣ ، سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٧٩ .  
(٢) راجع تفاصيل هذه المعركة في (التوري)؛ كتاب الايام لوحة ٢٧٤ - ٢٧٧ نسخة المند الخطية).

## غزو الممالك لجزيرة قبرص ( ٨٢٧ - ٨٢٩ = ١٤٢٤ - ١٤٢٦ م )

ظلت اعتداءات قراصنة قبرص مستمرة على البلدان والسفن المصرية والسورية حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي . ولم تكن تلك الاعتداءات في الواقع قاصرة على القبارصة وحدهم بل شارك فيها قراصنة مسيحيون من مختلف الجنسيات اتخذوا من سواحل جزيرة قبرص المتعرجة قواعد وأوكاراً يخرجون منها للاغارة على البلدان والسفن الاسلامية ، كما وجدوا من ملوك قبرص ورجالاتها خير مشجع ومعاون على اعتداءاتهم ، وخير مشتر لبضائعهم المنهوبة من المسلمين . لهذا كانت السياسة المصرية تعتبر جزيرة قبرص مسؤولة عن أعمال هؤلاء القراصنة الذين يعيشون في البحر فساداً .

وكانت من المستحيل على دولة الممالك في مصر والشام أن تصبر على تلك الاعتداءات المتكررة على أراضيها ومراكبها . وإذا كانت ظروفها في الماضي لم تمكنها من القيام بعمل انتقامي سريع ضد جزيرة قبرص ، إلا أنها لم تهمل هذا المشروع في الواقع بل ظلت تنتظر الوقت المناسب للانتقام لشهداء الاسكندرية .

ثم جاءت تلك الفرصة المناسبة على يد السلطان الأشرف سيف الدين برسبائي ( ٨٢٥ - ٨٤٢ = ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م ) أحد سلاطين دولة الممالك الثانية ، أي بعد حوالي ستين سنة من تاريخ هذا العدوان .

وكان السبب المباشر لغزو قبرص عبارة عن حادث قرصنة مثل كثير من الحوادث السابقة ، إلا أن السلطان برسبائي اتخذ ذريعة للقيام بهذا الغزو الذي كان أمنية مطوية في نفوس المسلمين جميعاً . وقد وصف لنا هذا الحادث المباشر المؤرخ اللبناني المعاصر الأمير صالح بن يحيى بقوله :  
وبموجب ابتداء الحال مع صاحب قبرص أن شخصاً من تجار دمياط يسمى أحمد بن الهيم ، كان له مركب كبير قد أوسقه من طرابلس الشام صايون وبضائع بمال كثير . فلما وصل إلى م دمياط صدفه مركب من حرامية

الفرنجة من طائفة البسقاوية<sup>(١)</sup> ، فأخذ مركب بن الحميم وتوجه به إلى قبرص ، فنسب السلطان لصاحب قبرص أنه مواطنٌ لحرامية الفرنج<sup>(٢)</sup> .

أرسل برسباي ثلاث حملات متتابعة لغزو جزيرة قبرص التي كان ملكها في ذلك الوقت جانوس لوزنيان Janius Lusignan ( ١٣٩٩ - ١٤٣٢ م ) .

### الحملة الأولى : سنة ١٤٢٤ م ( ٨٢٧ هـ )

ابتدأت أولى هذه الحملات . على شكل حملة استكشافية للوقوف على مدى معاونه ملك قبرص للقراصنة الممتدين على الشواطئ والسفن المصرية والسورية .

أبحرت الحملة من دمياط في ثلاثة أغربة انضم إليها غراب صغير في بيروت وآخر في طرابلس فصار المجموع خمسة أغربة منها ثلاثة كبار بكل واحد مائة وثمانين مجذافاً ، واثنان صغيران بكل منهما دون المائة ، ومعهن ثلاثة أمراء من مصر ، وأمير من كل من بيروت وطرابلس<sup>(٣)</sup> . ثم اتجهت الحملة إلى قبرص ، وهناك عند الشاطئ الجنوبي بالقرب من ميناء لياسول ( اللسون ) صادفت سفينة تجارية راسية هناك . فلما رأى بحارتها السفن الإسلامية فروا هاربين تاركين سفينتهم للسفليين الذين أضرموا النار فيها بعد نهب حمولتها النفيسة .

ثم اتجهت الحملة بعد ذلك إلى ميناء لياسول نفسه ، وكان الملك جانوس قد علم بقدوم الأسطول المملوكي واستعد للملاقاته برأ وبجراً . فلما وصلت الحملة إلى لياسول اصطدمت بثلاث سفن للقبارصة وانتصرت عليها واشعلت النار فيها ، ثم أغار المحاربون المسلمون على المدينة نفسها وهزموا الحامية

(١) البسقاوية قوم من الفرنج يقيمون في شمال أسبانيا وجنوب غرب فرنسا . ويعرفون بأسم البشكنس Basque أو Vascos .

(٢) راجع ( الأمير صالح بن يحيى : أخبار السلف من ذرية بخت بن علي أمير الغرب ببيروت ) تاريخ بيروت ص ٢٤٢ .

(٣) صالح بن يحيى : أخبار السلف ص ٢٤٢ . (تحقيق فرئيس هورس وكال سليان الصليبي بيروت).

المعدة هناك لقتالهم بقيادة حاكم لياسول فيليب بكوني Philip Picquigni الذي ركن إلى الفرار . وتوغل المسلمون بمد ذلك في داخل المدينة ، واكتفوا بنهب بعض أحيائها دون التعرض لقلعتها . ثم أقلمت الحملة عائدة إلى مصر ، بعد ان قضت شهرين في هذه الغزوة ، ومعها قدر كبير من الغنائم والأسلاب مع عدد من الأمرى يقدر بخمسة وعشرين أسيراً . ويلاحظ أن هذه الحملة رغم قلة صحبها ، وصغر الدور الحربي الذي قامت به ، إلا أنها أثبتت للسلطان برسباي مدى معاونة قبرص للقراصنة إذ شاهد المسلمون بعض أوكارهم على سواحلها فضلاً عن بضائع المسلمين التي نهبها . وعلى ضوء هذه المعلومات قرر برسباي ارسال حملته الثانية إلى قبرص<sup>(١)</sup> .

#### الحملة الثانية سنة ١٤٢٥ م (٥٨٢٨)

كانت هذه الحملة أكبر من الأولى ونتيجة لها كما رأينا ، وقد بلغ من اهتمام السلطان بها أنه أشرف بنفسه على بناء سفن جديدة في دار صناعة بلاق ، وأمر عمال اللاذقية في الشام بصناعة مجاديف لهذه السفن وإرسالها إلى مصر . واستطاع برسباي بذلك أن يعمر في مصر أربع حملات كبار برمم حل الخيول والأثقال والناس . وعمر عدة أغربة كبار وصغار . كذلك رمم السلطان بمارة حمالة ببيروت لعسكر الشام ، وغرابين أحدهما بثمانين مقذافاً ، والثاني بأربعين مع غراب عتيق كان ببيروت قبل ذلك . ورمم السلطان أيضاً لنائب طرابلس بمارة حمالة مع الغراب الذي عنده<sup>(٢)</sup> . هذا إلى جانب السفن التي أمدّه بها الخليفة الحفصي سلطان تونس<sup>(٣)</sup> .

(١) Ziaa : The Mamluk Conquest of Cyprus in the Fifteenth Century راجع ( Bulletin of the Faculty of Arts of Cairo ) .

وقد ترجم الاستاذ عبد الرحمن زكي هذا المقال إلى اللغة العربية بعنوان المصريون في قبرص ( في إحدى الرسائل الثقافية التي كانت تصدرها وزارة الدفاع ) .

(٢) صالح بن يحيى : أخبار السلف ص ٢٤٣

(٣) انظر . Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome. IV. p. 555 . سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٩٢ .

ثم تجمعت جيوش الحملة ومراكبها في ميناء طرابلس . وقد بلغ عدد القطع الذي تألف منها الأسطول الإسلامي أربعين قطعة وهم : ست حالات ، وعشرة أغرية كبار وصغار ، وست مراكب قراقير ، ومركبان غروط كبار ، وإثنا عشر زورقاً ، وست بنوق صغار ، فكانوا أربعين قلعاً<sup>(١)</sup> .

وتجدر إشارة هنا إلى أن المؤرخ اللبناني المعاصر الأمير صالح بن يحيى صاحب كتاب تاريخ بيروت أو أخبار السلف ، كان على رأس الغراب العتيق الذي عمل ببيروت متقدماً ، وقد علق على ذلك بقوله : « وكان هذا الغراب من أحسن الأغربة مشياً ، وكان معي قريب من مائة رجل بحرية ومقاتلة »<sup>(٢)</sup> .

وأقلعت السفن الإسلامية من ميناء طرابلس في ٣٠ يوليو وعليها الآلاف من جنود البر والبحر ورماة النفط . وبعد أربعة أيام وصلت الحملة إلى ميناء كورباس Korbass على الساحل الشمالي الشرقي القبرصي ، ثم تحركت من هناك جنوباً حتى رست على بعد ثلاثين ميلاً من فاماجوستا ( الماغوصة ) وأنزلت قواتها على الشاطئ . ولم تسع مدينة فاماجوستا إلا الاستسلام للمسلمين في سهولة ، ورفع حاكمها على قصره العلم السلطاني . ثم أقلعت السفن الإسلامية جنوباً إلى ناحية الملاحه ، فاعترضها اسطول قبرصي من احدى عشرة سفينة أمام ساحل لارناكا Larnaka حيث دارت معركة بحرية عنيفة إنتهت بهزيمة القبارصة وفرارهم إلى عرض البحر تحت وطأة قذائف السفن الإسلامية . ثم نزلت قوات المسلمين إلى بر الملاحه لمقاتلة الجيش الذي أرسله الملك إلى هناك ، فانتصروا عليه وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من أفرادها كما نهبوا الملاحات والقرى المجاورة .

وبعد بضعة أيام أبحر المسلمون إلى مدينة لياسول جنوباً واستولوا عليها ورفعوا على قصرها العلم السلطاني .

(١) ، (٢) صالح بن يحيى : نفس المرجع ص ٢٤٤ .

وقبل أن يقر المسلمون خطة الزحف نحو العاصمة نيقوسيا بلغهم أن البندقية أرسلت نجدة قوية إلى قبرص وأن الملك جانوس لوزنيان يعيد توحيد صفوفه من جديد . عندئذ رأى القائد العام للحملة الإسلامية وهو الأمير سيف الدين جرباش الظاهري أنه من الأفضل الرجوع إلى مصر بعد هذه الانتصارات التي أحرزها والأسلاب الثقيلة التي حملها . فوصل القاهرة في سبتمبر ١٤٢٥ م حيث عرض الغنائم والأمرى أمام السلطان في احتفال شعبي كبير<sup>(١)</sup>.

#### الحملة الثالثة ١٤٢٦ م (٨٨٢٩)

لم تحقق الحملة الثانية الهدف الذي كان ينشده برسباى وهو إخضاع قبرص نهائياً للنفوذ المصري . ولهذا قرر إرسال حملة ثالثة لتحقيق هذا الهدف . وكان استعداد برسباى لهذه الحملة أكثر من المرة السابقة ، إذ أعلن الجهاد العام في جميع أنحاء مملكته ، واستجاب لندائه جم غفير من الناس من مصر والشام حتى اضطر السلطان إلى رفض طلبات عدد كبير منهم لعدم وجود أماكن لهم في السفن المعدة لهذه الحملة . وكان برسباى قد أعدّ لهذه الحملة أكثر من مائة سفينة حربية من مختلف الأنواع والأحجام . ويلاحظ أن خطة الحملة في هذه المرة هي الخروج من مصر إلى قبرص مباشرة دون المرور على موانئ الشام . ولهذا كان على السفن الشامية أن تحضر إلى مصر للإنضمام إلى أسطولها والإبحار معاً إلى قبرص . ويحدثنا المؤرخ البيروني المعاصر الأمير صالح بن يحيى أنه كان على رأس إحدى الحملات التي صنعت في بيروت والتجهت إلى مصر للإنضمام إلى الحملة إلا أنها وصلت متأخرة بسبب هيجان البحر ومضادة الريح وتفتت أجناب الحملة ، فلم تستطع اللحاق بالأسطول ، وأضطر صالح بن يحيى إلى

(١) صالح بن يحيى : أخبار السلف ص ٢٤٥-٢٤٧ ، (Ziada : The Mamluk Conquest of Cyprus, cit.) ويضيف الأمير صالح بن يحيى الذي شارك في هذه الحملة بأن السلطان أنعم عليه بجائتي دينار ذهب وخلمة . كما استضافه الدوادار الأمير أركاس وأوله عنده في بيته ورتب له كل يوم طعاماً بكرة والمصر إلى أن سافر إلى بلدة بيروت .

البقاء في مصر لإصلاحها بعد أن صرف من عليها من المجاهدين<sup>(١)</sup> .

وكانت الحملة قد أقبلت معظمها من ثغر الاسكندرية في أول يونيو سنة ١٤٢٦ م وعليها ما يزيد على خمسة آلاف مقاتل من المماليك والغزاة والمتطوعين . وعندما اقتربت من ثغر رشيد لأخذ بعض السفن حيث هبت ريح عاصفة حطمت أربعاً من سفنها مما اضطر السلطان إلى تمويض ذلك بمراكب من النيل وبمراكب للفرنج استولى عليها من الاسكندرية<sup>(٢)</sup> .

ثم اتجهت الحملة مباشرة إلى جزيرة قبرص ، ونزلت جيوشها بنواحي مدينة لياسول التي سبق أن احتلها المسلمون ودمروا قلعتها في الحملة الثانية ، غير أن القبارصة أعادوا تحصينها من جديد ، ولهذا لم يتمكن المسلمون من إحتلالها إلا بعد قتال عنيف .

ثم أخذت جيوش المسلمين تتوغل بعد ذلك في داخل الجزيرة نحو العاصمة نفسها مدينة الأفقسية أو نيقوسية Nicosia في قلب الجزيرة . وكان الملك جانوس قد أعد جيشاً كبيراً لايقاف زحف المماليك عند بلدة خيروكيتا Kherokita في شمال شرق لياسول . وهناك في هذا المكان دارت بين الفريقين موقعة حاسمة انتهت بهزيمة القبارصة وأسر ملكهم جانوس . وفي نفس هذا الوقت دارت معركة بحرية بين الأسطولين الإسلامي والقبرصي انتهت كذلك بهزيمة القبارصة وأسر بعض سفنهم .

ولم يجد المسلمون بعد ذلك صعوبة في دخول مدينة نيقوسيا عاصمة قبرص حيث أعلن القائد العام الأمير تغري بردي الحمودي في قصر الملك بأن الجزيرة صارت « من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباي »<sup>(٣)</sup> .

(١) و (٢) صالح بن يحيى : أخبار السلف ص ٢٥٠ .

(٣) خليل بن شاهين . زبدة كشف الممالك ص ١٤٢ ، المعني : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٨٣ ، سميد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٨-١١٤ . راجع كذلك :

Mahbarias: Op. cit. p. 655-670; Ziada, The Mamluk Conquest of Cyprus, Op. cit.



وعادت الحملة بعد هذا النصر الكبير إلى مصر ومعها ألوف الأمري وعلى رأسهم ملك قبرص جانوس ، فخرجت القاهرة لاستقبالها باحتفال كبير في أوائل اغسطس من تلك السنة . وهنا نترك ضيف القاهرة صالح بن يحيى البيروني ، الذي لم يكن له حظ الإشتراك في هذه الحملة ، يصف هذا الاستقبال كما رآه بقوله : « وتناهت الناس في الزينة ، فكانت زينة لا رأيت مثلاً ، وكنت نهار دخولهم بملك قبرص واقفاً في سوق الخيل بمصر يرسم الفرجة عليه ، ورأيتهم قد رتبوا جند مصر وعسكرها صفين إلى باب القلعة ، ودخلوا بالملك بين الصفين وقد ركبوه على بفل عالي ، والنهب والأسرى تساق قدامه ، ومن أعلامه طين محمولة قدامه منكسة السنجق .. وكان ذلك اليوم بمصر يوماً مشهوداً ما عهد مثله . فلما دخل ملك قبرص على السلطان يوسوه الأرض عددة مرار أولهم لما استقبل الايوان ثم كلما تقدم قليلاً يوسوه الأرض إلى أن صار قدام السلطان ، فأمر السلطان بسجنه وأن يُقيد بقيد ثقيل » (١) .

وهكذا انتصت دولة المماليك لما حل بشعبها وثغورها وتجارتها في مصر والشام على يد القبارصة ، وكان انتقاماً رائعاً . ولم يُطلق سراح الملك جانوس إلا بعد أن تعهد بدفع فدية قدرها مائتي ألف دينار ، يدفع نصفها قبل رحيله ، والنصف الآخر بعد عودته إلى جزيرته . ثم خلع عليه السلطان قبل سفره بخلعة طرد وحش بفرو قاقم ، وأنعم عليه بغرس بسرج ذهب وأمره أن يدور على الأمراء الكبار يسلم عليهم . ثم توجه الملك إلى الاسكندرية حيث كان في انتظاره غرابان حضرا من قبرص يرسم أحده ، فنزل في البحر ساعة وصوله إلى الاسكندرية ولم يتأخر في البر . وسافر معه رسول من قبل السلطان لقبض ما تأخر عليه من المال (٢) .

(١) صالح بن يحيى : أخبار السلف ص ٢٥١  
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٢ . والمقصود بطرد وحش فرع من القماش منقوش بتأخر الصيد والطرد وكانت تصنع منه بعض الخلع السلطانية ( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

وظلت قبرص تابعة للقاهرة وتؤدي لها جزية سنوية حتى نهاية حكم المماليك على يد العثمانيين سنة ١٥١٧ م ، فصارت الجزيرة ترسل الجزية إلى السلطان العثماني حتى سنة ١٥٧٧ ، حينما احتلها الأتراك العثمانيون ، وحكموها حكماً مباشراً عن طريق ولايتهم الأتراك .

**حملات المماليك على جزيرة رودس ( ٨٤٣ - ٨٤٧ = ١٤٤٠ - ١٤٤٤ م )**

لم يبق من رواسب الصليبيين في الشرق الأدنى بعد تخليص الشام من الصليبيين واخضاع آل لوزنيان في قبرص سوى دولة الفرسان الاسبتارية في جزيرة رودس . وكانت هذه الدولة قد تكونت عقب سقوط عكا بمساعدة آل لوزنيان ملوك قبرص ، ومن ثم صار لها أهداف صليبية مشابهة تماماً لأهداف ملوك قبرص . ونتيجة لهذا التشابه شمل الجزيرتين نوع من التعاواند السياسي والتضامن الحربي المشترك ضد المسلمين في مصر والشام وآسيا الصغرى ، وصار تاريخ كل منهما ، فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، مرتبطاً تمام الارتباط بتاريخ الأخرى : فالأسطول القبرصي الذي فاجأ الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م كان يضم عدداً كبيراً من فرسان رودس ، كذلك شارك الروادسة إخوانهم القبارصة في الدفاع عن جزيرة قبرص عندما هاجمها المماليك ، كما انهم ساهموا بتصيب كبير في خدمة الملك جانوس عندما وقع في أسر المماليك .

لهذا أيقن فرسان رودس أن انتصار المسلمين في قبرص ما هو إلا انذار بقرب حلول دور رودس في الغزو . وقد تأكدت مخاوفهم خلال المفاوضات التي جرت حول فدية الملك جانوس حينما صرح برسباي عن ضرورة إرسال حملة إلى رودس . ومن ثم أخذ الروادسة يستعدون لمواجهة هذا الغزو المملوكي المنتظر ، فأقاموا الحصون والأسوار والأبراج لحماية جزيرتهم ، كما بثوا الجواسيس في مصر والشام لمعرفة نوايا السلطان وما يجريه من استعدادات لهذا الغزو . على أن حملات المسلمين على جزيرة رودس لم تتم في عهد السلطان برسباي - كما كان متوقفاً - بسبب انشغاله

بالاضطرابات الداخلية فضلاً عن حروبه الخارجية مع شاه رخ بن تيمورلنك الممولى . ولهذا فان محاولات غزو رودس حدثت في عهد خليفة برسباي وهو السلطان سيف الدين جقمق ( ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ = ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م ) الذي رأى أن يواصل سياسة سلفه بفتح رودس ، واتخذ من بعض حوادث القرصنة سبباً مباشراً لإعلان الحرب عليها كما فعل برسباي مع قبرص من قبل <sup>(١)</sup> .

ولقد وجه جقمق ثلاث حملات إلى رودس اقتداءً بسياسة سلفه أيضاً . الحملة الأولى كانت في سنة ١٤٤٠ م ، وكانت تتكون من خمس عشرة سفينة حربية عليها مائتي مملوك وعدة مئات من المتطوعين حتى بلغ مجموع جنود الحملة ألف محارب تقريباً . ثم أبحرت الحملة من ثغر دمياط وانجحت إلى قبرص للتموين باعتبارها قاعدة مملوكية . ثم توجهت بعد ذلك إلى ساحل آسيا الصغرى ، ومنها إلى رودس . وهناك وجد المسلمون أن الفرسان الاستبارية على أتم استعداد لمواجهة الهجوم ثم دارت عدة معارك برية وبحرية انتهت بفشل المسلمين في اقتحام الجزيرة وانسحابهم أثناء الليل عائدين إلى مصر .

#### الحملة الثانية سنة ١٤٤٣ م

لم يستسلم جقمق لهذا الفشل الذي منيت به الحملة الأولى ، فأعد حملة ثانية أقوى وأكبر من سابقتها بقيادة ابنال العلائي الذي سار سلطاناً فيما بعد . وأقلعت الحملة من دمياط في شهر أغسطس وانجحت إلى بيروت وطرابلس حيث انضمت إليها قوات شامية ثم توجهت كالمرّة السابقة إلى لياسول بقبرص لأخذ التموين اللازم . ومن هناك تحركت إلى ساحل آسيا الصغرى بنية الصعود بعد ذلك إلى رودس . ولكن حدث أن جزيرة صغيرة هناك بساحل آسيا الصغرى تسمى قشطليل الروج

(١) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ترجمة جمال الشيال ، ومنصور ( مجلة الجيش ١٩٤٦ ) .

Chateau rouge أي الحصن الأحمر كانت تابعة لفرسان الاستبارية ، أطلقت بعض مدافعها نحو الحملة على سبيل السخرية . فأثار هذا العمل غضب المسلمين فاتجهوا نحوها وحطموا قلعتها وأبراجها ، وكان في نية الحملة مواصلة السير نحو رودس ، ولكن نفاذ الذخيرة واقتراب فصل الشتاء جعلها على العودة إلى مصر <sup>(١)</sup> .

### الحملة الثالثة ١٤٤٤ م

صمم جقمق على إرسال حملة ثالثة إلى رودس تشبهاً بسياسة برسباي في قبرص ، وأنفق على هذه الحملة أموالاً طائلة مؤملاً الاستيلاء عليها . وخرجت الحملة من دمياط كما هي العادة يقودها اثنان من كبار أمراء المماليك ومها اينال العلاني للقوات البرية ، والأمير تربياني لقيادة الأسطول . وبعد أن انضمت إليها القوات الشامية ، أبحرت بسرعة إلى رودس مباشرة دون أن تمر بقبرص وآسيا الصغرى . وتمكن المسلمون بعد قتال عنيف من ازل قواتهم إلى البر ومحاصرة مدينة رودس عاصمة الجزيرة . واستمر الحصار مدة أربعين يوماً أرسل المسلمون خلالها عدة كتائب إلى داخل الجزيرة . وقد استطاعت هذه الكتائب أن تقوم بأعمال عسكرية كثيرة ، ولكنها من الناحية الاستراتيجية كانت أعمالاً عقيمة عديمة الفائدة لأن العاصمة لم تسقط وظلت تقاوم المسلمين خصوصاً بعد أن وصلتها امدادات مسيحية من أوروبا في الوقت الذي أخذت فيه مؤن المسلمين وذخيرتهم تقل وتتفد بسرعة . وأخيراً اتخذ الاستبارية المحاصرون خطة الهجوم واندفعوا إلى خارج المدينة وانتصروا على المماليك كما هاجوا أساطيلهم مما اضطر المسلمين في النهاية إلى الانسحاب من الجزيرة والابحار إلى دمياط <sup>(٢)</sup> .

(١) السيوطي : غزوات قبرص ورودس ص ١٤-١٦ ( وهو جزء من كتاب السيوطي المسمى بكتاب تاريخ الملك الأنرف قابيلبي الحمودي الظاهري . وقد نشر هذا الجزء في فيينا مع ترجمة للثانية سنة ١٨٨٤ ) .

(٢) راجع ( زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ( مجلة الجيش سنة ١٩٤٦ ) ، وكذلك مادة رودس في دائرة المعارف الإسلامية لعزيز سويال ) .

ولقد أثارت حملات المالك على رودس لانقراضها من أيدي الاستبارية موجة من الغضب ورغبة في الانتقام من المسلمين . ولهذا شنت الاستبارية هجوماً بحرياً على السفن الإسلامية التجارية عند شواطئ الاسكندرية ودمياط وصور وغيرها<sup>(١)</sup> . وقد رد السلطان جقمق على هذه العمليات العدوانية بأن فرض على جميع تجار الفرنج بلا استثناء في دولته غرامة مالية فادحة لتعويض خسارته ، كما سجن عدداً كبيراً منهم .

وخشيت البندقية على مصالحها التجارية مع دولة المالك من جراء هذا العمل ، فقامت بدور الوسيط بين السلطان والاستبارية ، وساولت اقناع الروادسة برد أسرى المسلمين وأموالهم ومتاجرهم ، ولكنهم رفضوا مما اضطر البنادقة إلى الاغارة بأساطيلهم على رودس واجبارهم على رد ما أخذوه من المسلمين<sup>(٢)</sup> .

كذلك قام بهمة الوساطة بين جقمق والاستبارية التاجر الفرنسي الكبير جاك كير Jacques Coeur الذي استطاع أن يزيد من حجم التجارة بين فرنسا ودولة المالك حتى بلغت مستوى تجارة البندقية وجنوا وقطالونيا فترة من الزمان . وقد نجح هذا البرجوازي الفرنسي الكبير في عقد صلح بين جقمق ولاستيك رئيس الاستبارية غير أن جماعة الاستبارية لم يلتزموا كثيراً بشروط هذا الصلح فتارة تزام أصداق المسلمين وتارة أخرى أعداء لهم . ولكن المهم هنا هو أن دولة المالك لم تستطع أن تقضي على نشاطهم بسبب ظهور قوى أخرى جديدة معادية في الميدان البحري ، وهما قوة الاتراك العثمانيين في البحر المتوسط شمالاً ، وقوة البرتغاليين — بعد اكتشافهم الجغرافي — في المحيط الهندي والبحر الأحمر جنوباً<sup>(٣)</sup> .

(١) السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ص ٣٢٣ ، ٣٥٠ ( نشر أحد زكي ١٨٩٦ ) .

(٢) ابن تفرج بردي : التجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٨٢ ( نشر وليام بوبر Popper ) بكاليفورنيا منتقبات من حوادث الدهور ج ٣ ص ٤٨٨ ( نشر وليام بوبر ) .

(٣) راجع ( ابراهيم طرخان : مصر في عصر المالك الجراكسة ص ١١٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٦ ) .

وهكذا أصبحت دولة المماليك محصورة بين هذين الخطرين ، وعجز سلاطينها في ابعاد خطرهما التجاري والحربي . يضاف إلى ذلك أن المماليك كانوا فرساناً بطبيعتهم ، عشقوا الفروسية ولم يقبلوا عنها بديلاً . ولهذا لم يتجاوبوا مع الاسلحة النارية والمدافع التي انتشرت في ذلك الوقت وأقبل العثمانيون والبرتغاليون على استخدامها في البر والبحر بينما اعتبرها المماليك أسلحة منافية للرجولة والانسانية . وأخيراً اضطر بعض سلاطين المماليك لانقاذ دولتهم إلى تكوين فرق غير مملوكة من المغاربة والعبيد السود لحمل هذا السلاح الجديد عرفوا بالنفطية والبارودية . ولكن رغم كل هذا كانت دولة المماليك قد هزمت وتراجعت على أنظمتها المتينة ، فلم تلبث ان انتهت أمام جيوش السلطان العثماني سليم الأول في موقعة مرج دابق شمالي حلب سنة ١٥١٦ م ، ثم في موقعة الريدانية في صحراء العباسية شمالي القاهرة سنة ١٥١٧ م ، وصارت كل من الشام ومصر منذ ذلك الوقت مجرد ولاية في الامبراطورية العثمانية <sup>(١)</sup> .

---

(١) راجع مقالنا حول كتاب البارود والاسلحة النارية في الدولة المملوكية لدافيد أياون في مجلة هسبريس ، ( Hespérís 1959, 3-4 Trimestres p. 264 )

## مراجع القسم الثاني





## المراجع

### أولاً : المصادر العربية

- ابن أبي الفضائل : مفضل ( ت ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م )  
« النهج السديد والدُرّ الفريد فيا بعد تاريخ ابن العميد » جزءان . حققه و ترجمه الى  
الفرنسية مع مقدمة تاريخية بلوشيه E. Blochet ( باريس ١٩١٧ )
- ابن الأثير : علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين ( ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م )  
« الكامل في التاريخ » ١٢ جزءاً . ( بولاق ١٢٩٠ هـ )
- ابن اياس : أبو البركات محمد بن أحمد ( ت ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م )  
( أ ) « كتاب تاريخ مصر المعروف بإسم بدائع الزهور في وقائع الدهور » ٣ اجزاء  
( بولاق ١٣١١-١٣١٢ هـ )  
( ب ) صفحات لم تنشر من بدائع الزهور . تحقيق محمد مصطفى ( القاهرة ١٩٥١ )
- ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ( ت ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م )  
« تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » المعروف برحلة ابن بطوطة  
نشر وترجمة دفريري وسانجيني Defremery et Sanguinetti ( باريس ١٩٢٢ )
- ابن جبير : محمد بن احمد الأندلسي ( ت ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م )  
رحلة ابن جبير ( بيروت ١٩٤٩ )
- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين احمد بن علي ( ت ٨٥٢ هـ = ١٤٤٩ م )  
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء ( حيدرآباد ١٣٥٠ هـ )  
- رفع الإصر عن قضاة مصر ( في آخر كتاب الولاية والقضاة للكتندي ، طبعه  
روفن جست )
- ابن حسون : الوزير أبو العلاء ( ت ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م )  
كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد  
تحقيق عباس المزاري في المجلة التركية بأثثه ( الجزء الرابع ١٩٤٠ )

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ( ت ٨٠٨هـ = ١٤٠٥ م )  
 - « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من  
 ذوي السلطان الأكبر » . ٧ أجزاء . ( يولاق ١٢٨٤ هـ )  
 - التعريف بإبن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً . نشر محمد بن فؤيد الطنجي  
 ( القاهرة ١٩٥١ )

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي ( ت ٦٨١هـ = ١٢٨٢ م )  
 « وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان » نشر عيسى الدين عبد الحميد ٦ أجزاء  
 ( القاهرة ١٩٥٠ )

ابن دقاق : إبراهيم بن محمد بن أيمن العلاني ( ت ٨٠٩هـ = ١٤٠٦ م )  
 « الإقتصار بواسطة عقد الأمصار » ( يولاق ١٨٩٣ م )

ابن شداد : بهاء الدين يوسف ( ت ٦٣٢هـ = ١٢٣٤ م )  
 « كتاب للترداد السلطانية والحامان البيرونية » نشر جمال الشيال ( القاهرة ١٩٦٤ )

ابن شداد : محمد ( ت ٦٨٤هـ = ١٢٨٥ م )  
 الألقاب الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، جزءان . نشر سامي الدهان  
 ( دمشق ١٩٥٦ )

ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل ( ت ٨٧٣هـ = ١٤٦٨ م )  
 « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » حققه بول رافيس Paul Ravissé  
 ( باريس ١٨٩٥ )

ابن عذارى المراكشي : أبو العباس أحمد بن محمد ( كان سيماً سنة ٧١٢هـ = ١٣١٢ م )  
 البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب

( أ ) الجزءان الأول والثاني طبعة دوزي ( لندن ١٨٥١ )  
 ( ب ) الجزء الثالث نشر ليفي بروفنسال ( باريس ١٩٣٠ )  
 ( ج ) قطعة خاصة بتاريخ المرابطين نشرها أوديني ميراندا في مجلة هسبريس ١٩٦١  
 ( د ) الجزء الرابع ويتناول تاريخ الموحدين وبداية عهد بني مرين ، نشره أوديني ميراندا  
 ومحمد بن فؤيد للتطواني وإبراهيم للكتاني ( الرباط ١٩٦٣ )

ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق بن أحمد الشيباني البغدادي  
 ( ت ٧٢٣هـ = ١٣٢٣ م )

« الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » ( بغداد ١٣٥١ هـ )

ابن الفرات المصري : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ( ت ٨٠٧هـ = ١٤٠٥ م )  
 « تاريخ ابن الفرات المعروف باسم الطريق الواضح المسلك إلى معرفة تراجم الخلفاء  
 والملوك » . تسعة أجزاء ( تشمل أخبار سني ٥٠١-٧٩٩هـ ) حقق قسطنطين لوريق  
 الأجزاء ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩ التي تضم أخبار سني ٦٧٢-٧٩٩هـ ( بيروت ١٩٣٩ ) أما الجزء  
 السادس الخاص بأحداث سني ٦٢٥ - ٦٥٩هـ يوجد بكتبة الفاتيكان ويتضمن تاريخ  
 قرطاي المزي وأخبار صارم الدين أزيك التي نشرها المستشرق ليفي دلا فيسدا  
 في مجلة *Orientalia* سنة ١٩٣٥ روما .

ابن فضل الله العمري : شهاب الدين احمد ( ت ٧٤٢هـ = ١٣٤١ م )  
 ( أ ) « مسالك الأبيصار في ممالك الأمصار » ٢٠ جزءاً . حقق الجزء الخاص بأفريقية  
 والأندلس ، حسن حسني عبدالوهاب في مجلة البدر بتونس ، وحقق الجزء الخاص  
 بالغرب الأقصى ، محمد التوني في مجلة البحث العلمي ١٩٦٤ ، أما القسم الشرقي  
 وهو معظم الكتاب فلم يظهر منه إلا قسم جغرافي صغير بتسقيق احمد ركي باشا  
 والباقي لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية .  
 ( ب ) التعريف بالمصطلح الشريف . ( القاهرة ١٣١٢هـ )  
 ( ج ) ممالك عباد الصليب . نشره ميشيل أماري في روما ١٨٨٣ .

ابن القطان : أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي ( ت ٦٢٨هـ = ١٢٣٠ م )  
 نظم الجمان في أخبار الزمان . نشره محمود مكي ( الرباط ١٩٦٤ )

ابن كثير : عماد الدين اسماعيل ( ت ٧٧٢هـ = ١٣٧٢ م )  
 البداية والنهاية ( القاهرة ١٣٥٨هـ )

ابن واصل : جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم الشافعي ( ت ٦٩٧هـ = ١٢٩٧ م )  
 « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » نشر جمال الشبال معظم الجزء الخاص بالدولة  
 الأيوبية وبقي الجزء الخاص بقيام دولة المماليك ونهاية الدولة الأيوبية مخطوطاً .

ابن ماضي : الأسعد ( ت ١٢٠٩ م )  
 قوانين الدواوين . نشر عزيز سوريال عطية ( القاهرة ١٩٤٣ ) .

ابن منقذ : أسامة ( ت ١١٨٨ م )  
 كتاب الاعتبار . نشر فيليب حتي .

ابن منكلى : محمد الناصري  
 كتاب الأحكام الملوكية والضوابط التنموية في فن القتال في البحر ( مخطوط بكتبة  
 تيمور رقم ٢٣ فروسية ، وتوجد صورة شمسية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية رقم ٩ )

أبو شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين الشافعي الدمشقي

( ت ١٢٦٥ = ١٢٦٨ م )

١- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . جزءان (القاهرة ١٢٨٧هـ)

٢- الذيل على الروضتين . نشر عزت المطار الحسيني الدمشقي ؛ بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ( القاهرة ١٩٤٧ )

أبو الفداء : إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة ( ت ٧٣٢ = ١٣٣١ م )

المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء ( القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ) .

أبو المحاسن : جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي ( ت ٨٧٤ = ١٤٦٥ م )

( أ ) التيجان الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . نشرت منه دار الكتب المصرية ١٣

جزءاً حتى حوادث ٨٠٨ هـ ( القاهرة ١٩٢٩-١٩٤٣ ) ثم رجعنا بعد ذلك

إلى طبعة كاليفورنيا نشر وليم بير Popper ( كاليفورنيا ١٩٣١ )

( ب ) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي

( غلطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١١٣ في ثلاثة أجزاء )

الإدريسي : أبو عبد الله محمد الشريف السبتي ( ت حوالي ٥٤٨ = ١١٥٤ م )

( أ ) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس - عن زمة المشتاق في اختراق الآفاق

نشره وترجمه إلى الفرنسية دوزي ودي خويه (لندن ١٨٦٦)

( ب ) وصف إفريقيا الشالية والصحراوية - عن زمة المشتاق في اختراق الآفاق .

نشر هنري بريس (الجزائر ١٩٥٧) .

( ج ) وصف الأندلس - عن زمة المشتاق في اختراق الآفاق . نشره وترجمه إلى

الاسبانية كوندي Conde (مدريد ١٧٧٩) .

أرشيالد لويس :

التقى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ( من ٥٠٠ إلى ١١٠٠ م ) .

ترجمة محمد عيسى .

أشباح :

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة محمد عبدالله عنان .

الأصفهاني : عماد الدين محمد ( ت ٥٩٧ = ١٢٠١ م )

( أ ) دولة آل سلجوق ( القاهرة ١٩٠٠ ) .

( ب ) الفتوح العسي في الفتوح العسقي ( القاهرة ١٣٢٢ هـ ) .

الأهواني : عبد العزيز

سفارة سياسية من غرطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري ( مجلة كلية الآداب

بجامعة القاهرة ، مايو ١٩٥٤ ) .



أماري : ميشال

المكتبة الصقلية ( ليسك ١٨٧٥ )

الباز العريبي : السيد

مصر في عصر الأيوبيين ( القاهرة ١٩٦٠ ) .

البكري : عبدالله بن عبد العزيز المرمي ( ت ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م )

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب . نشر دي سلان ( الجزائر ١٩١١ ) .

البلاذري : أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادي ( ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م )

فتوح البلدان ( القاهرة ١٩٣٢ ) .

الجبلي :

عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

جمال الدين الشيال :

تاريخ مصر الإسلامية .

جورجي زيدان :

تاريخ التمدن الإسلامي ( ٥ أجزاء ) ( القاهرة ١٩٠٢-١٩٠٦ ) .

جوزيف نسم :

( أ ) لويس التاسع في الشرق الأوسط ( القاهرة ١٩٥٩ ) .

( ب ) المدون الصليبي على مصر ( الاسكندرية ١٩٦٨ ) .

الحسن بن عبدالله : ( ت ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م )

آثار الأول في ترتيب الدول ( القاهرة ١٣٠٥ هـ )

حسن إبراهيم حسن :

( أ ) الفاطميون في مصر .

( ب ) النظم الإسلامية بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن .

حسن حبشي :

نور الدين والصليبيون ( القاهرة ١٩٤٨ ) .

حسنين محمد ربيع :

النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين .

حسن محمود :

الإسلام والثقافة العربية بقرنانية ( القاهرة ١٩٦٣ ) .

الحزرجي : علي بن حسن ( القرن الثامن الهجري )  
العقود القوطية في تاريخ الدولة الرسولية . جزءان ( الجزء الثالث من مجموعة جب ) .

ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية  
( ترجمة عزت عبدالكريم وتوفيق اسكندر ، مصر ١٩٤٩ ) .

دراج : أحمد  
الماليك والفرنج في القرن الخامس عشر الميلادي .

زين الدين :  
نخلة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين نشره دافيد لويس في لشبونة ١٨٩٨ ) .

زمرستين : ك . ف  
تاريخ سلاطين المليك ( ليدن ١٩١٩ ) .

مرهناك باشا : اسماعيل  
سقاتي الأخبار عن دولة البحار . جزءان .

السخاوي :  
التبر المسبوك في ذيل السلوك . نشر أحمد زكي ( القاهرة ١٨٩٦ ) .

سعاد ماهر :  
البحرية في مصر الإسلامية .

سعيد عبد الفتاح عاشور :  
( أ ) الحركة الصليبية . جزءان .  
( ب ) مصر في عصر دولة المليك البحرية .  
( ج ) العصر المملوكي في مصر والشام .  
( د ) قبرص والحروب الصليبية .  
( هـ ) مدينة السويس منذ الفتح العربي حتى بداية العصر الحديث ( سلسلة بلادنا ) .

السلوي الناصري : أبو العباس شهاب الدين ( ت ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م )  
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٩ أجزاء ( الدار البيضاء ١٩٥٤ ) .

السيوطي : جلال الدين ( ت ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م )  
( أ ) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين العاقلين بأمر الأمة ( القاهرة ١٢٥١ هـ ) .  
( ب ) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . جزءان ( القاهرة ١٣٢٧ هـ ) .  
( ج ) غزوات قبرص وروم ( فيينا ١٨٨٤ ) .

صالح بن يحيى :

أخبار السلف من ذرية بخت بن علي أمير الغرب ببيروت ( المعروف بتاريخ بيروت )  
نشر غرئيس هورس وكال سليان ( بيروت ١٩٢٧ ) .

طرخان : ابراهيم

مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ( القاهرة ١٩٥٩ ) .

العبادي : أحمد مختار

- ( أ ) قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ( بيروت ١٩٦٩ )
- ( ب ) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس بالاشتراك مع عبد العزيز سالم ( بيروت ١٩٧٠ ) .
- ( ج ) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ( الاسكندرية ١٩٦٨ ) .
- ( د ) دراسة حول كتاب الباورده والاسلمة النارية لداقيد اليون ( مجلة همبريس ١٩٥٩ )

العبادي : عبد الحميد

- صور ومجوث في التاريخ الإسلامي ( الاسكندرية ١٩٤٨ ) .
- عبدالله بن أبيك : ابو بكر ( عاش في القرن الثامن الهجري )
- كنز الدور وسامع الفرر أو الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية . ( مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٨٧ في ٢٧ مجلد ) .

عبد الرحمن زكي :

- ( أ ) معركة المتصورة وأثرها في الحروب الصليبية .
- ( ب ) القلاع والحروب الصليبية .
- ( هـ ) موسوعة مدينة القاهرة

عبد العزيز سالم :

- ( أ ) تاريخ الاسكندرية في العصر الإسلامي ( ١٩٦٨ ) .
- ( ب ) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ( الاسكندرية ١٩٦٧ )
- ( ج ) البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس بالاشتراك مع مختار العبادي ( بيروت ١٩٧٠ )

عبد الفتاح السرنجباري :

- النزعات الاستقلالية في الخلافة المباسية ( القاهرة ١٩٤٦ ) .

عبد الفتاح عبادة :

- كتاب سفن الأسطول الإسلامي .

عبد المتعم ماجد :

( أ ) نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ( القاهرة ١٩٦٤ ) .

( ب ) الناصر صلاح الدين الأيوبي ( القاهرة ١٩٥٨ ) .

عبد الواحد المراكشي : محيي الدين التميمي ( ولد سنة ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م )

المعجب في تلخيص أخبار المغرب . نشر موزي ( لندن ١٨٨١ ) .

عبد اللطيف البغدادي :

كتاب الافادة والاعتبار ( القاهرة ١٢٨٦ هـ )

المذري : احمد بن عمر المعروف بإبن الدلائني ( ت ٤٧٨ هـ = ٩٨٨ م )

وصيغ الأخبار وتتويج الآثار في غرائب البلدان والمسالك والممالك .

نشر عبدالعزیز الأهوائي ( مدريد ١٩٦٥ ) .

علي ابراهيم حسن :

دراسات في عصر المماليك ( القاهرة ١٩٤٢ ) .

علي مبارك :

المخطوط التوقفية الجديدة لمصر والقاهرة . ٢٠ جزءاً ( بولاق ١٣٠٥-١٣٠٦ هـ )

عمارة اليميني : أبو الحسن نجم الدين ( ت ٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م )

تاريخ اليمن . نشره كاي Kay ( لندن ١٣٠٩ هـ )

عمر كمال توفيق :

ملكة بيت المقدس الصليبية ( الاسكندرية ١٩٥٨ )

العيني : بدر الدين أبو محمد ( ت ٨٥٥ هـ = ١٤٥٢ م )

عهد الجمان في تاريخ أهل الزمان ( مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ )

فؤاد عبدالمعطي الصياد :

مؤرخ المنول رشيد الدين فضل الله الهمداني ( القاهرة ١٩٦٧ )

القلقشندي : أبو العباس احمد ( ت ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م )

صبح الأضی في صناعة الانشاء ١٤ جزءاً ( القاهرة ١٩١٣-١٩١٩ )

القرماني : ابو العباس احمد بن يوسف ( ت ١٠١٩ هـ = ١٦١٠ م )

أخبار الدول وآثار الأول ( القاهرة ١٢٩٠ ) .

الكتبي : فخر الدين محمد بن شاكر ( ت ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م )

فوات الوفيات بجزءان ( بولاق ١٢٩٩ هـ )



كرد علي : محمد

خطط الشام ٦ أجزاء (دمشق ١٩٢٥) .

محمد جمال الدين سرور :

( أ ) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده (القاهرة ١٩٣٨) .

( ب ) دولة بني قلاوون في مصر (القاهرة ١٩٤٧) .

محمد حمدي المناوي :

( أ ) نهر النيل في المكتبة العربية .

( ب ) الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي .

محمد رمزي :

للقاموس الجغرافي للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٣) .

محمد مصطفى زيادة :

( أ ) الفزوة الكبرى الأولى لاستيلاء الصليبيين على مصر (كتاب كفاحنا ضد الفزاة) .

( ب ) المصريون في قبرص ( من رسائل وزارة الدفاع الوطني ) .

( ج ) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ( مجلة الجيش المصري ، يناير

١٩٤٦ ) .

( د ) بعض ملاحظات جديدة في تاريخ الممالك في مصر ( مجلة كلية الآداب جامعة

القاهرة المجلد الرابع ١٩٣٦ ) .

( هـ ) نهاية سلاطين الممالك ( مجلة الجمعية التاريخية المصرية مايو ١٩٥١ ) .

محمد ياسين الحموي :

تاريخ الأسطول العربي .

محمد رزق سليم :

عصر سلاطين الممالك .

مظهر : اسماعيل .

السفن والملاحة بمصر ( مجلة المتطف يناير ١٩٣٤ ) .

مصطفى مسعد :

الإسلام والثوبة في المصور الوسطى ( القاهرة ١٩٦٠ ) .

القدسسي : أبو عبد الله ( القرن الرابع الهجري )

كتاب احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . نشر دي غوبه ( لندن ١٩٠٦ )

## الأستاذ الدكتور الشيخ أحمد عنيمة

- المقريزي : تقي الدين أحمد ( ٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ م )
- ( أ ) السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر وتحقيق محمد مصطفى زيادة ( القاهرة ١٩٣٦ )
- ( ب ) اللواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار . جزءان ( يولاتي ١٢٧٠ هـ )
- ( ج ) امتاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ( القاهرة ١٩٤٨ ) .
- مؤلف مغربي مجهول : ( من علماء القرن السادس الهجري )
- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار . نشر سعد زغلول ( جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ )
- ميخائيل عواد :
- المآصر في بلاد الروم والإسلام ( بغداد ١٩٤٧ ) .
- نصحي : إبراهيم
- السويس في المصور القديمة حتى الفتح العربي ( كتاب السويس في سلسلة بلادنا ) .
- النابلسي : عثمان بن إبراهيم ( ت ١٢٥٨ م )
- كتاب لمع القوانين المعنية في دواوين الديار المصرية .
- Bulletin des Etudes Orientales, Tome XVI 1958 - 1960 ( Damas 1961 )
- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ( ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م )
- نهاية الأرب في فنون الأدب ( دار الكتب المصرية ) .
- النويري : محمد بن القاسم السكندري المالكي ( عاش في القرن الثامن الهجري )
- الإلام بالأعلام لما جرت به الأحكام المفضية في وقعة الاسكندرية وما أضيف الى ذلك من الاستطرادات المستحسنات ( مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤١٩٣ ) .
- هونيرباخ : ( غلهم )
- البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ( نطوان ١٩٥٤ ) .
- ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي ( ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م )
- معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والبار والسهل والوعر في كل مكان .
- ٨ أجزاء ( القاهرة ١٩٠٦ ) .

### ثانياً : المصادر الأوربية

- ALI BAHGAT : Les forêts en Egypte. ( Bulletin de l'Institut d'Egypte 1900 ).
- AMEER ALI, S. : A short history of the Saracens, ( London 1900 ).
- ARNOLD, SIR THOMAS : The Caliphate, ( Oxford 1924 ).
- ATIYA, A. S. : The Crusade in the later middle ages, ( London 1938 ).

- BLOCHET, E. : Histoire des mamlouks par Mufazzal Ibn Abil Fazail. Texte Arabe publié et traduit en français. 2 vol., (Paris 1912).
- Cambridge Medieval History, vol. IV, VI.
- CRESWELL : The works of Sultan Baibars Al-Bunduqlari in Egypt. Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, tome 26, fasc. 2.
- COUPLAND, R. : East Africa and its Invaders, (Oxford 1956).
- CZAPLICA, M. : The Turks of central Asia in history and the present day, (Oxford 1918).
- DAVIS, F. J. : Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A. H. 647) by Louis IX of France, (London 1899).
- DAVIS, FOX : A complete guide to Heraldry.
- DEMOMBYNES, G. M. : La Syrie à l'époque des Mamelouks, (Paris 1922).
- DOZY, REINHART : a) Histoire des musulmans d'Espagne. Tr. in English by Francis Griffith, (London 1913).
- b) Supplement aux Dictionnaires Arabe, 2 Vol., (Leiden 1881).
- c) Dictionnaire des noms des vêtements chez les Arabes, (Amsterdam 1842).
- DEVONSHIRE, R. L. : Rambles in Cairo, (Cairo 1931).
- Encyclopedia of Islam.
- FELIX PAREJA, M. : Islamologia, 2 tomos, (Madrid 1952 - 1954).
- GUILLAUME : Legacy of Islam, (Oxford 1931).
- GROUSSET : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem 3 tomes.
- HEYD, W. : Histoire du commerce du Levant au moyen age, 2 Vols. (Leipzig 1889).
- HITTI, P. K. : The History of the Arabs, (London 1934).
- HOWORTH, SIR HENRY : History of the Mangols 4 Vols. (London 1876 - 1880).
- HUICI, MIRANDA : Historia política del Imperio Almohade, 2 tomos (Tetuan 1956).
- HILL, G. : A History of Cyprus, (Cambridge 1948).
- JOINVILLE, JEAN SIR DE : a) Memoirs of John Lord de Joinville by Thomas Johnes, (Oxford 1807).
- b) Memoirs of the Lord of the Joinville by Wedgwood (London 1906).
- c) Histoire de Saint Louis par Natalis de Wailly, (Paris 1847).
- d) Saint Louis King of France by James Hutton, (London 1868).
- e) The History of Saint Louis by Joan Evans, (Oxford 1938).
- KAT, H. CASSELS : Yaman, its early medieval history by Omara, (London 1892).
- King, E. J. : The Knights Hospitallers in the Holy Land (London 1931).
- LYBYER : The Ottoman Empire in the time of Suleiman (Cambridge 1913).

- LANE POOLE S. : a) *History of Egypt in the middle ages*, (London 1925).  
 b) *The Muhammadan Dynasties*, (Paris 1925).  
 c) *Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem*, (New York 1898).  
 d) *The Story of Cairo*, (London 1902).
- LE STRANGE G. : *Palestine under the Moslems*, (London 1890).
- LÉVI, PROVENÇAL : a) *L'Espagne Musulmane aux Xème Siècle*, (Paris 1932).  
 b) *Histoire de l'Espagne Musulmane 3 Vols.* (Paris 1950).
- MACHEAUT : *La prise de l'Alexandrie*, (Genève 1877).
- MADELENA LUZ POMES : *Los aragoneses en la conquista y Saqueos de Alejandria por Pedro I de Chipre. Estudio de la edad medio de la Corna de Aragon tomo V.*
- MAKHARAS : *Recital Concerning the sweet land of Cyprus*, (Oxford 1932).
- MUIR, SIR WILLIAMS : a) *The mameluk or slave dynasty of Egypt*, (London 1896).  
 b) *The Caliphate, its rise, decline and fall*, (Edinburgh 1924).
- MORELAND W. H. : *The Ships of the Arabian Sea about A. O. 1500*, (J. R. A. S., January 1939).
- OMAN, SIR CHARLES : *A history of the art of war in the middle ages*, (London 1924).
- PILOTI : *L'Egypte au commencement du Quinzième Siècle*, (Le Caire 1950).
- PAUL KAHLE : *Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria. Melanges maspero*, t. LXVII, III, *Orient Islamique*, (Le Caire 1940).  
 ( ترجمه إلى العربية درويش النخعي وأحمد قدرى في مجلة كلية الآداب بالإسكندرية )
- POLIAK A. N. : — *Le Caractère Colonial de l'Etat mamelouk dans ses rapports avec la Horde D'Or*. (Revue des Etudes Islamiques, Cahier III 1935).  
 — *Les revoltes populaires en Egypte a l'époque de mamelouks et leur cause économiques*. (R. E. I. cahier III 1934).  
 — *Le Dialectes des mamelouks*. (R. E. I. 1935).  
 — *Some notes on the Feudal system of the mamelouks*. (J. R. A. S. 1937 January).
- QUATREMERE E. T. : *Histoire des sultans menelouks de l'Egypte*. 2 Vols (Paris 1845).
- RIBERA JULIAN : *Disertaciones y Opusculos*. 2 Tomos (Madrid 1928).
- RUNCIMAN S. : *A History of the Crusades*. 3 Vols. (Cambridge 1967).  
 ( ترجمه إلى العربية في ثلاثة أجزاء السيد الباز العربي ( بيروت ١٩٦٩ ) )
- REINAUD : *Traité de Commerce entre la republique de Venice et les derniers sultans mamelouks d'Egypte*, (journal asiatique tome 4, Paris 1829).
- SAUVAGET J. : — *Historiens Arabes*, (Paris 1946).  
 — *Introduction a l'Histoire de l'Orient musulman*, (Paris 1934).
- SAUVATRE E. : *Description de Damas*, *Journal Asiatique*, t. IV, 1894).

SCHLIMBERGER G. : — Prise de Saint Jean d'Acre en l'an 1291, par l'armée de Sultân d'Egypte, (Paris 1914).

— Renauld de Chatillon prince d'Outre Jourdin, (Paris 1923).

SETTON : A History of the Crusades. (Pensylvania 1958).

STEVENSON W. B. : The Crusaders in the East, (Cambridge 1909).

TRIMMINGHAM J. S. : Islam in the Sudan, (Oxford 1949).

WEHABA E. F. : The Agriculture of Egypt during the arab period. (Thesis of M. A. unpublished, University of London 1952).

WIET GASTON : Histoire de la nation Egyptienne tome IV (L'Egypte Arabe) (Paris 1926).

— Précis de l'Histoire d'Egypte, (Le Caire 1932).

— Le SULTAN BAIBARS : (Revue du Caire 1939-1940 tome III).

ZAMBAUR E. K. : Manuel de Genéalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam, 2 vols, (Hanover, 1927).

ترجمه في جزأين ذكي حسن وآخرون بمناوات معجم الأنساب والأمراء الحاكمة في التاريخ الاسلامي ( مصر ١٩٥١ )



## فهرس تفصیلي بموضوعات الكتاب





# فهرس تفصيلي بموضوعات الكتاب

صفحة

المقدمة . . . . . ٣

## اقسم الأول

البحرية الاسلامية في مصر والشام من الفتح العربي  
حتى العصر الأيوبي (١٥-٥٦٧هـ)

### الباب الأول

البحرية الاسلامية في مصر والشام  
منذ نشأتها حتى العصر الفاطمي

### الفصل الأول

البحرية العربية الاسلامية في دور الانشاء

- (١) نشأة البحرية الإسلامية . . . . . ١٣  
فتوح الشام ومصر والتحول في الاستراتيجية الدفاعية للعرب  
— مرحلة الدفاع البحري — المرحلة الدفاعية الهجومية
- (٢) عوامل قيام البحرية الإسلامية . . . . . ٢١  
١ — سعي المسلمين إلى الاستيلاء على القسطنطينية . . . . . ٢١  
٢ — توافر المواد الخام والأيدي العاملة الماهرة . . . . . ٢٤  
٣ — ارتباط مصر والشام وتضامنها في العمليات الحربية ضد  
البيزنطيين . . . . . ٢٦

(٣) الوقائع البحرية الهامة بين العرب والبيزنطيين حتى نهاية العصر الأموي . . . . .	٢٨
موقعة ذات الصواري ( سنة ٥٣٤ هـ ) . . . . .	٢٨
حصار المسلمين الأول للقسطنطينية ( ٥٤ - ٥٦٠ هـ ) . . . . .	٣١
حصار المسلمين الثاني للقسطنطينية ( ٩٨ - ٩٩٩ هـ ) . . . . .	٣٤

## الفصل الثاني

### القلوى البحرية في مصر والشام في ظل العباسيين والطورانيين

(١) أثر استيلاء المسلمين على إقريطش في استعادتهم للسيادة البحرية في شرق البحر المتوسط . . . . .	٣٧
اهتمامات كل من الخليفة الرشيد والخليفة المتوكل على الله بالشؤون البحرية . . . . .	٣٨
إقريطش أم قاعدة بحرية للمسلمين في البحر المتوسط الشرقي . . . . .	٤٠
الظروف التي أدت إلى استيلاء الأندلسيين على إقريطش . . . . .	٤١
محاولات بيزنطة استرداد إقريطش . . . . .	٤٢
أثر تضامن غزاة إقريطش مع غزاة ثغر طرسوس في السيطرة البحرية الإسلامية . . . . .	٤٣
(٢) أهم القواعد البحرية في مصر والشام والثغور الشامية في العصر العباسي . . . . .	٤٤
١ - الاسكندرية . . . . .	٤٤
٢ - دمياط . . . . .	٤٦
٣ - عسكا . . . . .	٤٩
٤ - صيدا وصور . . . . .	٥٠
٥ - طرسوس . . . . .	٥١

شخصيات بحرية إسلامية : ليو الطرابلسي وعبدالله بن وزير .	٥٥
(٣) البحرية في مصر والشام في العصرين الطولوني والإخشيدي . .	٥٧
مظاهر اهتمام أحمد بن طولون بإنشاء المراكب الحربية . . .	٥٧
نشاط البحرية الإخشيدية في الداخل والخارج . . . .	٥٩

## الباب الثاني

### البحرية في مصر والشام في العصر الفاطمي

#### الفصل الأول

##### البحرية الفاطمية في المغرب

(١) تفوق الفاطميين البحري في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط . . . . .	٦٣
اعتماد الدولة الفاطمية على الاساطيل في تمكين نفوذهم في بلاد المغرب . . . . .	٦٣
التنافس البحري بين الفاطميين والأمويين في الأندلس . . . . .	٦٤
الأسطول في خدمة الدولة الفاطمية في الداخل والخارج . . . . .	٦٥
(٢) عوامل تفوق القوى البحرية الفاطمية في غرب البحر المتوسط . . . . .	٦٧
١ - تأصل فكرة الجهاد عند الفاطميين . . . . .	٦٧
٢ - سياسة التوسع الإقليمي . . . . .	٧٠
٣ - قيام دور الصناعة في المهدية وسوسة ومرسى الحزر . . . . .	٧١
٤ - تعدد المراسي والقواعد البحرية في المغرب . . . . .	٧٤
٥ - سيطرة الفاطميين على الجزر الواقعة تجاه السواحل التونسية . . . . .	٧٦
٦ - دربة أهل إفريقية على ركوب البحر . . . . .	٧٧

## الفصل الثاني

### البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر القوة (من المعز لدين الله إلى المستنصر بالله)

صفحة	
٧٩	(١) السيادة الفاطمية على حوض البحر المتوسط كله . . . . .
٨٠	١ - في شرق البحر المتوسط . . . . .
٨١	٢ - في غرب البحر المتوسط . . . . .
٨٤	(٢) مظاهر عناية الفاطميين في مصر بالأساطيل . . . . .
	زيادة الاهتمام الفاطمي بالأساطيل لمواجهة خطر القرامطة والخطر
	البيزنطي . . . . .
٨٥	( أ ) إنشاء ديوان الجهاد أو المأثر . . . . .
٨٦	( ب ) إنشاء دار صناعة الخشب . . . . .
٨٨	( ج ) توفير الأخشاب اللازمة لصناعة السفن . . . . .
٩٣	(٣) نشاط الأسطول الفاطمي . . . . .
٩٥	( أ ) الأسطول الفاطمي في خدمة جيوش الفاطميين
	في الشام ضد القرامطة . . . . .
٩٥	( ب ) اشتراك الأسطول الفاطمي في إخضاع الثورات
	في مصر والشام . . . . .
٩٧	( ج ) المعارك البحرية ضد البيزنطيين . . . . .
٩٩	( د ) دور أساطيل طرابلس وصيدا في العصر الفاطمي . . . . .
١٠١	

## الفصل الثالث

### البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر الضعف (من المستنصر بالله إلى نهاية الدولة الفاطمية)

١٠٣	(١) تقلص النفوذ الفاطمي في بلاد الشام منذ عصر المستنصر بالله . . . . .
١٠٣	( أ ) خروج الفاطميين عن معظم قواعدهم البحرية في الشام . . . . .
١٠٦	( ب ) عسقلان آخر قاعدة بحرية للفاطميين في الشام . . . . .

- (٢) جهود الأسطول الفاطمي في مصر في استنقاذ الثغور الشامية
- من الغزو الصليبي . . . . . ١٠٩
- ( أ ) غارة الأسطول المصري على يافا في سنة ٤٩٧ هـ . . . ١٠٩
- ( ب ) الأسطول المصري يزود طرابلس بالأقوات والميرة . . . ١١٠
- ( ج ) الأسطول المصري يدافع عن صيدا في سنة ٥٠١ هـ . . . ١١٢
- ( د ) الأسطول المصري يصل إلى طرابلس متأخراً بعد سقوطها في سنة ٥٠٢ هـ . . . . . ١١٢
- ( هـ ) اشتراك الأسطول المصري في الدفاع عن بيروت وصيدا قبيل سقوطها في سنتي ٥٠٣ ، ٥٠٤ هـ . . . . . ١١٥
- ( و ) الأسطول المصري يساعد صور على الصمود أمام القوى الصليبية حتى سنة ٥١٨ هـ . . . . . ١١٦
- (٣) جهاد الأسطول المصري ضد الصليبيين حتى نهاية الدولة الفاطمية . ١٢٠
- ( أ ) في عصر الأمر بأحكام الله ( ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ ) . . . ١٢٠
- ( ب ) في عهد الظاهر بأمر الله ( ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ ) . . . ١٢٢
- ( ج ) في عصر الفائز بنصر الله ( ٥٤٩ - ٥٥٤ هـ ) . . . ١٢٤

#### الفصل الرابع

#### التنظييات البحرية في العصر الفاطمي

- (١) موظفو ديوان العماير ومراتب البحريين . . . . . ١٢٨
- رئيس العمايريات والنواقي - نائباً مقدم الأسطول - النقباء - . ١٢٩
- البحريون أو الأسطولية ( المجنفون - ثائثو القلوع - قاذفو اللهب أو زراقي النار - رماة الجمانيق ورماة السهام - الكلابيون أو الكالون بالكلاليب - الراجون بالرجام - السالبون بالساليب ) . . . ١٣١
- (٢) قطع الأسطول الفاطمي الحربي والمدني . . . . . ١٣١
- ( أ ) السفن الحربية . . . . . ١٣٢
- ١ - الشواني . . . . . ١٣٢

صفحة

٢ - الحراريق . . . . .	١٣٤
٣ - الحرابي أو الحريبات . . . . .	١٣٤
٤ - الطرائد . . . . .	١٣٥
٥ - الشلنديات . . . . .	١٣٥
٦ - المسطحات . . . . .	١٣٦
٧ - البطس . . . . .	١٣٦
٨ - النبطاني والعجزي . . . . .	١٣٦
( ب ) السفن التجارية . . . . .	١٣٧
الشواني - المراكب السفرية . . . . .	١٣٧
السفن النيلية ( المشاريات - الملايات - الحمام -	
السنابك - قوارب الخدمة - الطيارة ) . . . . .	١٣٨
( ج ) سفن البحر الأحمر . . . . .	١٣٩
( الجلاب أو الجلبات ) . . . . .	١٣٩
( ٣ ) الأسلحة وآلات القتال البحري والأزواد . . . . .	١٤٠
( اللتوت والدبابيس والمستوفيات - السيوف والرماح والفؤوس -	
الأقواس والنشاب - الكلايب والباسليقات - التوابيت -	
النفط البحري - الجمانيق والعرادات - الزرديات والكز اغندات	
والجواشن - التراس والطوارق والجنويات ) . . . . .	١٤٣
الأزواد . . . . .	١٤٣
( ٤ ) مظاهر الاحتفال بخروج الأسطول المصري للغزو . . . . .	١٤٤
( أ ) الاحتفال بتوزيع النفقة على الغزاة . . . . .	١٤٤
( ب ) الموادة . . . . .	١٤٥
( ٥ ) اشتراك العشاريات في رسم الإحتفال بتخليق عمود المقياس	
وفتح الخليج . . . . .	١٤٨
( الاحتفال بوفاء النيل - قياس ارتفاع الماء عند المقياس	
والإعلان بالوفاء - مظاهر الاحتفال الرسمي )	

## الفصل الخامس

### البحرية التجارية في العصر الفاطمي

صفحة	
١٥٣	(١) طرق التجارة البحرية . . . . .
١٥٣	( أ ) الطريق البحري . . . . .
١٥٩	( ب ) الطريق النهري . . . . .
١٦٢	(٢) مراكز التجارة الداخلية في مصر والشام . . . . .
١٦٢	الفسطاط . . . . .
١٦٤	الاسكندرية . . . . .
١٦٥	تنيس — قوص — دمياط . . . . .
١٦٦	القنازم . . . . .
١٦٧	طرابلس . . . . .
١٦٩	صور وصيدا ويبروت . . . . .
١٧٠	المدن الداخلية في الشام (بعلبك — دمشق — حلب) . . . . .
١٧٣	(٣) التجارة البحرية الخارجية . . . . .
١٧٣	( أ ) مع المدن الإيطالية والدولة البيزنطية . . . . .
١٧٦	( ب ) مع الأقطار الاسلامية . . . . .
١٧٦	١ — المغرب الاسلامي . . . . .
١٧٨	٢ — المشرق الإسلامي . . . . .
١٨٠	( ج ) مع الصين وبلاد ما وراء النهر . . . . .
١٨٥	مراجع القسم الأول . . . . .

## اِقسِم الثاني

البحرية الاسلامية في مصر والشام في عصري الأيوبيين والمماليك  
( ٥٦٤ - ٩٢٢ = ١١٦٩ - ١٥١٧ م )

صفحة

تمهيد : البحار الثلاثة التي تطل عليها دولة مصر والشام وهي :  
بحر النيل والبحر الأحمر والبحر المتوسط . . . ٢٠١

### الباب الاول

البحرية النيلية في عصري الأيوبيين والمماليك

- ١ - ارتباط الحياة المصرية بالنيل . . . . . ٢٠٧
- ٢ - مواطن حراج خشب السفن في وادي النيل . . . . . ٢٠٨
- ( أ ) في جنوب الدلتا . . . . . ٢٠٩
- ( ب ) في الصعيد . . . . . ٢١٠
- ( ج ) في سيناء . . . . . ٢١١
- ٣ - اختفاء حراج السنط تدريجياً . . . . . ٢١١
- ٤ - الاعتماد على مصادر خشبية أخرى : اشجار اللبخ والجميز والنبق والتوت والخشب النبطاني والمعجزي . . . . . ٢١٤
- ٥ - الأخشاب المستوردة . . . . . ٢١٥
- ٦ - دور الصناعة المطلة على النيل . . . . . ٢١٦
- ( أ ) دار صناعة الروضة . . . . . ٢١٧
- ( ب ) دار صناعة مصر أو القسطنطينية . . . . . ٢١٩
- ( ج ) دار صناعة القس أو القسطنطينية . . . . . ٢٢٢
- ( د ) دار صناعة بولاق . . . . . ٢٢٣
- ( هـ ) دار صناعة الجزيرة الوسطى أو جزيرة أروى (الزمالك) . . . . . ٢٢٤
- ( و ) دار صناعة قصر ابن العيني . . . . . ٢٢٥



٢٢٧	٧ — الاحتفالات بأعياد النيل
٢٢٨	٨ — النيل مقبرة للغزاة
	( أ ) فشل محاولات عموري الأول في غزو مصر وانزاعه
٢٢٩	في البابين سنة ١١٦٩ م.
	( ب ) فشل محاولة عموري الأول ومانويل الأول كومنين
٢٣٠	في فتح دمياط سنة ١١٧٠ م.
	( ج ) حملة جان دي بريين على فرع دمياط (١٢٢١-١٢١٨ م)
٢٣١	وهزيمته وانسحابه
	( د ) حملة لويس التاسع على فرع دمياط (١٢٤٩-١٢٥٠ م)
٢٣٥	وهزيمته وأسرهم
٢٤٣	٩ — نشاط البحرية النيلية في جنوب وادي النيل
٢٤٧	١٠ — بعض أنواع السفن النيلية

## الباب الثاني

### البحرية الإسلامية في البحر الأحمر

#### في عصري الأيوبيين والمماليك

٢٥٣	١ — امتداد سواحل مصر الشرقية على البحر الأحمر
٢٥٤	٢ — صعوبة الملاحة في البحر الأحمر
٢٥٥	٣ — طبيعة السفن التي تسلك هذا البحر وعادات ملاحها
٢٥٩	٤ — الصراع حول السيطرة على البحر الأحمر وتجارته
٢٥٩	( أ ) في أواخر العصر الفاطمي
٢٦٠	( ب ) في العصر الأيوبي
٢٦٤	( ج ) في عصر المماليك
	( د ) تحول النشاط التجاري إلى طريق رأس الرجاء الصالح
٢٦٦	وتنتائج

## الباب الثالث

### البحرية الإسلامية في البحر المتوسط في عصري الأيوبيين والمماليك

صفحة	
٢٧١	أولاً : في العصر الايوبي (٥٦٤-٨٦٤هـ = ١١٦٩-١٢٥٠م) .
٢٧٢	١ - مظاهر اهتمام الأيوبيين بالبحرية . . . . .
٢٧٢	( أ ) انشاء ديارب الاسطول . . . . .
٢٧٣	( ب ) وقف الأموال الوفيرة للإنفاق على هذا الدوان . . . . .
٢٧٣	( ج ) احتكار حراج خشب السفن . . . . .
	( د ) انشاء المتجر السلطاني بالإسكندرية لتوفير المواد الخام
٢٧٣	المستوردة . . . . .
	( هـ ) منع الأهالي والتجار من التعامل مع البلاد المسيحية
٢٧٣	في المواد الحربية . . . . .
	( و ) تدعيم وسائل الدفاع الساحلي بإنشاء المناور والرباطات
٢٧٤	والمحارس . . . . .
٢٧٥	( ز ) الاهتمام بتحصين الثغور المصرية والشامية . . . . .
	( ح ) رفع أجور رجال الاسطول والاستكثار من الملاحين
٢٧٦	المغاربية . . . . .
٢٧٧	( ط ) بث روح الجهاد والحرب في نفوس المسلمين . . . . .
٢٧٧	٢ - المارك الحربية التي خاضها الاسطول الايوبي في البحر المتوسط .
	٣ - تعاون البحرية المصرية والشامية على استرداد مدن الساحل
٢٨٠	ببلاد الشام . . . . .
٢٨٢	٤ - الحملة الصليبية الثالثة وحصار عكا سنة ٥٨٥ هـ ( ١١٨٩ م ) .
٢٨٤	٥ - دور البحرية المصرية والشامية في امداد عكا بالأقوات والمؤن .
	٦ - بيروت قاعدة الاسطول الشامي شمالاً ، وحيفا قاعدة الاسطول
٢٨٤	المصري جنوباً . . . . .
٢٨٦	٧ - بطولات إسلامية في المارك البحرية حول عكا . . . . .

- ٨ - ايمان صلاح الدين بالجهاد البحري ورغبته في الاستشهاد فيه . ٢٩١
- ٩ - وفاة صلاح الدين واستيلاء ملك قبرص الصليبي على بيروت . ٢٩٢
- سنة ٥٩٢هـ ( ١١٩٧ م ) . . . . .
- ثانياً : في العصر المملوكي ( ٦٤٨ - ٩٢٢هـ = ١٢٥٠ - ١٥١٧ م )
- ١ - اهتمام المماليك بالاساطيل البحرية لمواجهة الخطر الصليبي . ٢٩٥
- ٢ - استرداد الثغور الشامية من أيدي الصليبيين :  
( أ ) السلطان الظاهر بيبرس ( ٦٥٨ - ٦٨٦هـ = ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م ) يسترد قيسارية ، وأرسوف ، وصفد ، وإفا ، وانطاكية ، ويهاجم طرابلس ، ويحاول غزو جزيرة قبرص ويهادن ملكة بيروت ازابيلا . ٢٩٦
- ( ب ) السلطان المنصور قلاوون ( ٦٧٨ - ٦٨٩هـ = ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م ) يسترد قلعة المرقب واللانقية وطرابلس وبعض الجزر المجاورة . ٣٠٦
- ( ج ) السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ( ٦٨٩ - ٦٩٣هـ = ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م ) يسترد عكا وصور وصيدا وبيروت وانطربوس . ٣٠٧
- ( د ) السلطان الناصر محمد بن قلاوون يسترد جزيرة أرواد . ٣٠٨
- سنة ٧٠٢هـ ( ١٣٠٢ م ) . . . . .
- ٣ - اهتمام سلاطين المماليك بوسائل الدفاع البحري عن سواحل مصر والشام . ٣٠٨
- ٤ - جزيرة قبرص وخطورتها على دولة المماليك . ٣٠٩
- ( أ ) قبرص قاعدة عسكرية وتجارية للحركة الصليبية . ٣٠٩
- ( ب ) انتشار الجواسيس القبارصة في بلاد مصر والشام . ٣١٠
- ( ج ) تعاون قبرص ورودم في الاهداف الصليبية . ٣١٠
- ( د ) حملة ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان على الاسكندرية . ٣١٢
- ٥٧٦٧هـ ( ١٣٦٥ م ) . . . . .

(هـ) صدى هذه الغارة في العالم الاسلامي :

- ٣١٦ . . . . . في الأندلس
- ٣١٨ . . . . . في العراق وفارس
- ٣١٩ . . . . . في مصر والشام
- ٥ - العناية بمدينة الاسكندرية :
- ٣٢١ . . . . . (أ) نحو آثار العدوان فيها
- (ب) تزويدها بكل ما يضر العدو من أسلحة جديدة مثل  
قدور الثعابين والحيات ، والقدور الكفيات الملوثة
- ٣٢٣ . . . . . بلخير كالثعالب اليدوية الآن
- ٣٢٥ . . . . . (ج) سحر المطارق أو احتداد حول أسوارها
- ٣٢٦ . . . . . (د) رد أساري الاسكندرية
- ٦ - فشل الهجوم الذي شنه بطرس لوزنيان على سواحل الشام
- ٣٢٧ . . . . . (١٣٦٧ م)
- ٧ - نجاح الرئيس ابراهيم التازي في غاراته على جزر العدو ،  
وفي صد غارة جديدة للقبازصة على مدينة الاسكندرية
- ٣٢٨ . . . . . (١٣٦٩ م)
- ٨ - غزو المماليك لجزيرة قبرص في عهد السلطان برسباي
- ٣٢٩ . . . . . (٨٢٧-٨٢٩ م = ١٤٢٤-١٤٢٦ م)
- ٩ - حملات المماليك على جزيرة رودس في عهد السلطان جقمق
- ٣٣٦ . . . . . (٨٤٣-٨٤٧ م = ١٤٤٠-١٤٤٤ م)
- ١٠ - ضعف دولة المماليك وأسبابه
- ٣٣٩ . . . . .
- ١١ - انهيارها امام قوى البرتغاليين والأتراك العثمانيين
- ٣٤٠ . . . . .
- مراجع القسم الثاني
- ٣٤٣ . . . . .



and West of the Mediterranean, a matter which had historical repercussions.

\*\*\*

This research work is divided into two sections: the first, concerns the history of Islamic sea power in Egypt and Syria until the fall of the Fatimid dynasty, by Elsayed Abdel Aziz Salem, and the second deals with the same topic during the Ayyubids and Mamelouks by Ahmad Mokhtar el-Abbady.

will deal with the Islamic sea power in the Arabian Gulf and the Indian Ocean.

Moslem sea power has been connected, willy-nilly, with the Islamic conquest of eastern and southern coasts of the Mediterranean. It was inevitable that a bitter struggle should take place between Islamic and Byzantine forces. For some time the Arabs had to adopt a defensive policy in the face of the Byzantine superior sea power until they could build up their own navy. Meanwhile, they resorted to the establishment of coastal fortifications and castles (Rawābit or Maḥāris) as deterrents. Mo'awiya ibn Abī Sufyān, viceroy of Syria during the califate of both 'Omar b. al-Khaṭṭāb and Othmān, was aware of the importance of defending the coasts; and so he encouraged the inhabitants to settle down along the coasts and sail the seas.

There followed another stage of Islamic sea power which depended on defensive and offensive strategy. Thus he had to build up navies and make use of the inhabitants of Syria (al-Shām) and Egypt who had experience in navigation such as the Copts in Egypt and sailors of Tyre and Sidon. In addition, he had to make use of Yemenite sea-faring experience in pre-Islamic history.

Events moved to a head when he looked for other sources of wood for ship building besides Egyptian acacia wood and Lebanese cedars. So he turned towards the Anatolian coasts. This led to the naval decisive battle of "Thāt al-Ṣawārī" in 34 H. between Byzantine naval forces and the Islamic fleet. This sea battle established the supremacy of the Islamic sea power in the Mediterranean and encouraged them to look for more sea conquests in the East

## AN ABSTRACT OF MOSLEM SEA-POWER IN EGYPT AND SYRIA

Modern academic researches have proved the important rôle played by sea power in the political, economic and scientific fields. That is why researches have given this branch of study a prominent place in historical works. In this connection we should refer to the significance of the Islamic sea power and its intimate relationship with Islamic history in particular and world history in general. Yet it is worth notice that most of the researches were confined to the treatment of Islamic sea power in certain periods of Islamic history, or dealt with certain aspects in general terms. Consequently, these researches lack the comprehensive and integrated outlook towards the naval Islamic power in the Middle ages.

To embark upon such a task is rather difficult ; first because of the wide area encompassed by the Moslem world, and secondly due to the continuity of Islamic history from its emergence till the present day. Henceforth such a task requires joint efforts on the part of researchers. This was accomplished, fortunately, in our first book entitled : "History of Moslem Sea Power in the Occident". The favourable reception of this book was an incentive to write the second book about Moslem sea power in Egypt and Syria. To complete this comprehensive study, there remains the third book which





BEIRUT ARAB UNIVERSITY

MOSLEM SEA POWER  
IN EGYPT AND SYRIA

BY

Dr. A. MOKHTAR EL ABBADY  
PROFESSOR OF ISLAMIC HISTORY  
ALEXANDRIA UNIVERSITY  
AND BEIRUT ARAB UNIVERSITY

Dr. ELSAYED ABDEL AZIZ SALEM  
PROFESSOR OF ISLAMIC HISTORY  
ALEXANDRIA UNIVERSITY  
AND BEIRUT ARAB UNIVERSITY

1972





BEIRUT ARAB UNIVERSITY

# MOSLEM SEA POWER IN EGYPT AND SYRIA

BY

Dr. A. MOKHTAR EL ABBADY  
PROFESSOR OF ISLAMIC HISTORY  
ALEXANDRIA UNIVERSITY  
AND BEIRUT ARAB UNIVERSITY

Dr. ELSAYED ABDEL AZIZ SALEM  
PROFESSOR OF ISLAMIC HISTORY  
ALEXANDRIA UNIVERSITY  
AND BEIRUT ARAB UNIVERSITY



1972